

۱۶۷۱

الامكتور سيد عوليس



عدد ١٦٧١

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون . ٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL

العدد ٤١٧ - ذو الحجة ١٤٠٥ - سبتمبر ١٩٨٥

NO . 417 SEPTEMBER 1985

الاشتراكات

١ / قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية سبعة جنيهات و ٢٠٠ مليم بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالاة بريدية غير حكومية . وفى الخارج ابشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب اهـ لاء

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنان : بهجت عثمان

التاريخ النزي أعماله على ظهري

(دراسة حالة)



بقلم
الدكتور سيد عوليس



دار الهلال

مقدمة

لم يكن يدور بخلدى عندما قمت وأنا طالب بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فى خريف عام ١٩٢٨ ببحث أول حالة لحدث من الاحداث المتهمين فى احدى الجرائم أمام محكمة الأحداث فى القاهرة - لم يكن يدور بخلدى أبدا وأنا أقوم بدراسة « حالة » هذا الحدث ان يأتى اليوم وأقوم بدراسة « حالتي » كان ذلك الحدث أحد أبناء قسم الخليفة الذى ولدت فيه وعشت بين جنباته حتى بلغت سن السابعة والعشرين من عمري . وكان قسم الخليفة فى ذلك الحين المكان الوحيد الذى أعرف كل شوارعه وحاراته وأزقته ، بل كل شبر فيه . فقد كان المكان الذى مارست فيه تجاربي ، الحلوة منها والمرة على السواء ، طوال هذه الفترة من حياتي .

واننى اذكر أن الحالات التى كان على طلاب مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ان يقوموا بدراستها كانت موجودة فى ملفات وكان كل ملف يحمل اسما لحدث ، وعنوانا لمحل اقامة أسرة هذا الحدث . وكنا ، الطلاب وأنا ، نذهب الى «ملجأ السيوفية» لنختار أسماء الاحداث وعناوينهم الذين نكلف ببحث حالاتهم . وقد اخترت أسماء الأحداث الذين يقيمون فى دائرة قسم الخليفة تيسيرا لى وللآخرين الذين لا يعرفون عن قسم الخليفة شيئا . وأننى اذكر ايضا أنني عندما أخذت الأسماء والعناوين كنت على ثقة من اننى سأقوم بواجب بحث حالات الأحداث على الوجه الاكمل . فقد درست على المستوى النظرى مبادئ "طريقة خدمة الفرد" التى تتضمن ضمن ماتتضمن تقبل العميل (أى الحدث) والبدء معه

حيث يكون واحترامه وإتاحة الفرصة له لى يقرر مصيره أو أن يبدى تصورده على الأقل عن هذا المصير ثم الاحتفاظ بسرية البيانات التى تجمع عن العميل . وكنت على وعى بأن تطبيق هذه المبادئ تختلف دقته باختلاف الأشخاص الباحثين . أى باختلاف مدى تدريبهم ومستوى خبراتهم الموضوعية .

وذهبت حاملا هذه المبادئ وهذا الوعى الى عنوان أول حدث أقوم بدراسة حالته فى حياتى . وكان العنوان فى جهة ما من "الخارطة الجديدة" حيث يقع مقام "سيدى التونسى" . وأذكر أننى ذهبت فى أحد الأيام حيث أجد هذا العنوان فى الساعة العاشرة صباحا ، وعدت الى منزلى فى الساعة الثالثة بعد الظهر . وكان يوما مشهودا فقد مكثت أبحث عن العنوان ساعات وساعات ، ولم أشأ أن أعود وأنا ابن قسم الخليفة بخفى حنين . وأننى أذكر أيضا أننى ذهبت من شارع الى حارة الى زقاق ولم أجد للعنوان أثرا . ولكن لم يفت ذلك فى عضدى . كنت أواجه التحدى الأول فى العمل التطبقى فى ميدان مهنة الخدمة الاجتماعية أو بالأحرى فى مجال تطبيق طريقة خدمة الفرد . ولم أتوان فى السير على الأقدام فى كل مكان فى الخارطة الجديدة ، ولم أتوان فى سؤال كل شخص فى المكان . وعندما عثرت على المكان حيث تقيم أسرة الحدث وجدته "حوش قرافة" . وكانت مفاجأة . أسرة بأعضائها وأثاثها تعيش مع الأموات ! لم يكن يدور بخلدى أن ذلك يحدث فى ذلك الحين . كنت فى ضوء خبراتى أعلم أن تعيش أم أرمل فى حوش قرافة "ابنها الوحيد" الذى مات وهو فى عنفوان شبابه . تعيش معه تؤنس وحدته أو تؤنس وحدتها تاركة الدنيا من وراء ظهرها وتعيش على أمل واحد هو أن تموت وتدفن معه فى يوم من الأيام . ولكن أن تعيش أسرة "زوج وزوجة وأطفال" فى حوش قرافة تتخذ مسكنا لها فى حريف عام ١٩٢٨ لم يكن فى الحسبان . وبقدر ما فوجئت فأننى فجعت . فهأنذا أواجه الحياة التى يعيشها بعض أبناء وطنى وجها لوجه . وعلى قدر ما كان فى جعبة خبراتى من

حالات فقر مدقع واجهتها من قبل فاننى لم أجد مستوى من الفقر أقل مما وجدت عندما كنت أقوم بدراسة حالة أول حدث جانح متهم فى احدى الجرائم أمام محكمة الاحداث بالقاهرة . كان الاثاث وكأنه "شبح" آثاث . لم أتبين من محتوياته الا الحصير الذى ينام عليه أعضاء الأسرة . وكانت الوجوه الأدمية هى أيضا أشباح وجوه . ووجوه الاطفال لاتبين ملامحها فالقذارة تملأ كل محتوياتها ، والذباب يغطى فتحاتها . وكانت سذاجتى تدعونى الى طرد الذباب من على الوجه ببدي ، وكررت ذلك مرارا ولكنه كان يعود ! وتركت محل إقامة اسرة الحدث الذى قمت بدراسة حالته بعد ان اديت واجبى والغصة تعتصر قلبى وتملك على حواسى . واننى اذكر أن المرارة فى فمى لم تبرحه الا بعد أيام . وكانت تجربة ويالها من تجربة . وعندما ذهبت لكى اعيشها ، وعندما كررت التجربة بعد ذلك مرات ومرات ، لم يكن يدور بخلدى أن أجربها على نفسى . إن تجربتى مع الآخرين أحداثا كانوا أو شبانا أو بالغين ، أسوياء كانوا أو غير أسوياء ، الذين كنت أقوم بدراسة حالاتهم أمر قد تعودت عليه ، ولكن أن أقوم بهذه التجربة مع ذاتى فهو الأمر الجديد . وإذا كانت التجارب مع الآخرين بتكرار ممارستها أصبحت ميسرة فان تجربة دراسة حالتي التى لن تتكرر ممارستها هى الأمر الصعب .

ومع كل ذلك فهانذا أواجه القارئ بتجربة دراسة حالتي وأرجو المعذرة . ذلك أن ظروف الدراسة الحالية تقتضى القيام بهذه التجربة . وسأكون صادقا مع نفسى ومع القارئ . ولعل هذا الصديق فى ضوء العلم أن يكون سفينة نجاتى لتخرج هذه الدراسة موضوعية بقدر الامكان ، أرى نفسى فيها كما يرانى القراء فيها كما انا لا كما أود أن أكون .

وإن أقول "لتخرج هذه الدراسة موضوعية بقدر الامكان" فاننى اعنى ما أقول . فأنا بشر قد تخوننى ذاكرتى أحيانا ، وقد أقول أشياء وأسكت عن أشياء أخرى . ولكن كل ماسأقول سيكون

الصدق والصدق وحده . أى أننى قد أخطئ. ولكننى لن أتعمد الخطأ أبدا . ومن المؤكد ان الأشياء التى سأسبكت عن ذكرها هى مجرد تفاصيل قد مررت بها . والسكوت عنها لن يقلب الدنيا ولن يقعدها ، بل على العكس قد يوفر مساحة لكتابة ماهو أجدى وأنفع .

والملاحظ ان ذات الانسان منا لها وجوه عديدة . فصورتى على ذاتى غير صورة من حولى من الناس عنها ، وهى غير الصورة التى أعتقد أنها الصورة التى يراها عنها من حولى من الناس . وهى أيضا غير صورتى الحقيقية . وأننى فى الدراسة الحالية لأقدم للقراء نفسى . فمن أنا ؟ ولكنى أقدم دراسة حالة عن هذه النفس فى ضوء خبراتى المنتظمة وغير المنتظمة ، وهى بالضرورة خبرات متواضعة . وعندما أقول "فمن أنا ؟" فأننى لاتواضع ولكنى أقول الحقيقة . ومهما يكن من الأمر فان الاجابة عن هذا السؤال هو كل ماأرجو أن يخرج القارئ به من هذه الدراسة .

ولأذيع سرا اذ أقول إن الدراسة الحالية وان كانت من بنات أفكارى ، فأننى إذ أقوم بها أقوم بها بعد إلحاح العديدين من الزميلات والزملاء الذين أكن لهم الاحترام والتبجيل . لقد رأى هؤلاء أنه قد أن الاوان لاكتب "سيرة ذاتية" عن حياتى التى مارستها . ولم أدر حتى الآن عن العوامل التى دفعتهم الى هذا الطلب شيئا . ويبدو أنهم رأوا بعض الملامح التى جعلتهم يلحون على فى القيام بهذا العمل الصعب . ولم تكن هذه الملامح بالضرورة - ملامح وجهى ! ولعلها ان تكون ملامح قد برزت فى كتاباتى عن المجتمع المصرى المعاصر . هذا المجتمع الذى شغفت بمحاولة دراسته شغفا كبيرا . ولعل مصدر هذا الشغف أن يكون قيامى بدراسة أول حدث جانح السابق الاشارة إليها . فانا أذكر أننى عندما اتتمت هذه الدراسة بعد أن قابلت أسرة الحدث التى كانت تسكن حوش قرافة وتعيش حياة الأشباح بين الاموات - أذكر أننى عندما خرجت من الحوش الذى تعيش فيه إلى شوارع الخارطة الجديدة ومنها الى شوارع الامامين (الامام الشافعى

والامام الليثى) الى الشوارع التى تؤدى الى بيتى مرورا بحى السيدة عائشة وبعض الحوارى والأزقة ، كنت شخصا آخر . أحسست أن عيني قد استبدلت بهما عينان أخريان . واحسست بأننى لاأرى أشياء أو أناسا وانما أرى ظواهر ومواقف وعلاقات اجتماعية . وكان شعورى بالضالة امام ماأرى جارفا . ومنذ ذلك الحين أيقنت بأن المجتمع المصرى هو معمل اجتماعى ضخم أو هو موسوعة اجتماعية لا أول لها ولا آخر . وعلى الرغم من الشعور بالضالة الذى جرفنى فى ذلك الحين فقد ولد فى نفسى الحب الجارف لكى أرصد بعض ظواهر هذا المجتمع أو بعض المواقف الاجتماعية التى بدأت أراها أو بعض العلاقات الاجتماعية التى لم أكن أجدها أمامى على الدوام . ومنذ تلك اللحظة أيقنت أن طموحى لن يقف عند هذا الحد بل سيتجاوزه الى محاولة قراءة بعض سطور من موسوعة المجتمع المصرى والى محاولة تفسير بعض ماقرأ . وقد ظهر بعض مارصدت وقرأت ومحاولاتى فى تفسير بعض ماقرأت فى بعض كتاباتى المنشورة وغير المنشورة . ومن ثم ظهرت الملامح التى تنم عن حياتى التى عشتها وعاشت معى . ومن ثم كان إلحاح العديدين من الزميلات والزملاء ، الذين أكن لهم الاحترام والتبجيل ، على لأكتب "سيرة ذاتية" .

والملاحظ ان الدراسة الحالية ليست "سيرة ذاتية" ولايمكن ان تكون . انها كما سبق أن أوضحت "دراسة حالة" أى دراسة ثقافية اجتماعية عن أحد أعضاء المجتمع المصرى الذى ولد فى أحد الاحياء الشعبية فى مدينة القاهرة ، وعاش فيه حتى بلغ سن السابعة والعشرين ، ثم انتقل الى حى شعبي آخر حتى بلغ سن السابعة والأربعين ، ويعيش الآن فى حى ثالث فى نفس المدينة . وهى دراسة من خلال مسيرة هذا العضو فى الحياة فى داخل جمهورية مصرنا الخالدة وفى خارجها ، متنقلا من موقع عمل الى موقع عمل آخر وهو يؤدى أدوارا اجتماعية متباينة فى نطاق مواقع الأعمال هذه وفى خارجها . أى هى دراسة ثقافية اجتماعية لحالة

العميل (الذى هو أنا) بالمعنى المفهوم فى البحوث الثقافية الاجتماعية . ولعل بصمات المهنة التى اتعاطاها منذ تخرجى فى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فى عام ١٩٤٠ وحتى كتابة هذه السطور ، وهى مهنة البحث العلمى الاجتماعى ، أن يكون لها دخل فى تحديد منهج الدراسة الحالية ، أى "منهج دراسة الحالة" . ومهما يكن من الأمر فالرجاء كل الرجاء أن تعكس الدراسة الحالية الظروف المجتمعية للمجتمع المصرى فى خلال مجالها الزمنى . أو أن تعكس بعض هذه الظروف على الأقل . فعوضو المجتمع منا هو نتاج المجتمع الذى يعيش فيه . وكل مجتمع يستحق المواطنين الصالحين الذين يعيشون بين جنباة ، كما يستحق أيضا المواطنين الطالحين الذين يعيشون بين جنباة . أى انه إذا صلح المجتمع صلح أعضاؤه وانه اذا صلح أعضاء المجتمع صلح المجتمع .

وأهداف الدراسة الحالية فى هذا الضوء أهداف كبيرة حقا . ورجائى ان تكون سهلة المنال . فالعبء الذى أحمله فى سبيل تحقيق هذه الأهداف ثقل ثقل . فهو عبء أمام نفسى أولا وأمام القارىء أولا وأخيرا . وإذا كانت الضرورة قد تحتم على التحدث عن بعض المجتمعات الانسانية غير المجتمع المصرى ، فان المجتمع المصرى هو الاولى بالاهتمام . ولا يخفى على القارىء أن المجتمع المصرى مجتمع فريد من نوعه فهو ليس كالكثير من المجتمعات الانسانية الأخرى . فهو ليس فقط مجتمعا قديما مستمرا بل هو أيضا مجتمع مستقر نسبيا . وفى حدود فترات المجال الزمنى للدراسة الحالية لم تكن بعض ظروف المجتمع المصرى هى نفس ظروف المجتمع المصرى فى كل فترة من فتراتنا . ولم أكن أنا هو نفس الشخص أيضا فى كل فترة من فترات المجال الزمنى للدراسة الحالية . وهذا أمر طبيعى ومتوقع . فالتغير سمة الحياة ، ودوام الحال من المحال . ومع ذلك فقد اخترت منهجى ، وهذا قرارى وحدى ، والرجاء التوفيق .

فالملاحظة آننى ولدت وكان الخديوى عباس الثانى يحكم مصر ، ثم فرضت حماية الغاصب (الانجليز) وحكم مصر السلطان حسين كامل وجاء بعده السلطان أحمد فؤاد الذى أصبح ملكا ثم جاء بعده ابنه فاروق ثم "الطفل" أحمد فؤاد الثانى ، وكانوا كلهم حكاما غرباء ، لم يكونوا مصريين لالحما ولادما ولثقافة . ثم حكم مصر منذ عام ١٩٥٢ الحكام المصريون "رؤساء الجمهورية" محمد نجيب ثم جمال عبد الناصر وجاء بعدهما محمد أنور السادات ، وهانذا وأنا أكتب هذه السطور أصبح الحاكم هو محمد حسنى مبارك . ومنذ ولادتى وحتى الآن واجهت حربين عالميتين وأربع حروب مع اسرائيل (أعوام ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣) ، وعشت ثورتين كبيرتين الاولى وكنت فى السادسة من عمري (ثورة عام ١٩١٩) والثانية وكنت قد بلغت التاسعة والثلاثين من عمري (ثورة عام ١٩٥٢) . وحدثت فى خلال فترات المجال الزمنى للدراسة الحالية من كبار الحوادث مايعجز القلم عن حصرها . بعضها على المستوى المحلى وبعضها على المستوى العالمى . وكل ماحدث على المستوى المحلى او على المستوى العالمى فى خلال فترات المجال الزمنى للدراسة الحالية وحتى ماحدث فى خلال تاريخ المجتمع المضرى القديم قدم الدهر المستمر استمرار الحياة . لم يكن ليغير الكثير من العناصر الثقافية المصرية . وذلك لان الثقافة المصرية لم تتم فى يوم واحد ولا فى قرن واحد . لان تقدمها قد تضمن استمرارا فى جهود متجمعة فى حركة مركزية مدة طويلة ولم يكن هذا ممكنا دون ان يكون هناك قدر كاف من المركزية السياسية والاستقرار . وتحقق هذا الشرط منذ زمر مبكر فى وادى النيل .

ففى ضوء الوقائع التاريخية تم نوع من الوحدة السياسية فى مصر منذ عصور ما قبل التاريخ (حوالى عام ٤٠٠٠ ق . م أو قبل ذلك) ★ . ولم تكن هذه الوحدة السياسية قد شملت جميع أرض

مصر ، بل كانت هناك مملكتان وحدهما الملك "مينا" فى عام ٢٤٠٠ ق.م ثم بدأ عهد الأسرات . ولم تستمر هذه الوحدة الى الأبد بل ظلت أيام الأسرات الست الأولى (أى الدولة القديمة أى من عام ٢٤٠٠ - ٢٤٧٥ ق. م) ، أى حوالى ألف سنة . وهى مدة كافية لتبلور الأفكار والعادات الخلقية . وقد مر على مصر القديمة عصران آخران من الاستقرار هما :

- عصر الأسرتين ١١ - ١٢ (الدولة الوسطى أى من عام ٢١٦٠ - ١٧٨٨ ق.م)

- عصر الأسرات ١٨ - ٢٠ (الدولة الحديثة أى من عام ١٥٨٠ - ١٠٩٠ ق.م)

أى أن هذه العصور (عصور الاستقرار) قد امتدت على التوالى ٩٢٥ و ٢٧٢ و ٤٩٠ عاما . والملاحظ أن عصور الاستقرار كانت طويلة (١٧٨٧ عاما) وخاصة العصر الاساسى الاول . وذلك من حسن حظ مصر . فقد أمكن المصريين توطيد أركان نظمهم وتعميق جذور تقاليدهم .

ومن المعروف تاريخيا أن غزو الفرس لمصر بدأ فى الأسرة السابعة والعشرين عام ٥٢٥ ق.م ، أى أن مصر أصبحت ولاية فارسية وإن كانت قد ظهرت فى فترات متقطعة أسرات وطنية محلية (أسرات ٢٨ - ٣٠) حتى عام ٣٣٢ ق.م حين غزا الاسكندر المقدونى وحكم البطالمة من عام ٣٣٢ - ٣٠ ق.م أى عام غزو الرومان لمصر . واستمرت الهيمنة الرومانية من عام ٣٠ ق.م حتى عام ٦٤٢ ميلادية . أى أن المدنية اليونانية والرومانية قد عاشت فى مصر مايقرب من الألف عام (٣٣٢ ق.م - ٦٤٢ ميلادية) . ومنذ الفتح العربى فى عام ٦٤٢ ميلادية عاشت مصر فى ظل الخلفاء الراشدين ثم فى ظل حكم الأمويين والعباسيين ومرورا بالدولة الطولونية ثم الدولة الأخشيدية والدولة الفاطمية والدولة الايوبية ودولة المماليك البحرية ثم البرجية حتى قتل "طومان باى" آخر سلاطين دولة المماليك البرجية ، وبمقتله دخلت البلاد فى عهد

جديد ، اذ أصبحت مصر تحت السيادة العثمانية فى عام ١٥١٧ ميلادية . وعانت مصر فى خلال هذه الفترة من ضربات الحروب الصليبية والمغول وحكم المماليك فضلا عن الحكم العثمانى الوضع ومصادرات الأتراك وسلبهم ونهبهم ، ثم واجه الشعب المصرى الاستعمار الغربى منذ أواخر القرن الثامن عشر (١٧٩٨ ميلادية) عندما شن "نابليون" حملته ونزلت جيوشه بالاسكندرية فى يوليو عام ١٧٩٨ حتى عام ١٨٠١ ، وعندما واتت الفرصة للانجليز فاحتلوا البلاد فى عام ١٨٨٢ ، فى عهد أسرة "محمد على" (١٨٠٥ - ١٩٥٢) ، وانتهى الحكم الأجنبى واسترد الشعب المصرى حقوق سيادته ولأول مرة منذ عام ٥٢٥ ق.م حتى عام ١٩٥٢ ميلادية ، حيث تعدد حكامه غير المصريين ، وأصبح الحاكم حاكما مصرياً .

★ عبر حضارات القيوم ومرمدة (٥٥٠٠ + ٥٠٠ ق.م)

والملاحظ أن ظاهرة قدم المجتمع المصرى واستمرار ثقافته قد أكدتها بحوث ودراسات الكثير من العلماء والمفكرين ، كما أكدتها البحوث والدراسات التى قمت بإجرائها . فالدين لم يتغير فى هذا المجتمع على طول عمره وما مر به من أحقاب الا مرتين ، ولم تتغير اللغة فيه الا مرتين أيضا ، على حين ان بريطانيا مثلا لم يبعد تاريخها الى أبعد من ألفى سنة تغير الدين فى خلالها مرتين واللغة أربع مرات على الأقل ، واسبانيا يرجع تاريخها الى ألفين وخمسمائة سنة تغير الدين فى خلالها ثمان مرات واللغة ست مرات ، أما جنس المصريين فلم يتغير فى جملته فى خلال عمر المجتمع المصرى الا تغيرات طفيفة فى حين أن بلدا كإيطاليا تعاقبت عليها أجناس كثيرة غيرت عنصر السكان تغييرا هاما أكثر من مرة . ونتيجة ذلك نجد ان طبيعة الحياة فى مصر وجوهرها لم يختلفا كثيرا رغم الاحقاب المتطاولة بل ان العين تقع اليوم على مشاهد كانت موجودة كما هى أيام المصريين القدماء . ولا يمكن ان يعنى ذلك أن مصر لم تأخذ شيئا من الثقافات الأخرى التى مرت

عليها . ولكنها كما أخذت فقد أعطت ، وماأخذته لم يمس الاصيل الذى عندها فى قليل أو كثير بل بقى الاخير مع غيره عبر الازمان جنبا الى جنب . فالدين المسيحى مثلا عندما دخل الى مصر فى عام ٦٤ ميلادية ، لم يجد شعب مصر ارضا بكرا أو صحراء جرداء ، لان مصر كانت تعرف "أوزيريس" واستشهادته ، ثم بعثه ، كما كانت تعرف شقيقته "ايزيس" قبل ان يطرق أذنها صوت البشارة المرقسية عن "الفادى المخلص" وأمه "مريم العذراء" . ولم يجد الدين الاسلامى عندما دخل الى مصر فى عام ٦٤٢ ميلادية فى شعب مصر أيضا ارضا بكرا أو صحراء جرداء . لأن مصر كنت تعرف الوحدةانية العالمية قبل ان يغزو أرضها جيش "عمرو بن العاص" . لهذا لما احتضنت مصر تعاليم هذا الدين تمثلت رموزه وأسرارها الشبيهة أشد الشبه بما كانت تعى من رموز وأسرار . فالتاريخ يذكر أن آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة "أمنحتب الرابع" (حوالى ١٣٧٥ - ١٣٥٠ ق.م) كان "أول الموحدين" ، فقد دعا الى دين وحدانية جديد . وغَيَّر اسمه الى "أخناتون" إشارة الى اعتناقه ذلك الدين . ويعتبر اصلاح "أخناتون" وهو نوع من الاصلاح الدينى قد سبق نظيره الأوربى الذى دعا اليه "مارتن لوثر" بتسعة وعشرين قرنا . ورغم النير الرومانى مثلا تمكنت مصر من غزو غزاتها فى عقر عقولهم ، ومنحت مصر رغم هوانها وضعفها السياسى العالم المتحضر آنذاك نبضه الروحى وعقيدته الدينية فضلا عن طمأنينته النفسية .

ومهما يكن من الأمر فان حديثى عن المجتمع المصرى سيكون حديثا ثقافيا اجتماعيا تاريخيا فى حدود المجال الزمنى للدراسة الحالية الذى يبدأ منذ ولادتى ويستمر حتى الانتهاء من كتابتها . ولن يكون هذا الحديث جامعا شاملا . وسيكون هذا الحديث من وجهة نظرى ، أى فى ضوء تجاربى وخبراتى . أى فى ضوء تجارب وخبرات من يعيش فى رحاب مصر كإنسان عادى يحاول اشباع حاجاته المادية وحاجاته المعنوية بشرف . ولاهم له

الا محاولة فهم الواقع المصرى المعاصر فهما موضوعيا . آى
 محاولة فهم ماهو كائن لاتاحة الفرصة للتغيير الى مايجب ان يكون .
 ولاهم له أيضا الا الاسهام بما عنده من تجارب وخبرات فى تكوين
 اجيال من الشباب المصرى لكى ينمو أعضاؤها ويزدهروا وتتفتح
 ملكاتهم وقدراتهم ، حتى يستطيعوا ان يؤدوا أدوارهم الاجتماعية
 التى يتوقعها منهم المجتمع المصرى فى ظروفه الراهنة ، ومن ثم
 تتحقق أهداف هذا المجتمع فى المستقبل المشرق . وأنا لاملك من
 وسائل الا التجارب والخبرات ، والا أن أكن للناس على تباينهم
 ومكاناتهم الاجتماعية الحب والاحترام . والملاحظ بل والمؤكد أن
 هذه التجارب والخبرات ليست أكاديمية بحتة ، بل هى أكاديمية
 وواقعية جميعا . أننى أقرأ الكتب بأنواعها وأقلب صفحاتها حبا
 وشغفا بالمعرفة ، ولكنى أقرأ أيضا الكتاب الجامع الشامل كتاب
 المجتمع المصرى وأقلب صفحاته حبا وشغفا بالمعرفة أيضا . وأنا
 أقرأ الكتاب الاخير كما سبق أن ذكرت بقصد رصد ظواهره وبعض
 المواقف الاجتماعية التى أراها أو بعض العلاقات الاجتماعية التى
 لم أكن أجدھا أمامى على الدوام ، وذلك بقصد فهم كل ذلك فهما
 موضوعيا ومحاولة تفسير كل ذلك فى ضوء هذا الفهم الموضوعى :
 ان هدفى الاول هو التعرف الصادق على اتجاهات أعضاء المجتمع
 المصرى المعاصر وماوراء هذه الاتجاهات من تراث ثقافى قديم
 ومتجدد . ومن ثم قد أحظى بالتعرف على نبض هذا المجتمع وأنا
 أعيش واقعه على أرض صلبة . فانا أولا وقبل كل شئ باحث علمى
 اجتماعى أقول اذا قلت " أنا أعرف " ولا أقول اذا قلت " أنا أعتقد "
 أو " أنا اشعر " وأنا احترم من يعتقدون ومن يشعرون وحتى من
 يتخلون ، فالعقيدة والمشاعر والخيال كلها ضروب من الانماط
 السلوكية الانسانية . ولكنها عندى تعيش " تحت المجهر " ولاتحلق
 فوقه . إنها كلها موضوعات بحوثى ودراساتى أحاول أن أجد فى
 البحث عنها فى الزقاق وفى الحارة وفى الشارع وفى القرى وفى
 النجوع ، وأتمس طريقى اليها فى المسجد وفى الكنيسة وفى

المحكمة وفى السجن وفى المستشفى وفى عيادة الطبيب وفى
المصنع . فى كل مكان فيه بشر . سواء أكان أعضاؤه من الأسوياء
أم من غير الأسوياء . أنتى مع الناس وبالناس حيث كانوا فى
حياتهم العادية ، وفى افراحهم وفى أتراحهم على السواء . إنهم
مصدر حياتى العلمية فهم مادتى التى ألتمس عن طريقها الحقيقة
التي هى صيدى الثمين وغايتى ومرادى . ولا أقصد بالحقيقة هذه
الحقيقة المطلقة . فالعلم كما يرى انه "لأشياء يأتى من لأشياء"
يرى أيضا انه "لأشياء مطلق" . وإذا كانت ظروف المجتمع
المصرى التاريخية الراهنة لاتعير من يهدفون الى أهدافى اهتماما
أو الاهتمام الكافى ، فقد سبق لأصحاب المهن الأخرى كالحمامة
والصحافة ومن كانوا يتعاطون صناعة الأدب أو كانوا يمارسون
الفنون بأنواعها أن عوملوا فى المجتمع المصرى نفس المعاملة .
كانوا روادا فدفعوا ثمن الريادة . وكان هذا ولا يزال أمرا متوقعا .
وسياتى اليوم الذى فيه يذكر من عاش تحت رمال النسيان وذاق
مرارة العزلة وهو راض رضاء العاشق الولهان . ومن أولى بهذا
العشق غير مصرنا الخالدة ؟ ما حلى العذاب فى سبيل بناء لبنة فى
صرح مجدها الأثيل ورفعة سلطانها وامتلاكها ناصية العلم
والعرفان !

وموضوع الدراسة الحالية هو عن "التاريخ الذى أحمله على
ظهري : دراسة حالة" . وقد حملت هذا التاريخ ومازلت أحمله حتى
كتابة هذه السطور وكان ولا يزال حملا ثقيلا . لقد ترك بصماته
العديدة على كل كيانى . وكان وكأنه "البوتقة" التى تصهر عناصر
حياتى وهى تحت أتون صراعات هذه الحياة العاصفة . ولعل حظى
السعيد أن كان معظم هذه العناصر أشياء كأنها التبر وما هى بالتبر
، ومن ثم كانت الشوائب أقل وكان الثمين أكثر . ومع ذلك فأننى
لست متأكدا من ذلك . فالحكم أولا وأخيرا للقارئ وما يخرج من
قراءته من نتائج لايمكن أن أمليها عليه بل أتركه وحده أن يرى
مايرى . وقد أحسست بدايات عبء هذا التاريخ فى شهر يناير عام

١٩٣٠ عندما اضطرت الى أن اترك المدرسة الثانوية بعد وفاة أبى . وكنت فى ذلك الحين فى السنة الرابعة وأسير فى الدراسة قدما نحو تحقيق بعض الأهداف ، كانت من أحلام أبى ، وهى : الحصول على شهادة البكالوريا ثم الالتحاق بالجامعة ، وبعدها السفر الى أوروبا للحصول على درجة أعلى . ولم تتحقق هذه الأحلام مع الأسف الشديد قبل وفاة أبى . ولم تكن وفاة أبى العامل الوحيد للانقطاع عن الدراسة التى كنت أحبها وأسعد بها ، والتى كانت تملك على كل كيانى . بل كان أهم عامل لهذا الانقطاع هو الحاج جدى لأبى الذى أراد ، ولا راد لارادته ، أن أقوم مقام أبى فى إدارة محل تجارته (الوكالة) . وكانت حجته ان الحصول على شهادة من مدرسة أو من جامعة لايفيدنى كثيرا ، فان الحياة هى أعظم مدرسة وأعظم جامعة . ولم يكن لى ولا لأمى المستضعفة الا أن نرضخ لمشيئة هذا الجد . أنا أقوم بمسئولية ادارة محل تجارة أبى بعد وفاته ، وهى تعيش من أجلى فى كنف هذا الجد وأسرتة الأبوية الممتدة . وكان عمرى عندما تحملت هذه المسئولية اقل من سبع عشرة سنة . كنت يافعا لا أدرك من أسرار الحياة الا القليل . وكانت المسئولية التى تحملتها ينوء بها شبابى الغض . ومع ذلك فقد واجهت هذه المسئولية مضطرا ، وكنت اعزى نفسى مرددا أن العلم ليس فى المدرسة أوفى الجامعة وحدهما . وان الحياة بحلوها ومرها ، أعظم مدرسة وأعظم جامعة . كان لسانى يقول هذا الحديث صامتا ، ولكننى كنت فى أعماق نفسى أردد حديثا آخر صارخا . كان انقطاعى عن الدراسة صدمة كبيرة لم أكن أريدها لنفسى ولم يكن يريدها أبى لى .. كان يرى فى الزعيم مصطفى كامل قدوة لى ، وكان يحلم بضرورة الاقتداء به واقتفاء أثره فأدرس فى الجامعة وأسافر الى أوروبا لكى استكمل مابدأت من دراسة . كان عنده ذلك أملا . ولكنه أمل لم يتحقق .

وقبل وفاة أبى كنت اشعر بالعبء الثقيل ، عبء التاريخ الذى أحمله على ظهرى . كنت وأنا يافع اشعر بالمرض الذى كان يأكل

جسمه رويدا رويدا . وكان عملاقا ، ورايته يضمحل من أمامي مع مرور الأيام . بدا لي قبل أن يموت وكأنه شبح في جسم انسان ، فقد اظهر طوله الفارع مابهذا الجسم من هزال ، وظهرت ألوان الضعف في حركاته . ولكن العقل بقى سليما معافى . وكنت ألاحظ هذه التعبيرات ولا يلاحظ أحد من حولى أنني ألاحظ . وكنت ارثى لحالى قبل أن ارثى لحال أبى . وكان انينى لا يسمع . أعيش فى دنيائى الحزينة وحدى .

وفى خلال فترة طفولتى كنت لاحظ أمى وهى تعمل جاهدة لتعطينى أختا أو أختا . وكان يأتى الاخ ولكنه بعد سنوات قلائل كان يموت ، وكانت تأتى الأخت وماتت بعد فترة من الزمن أن تخفى من الحياة . ورايت أمى وهى تحمل مرة ومرات ، ورايتها وهى تجهض ماتحمل مرة ومرات . ومر الزمن وضعف أبى ولم تستطع أمى أن تلد لى أختا ولا أختا . وفى ذلك الحين كنت أعيش طفولتى وحيدا حزينا . كان حزنى من أجل أمى ومن أجل أبى الذى كان يعشق الاطفال . وكان حزنى أيضا من أجل وفاة أخ لى أو أخت لى . كنت وعمرى لا يعدو العاشرة وربما أقل من ذلك ارثى أخى المتوفى أو أختى المتوفاة رثاء طفل قد هاله ماحدث . وكان الرثاء لا يعدو الهمهمات أو الأناث التى تأتى من أعماق الأعماق . لم تكن لدى كلمات رثاء انشدها أو أحدث نفسى أو غيرى بها . كنت أغغم حزينا مكلوما . وكنت أفعل ذلك وحدى لايرانى أحد لأننى وددت أن لا يرانى أحد .

وقد تضمن التاريخ الذى أحمله على ظهري الأحداث التاريخية التى عاشها الشعب المصرى . كانت أحداثا جساما حقا . عشت وقائعها متفرجا أحيانا ، كما عشت وقائعها مشاركا فيها أحيانا أخرى . وكنت وأنا المتفرج أو أنا المشارك متفائلا دائما . فالمستقبل المشرق كنت أراه من أمامي واضحا وضوح الشمس . وأنا حتى الآن لايمكن أن أكون يائسا من أجل مصر ، ولم أكن أبدا . حتى عندما راجت كلمة "سعد زغلول" الذى قالها وهو على

وشك الوفاة "أنا انتهيت" وأصبحت على الألسنة بعد تحريفها "سعد باشا قبل مايموت قال مقيش فايدة"، فقد كنت على يقين وأنا في صباي (سن الرابعة عشرة) ان الفائدة آتية لأريب فيها مرددا في ذلك الحين "فمن جسر أيسر ومن هاب حاب".

وفي الخارج عندما سافرت طلبا للاستزادة من العلم والعرفان حملت بعض وقائع التاريخ على ظهري . كانت الوحدة القاتلة منها . كما كانت الغربة القاسية أيضا . أما المرض والخوف من المجهول فقد كانا من الوقائع التي كادت أن تقصم ظهري . لا أجد الكلمات لأصف هذه الوقائع . ولن يصفها الا الذي يعانيتها . ويكفى المرء منا أن يواجه الصراع الثقافي الذي يعيشه في المجتمع الاجنبي . ويكفى المرء منا أن يواجه الحواجز التي تقف في سبيل الفهم والتفاهم على الرغم من خلو هذه الحواجز من حاجز اللغة . ويكفى أن يواجه المرء منا العزلة الاجتماعية التي يريدها ولايريدها في الوقت نفسه .

ومع كل ذلك فإن التاريخ الذي احمله على ظهري يتضمن الجوانب المشرقة . الايكيني اننى عشت في العصر الذي كان فيه ملء السمع والبصر كل من سيد درويش والمنفلوطي وشوقي وحافظ ومصطفى الرافعي وأحمد حسن الزيات والمازني وطه حسين ومحمد حسين هيكل والعقاد وبيرم التونسي وتوفيق الحكيم وزكي مبارك وسلامة موسى وأحمد أمين وفكرى أباطة ؟ ألا يكفيني أننى تتلمذت على فضيلة الشيخ محمود خطاب السبكي ثم السيدة إلزا ثابت ثم الأستاذ يعقوب فام ثم البروفيسور جون لويس (كلية مورلي بلندن) ثم البروفيسور البرت موريس (جامعة بوستن) ؟ كان الاخيريون هم أساتذتي بعد أبى وأمى الذين تركوا بصماتهم على شخصيتي وبقيت آثار هذه البصمات حتى الآن . كانوا مصادر الحب والاحترام والعلم والمعرفة التي نهلت منها كل ماهو خير وكل ماهو عذب . انهم على الرغم من اختلاف مشاربهم وأهدافهم وتباين تجاربهم وخبراتهم كانوا المناهل العذبة التي توفرت أمامي لأستقى

منها حلالا زلالا . لقد غيرنى كل واحد منهم وحضنى على أن أغير من نفسى لأكون نفسى الفريدة المتفردة . وقد أخذت من كل أستاذ بعض ماعنده . فمنهم من أخذت علما ومنهم من أخذت منهجا ومنهم من أخذت نظرة نحو الحياة . كان الجميع يهدفون الى التغيير الى الأفضل ، تغييرى وتغيير غيرى . فلم أكن وحدى المقصود . ولكن كان كل له غرض يسعى ليدركه . وكان لى أيضا غرض اسعى لادراكه . أن أعمل من أجل مصر . وقد تحدد هذا العمل وأصبح واضحا جليا عندما بدأت دراستى بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة .

وكان التحاقى بمدرسة الخدمة الاجتماعية فى ضوء ظروفى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بداية طريق جديدة لى وتجربة من التجارب الحاسمة فى حياتى . كان هذا الالتحاق ، فعلا وحقا ، بداية الثورة على حياتى التى واجهتها عندما ولدت وبعد ان شبيت عن الطوق وصرت شابا . وكانت هذه الثورة ثورة على أوضاع هذه الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية جميعا ، وكانت ، فى الوقت نفسه ، ثورة شخص واحد ضد طبقة بأسرها بمفاهيمها وقيمه وأعادتها وتقاليدها وأساليب حياتها ومستواها الاقتصادى جميعا . فما أن تذوقت بعض قطرات من محيط المعرفة الزاخر فى المدرسة ، وما ان عشت كل معانى هذه القطرات ، وأحسست بأن القيود التى تكبلنى تتفكك ، وأن عقلى الفتى يتفتح ، وظهرت أمامى واضحة صورة تقيل العمل الاجتماعى فى سبيل التغيير الى الأفضل ، تغيير مجتمعا المصرى فى ذلك الحين الى الأفضل . ومن ثم أصبح السعى الى تحقيق هذا الغرض منذ ذلك الحين وفى كل حين قدرى .

وأخيرا وليس آخرا فان أمنية الامانى ألا وهى طرد الانجليز الغاصبين من مصر كانت جانبا مضيئا يتلألأ فى إحدى فترات التاريخ الذى أحمله على ظهري . ومثلها كان يوم اعلان الجمهورية . كان يوما مشرقا حقا حيث قطع دابر آخر ملوك أسرة

محمد على "الملك الطفل" أحمد فؤاد الثانى . وانتهت هذه الأسرة بخديوييها وسلاطينها وملوكها الى غير رجعة .

والدراسة الحالية "التاريخ الذى أحمله على ظهري : دراسة حالة" تتضمن فى الواقع شقين متوازيين ، وشق ثالث يعتبر فى الواقع حصيلة تفاعل الشقين الأولين . الأول ويتعلق بالجدور التى وضع بذورها أمى وأبى وأهلى وعشيرتى وبنات وأولاد "حتتى" وغيرهم فى كل موقع من المواقع التى أدت فيها دورا اجتماعيا أو أدوارا اجتماعية يتوقعها منى هذا الموقع أو ذاك ، وبخاصة عندما كنت فى داخل مضر لا فى خارجها . إن هذا الشق الذى يتعلق "ببذور حياتى وجذورها هو الأرض الذى خرجت منه وأنا كما أنا" . فأنا أدين لهذا الأصل مافى ذلك من شك . صحيح إننى منذ اللحظة التى خرجت فيها من بطن أمى بدأت أتفاعل مع كل مايحيط بى ومع كل من يحيط بى ، ثم بدأ كل مايحيط بى وكل من يحيط بى كرد فعل يتفاعل معى . ومع ذلك فأننى عندما وجدت كان الأصل موجودا . وبدأ التفاعل واستمر حتى الآن . وكنت نتاج هذا التفاعل ولا أزال . لم أكن سلبيا أو جامدا عندما وجدت . ولكنى لم أصنع ذاتى وحدى . كانت "البذور" التى حولتها الأرض جذورا عن طريق أجهزة التنشئة الاجتماعية فى المجتمع عناصر حياتى الاولى فأصبحت شخصيتى بمرور الزمان ماصارت اليه . ولعل من أهم هذه الأجهزة ، كما لا يخفى على القارئ ، الأسرة والجيرة والمدرسة والمنظمة الدينية وأجهزة الثقافة الأخرى وأجهزة الاعلام وغيرها . والملاحظ أن هذه الأجهزة هى عبارة عن جماعات أو تتكون وهى تعمل من جماعات . وأنا كفرد من بنى البشر ، عندما لم تتكون لى شخصية بعد ، أو كشخص أى كفرد له شخصية ، لا يمكن أن أكون قد عشت فى فراغ . لا يوجد فرد أو شخص لا يعيش فى علاقات اجتماعية دائمة . فأنا عندما وجدت قى هذه الدنيا وجدت فى جماعة ، أى فى أسرتى الطبيعية . وأنا عندما كنت فى مراحل نموى شبيب ونموت فى جماعات أخرى ، فى جماعة

اللب (فى الحارة وفى الجيرة على وجه العموم) ، ثم فى جماعة المدرسة ، ثم فى جماعة العمل ثم فى غيرها من الجماعات الانسانية . فالشخص منا يبدأ حياته ، اول ما يبدأ ، أقصد عند ولادته ، فى جماعة ويستمر يعيش عضوا فى العديد من الجماعات الأخرى . وكل هذه الجماعات تعيش فى المجتمع بل هى قوام المجتمع . وعندما وجدتني أعيش فى أسرتي وجدتني تعيش فى أحد أحياء القاهرة . أى فى مجتمع محلى له كل مقومات المجتمع الانسانى سواء أكان كبيرا أم صغيرا . أى يتكون من جماعات من الناس (رجال ونساء وأطفال) يهدفون متعاونين أحيانا وهم فى صراع أحيانا أخرى الى تحقيق مصالح جوهرية (حفظ الحياة وحفظ النوع مثلا) بصفة مستمرة نسبيا . وتراهم يعيشون فى بيئة جغرافية واحدة . وقد ارتبط هذا الحى ولايزال بغيره من الأحياء أو المجتمعات المحلية فى مدينة القاهرة . وكما يتكون الحى الذى كانت تقيم فيه أسرتي من جماعات فان مدينة القاهرة كغيرها من المدن تتكون من جماعات كذلك ، جماعات ذات مصالح معينة . أو منظمات اجتماعية مثل المنظمات الاقتصادية والدينية والتربوية والسياسية . فضلا عن ذلك فقد كنت أشعر منذ أن بدأت أن أشعر أن هذه الجماعات تعيش ألوانا متباينة من الحياة . وكانت أغليبيتها تعيش حياة الضنك . فكنت أرى أعضائها من الأطفال ، وكانوا فى أزقة الحى وحاراته وشوارعه وكانهم جحافل النمل . حفاة الأقدام ولا يلبسون الا القمصان وما يستر عورتهم . اما " الجلاب " فكانوا يلبسونها فى فصل الشتاء أو فى المناسبات وهى فى معظم الأحيان مناسبات الأعياد . وكان الكثير من رجال الحى وشبابه ومن نسائه وشباباته حفاة الأقدام ، وان لبسوا فى أقدامهم شيئا فقد كانوا ينتعلون فى الغالب نعالا بسيطة الصنع أو " بلغا " . وكان يلبس الرجال والشبان والنساء والشابات الجلاب وهى فى البيوت أو فى الحارات والأزقة ، وقد كانوا لا يفعلون ذلك مكتفين بما يستر عورتهم من الملابس الداخلية فى الكثير من الأحيان ، ولكن اذا ما

خرج الرجال والشبان الى أعمالهم أو الى أماكن أخرى خرجوا وهم يلبسون جلابيبهم . أما اذا خرجت النساء والشابات فكن يلبسن فوق جلابيبهن الملاء السوداء الرخيصة الثمن . وكان التسول حرفة للعديد من بنات الحى وأبنائه . ويبدو أن وجود "القرافات" فى هذا الحى فضلا عن المساجد مثل مساجد السيدة عائشة والسيدة نفيسة والسيدة سكينة والامام الشافعى والامام الليثى وغيرها من عوامل احترام التسول . وقد بدا لى أن لهذا الاحتراف مواسم يزداد فيها عدد المتسولين المحترفين "وغير المحترفين" عندما يزور بنات مصر وأبنائوها من شتى البقاع قبور موتاهم المنتشرة فى قرافات الحى . وكان هؤلاء يأتون أفواجا من حى الخليفة نفسه ومن أحياء مدينة القاهرة الأخرى ومن بعض القرى المجاورة . وكان يعيش مع الأغلبية الفقيرة من أعضاء حى الخليفة أقلية ضئيلة من الأغنياء الوجهاء . وكان الأخيرون يعيشون حياة الترف والرفاهية فضلا عن حياة المجون والإخلاعة . ومن هؤلاء من كانوا يمثلون عائلات راشد وأبو الدبل والقط والطحاوى وعمران وغيرهم من الاقلية المرفهة . وكانت الاغلبية الفقيرة تعيش مع الأقلية "السعيدة" فى ظل مناخ ثقافى اجتماعى قوامه بعض العقائد والقيم والمبادئ والمثل العليا فضلا عن العادات والتقاليد التى تجعل لسان حال أعضائها يقول راضيا وغير ساخط "رضا لمن يرضى" أو "من رضى بقليله عاش" . وكان أعضاء هذه الأغلبية الفقيرة راضين بما قسم لهم ، ولم يكونوا يتمرّدون على أحد غيرهم . فكان العراك بينهم والشتائم البذيئة التى تقذفها أفواههم ومنها شتم "الدين" و شتم "الأمهات" وحتى شتم "الأموات" ، كانت هذه وتعاطى المخدرات والمتعة الجنسية التى يمارسونها اذا كانوا متزوجين أو إذا كانوا غير متزوجين هى أهم "المنافذ الاجتماعية" التى ينفس عن طريقها أعضاء هذه الفئة المستضعفة . وقد تأكد لى منذ أن وعيت خبراتى المنتظمة أن جماعات حى الخليفة كمجتمع محلى مثل كل الجماعات البشوية

(فى الحضر وفى الريف على السواء) لا يستطيع أعضاؤها على تباین سماتهم ومكاناتهم الاجتماعية أن يعيشوا من غير أن تتوفر لهم ثقافة يتميز بها مجتمعهم . وكانت تبدو هذه الثقافة ولا تزال فى عاداتهم وتقاليدهم والنظم الاجتماعية الخاصة بهم فضلا عن اللغة التى يتحدثون بها .

ومع الشق الاول الذى يتعلق بالجذور التى وضع بذورها إمرى وأبى وأهل وعشيرتى وبنات وأولاد "حتتى" وغيرهم وغيرهم فى كل موقع من المواقع التى أدت فيها دورا اجتماعيا أو أدوارا اجتماعية يتوقعها منى هذا الموقع أو ذاك وبخاصة قبل أن تفتح أمامى آفاق العالم الخارجى فارتوى من مائه الزلال : "ماء الحياة الذى يتدفق ويستمر تدفقه دائما الى الامام .. دائما الى المستقبل" . وهذا الشق يتعلق بمسار افكارى التى انبثقت منها "الارض والبذور" أى أن الشق الثانى هو فى حقيقة الأمر عبارة عن "سياحة فكرية" فى أعماق نفسى . وتحاول هذه السياحة فى تواضع صادق أن تكشف عن فكرة اعتنقتها ، كما تحاول ان تبرز مدى حرصى على العز بالنواتج على أية فكرة . ومدى حرصى على نبذ أية فكرة وتركها الى غير رجعة ، أو ربما مدى حرصى على العودة اليها اذا كانت هذه العودة أمرا ملحا . ان الشق الثانى من الدراسة الحالية يحاول أن يكشف عن الآفاق العريضة والعميقة التى واجهتها وأنا فى الخارج ، آفاق العلم وفروعه وتطبيقاته التى واجهتها وجها لوجه وأنا أعيش مغتربا لأمك الا ان لاحظ ، وحدى ، الظواهر والمواقف والعلاقات الاجتماعية التى لم أكن أجد مثلها فى المجتمع المصرى الذى كنت اعرفه فى ذلك الحين

أما الشق الثالث الذى يعتبر فى الواقع حصيلة تفاعل الشقين الاول والثانى فهو يكشف عن "الثمار" التى جنيته . انه يكشف عن معاناتى الفكرية التى عشتها فى الماضى ولازال أعيشها فى الوقت الحاضر . وهو لايهتم بأن يعكس أفكارى أو مسار هذه الأفكار فحسب ، ولكنه يحاول أيضا ان يذكر مآلها ومصيرها .

ومصادر هذا الشق من الدراسة الحالية هي مؤلفاتي المنشورة وغير المنشورة والتي مازلت أعيش معها ولا تزال تعيش معي .
واننى أرجو أن تكون أهداف الاهتمام بهذا الشق واضحة للقارىء .
فلا جديد فيها يستحق التنويه به . وإن وجد ماهو جديد فهو شىء متواضع جدا أو هو مايتعلق بذاتى . ولعل ذلك أن ينفع الآخرين من بنات وأبناء الوطن العزيز .. شباب مصرنا الخالدة .

وفى ضوء ماسبق قسمت الدراسة الحالية الى ثلاثة أجزاء هي :

الجزء الاول : الارض والبذور .

والجزء الثانى : ماء الحياة .

والجزء الثالث : الثمار .

ويلاحظ ان هذه التقسيم لم يكن تعسفيا مائة فى المائة ، ولعل القارىء الكريم أن يغفر لى ماقد يراه من تعسف قليل أو كثير . ذلك ان عبء الدراسة الحالية بأجزائها كما يرى القارىء عبء ثقيل ثقيل . ولكننى كما ذكرت من قبل اخترت منهجى ، وهذا قرارى وحدى ، والرجاء التوفيق ، وعلى كل حال فالملاحظ أن الارض وحدها لاتنبث ثمارا وكذلك البذور لاتفعل ذلك وحدها والماء ماء الحياة وحده لايمكن أن يوجد بثمار ، أى أن التالوث : الارض والبذور والماء ، هو على حد قول القدماء من أهل بلادى ، المنتج للثمار . انها دورة الحياة اذا وصفناها ماديا ، وهى معنويا دورة حياتى التى عشتها بحلوها ومرها . والتى مهما خبرت لتغييرها فلا قدرة لى على ذلك ، وحتى لوكان الاختيار ميسرا لما اخترت غيرها . فقد عشت هذه الحياة وأنا راض . لقد استعذبت فى خلالها العذاب أو مايشبه العذاب ، كما شربت من كأس نعيمها المعنوى ماروانى أو كاد . فانا لاأظن أن شخصا مثلى يرتوى من النعيم المعنوى فى هذه الدنيا التى وجدت نفسى أخوض مسالكها وطرقها على أشكالها العديدة . لاننى أرى أن هذا النعيم هو الفكر بألوانه ومن يستطيع أن يستوعب كل ألوان الفكر أو يرتوى منه والعمر مهما طال فهو قصير قصير ، والعقل الانسانى لايفتأ أن يفكر ويفكر وإن يبدع

ويبدع ؟

وأصارع القارئ الكريم باننى بدأت أفكر فى كتابة الدراسة الحالية فى يوم ١٧ من شهر فبراير ١٩٧٣ ، أى عندما بلغت سن الستين من عمرى . لم أفكر فى ذلك قبل ذلك . ولكنى فوجئت ببلوغى سن الستين . كانت مفاجأة لى حقا ! وكنت فى ذلك الحين وكأننى لم أتوقع هذه المفاجأة . لقد جاءت على غرة . وسارعت الى التفكير فى حياتى ماذا فعلت ؟ ولماذا فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ فى خلال هذه الحياة . ووجدتني مدفوعا الى تقديم "كشف حساب" لمن يأتى من بعدى سواء الذين يعيشون فى شغاف قلبى من أبنائى وأحفادى أو الذين اختاروا مهنة الخدمة الاجتماعية مهنة لهم أو مهنة البحث العلمى الاجتماعى رسالة يؤدونها من أجل مصرنا الخالدة أو غير هؤلاء وأولئك من شباب المجتمع المصرى . ومرت ثمانى سنوات كنت فيها أفكر وأفكر وأفكر حتى اكتملت الصورة الذهنية عنى عن هذه الحياة . كنت مترددا فى خلال هذه الفترة . ومرات عديدة أقلعت عن التفكير فى القيام بهذه الدراسة . ولكنى تجاسرت فى يوم السبت ٢١ من شهر يونيو عام ١٩٨١ فى البدء فى الكتابة ، إننى فعلت ذلك . كما ذكرت من قبل ، بعد إلحاح العديدين من الزميلات والزملاء الذين اكن لهم الاحترام والتبجيل . وعندما بدأت فى كتابة الدراسة الحالية كنت نى "مصيف جمصة السياحى : محافظة الدقهلية" . واننى أدكر أنه على الرغم من القلق الذى بدأ يساورنى فأننى ماأن أمسكت بالقلم فاذا بالافكار تتدفق على القرطاس . وكنت أكتب كل يوم لمدة ساعتين فقط ، وظللت أفعل ذلك بعد انتهاء فترة المصيف فى منزلى "بالعجوزة" فى أوقات الفراغ ولم تكن أوقاتا طويلة . لم أكتب كل يوم وكذلك لم أكتب فى كل مرة لمدة أكثر من ساعتين . وكنت أكتب وأنا أعرف طريقى . أعرف بدايته كما كنت أعرف نهايته . وأنا أكتب فى ضوء الصورة الذهنية التى رسمتها ذاكرتى عن حياتى فى خلال فترة ثمانى سنوات . لم يكن يشغلنى عن الكتابة سوى الوقت الذى أكتب

فيه . ومرت الايام مر السحاب . وهانذا انتشر بتقديم الدراسة الحالية راجيا أن تكون ذات نفع لمن يتفضل ويجد الوقت لقراءتها .
واند أنهى هذه المقدمة أبادر بالاعتراف بالفضل لذويه الذين تفضلوا بتشجيعي على القيام بالدراسة الحالية بأجرأها الثلاثة ألا وهي " التاريخ الذى أحمله على ظهري : دراسة حالة " والذين تفضلوا بالطلب منى ذلك ، وتفضلوا بالالاحاح الكريم فى هذا الطلب . وهانذا ألبى مع الشكر الجزيل طلبهم راجيا ان أكون عند حسن ظنهم بى . وأخص من هؤلاء السادة الافاضل السيدة إلزا ثابت والاستاذ الدكتور أنور لوقا والبروفيسور جلبرت ديلاانو والبرفيسور أ . ب . م فيجى والسيدة حرمة والزميلة شهيدة الباز والاستاذة الدكتورة ناهد صالح والاستاذة الدكتورة نهى فهمى والاستاذة الدكتورة هدى مجاهد وزميلي الاستاذ محمد نجيب والاستاذ مصطفى طيبة .

واعترافى بالفضل لقارئ الدراسة الحالية امر واجب على أيضا . لأن هذه القراءة تعتبر استكمالا لما بدأت وتحقيقا لكل ماإليه هدفت . وإذا كنت قد عانيت وأنا أكتب الدراسة فإن معاناتى معاناة من أعطى لالياخذ ولكن ليقرأ الناس مايكتب . والقارئ إذ يقرأ ماكتبت فانه يعطى أيضا . لانه يبذل جهدا روقتا ويحقق هدفا ولاقول يدفع ثمنا . أى أن عطاءه أسمى وأكرم . واعترف صادقا بأننى لم أكتب الدراسة الحالية ولاغيرها من الدراسات الاخرى . ولن أكتب دراسات أخرى لاحقة الا من أجل أن يقرأ القارئ ماكتب وماأكتب وماساكتب ، وأنا لأدعى أنني اتخذت من مسوح الرهبان لباسا فان أصبت جزاء ماديا فاننى أرحب بذلك على أن ذلك لايمكن أن يأتى فى الدرجة الاولى من الاهمية والملاحظ ان قراءة الدراسة الحالية بترتيب ورودها تكون أجدى على قارئها وأيسر . فقد كتبت لنقرأ كذلك ، أى لنقرأ قراءة متصلة .

سيد عويس

الأرض والبذور

١- أمى فى أسرتها التناسلية

اننى أعرفها جيدا ، أعرف أسمها ، وأعرف اسم أبيها ، ولكنى لأعرف اسم أمها . ان اسمها موجود فى شهادة ميلادى فهى أمى ، أما أسم أمها فلم أعرفه لأنها لم تقله لى ولأننى لم أطلع على شهادة ميلادها . أبوها هو جدى " الشيخ أحمد صبح " واسمه موجود فى شهادة ميلادى حيث تجد أمام أسم الأم .. أمى "زنبوبة أحمد صبح" . وقد رأيته وعرفته وأنا صغير ثم وانا صبى يافع . ولكننى لم ار أمها ولم أعرف عنها شيئا . كل ما أعرفه أنها ماتت وتزوج أبوها جدى لأمى من أخرى أنجب منها أربع فتيات وصبيا . كبروا مع الزمن ورأيتهم وعشت معهم فترة طويلة قبل ان تموت أمى . وبعد ان ماتت . كانوا " زكية وحميدة وعزيزة وزهرة وسيد " . وكانوا غير أشقاء لأمى ولكن خالتي " أم محمد نبوية " كانت شقيقة . ومات زوجها وترك لها محمد وعيسى ومحمود ويوسف . وكان يوسف رضيعا عندما تركه أبوه ومات وماتت الزوجة الثانية لجدى لأمى وتزوج من أخرى لم تنجب .

وعندما تفتحت عيناى على الحياة كان جدى أحمد صبح شيخا ، وكان خالى سيد قد تزوج ، وكانت خالتي زكية قد تزوجت ، أما خالاتي حميدة وعزيزة وزهرة فلم تتزوج واحدة منهن الا بعد ذلك . وكادت أن تكون حميدة عانسا لولا الظروف السعيدة التى أوجدت لها العريس وتزوجت قبل أن يموت جدى لأمى بقليل .

وعاشت أمى يتيمة من الأم هى وشقيقتها أم محمد نبوية . وعندما تزوجت أمى كانت فى الثامنة من عمرها . وكان أبى يكبرها سنا وجسما ، كان عملاقا بالنسبة لجسدها النحيل . وقد رأيته يكاد راسه أن يرتطم بباب الحجره العالى فى كل مرة يخرج منها أو يدخل فيها . اما أمى فقد كانت نحيلة قصيرة عندما تزوجت . وكاد الزواج أن لايدوم . فقد "جفلت" أمى كما كانت تقول لى . وتركت منزل الزوجية الى منزل أبيها الذى يقع فى نفس الحارة . على بعد خطوات منه . وعاشت مع أبيها وأخواتها غير الاشقاء وأخيها المدلل غير الشقيق سيد . فترة طويلة . وطالت الفترة ، ولكنها لم تنس زوجها أبى . فهى تذكره . وفى الصباح المبكر كانت تقف وراء "شيش" النافذة لتراه وهو يخرج الى عمله مع أبيه الذى كان يعمل فى التجارة . كان الناس أهل الحارة والأقارب يرثون حظها لأنها كما يقولون "لم تتحمل" زوجها العملاق الفارع الطويل عريض الكتفين وذو الشارب الطويل الاسود والعينين النجلاوين والحاجبين الكثيفين . انه أكبر الأخوة والأخوات وهو "دراع" أبيه اليمين ، والمستقبل الزاهر أمامه يستقبله بذراعين مفتوحين . ولكنها "جفلت" ! ومرت الأيام والأسابيع والشهور ، وفاتت سنة ثم سنة والزواج قائم وهى فى كل صباح تقف وراء "الشيش" لتراه وهو يخرج الى عمله وجاء يوم وياله من يوم فى حياتها تتذكره وكانت تذكره دائما قبل أن يموت أبى بعد سنين طوال . وكانت تتذكره وتذكره دائما قبل أن تموت هى بعد عشرين عاما من وفاة أبى . ناداها أبوها جدى لأمى وقال لها صارخا وهو يفعل ذلك دائما كلما تحدث الى مستضعف من الذكور أو من الاناث ، قال مزمجا "يابت حماك جانى امبارح يطلب رجوعك لزوجك ايه رأيك يابت ؟" وتقول أمى . بعد مرور السنين الطوال ، تقول لى أو لمن تحدثه عن هذا الامر الخطير فى حياتها ، "لم ارد على أبى" ، فاذا به يزمجر صانحا وهو يضربها على خدها "السكوت يعنى رضا .. يابنت الكلب روحى لجوزك بكرة" . ونهبت أمى الى قدرها . وعاشت مع

ابى ، الذى لم يتزوج من غيرها أسوة بأبيه وذكر عائلة أبيه سنينا طولا ، وأنجبت قبل أن أتى الى الحياة أطفالا لا أعرف منهم الا اسمين "كامل" و"ظريفة" . وقد عرفت الاسم الأول عندما كانت أمى توقظ أبى فى الصباح قائلة له : "قوم يا أبو كامل" ، أو عندما تتحدث عنه قائلة "أبو كامل. فعل كذا أو فعل كيت" أو عندما كانوا ينادون عليها فى البيت قائلين "يا أم كامل" أو عندما يتحدثون عنها قائلين "أم كامل فعلت كذا أو فعلت كيت" . وقد عرفت عندما كبرت ان أبى كان من انصار "الحزب الوطنى" الذى كان يتزعمه الزعيم الخالد "مصطفى كامل" ، ولأنه كان مولعا بالزعيم فسمى ابنه البكر "كاملا" . اما اخوتى الذين جاءوا بعد ، فقد كانوا كثيرين منهم أخوة لم يتم نضجهم فى رحم أمى ومنهم "عبد الغنى" الذى مات بعد سنتين من ولادته و "سكينة" التى ماتت ولما تبلغ الثالثة من عمرها . وبقيت وحدى مع أبى وأمى لا أعرف لى أخا أو أختا حتى ماتا .

ولا يمكن الا أن أذكر ما حدث فى اثناء ثورة ١٩١٩ . وكان الجميع يتحدثون عنها فى البيت وفى الشارع وفى المقهى . وكنت أعلم عنها عن طريق جدى لأبى وعن طريق ابن عمى "عبد المنعم" الذى كان فى ذلك الحين شابا يافعا يدرس فى الأزهر . كان الانجليز يجوبون شوارع القاهرة وهم يحملون البنادق لينشروا الخوف والفرع فى قلوب المصريين أطفالا كانوا أو شبابا أو نساء أو رجالا . وعندما مر الانجليز أمام الحارة التى يقع بيتنا فيها لم يكن ابن عمى "عبد المنعم" فى البيت ، كان مع زملائه الشبان يملؤون الشوارع هتافا بحياة مصر وسقوط الانجليز والخونة . عندئذ أى عندما مر الانجليز حاملو البنادق أمام الحارة صرخت زوجة عمى "أم عبد المنعم" صراخا متواليا مزعجا . وكان أبى فى المنزل لسبب لا أعلمه . وعندما علم أن الصراخ صادر من احدى حجرات المنزل خرج من حجرته ذاهبا الى مصدره ، وصاح نى زوجة عمى طالبا منها أن تصمت والّا . كان أبى الابن الاكبر وكان

يرى بحق أو من غير حق أنه صاحب البيت إذا غاب عنه أبوه أى جدى لأبى . فلم تصمت . ورأيتة وكنت صغيرا فى السادسة من عمرى يهجم عليها لكى يلطمها أو يهددها بذلك لكى تصمت ، فما كان من أمى إلا أن حالت بينه وبين ذلك فوقفت بينهما . فما كان من أبى إلا أن وجدها أمامه فأقرغ شحنة غضبه بأن ضرب أمى على خدها وكانت حاملا . وسأذكر ماحييت أنه بعد ذلك قد هداوا واستكانوا وإن زوجة عمى هداات واستكانت ، أما أمى فقد حدث لها مالم أتبينه فى وقته إلا بعد أن رأيت مايشبه اللعبة المصنوعة من اللحم الآدمى مودعة فى وعاء . وقيل لى وقتئذ أن هذه اللعبة قد نزلت من بطن أمى

ورأى الصمت على البيت حتى رجع جدى لأبى من عمله ، ثم عاد ابن عمى "عبد المنعم" بعد الغروب . وإذا بزوبعة تثور . سمعت حديثا صاحبها يصدر عن جدى لأبى وابن عمى . بديا لى وكانتهما يمثلان دورا على المسرح الذى ذهبت اليه ذات مرة مع أبى فى أحد الأعياد . كان جدى وحده وفى أحد يديه كرباج أما اليد الأخرى فقد كانت ممسكة بذراع عبد المنعم وكان جدى يقول صارخا "مالهم الانجليز ياولد ياخنزير" ؟ مش همّ اللى جابوا لنا الكهريا مش هم اللى جابوا لنا الترمواى مالهم الانجليز ياولد ياخنزير ؟ " ، ويرد عليه ابن عمى صارخا هاتفا " تحيا مصر . ويسقط الانجليز " ، كان جدى يقول مايقول وهو يضرب ابن العم بالكرباج وكان يقول ابن العم هاتفا مايقول وهو يضرب بالكرباج . وكانت نساء البيت وكن كثيرات يقفن من بعيد وتهنهن الواحدة بعد الأخرى "معلهىشى ياسيدى حرم خلاص" ، واسمع وأنا مشدوه عبد المنعم هاتفا فى كل مرة يضرب فيها "تحيا مصر ، تحيا مصر ، يسقط الانجليز . يسقط الانجليز" . وكنت ومعى اطفال الاسرة وكانوا كثيرين نقف ونسمع ولانقول شيئا . ولكننا كنا نرى ما يحدث مشدوهين ، وكانت قلوبنا الصغيرة التى بدأت تكبر تخفق لهتافات عبد المنعم ، وكنا من أجل ذلك معه قلبا وقالبا . نحياه ونأسى له

ولكننا لم نستطع أن نفعل شيئاً .

أما أمى فقد ذهبت الى حجرتها وألقت بجسدها على السرير
أياماً . ثم قامت بعد ذلك تؤدى واجباتها نحو أبى ونحو بيتها ولم
يكن فيه غيرى وغيرها ونحو أسرتها الممتدة التى تعيش فى كنفها
والتي كانت تتكون فضلاً عن ذلك من جدى لأبى وجدتى ومن زوجة
عمى وعمى وأولادهما ومن زوجة عم أبى وعم أبى وولديهما ، ومن
عمتى الارمل "أم بطة" وأولادها ومن عم أبى الذى لم يتزوج ، ومن
غير هؤلاء مثل أقرباء جدتى لأبى ومن فى حكمهم من الأقارب
الضيوف من أعضاء العائلة ومن هؤلاء فى العادة بنات عماتى
المتوفيات واللاتى يعشن مع أبائهن المتزوجين من أخريات . قامت
أمى بعد هذه الحادثة المؤلمة والمثيرة معا دون أن تقول شيئاً أو
تطالب بشئ أو أحد باسمها بشئ . قامت وكأن ماحدث لها لم
يحدث لها . فقد كانت هى التى تعجن وتقرص وتترك "الخبيز"
لزوجة عمى المغرمة بالخبيز . ومن تعجن كانت هى التى تغربل
القمح "الخرين" وكانت هى التى تشرف على طحنه ، وكانت هى
التي تستقبل الخبيز وتعدّه وترتبه وتحفظه فى "المشبات" . وكانت
أمى فضلاً عن ذلك هى التى تغسل ملابس العائلة كلها ، فهى كما
كانوا يقولون مغرمة بهذا العمل الشاق . فكان يترك لها ببساطة .
وكانت تساعد "أم على نبيهة" زوجة الحانوتى الذى يسكن فى
أحدى "منادر" منزل جدى لأمى المجاور . وكان يوم العجيز
والخبيز يوماً مشهوداً . ففيه توزع "الحوانين" على أطفال الاسره
الذين كان عددهم فى ذلك الحين خمسة عشر طفلاً . كل طفل له
"حنونه" يضع فيه السمن والسكر ويأكله وهو ساخن فى لذة ونهم
. وكان يوم الغسيل أيضاً يوماً مشهوداً . فاذا ما انتهى شقاؤه تجد
نساء البيت وأطفاله يجلسون على الطبلية للغداء ، فهم قد بدءوا
هذا العمل المضنى فى الصباح غير المبكر ، أى عندما يخرج رجال
البيت والأطفال الذين يذهبون الى المدارس . وبعد الغداء تقوم
أمى بعمل "القهوة" للجميع من البن والسكر اللذين يكونان عادة

من عندها . وكنت ترى نساء البيت يشربن القهوة فى هذه المرة "سادة" حتى تلك التى تعودت على شربها بالسكر "الزيادة" أو بالسكر "المطلوب" . وذلك لأن أم على نبهة هنا اليوم وهى تستطيع أن "تفتح الكوتشينة" كما تستطيع أن تقرأ "الفنجان" وكان الكل يتسابقون لكى تقرأ أم على الفنجان ، وإذا عاد أحد أطفال الأسرة من المدرسة فى هذه الآونة فهو أوى أيضا يلح فى قراءة الفنجان بعد أن يشربه أو تشربه وبخاصة إذا كان الموسم موسم امتحانات . كانت أم على نبهة على الرغم من زواجها من حانوتى محبوبة وغير منفرة . فهى ضاحكة دائما مستبشرة دائما مطيعة دائما ، تحاول أن ترضى كل من هب ودب من الناس لتتسى كل من هب ودب من الناس أن زوجها "حانوتى" ، فلا يتشام منها أحد أو ينفر من جلستها انسان مصرى . ولم تكن أم على نبهة تحضر فى هذه المناسبة (مناسبة الغسيل) وحدها كانت تحضر معها أبنيتها الصغيرة "حسنة وابنها رمضان وابنها حسن" - وكانوا صغارا أما على وهو الأكبر إذا ما حضر فهو يحضر لكى يسأل عنها وقد يكون له من الأكل أو الشرب نصيب . وزوجة الحانوتى تكون فى العادة "حانوتية" أى أنها تمارس بعض الاجراءات وأهمها "غسل" جثة من تموت من النساء فى المستشفى . وكان هذا المستشفى فى ذلك الحين "مستشفى القصر العينى" . تذهب أم على نبهة عندما تطلب ، وترأها عند ذهابها مسرعة مستبشرة ، وعندما تعود تأخذ أتعابها .. ومعها قطعة من الشاش والقطن المتبقى وقطعة من الصابون أو أكثر وربما "الليفة" إذا كانت صالحة . وتضع كل ذلك تحت "باطها" تحت "الملاية" السوداء التى تلبسها خارج المنزل . وقد تحضر الى منزلنا توا بعد أن تقوم بالمهمة ، وقد لاتحضر . وإذا ما حضرت تحكى عما حدث ومارأت وما سمعت . وقد تواصل حديثها عن "المتوفاة" عن جسمها وتقاطيع وجهها وعن شبابها وبعض أوصافها الأخرى . كل ذلك وكل من فى المنزل نساء وفتيات وأطفالا

يصغون اليها ولكنهم لا يآبهون بشيء الا أن أم على نبيهة فى ذلك اليوم كان حظها سعيدا . وهو يفعلون ذلك اذا كان "الحاج حسين" زوجها قد هجرها ، وكثيرا مايفعل ، تاركا معها "كوم اللحم" الذئب فى عهدها . انهم يرثون لها ويرجون لها فى الوقت نفسه المزيد من هذه المهمات ، فهى تستحق الخير كل الخير ، وزوجها مثل كل الأزواج لا يستحق الا اللعنة ، والله لا ينسى أحدا ، لا ينسى أم على نبيهة وكوم اللحم الذى فى رعايتها ، فالرزق على الله ، والله مع المنكسرين جابر ، و "يقطع من هنا ويوصل من هنا" ، «وياويل الحاج حسين وياسواد ليله» ، ياويله من الله الجبار . ومع ذلك فهو قرة العين عندما يترضى أم على نبيهة ويعود اليها مستغفرا . عندئذ تراهما هو وأم على "سمن على غسل" .

وكانت أمى لاتطبخ طعام الأسرة فهى غير صالحة لهذه المهمة مادامت أم على زينب (زوجة عمى محمود شقيق أبى) موجودة . وهى دائما موجودة فى هذه المناسبات . تقود عملية الطهو والجميع يخدمونها وأمى مع هؤلاء دائما . فهى التى تحضر اللوازم من سمن أو زيت أو بصل أو خضار أو أرز .. الخ اذا طلب منها ذلك . فزوجها أبى الابن البكر للأسرة وهو الاغنى بعد أبيه جدى "الشيخ أحمد" ، وهو المسئول عن احضار مايلزم كل يوم من لوازم الأكل والشرب . هذا أمر أبيه "رب العائلة" ولاراد لأمر هذا الأب الذى هو جدى لأبى . وكانت أمى لاتفعل شيئا من ذلك الا باذن من أبى ، فهو راض عما تفعل وبخاصة مايصرف على المنزل . فكل مايصرف على المنزل من مأكّل أو مشرب فى ضوء فلسفته كتاجر (على باب الله) الله يعوضه ، والمعوض مخلف . ويأكل الجميع ويسلم ايديك يأمر على يازينب . وكان الأطفال وأنا منهم يبدعون الأكل عادة فهم دائما جوعى ، ولامانع من أن يسبقوا فى هذا المضمار . ف "الى يدى بلحة لابنى تنزل حلوتها فى بطنى" هذا ماكانت تقوله أمى وزوجة عمى الشقيق وزوجة عم أبى وجدتى أم أبى وعمتى أم بطة وكل من يحضرن من النساء .

وكانت أمى تلج على أن أكل مع إبنة عمى مصطفى (اى ابنة عم أبى المتزوج) "سنية" وكانت تصغرنى وكنت افضل أن أكل مع ابنة عمى محمود وكانت تقاربنى فى السن . كنت أميل اليها واعتبرها أختا لى . فانا نشأت ولم يكن لى اخوة أو اخوات أشقاء تقريبا . وكانت "فتحية" أقرب الى الشقيقة من سنية . ولعل ذلك أن يرجع الى أنها اى فتحية وهى طفلة رضيعة وكانت أمها أم على زينب مريضة ليس فى ثديها لبن يكفى لاطعامها ، كانت تسعى الى أمى كل صباح وتدق على باب غرفتنا (أمى وأبى وأنا) ويلوك لسانها بكلمات غير مفهومة طالبة من أمى أن ترضعها . طبعاً لم أكن أعلم ذلك فقد كنت رضيعاً مثلها . وكانت أمى ترحب فترضعها حتى تشبع . لعل ذلك أن يكون سبباً أو أحد الأسباب التى جعلتلى أميل الى أن أشارك فتحية الطعام أكثر من أن أشارك سنية هذا الطعام . كانت أمى ترضع فتحية بلا غضاضة ، وكان أبى لا يمانع أن يحدث هذا وبخاصة اذا كان موجوداً فى المنزل أو فى الوقت المبكر الذى كانت معدة فتحية تختاره دائماً عندما تدق على باب غرفتنا وقد يكون مازال نائماً ! كانت أمى تعطى ماعندها دائماً تعطى للصغار قبل الكبار أحياناً وكانت أيضاً تعطى للكبار دائماً . كانت تشقى لغيرها ويسعدها هذا الشقاء ، وتراها توزع الحب الانسانى على الجميع دون ماتفرقة وكل هذا "علشان خاطر سيد (الذى هو أنا) . ولعل هذا السبب ان يكون صحيحاً ولعله لم يكن السبب الاوحد . فأمى كانت يتيمة ، عاشت فى كنف زوجة الأب ، وتزوجت فى أسرة كبيرة العدد يتسلط فيها الرجال . فهى مستضعفة منذ أن ولدت وحيث كانت تعيش وزواجها وهى طفلة كان له أثر كبير ، فهى أول زوجة لأحد أعضاء أسرة جدى لأبى تدخل بيت هذا الجد ، بل تدخل بيت جدتى أم جدى "ستى حمدة" وأنا لم أر ستى حمدة هذه ولكنى سمعت عنها من أمى الكثير . كانت هى رجل البيت ، يرضخ كل من فيه حتى جدى لأبى لحكمها . واذا كان جدى لأبى وأبى وعمى محمود شقيق أبى وعمى مصطفى عم أبى لم يتزوجوا

سوى زوجة واحدة ، فان ستى حمدة تزوجت مرتين ! عم محمد عويس أبا جدى لأبى ثم عم حسين والد كل من عمتى أم سيد فقوسة وعم أبى مصطفى وعم أبى عبد الفتاح الذى لم يتزوج ، وبقي أعزبا لاسباب صحية حتى الموت . ويبدو أن هذه السيدة ستى حمدة كانت حاكما قاسيا . كانت كلمتها لاترد . وعندما جاءت أمى أول مرة كأول زوجة لابن من أبناء هذه الأسرة الكبيرة أخذت ستى حمدة تروضها حسب ماتوحى لها نزواتها المستبدة . وعندما "جفلت" أمى وذهبت الى بيت ابيها المجاور لم تأبه ستى حمدة وتركها فى وحدتها تواجه المستقبل المجهول ، وعندما عادت أمى بعد مرور الشهور الطوال ، كانت العبدة المطيعة لهذه السيدة الحاكمة بأمرها . واننى لأظلم هذه السيدة أبدا ، فالحكايات عن الرعب الذى كانت تلقيه فى نفوس الجميع وعن أوامرها التى يجب أن تنفذ بحق أو من غير حق لاتعد ولا تحصى . وقد ذكر لى جدى لأبى ذات مرة أنه كان يعمل معها فى دكان العطارة الذى كانت ستى حمدة تديره بعد وفاة زوجها عم حسين ، وذهب الى "المدينة" ليشتري بضاعة ، وكانت معه عشرة جنيهات مصرية ، أو ما يوازي هذه المبلغ من عملات الماضى الذى كان يعيشه فى ذلك الحين . وذهب الى المدينة أى الى حى الجمالية مركز التجارة فى مدينة القاهرة ، ورأى قبل أن يفعل ذلك أن يزور مقام "سيدنا الحسين" ، وفعل ذلك . ولكنه أراد أن يستريح قليلا فما لبث أن نام ، وفى أثناء نومه نشل وذهبت العشرة الجنيهات مع الريح . ولم يجروا على أن يفتح أمه فى هذا الأمر وعوض المبلغ المسروق بطريقة أو بأخرى . وماتت ستى حمدة ولم تعلم عن عملية النشل هذه شيئا .

عاشت أمى تحت نير ستى حمدة تؤمر فتطيع ، تعجن الدقيق وتقرص العجين وقيل ذلك تغربل القمح ، كما تعجن روث الحمار الذى يملكه جدى لأبى ليكون وقودا للفرن ، وتنظف "الحاصل" أى المكان الذى أقرد للحمار لينام فيه ، كما تنظف حجرات المنزل جميعا ، وتغسل غسيل الجميع ، وكانت تساعد اخوات زوجها قبل

أن يتزوجن ، وقد عرفت بعضهن قبل أن يتوفاهن الله : عمتى أم بطة وعمتى أم زكية وعمتى أم سكيئة وعمتى أم عطيات ، كن أربع فتيات شقيقات لأبى وعمى محمود . أما جدى لأبى فقد كان وحيدا لاشقيق له ، وكان عم أبى مصطفى وعم أبى عبد الفتاح وعمتى أم سيد فقوسة اخوة له غير أشقاء . كانت أمى تعيش فى هذا المنزل المملوء بالآدميين من الجنسين بأعمارهم المتباينة . كانت تعيش مع أبى جزءا من الليل بعد أن يعود من عمله . وكانت تستيقظ أول المستيقظين وتنام آخر النائمين . وكانت تحمل وتلد ويموت أولادها ، وكانت تحمل ولايعيش الجنين حتى يولد ، ومع ذلك فانها كانت تعمل وتعمل دائما ودائما . وقد بقيت أمى فى بيت العائلة الذى كان يملكه جدى لأبى وكان مكونا من ثلاثة أدوار فى حجرة واحدة . وكان يدخل أبى هذه الحجرة ليلا ولا يخرج منها الا فى الصباح المبكر ذاهبا توا الى عمله . كانت حجرة للنوم وكانت حجرة للطعام وكانت حجرة يستعمل جزء منها حماما . بقيت أمى وأبى ومن ولد لهما ومن مات لهما فى هذه الحجرة حتى مات أبى . وعشنا فيها هى وأنا حتى وجدت لى بنت الحلال وتزوجت . أى أن أمى لم تبرح هذه الغرفة طوال مدة تربو على الأربعين عاما .

وكبر عمى محمود ونما وطلب منه أن يتزوج فلم يرفض واختيرت له زوجة عمى ام على زينب . وكان بالمنزل عندما جاءت جدى وجدتى ، وعمتى الأرملة أم بطة وأطفالها ، نفيسة ورتيبة ومحمود ، التى جاءت لتعيش فى كنف ابياها . ثم أمى وأبى ، وعم مصطفى وعم عبد الفتاح . كانت ستى حمدة قد ماتت وكانت عمتى أم زكية وعمتى أم سكيئة وعمتى أم عطيات قد تزوجن وخرجن الى منازل أزواجهن . وحتى الآن وبعد أن بحثت كثيرا ما زلت لا أعرف أسماء عماتى ، وان كنت أعرف اسمى زوجة عمى محمود وزوجة عم أبى مصطفى ، فالأولى "زينب" وكانوا يلقبونها بأى على زينب والثانية "سكيئة" وكانوا يلقبونها بأى حسين سكيئة .

جاءت زوجة عمى محمود الى منزلنا قبل زوجة عم أبى مصطفى ، ولكنها جاءت بعد أمى . جاءت وكان زوجها هو الشقيق الأصغر . جاءت وقد سبقتها الأحاديث عن أسرتها وعن أبيها "على أفندى" الذى كان يعمل كاتباً أو شيئاً من هذا القبيل فى دائرة أحد أمراء الأسرة الحاكمة . كانت زوجة عمى محمود يتيمة أيضاً وتزوج أبوها من سيدة أخرى . وكانت لاتعيش مع أبيها . وقد وجدت مكاناً فى أسرة أمها المتوفاة . كان أبوها يعرف القراءة والكتابة وكانت هى مثل أمى لاتعرف القراءة والكتابة . لم تعرف سيدة أو أنسة من أسرة جدى لأبى القراءة والكتابة . اهتم جدى لأبى ان يعلم أبى وأن يعلم عمى وأن يعلم أخاه غير الشقيق مصطفى القراءة والكتابة . كان هذا الجد يحفظ القرآن الكريم ويرتله ترتيلاً جميلاً يسمعه أهل المنزل بل يسمعه أهل الحارة عندما كان يصلى صلاة العشاء . وكانوا يصغون اليه فى شغف . وكنا ، جميع أعضاء الأسرة وأطفالها عندما جاءوا الى الحياة ، نستمع لتلاوته أيضاً فى شغف . كان ترتيله صافياً سلساً مؤثراً ولم يكن من حظ عم أبى عبد الفتاح أن يتعلم شيئاً لأن مستوى ذكائه لم يكن يرقى الى ذلك .

وجاءت زوجة عمى محمود من بيئة ثقافية اجتماعية غير بيئة أبى وأمى . فقد كانت بيئة أبى الثقافية الاجتماعية هى نفس بيئة أمى . كانا من نفس الحارة ومن نفس "الحنة" ، حى الخليفة أما زوجة عمى فقد جاءت تحمل على كتفها ثقافة أخرى وخبرات انسانية أخرى . كان أبوها "على أفندى" موضوعاً لافتخارها . فهو أفندى . وهى وإن لم تعش معه بعد وفاة أمها فقد كانت تذهب الى منزله الذى كانت تدبره زوجة أبيها لزيارته ، وربما كانت تعيش أياماً ثم ماتلث أن تعود الى أسرة أمها المتوفاة . وكانت فى أثناء زيارتها ترى "الأفنديات" أصدقاء أبيها ، وتسمع منهم وعنهم الكثير ، كانت تعرف الحياة التى يحيونها . وكانت حياة أبيها مثلاً أمامها يحكى أنماط السلوك والعلاقات التى تتضمنها هذه الحياة . ومهم يكن فقد كانت الحياة تختلف كثيراً كثيراً عن الحياة التى وجدتها

بعد زواجها . حياة كانت تراها أنها الافضل ولكن ماباليد حيلة .
فهي قد تزوجت ومالبثت أن حملت ، بل هي وضعت طفلها الأول
"عبد المنعم" ابن عمى شقيق أبى . ومع ذلك فقد تركت الحياة
السابقة على شخصيتها بصمات . فلم تستكن للأوضاع السائدة
فى منزل الأسرة الجديدة ، كانت تقف أمام أى مطلب لاترضى أن
تقوم به . فهي لم تضع يدها فى عجين أو غسيل . وهى لم تهتم
بالحماز وكل مايعلق بالحمار . كانت تأنف أن تفعل ذلك . لامانع
عندها من ان تخبز مثلاً أو تطبخ مثلاً ، ولكن ماعدا ذلك من أعمال
فهي لاتصلح لها ، وكانت تحاول أن تحرض أمى على التمرد ولكنها
كانت تفشل دائماً . فأمى قد اسرتها العادات التى تأصلت فيها
وأصبحت جزءاً من شخصيتها . انها مطيعة دائماً ، مستكينة دائماً
، متطوعة للعمل دائماً ، لاترضى لأحد سوءاً ، وتحاول مااستطاعت
أن "تخلى الطابق مستور" . انها راضية ، بما لها وماعليها ، مادام
زوجها راضياً عنها . هذا هو الأمل الاول فى حياتها . انها تسعد
برضاه ولاترضى عن غير ذلك فتتلا . ولتتمرد ام على زينب ماشاء
لها مزاجها فأمى "سداة" تعمل مايطلب منها أن تعمل عن حب
وكرامة . ولاداعى لأن يشعر أحد أو يعرف شيئاً . ان العمل
المطلوب قد عمل . وسواء عملته أمى أو امرأة عمى زينب فلاشئ
يهم . فهي اى امرأة عمى زينب قبل كل شئ "سلفتها" . ومن
حقها عليها أن ترضيها وان لم تتوقع منها رضى أو اعترافاً
بالجميل . وكانت ام على زينب تؤدى دورها بأسلوبها بعض
مايرضى أمى . فهي اذا مارأت ان الكيل قد طفع تبادر بالدفاع
عنها وتحميها وتحاول ان تنصرها على من يظلمها حتى لو كان جدى
الكبير أقصد جدى لأبى . كانت ام على زينب تناقش هذا الرجل
أحياناً . الامر الذى كان لايجرؤ أن يفعله أحد ، حتى لو كان أبى .
ولن انسى ذات مرة عندما كنت اجلس فى حجر جدى لأبى وانا
طفل ولكنى ادرك مايدحدث من حولى . لن انسى عندما كان ينادى
جدى لآبى طالباً أبى العملاق فى الطول والعرض ، الضخم ، ذا

الشوارب السوداء المفتولة ، لكى يمثل بين يديه . كنت ارى أبى وهو يحاول ان يضم خلايا جسمه لكى يقل هذا الطول ويتقلص هذا العرض وتخف هذه الضخامة ، وأراه واقفا واضعا يديه على صدره وكأنه فى صلاة . ويأمره جدى بأوامر لم أكن افهمها ويطلب منه اشياء لم اكن اعرف كنهها . وكان أبى يردد فى كل مرة بعد كل أمر يطلب "حاضر يابا" . وكان رأسى الصغير كالبنءول ارى جدى وهو يتحدث ثم التفت الى أبى وهو يردد "حاضر يابا" ثم اكرر ذلك مرات حتى ينتهى الحديث . ولكن زوجة عمى أم على زينب كانت تناقش هذا الجد الدكاتور أحيانا قائلة قبل ان يفتح فاه "حنعمل كيت وكيت ياسيدى" و "اللى انت طلبته ياسيدى مش يمكن يتعمل النهارده بكرة حنعمله ياسيدى" وهكذا . ومن ثم كنت ترى أهل البيت ، وقد وجدوا هذه الحظوة التى نالتها أم على زينب عند جدى لأبى ، وسيلة يطلبون عن طريقها ما يرغبون ان يعمله هذا الجد لهم ، وفى الغالب لهن ، من طلبات . فأم على زينب كانت تطلب عادة قبل ان يطلب منها . وهى التى كانت تقترح الحلول البديلة بدلا من تلك التى لايقدر عليها بشر . وهى أولا وقبل كل شىء التى كانت تطلب النقود من هذا الجد الذى كان لايرى شيئا أثمن من النقود . ان أم على زينب عندما جاءت الى أسرة جدى لأبى جاءت ومعها سلوك متمرد على أوضاع الاسرة السائدة ولكنه كان تمردا فى حدود طبعها . فالكلمة مازالت أولا وأخيرا للجد الرجل . وهو كأنسان لايمانع فى أن تناقشه امرأة لايمكن بحال من الأحوال أن تتضمن مناقشتها الاصرار على شىء لايراه أو لايرضيه . ويبدو انه كان يعتبر هذا الاعتراض من قبل أم على زينب أو هذه المناقشة نوعا من التغيير المحبب .

انظر الى هذه الام أم على زينب ومعها أمى وغيرهما من النساء الحاضرات والأطفال الموجودين وهم يضعون الأكل على "الطبلية" فى الصباح شبه المبكر لكى يتعاطوا طعام الأقطار . انظر اليهم جميعا إذ يسمعون صدى حذاء جدى لأبى وهو نازل من الدور

الأعلى على السلالم ذاهبا الى العمل . انهم جميعا النساء والاطفال الذكور والاناث يهرعون يسابق بعضهم بعضا . واحدة تحمل الاوانى وماتبقى فيها من طعام ، وأخرى تحمل أرغفة الخبز الكاملة والتي أكل منها ، وأخرى تحمل الطبلية ، ذاهبين بكل هذا الى احدى الحجرات . ثم يقف الجميع بلا استثناء فى نصف دائرة . فاذا مانزل جدى لأبى آخر "سلمه" وجدهم كذلك ، ثم يقول مكشرا عن انياب طقم أسنانه الصناعية وكأنه قرفان "صباح الخير" ويردد الحاضرون "صباح الخير ياسيدى" . ثم يضع يده فى جيبه وينادى أولا على النساء واحدة واحدة أمرا : خدى يابت ، خدى يابت ، خدى يابت .. ثم ينادى على الاطفال واحد واحد أمرا أيضا : خد ياولد خد ياولد ، خدى يابت .. وهذا هو المصروف اليومى . ثم يعطى أوامره عمايرغب فى طعام اليوم أو مايعن له من نزوات . ويخرج لينزل الى حوش البيت ثم الى الحارة ومنها الى الشارع . ومايلبث ان يدير ظهره حتى يهرع الجميع . يسابق بعضهم بعضا . ليحضروا الطبلية واوانى الطعام الذى لم يتم أكله ، وأرغفة الخبز التى لم تؤكل وماأكل منها ، وماكانت تحمل من أشياء ، ليستأنفوا طعام الإفطار . كل صباح كانت تؤدى لهذا الرجل هذه المراسيم ، ولم يكن يجرؤ أحد حتى أم على زينب أن يقول شيئا .

وبالاضافة الى ماسبق كانت أم على زينب تتفوق على نساء أهل البيت فى أمور أخرى . كانت تفصل الملابس وتخيطنها ، وكانت على دراية رائعة بشغل الأبرة ، فهي تصنع "البراقع" . وكل سيدة فى البيت أو فى خارج البيت من أهل الحارة أو من المعارف تهرع اليها لتصنع لها برقعها وبخاصة تلك التى اشترت "عروسة" لهذا البرقع من الذهب . فبرقع أم على زينب لايعلو عليه برقع . فهو مصنوع بدقة وذوق ويدل على الحذق والمهارة . وكانت أم على زينب تتقبل الهدايا نظير ماتصنع من ملابس أو من براقع . ثم بمرور الزمن كانت تتقبل النقود . وذلك لأن مرور الزمن ألقى الأعباء على أسرة عمى محمود ، فمكسبه قل وأولاده صاروا "كوم لحم" ، لم يصبح

عبد المنعم وحده ، وانما جاء زكى ثم فتحية ثم البرنس ثم سميرة ..
كروم لحم فى حاجة الى الطعام والشراب والكساء . وعمى محمود
أصبح يعيش عبثا على أبيه جدى فى المأكل والمشرب وفى
المسكن طبعا . كان هذا العم مسرفا اسراف السفه معتمدا على
أبيه فى معظم الحالات وعلى أخيه شقيقه أبى فى بعض الاحيان .

واذا كانت امى تحمل ولاتلد الا سقطا أو تلد ويموت أبنائها فإن
أم على زينب زوجة عمى شقيق أبى كانت تحمل وتلد ويعيش
اولادها . وإذا كانت أمى قصيرة الطول نسبيا مملوءة الجسم ذات
وجه مستدير وشعرها قصير أقرب لان يكون خشنا ، فإن أم على
زينب كانت فارعة الطول قوامها معتدل ووجهها أسمر مشرب
بالحمرة وشعرها ينساب على كتفيها حريرا أو كالحريز تمشطه فى
كل حين فى الصباح تراها تفعل ذلك وبعد الظهر (بعد العصارى)
قبل استقبال الضيوف تفعل ذلك أيضا . شعر طويل له امواج
كأمواج البحر الهادئ وتنعكس هذه الامواج ألوانا عديدة كأنها
ألوان قوس قزح . وأمام الضيوف ترى أم على زينب اعلاهن صوتا
وأكثرهن حديثا وروايات ، وإذا ضحكت انسابت ضحكاتها علوا
وانخفاضها فى لحن مسموع فى الحارة وعند الجيران . كانت
ضحكاتها مميزة تنم عن شخصها عند سماعها من بعيد . اما أمى
فقد كانت أمام الضيوف تتحدث الحديث العادى وتضحك الضحك
المحتشم ولاتبدأ حديثا أبدا ، وكلماتها كلمات الترحيب الصادق
الذى يدخل قلوب الحاضرات من الضيوف دون استئذان . كانت
عفة اللسان وتخل مما قد تسمعه من كلمات نابية من الحاضرات
أو من زوجة عمى أم على زينب وبخاصة تلك الكلمات أو اللمسات
أو غيرها من الأفعال التى تحدث عادة بين المرء وزوجه .

كانت هذه هى زوجة عمى زينب وكانت هذه هى أمى ، وكان أبى
هو ما عرف عنه حتى الآن : الابن الأكبر ، الابن الأغنى ، الذى لا
يعيش له أبناء على الرغم من فحولته الظاهرة البادية . وكان هذا
عمى الابن الاصغر ، الابن الأفقر ، الذى يعيش أبنائه على الرغم

من ظروفه غير المواتية . ومع ذلك فقد كانت أمى تتعايش مع زوجة عمى أم على زينب ، ووسيلتها الحب الذى يشعه قلبها الكبير ، وتعطيه لكل الناس بلامقابل تتوقعه ، كان عطاؤها ملاذها . كانت تعطى ليس فقط حبها الكبير لأبناء عمى . ولكنها كانت تعطى أهمهم كل ماتطلبه من الوان الطعام أو الشراب أو الملابس . كل ذلك لكى تعيش وكل ذلك من أجل أبنها الوحيد "سيد" أى من أجلى . ولكن أبى كان موضع الجدل النفسى المكنون بين نساء البيت وبخاصة زوجة عمى أم على زينب . فهى فى قرارة نفسها لاترى أو تعترف بأن أمى لاتستحق هذا الرجل . كان من حقه ان يكون بعلا لأخرى . ولم تذكر ذلك شفاهة لاحد ، ولكن سلوكها كان يشى بما فى قرارة نفسها . كانت تظهر مالايلق من امرأة متزوجة تعيش فى كنف اسرة كأسرة أبى التوجيهية أسرة ابيه وأمه وإخواته وأخوته . وكانت تتعمد ذلك . كانت تستقبل مثلا زوج اختها أو تلك التى تربت معها فى البيت . أجل انها كانت تستقبله على مسمع ومرأى من الجميع ! ولكن كيف يحدث هذا ، وسمعة الرجل كما كانت تحكى عنه تشوبها الشوائب ؟ وقد استقبلته ذات مرة وكان أبى فى البيت . وقامت القيامة من أجل ذلك ، وطرد الرجل ولم يعد . ولم يجرو عمى أن يقول لأبى كلمة واحدة ، ولم يعلم جدى بما حدث أو ربما علم ولم يثر شيئا . كانت أم على زينب تفعل ذلك وغيره لاعن خلاعة أو سوء سلوك ولكن متحدية مايسود المناخ الثقافى للأسرة كان من قيم . وكانت تفعل ذلك وغيره متحدية أبى فى بعض الاحيان

انها تعلم مكانة هذا الرجل وهى تنزله فى قلبها منزلة رفيعة ، ومع ذلك تراها تصرخ صراخا رهيبا وهوفى البيت عندما مر الجنود وهم مدججون بالسلاح أمام الحارة التى نسكن فيها لأن ولدها عبد المنعم كان فى ذلك الحين خارج المنزل ، كان يشترك فى مظاهرة ثورة ١٩١٩ . لم تجرو امرأة من نساء البيت أن تفعل ما فعلت امرأة عمى زينب وأبى موجود فى البيت . انها تعلم فى قرارة نفسها أن مافعلته فى بعض المناسبات وهو على مسمع منها لايرضيه ، ولكنها

تتحدى ذلك لأمور فى نفسها لعلها أن تكون أمورا انسانية متوقعة من البشر ، وهى من البشر ، أو أن تكون أمورا تظهر الاعجاب الذى تكنه لأبى فى لباس عدم المبالاة والتحدى . انها تعلم جيدا ما يحدث عندما يدق أبى على باب المنزل ، المغلق دائما ، فى الليل . والذى لايفتح الا لقریب أو جار أو شخص معروف . كان عندما يعود من عمله عند منتصف الليل أو قبل ذلك أحيانا تسمع له دقائق معروفة على باب المنزل ، فيصيح صوت من الداخل متسائلا "مين؟" فيسمع صوت أبى مرددا "محمد" ، فاذا بالباب يفتح "بالسقاطة" واذا بالمكان يخلو من كل انس ، واذا بأبى تستقبله على باب حجرته الذى يدخل من بابها ورأسه مائلا ولايخرج منها الا فى الصباح ذاهبا الى عمله . انها الرهبة التى كان يشعها الرجال فى ذلك الحين أو تلك التى كان يشعها بعض الرجال عندما يؤدون دور صاحب السلطة والنفوذ دور رب العائلة الرسمى أو الفعلى . تبدو هذه الرهبة فى هذه المواقف التى ان دلت على شىء فى تدل على الزهو الكاذب والصلف الذى لاداعى له . ولكنها الظروف الثقافية الاجتماعية والاقتصادية وحتى الظروف السياسية كانت كلها من وراء هذه الانماط السلوكية فى ذلك الحين .

وكانت زوجة عمى أم على زينب تتحدى كل ذلك عندما جاءت الى الأسرة زوجا لأحد أبنائها ، وكانت شابة تملأ شخصيتها الحيوية والبشر والتفاؤل . وعندما مرت السنون والايام علمها الدهر ان تتعايش فقد تضاعلت حيويتها وأصبح البشر شيئا باهتا وبدا التفاؤل أمرا يكاد أن يكون محالا .

وربما كان لزواج عم أبى مصطفى الأخ غير الشقيق لجدى لأبى دور كبير فى التغيير الثقافى الاجتماعى الذى حدث فى مناخ الأسرة . جاءت "أم حسين سكية" زوجا لعم أبى مصطفى . واذا كانت لأمى سمات شخصية معينة ولزوجة عمى أم على زينب سمات شخصية معينة أيضا ، فإن زوجة عم أبى مصطفى كان لها كذلك سمات شخصية معينة ، كان أبوها سودانيا ، أما أمها فقد كانت من

شربين بيضاء كاللبن الحليب ، فجاءت أم حسين سكيئة ابنتها ذات تقاطيع أقرب الى التقاطيع المصرية منها الى السودانية . كانت قمحية اللون ولم توجد فى تقاطيع وجهها ماينم عن أصل ابوها السودانى . ومن الغريب ان هذه السيدة كانت الوحيدة فى الحارة بل فى "الحنة" التى تعرف القراءة والكتابة من بين نساء الحارة والحنة جميعا . وهذه الميزة رجحت كفتها على هؤلاء النساء ومن بينهن نساء الأسرة بالطبع . وصلت فى دراستها الى مدرسة المعلمات ، ولكن أباهما "الحاج فرج" أثر أن يزوجه وتعود الى البيت ربة أسرة على أن تواصل التعليم لتخرج مدرسة تتقاضى مرتبا من الحكومة . وجاءت زوجة عم أبى مصطفى تحمل فوق كتفها هذه الميزة الرائعة التى لم تحملها أمى ولا زوجة عمى أم على زينب . فكانت لها مكانة اجتماعية من أجل ذلك . صحيح لم تكن جذابة مثل أمى أو مثل زوجة عمى أم على زينب ، ولكنها لم تكن قبيحة . صحيح أن زوجها عم أبى مصطفى ، الرجل الطيب ، لم تكن له مكانة مرتفعة ارتفاع مكانة أبى مثلا ، ولكنه فى ضوء أدوار الأسرة كان عما لأبى . وكان له احترامه من أجل هذا ولأنه "رجل طيب" يحفظ القرآن مثل جدى لأبى ويصلى ويصوم ويعيش "فى حاله" لا يؤذى أحدا ولا يدع أحدا أن يؤذيه . وشتان بينه وبين عم أبى عبد الفتاح الذى لم يتزوج من أجل سماته الشخصية وأهمها أنه كان أقرب الى أن يكون ضعيف العقل ، فهو لم يستطع أن يتعلم القراءة والكتابة ولم يكن يصلى وان كان دائم الصوم وبخاصة صوم شهور رجب وشعبان ورمضان . ولكن لما كان لاشئ فى هذه الدنيا مطلق ، فقد كانت لعم عبد الفتاح ميزة لا يستطيع غيره أن ينالها بسهولة . وتتلخص هذه الميزة فى انه كان يحمل جوال السكر وحمولته ٨٠ أقة أو حوالى مائة كيلو على كتفيه ، ويكرر ذلك ولا يمل ولا يملل . وكان يطحن البن بعد ان يسويه وهو أخضر ويمكث الساعات تلو الساعات . وترى حبات العرق تنضح من جبينه قطرات ولكنه لا يبالى . وكان هذا الرجل

يقضى أوقات فراغه وهى فى المساء عادة فى تأدية واجب العزاء بالأصالة عن نفسه دائما . فاذا مات شخص فى " الحنة " يذهب للعزاء ، ويحسب متى يجيء يوم الاربعين ليذهب معزيا واذا كان أهل المتوفى يؤدون واجبات الاحتفال بأيام الخميس الثلاثة بعد الوفاة فانه يذهب معزيا . ولايقف فى سبيله شىء الا أن يؤدى هذا الواجب حتى اذا كان يئن من التعب المرهق الذى ينال منه الكثير فى خلال النهار .

ولم تكن زوجة عم أبى مصطفى تعرف القراءة والكتابة فحسب ، ولكنها ، وقد يرجع ذلك الى بيئة أبيها الحاج فرج الثقافية الاجتماعية ، تتقن أشياء أخرى يتلطف عليها نساء جيل أمى وربما يتلطف عليها أيضا الكثير من نساء جيلنا المعاصر . هذه الاشياء تتضمن عمل الرقى والأدعية وأكبر من ذلك وأعظم كانت صلتها بالحاجة « صابرة » السودانية صلة وثيقة . والحاجة صابرة هى « كوديا الزار » ، وبيتها يستقبل فى أيام معينة العشرات من النساء اللاتى يرين فيها البركات والكرامات ويرين عندها الشفاء من الأمراض كل الأمراض ، كما يرين عندها اسعاف من تبتغى الحمل لأنها عاقر أو من تبتغى أن يحفظ الله عليها أبناءها لأنهم يموتون قبل الأوان . وهنا كانت الصلة الوثيقة التى توطدت بين أمى وبين زوجة عم أبى مصطفى أم حسين سكيئة . فأمى لايعيش لها أولاد ولابنات ، وأمى من أجل أشياء كثيرة ترجو أن يكون لها أولاد وبنات يعيشون من حولها ومن حول زوجها .

ويموت ستى حمدة جدة أبى ويزواج العمات أصبحت لأمى ولزوجة عمى أم على زينب ولزوجة عم أبى أم حسين سكيئة الحريات الكافية لكى يعشن سويا دون الكثير من المنغصات . ولكن جدتى لأبى كانت على قيد الحياة لاتزال ، ولكن وجودها لم يكن له تأثير كبير ، فهى سيدة لاتعرف شيئا فى الحياة سوى زوجها جدى لأبى . أى أنها لم تكن تتدخل فى أمور البيت فى قليل أو كثير . ومع

ذلك فإن عمتى أم بطة الأرملة وأبناءها نفيسة ورتيبة ومحمود كانوا أقرب أعضاء الأسرة إليها . أن عزوف جدتى لأبى عن التدخل فى شئون الأسرة لم يكن عن طواعية ، ولكنها كانت أوامر جدى لأبى أن تقبع فى حجرتها فهى فى رأيه لاتصلح لشيء الا أن تؤدى واجبها نحوه هى كأمراة وهو كرجل .

ثم ماتت عمتى أم بطة فجأة ، وصارت نفيسة ورتيبة وأخوهما محمود يتامى الأب والأم معا . فعاشوا فى أحضان أمى وزوجة عمى أم على زينب وزوجة عم أبى أم حسين سكيئة . وكان الجميع ومعهم جدى لأبى فى كنف رجال الأسرة وبخاصة جدى وأبى وعمى محمود وعم أبى مصطفى .

وميتة عمتى أم بطة لها ذكرى عندى لايمكن أن أنساها . كان اليوم أول شهر رمضان . وكان أهل الأسرة رجالا ونساء صائمين . وكنا نحن الأطفال لانصوم ، ولكننا كنا نرتع ونلعب فى البيت أحيانا وفى الحارة أحيانا أخرى . لقد استعد الجميع لهذا الشهر المبارك . ونحن الأطفال كان استعدادنا له يملك علينا مشاعرنا . كنت صغير السن ربما قد بلغت من العمر حوالى خمس سنوات . وقد اتفقت مع أولاد الحارة على أن نبني « مدفعا » من الطوب فى وسط الحارة حتى اذا ماجاء وقت الافطار وانطلق مدفع الافطار وكان قريبا منا نسمعه فى المناسبات وفى الأعياد ، انطلقنا نحن أيضا الى ضرب هذا المدفع الذى بنيناه والذى حشونا جوفه بالورق لكى نشعله فى الوقت المناسب . وكان الطوب حاضرا والورق موجودا ولكن أداة الاشتعال لم تكن موجودة ، وكان على " أنا أن اشتريها . وفعلا اشتريت " علبة الكبريت " ولكى لايراها أحد فى حوزتى وضعتها فى درج سرى لكنبة من الكنبات المفروشة فى " المندرة " التى هيئت ليجلس فيها جدى لأبى وأصدقائه بعد صلاة العشاء ليتسامروا أو يشربوا القهوة ويتحدثوا فى شتى الأمور ماشاء لهم الوقت وفى الغالب حتى وقت السحور أو قبل ذلك بقليل .

وعندما حان موعد مدفع الافطار ذهبت الى المندرة لأحضر علبة الكبريت . وكانت تقع المندرة فى حوش البيت وأمامها تقع حجرة عمتى أم بطة وأولادها . وسمعت عمتى أم بطة خطواتى وأنا أدخل المندرة لأحضر علبة الكبريت ، فاذا هى من ورأى تنادى على قائلة أمة " بتعمل ايه ياسيد " ، فأنكرت ماكنت أبغى أن أفعله وقلت لها " أنا عاوز أشرب " فأتت بالقلعة التى كانت موضوعة أمام شبك المندرة لكى أشرب ، ثم بعد أن شربت خرجت الى الحارة ، وبعد قليل عدت الى المندرة لكى أحضر علبة الكبريت التى أخفيتها فى الدرج السرى ، وما أن دخلت المندرة فاذا بى أرى عمتى أم بطة جالسة على البلاط مستندة الى ترابيزة الحجرة . كانت عيناها تنتظر الى البلاط وكان لون وجهها أصفر فاقعا . وناديت عليها فلم ترد . وجاءت ابنتها الكبرى نفيسة ، وكانت تكبرنى بحوالى عشر سنوات ، وما أن رأتها فى هذا الوضع حتى أخذت تولول وتصرخ صريحا حادا . وجاء أهل البيت . وسمعت النساء ، وكأنهن كورس ، صارخات مولولات . ولم أكن أدرى شيئا مما أرى ، ولكن احدى النساء مالبت أن أبعدتنى عن المكان . وذهبوا بعمتى أم بطة الى حيث لأعرف . والكورس مازال يجلس بالصراخ و " الصوت " ورأيت أبى بعد فترة من الوقت جالسا على " دكة الفقى " أى الدكة التى يجلس عليها الفقى كل صباح وهو يتلو القرآن الكريم . وكانت هذه الدكة بجوار " باب السكة " مباشرة ، يفتح له الباب ، فكان لايرى أحدا ولايراه أحد ويؤدى واجبه ثم يذهب الى بيت آخر وهكذا . وكان أبى يجلس على هذه الدكة ، وفجأة رأيت هذا العملاق يجهد بالبكاء بصوت مسموع لفت انتباهى وأثار عجبى ودهشتى . لأول مرة أواجه الموت وجها لوجه وأنا صغير السن لم أبلغ الخامسة من عمرى أو ربما بلغتها لست أدرى .

وبموت عمتى أم بطة أدارت دفة النظام فى الاسرة من الداخل زوجات أبناء الأسرة ، ولكن فى حدود . كانت عماتى أخوات الأزواج

يزين الأسرة أحيانا . وكانت هذه الزيارة فى معظم الأحيان مناسبة لقيام معركة بين زوجات أبناء الأسرة من ناحية وبين العمّة الزائرة أقصد أخت الزوج الزائر من ناحية أخرى . كانت معركة يدور فيها الكلام والصراخ والبكاء والدعوات ضد الظالم أو ضد الظلمة . ثم تنتهى وتخمد فى لحظة بالصلح بين الأطراف وربما ترن القبلات على الخدود أحيانا وعلى الاقواء أحيانا أخرى . وأطفال الأسرة وأنا منهم يرون كل شىء ويسمعون كل شىء ويفهمون بعض مايقال ولايفهمون بعض مايقال . ولكن كانت أشد العمات قسوة فى ضوء ماأذكر كانت عمّتى "أم سيد فقوسة" شقيقة عم أبى مصطفى . كان وجودها مكروها من الجميع . فقد كانت تبدو وكأنها العقرب ، تلدغ وتروغ كما يروغ الثعلب . وحتى بعد ان توفيت هذه السيدة وتنفست أمى وأم على زينب وعلى وجه الخصوص زوجة عم أبى مصطفى الصعداء ، خلفتها ابنتها "عيشة" . كانت الأخيرة تحمل فى طيات نفسها بذور الفتنة انى ذهبت . وكانت جاهلة لاتعرف الا كل شىء كرهى . كانت تجىء للزيارة من أجل أن تثير الزوابع وكانت تهدف دائما الى الحيف بزوجة عم أبى مصطفى أم حسين ، وهى سيدة كانت لاتتحدث كثيرا ، واذا تحدثت كان كلامها ناضجا ، وكانت كما كانوا يقولون "لسانها ينقط شهد" . فهى الأذكى وهى الأكثر علما وهى ، أيضا التى تعرف الاسرار ومنها أسرار آيات القرآن الكريم التى كانت تتلوها دائما أو كانت تجعل أطفال الأسرة يتلونها حفظا لهم من أعين الحساد . وأنا أذكر عندما ذهبت لأول مرة الى المدرسة الابتدائية وكانت "فتحية" ابنة عمى محمود و"سنية" ابنة عم أبى مصطفى تذهبان أيضا الى المدرسة الأولية . وكانتا أول من يذهبن الى المدرسة من فتيات الحارة بل ربما من فتيات الحطة كلها ، كانت زوجة عم أبى مصطفى تحتم علينا أن لانخرج من المنزل معا ، فكنت أخرج أولا ثم فتحية ثانيا ثم سنية ثالثا كل صباح ونحن ذاهبون الى المدرسة . وكانت أمى تقول لى قبل أن أخرج "اقرا قد جاءكم ياسيد" كانت فتحية وسنية

تفعلان ذلك أيضا . أمى كانت تقصد تلاوة بعض الآيات القرآنية التى أخذت زوجة عم أبى مصطفى على عاتقها تحفيظها لنا نحن الثلاثة كى يحفظنا الله ويصوننا . كل صباح كانت تكرر أمى التوصية بأن أقرأ :

"لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم" . (التوبة : ١٢٨ - ١٢٩)

وكنت أتلو هذه الآيات طائعا مختارا وأنا لأفهم من معناها أو مغزاها الا أنها وجاء يحفظى من الحسد والحساد ويصوننى من الشر وأهل الشر ، وأن هذه التلاوة ترضى أمى . ومن الغريب ان أمى حفظت هذه الآيات وكانت ترددها كل ليلة قبل ان تنام ، وبعد أن صارت لى زوجة وأنجبت ثلاثة أبناء وبنيتين كان من نصيب كل واحد منهم عندما يبلغ أو تبلغ السن المناسبة حفظ هذه الآيات . كانت تقوم أمى بهذا الواجب الثقافى . وهكذا تنتقل عناصر الثقافة من جيل الى جيل .. وهكذا تثبت أمى بالدليل الواقعى أنها كامرأة مثل غيرها من النساء حاملة للعناصر الثقافية فى المجتمع . ومع ذلك فأنا لأدرى هل تفعل ابنتاى مع أبنائهما ماكانت تفعله أمى معهما ؟

٢ - أبى فى أسرته الممتدة

ولأنكر متى ولدت بالطبع ، ولكن شهادة الميلاد تقول إننى ولدت فى يوم ١٧ من شهر فبراير عام ١٩١٣ ، قبل قيام الحرب العالمية الأولى . وقد حملت أمى فى الفترة الأولى ، وربما كان ذلك فى الشهر الأول ، لزوج زوجة عم أبى أم حسين سكيئة . وقد لعبت زوجة عم أبى هذه دورا كبيرا وبخاصة عندما علمت ان أمى ولدت مرات ولايعيش لها أبناء ، فاقترحت على أمى اسم صاحبة

نكرامات والبركات " الحاجة صابرة " كودية الزار اياها . فهي فى
يدها عن طريق اجراء بعض الطقوس أن تحفظ الحمل حتى يأتى
أوان الولادة ، وهى فى امكانها ان تحفظ المولود حتى يشب
ويتعرع ويعيش ماشاء الله له أن يعيش . ولكن كيف السبيل الى
ابلاغ أبى وأخذ اذنه حتى يوافق على إجراء هذه الطقوس ؟ ان
أمى لاتجروء على هذا ابدا . وبخاصة فإن بعض هذه الطقوس
يقتضيها أن تخرج من البيت أكثر من مرة حيث تسكن الحاجة
صابرة . ان خروج أمى من البيت الى بيت أبيها الذى يبعد أمتارا
من بيت الزوجية يحتاج الى إذن ، وقد يرفض طلب هذا الخروج فى
معظم الأحيان . فكيف تطلب أمى الاذن بالخروج الى بيت يبعد عن
البيت شوارع وحارات ؟ وهو بيت ليس فيه قريب من الاقرباء
المقربين أو حتى من غير المقربين . والحاجة صابرة وأمثالها فى
رأى أبى نساء دجالات لايحفظن عهدا ولايوثق فى أرائهن فكلها
ترهات لايرضى قبولها عاقل أو شخص على مستوى من الذكاء
كالذى كان يحظى به أبى . ومع كل ذلك فان أمى لرغبتها الملحة فى
أن يكون لها أبناء " يملأون عليها " البيت جازفت وطلبت منه الاذن
بالذهاب الى بيت الحاجة صابرة حيث " تبخرها " وهى حامل ، ثم
تذهب اليها مرة أخرى وهى فى الشهر التاسع لتقوم بإجراء طقوس
أخرى منها التبخر وذبح حمامتين لهما أوصاف معينة لتغمس فى
دمائهما ملابسها أو بعض ملابسها التى يجب أن تلبسها فى أثناء
الوضع ، كما تغمس فى هذه الدماء ملابس المولود التى يجب أن
يلبسها بعد ميلاده مباشرة . وهذه العمليات بالاضافة الى ماتتمتم
به الحاجة صابرة من كلمات مسموعة أحيانا وغير مسموعة أحيانا
أخرى ، تعنى الطقس المعروف " بالعقد " . كل ذلك من أجل ان يتم
الحمل والولادة بسلام وحفظ المولود حتى يعيش ويكبر ماشاء الله
له أن يعيش . وكان هناك شرط هام جدا هو أن يأتى المولود على
فترات محددة لكى تقوم الحاجة صابرة بتبخيره ، وشرط آخر قد
يكون أهم من الأول أو فى أهميته هو أن يحمل أحجبة معينة .

والتبخير على فترات محددة وحمل الأحذية عمليتان مستمرتان على الدوام . فالمولود يصبح فى محيط الـاهل والأقارب وغيرهم إذا لزم الأمر "ابن بخود" ، أى أن عملية التبخير لازمة له إذا ماواجه فى أثناء حياته صرفا من صروف هذه الحياة كالمرض أو إحدى الأزمات النفسية مثلا . أما الأحذية التى يلزم أن يلبسها على الدوام فهى لازمة له لكى تحفظه ليبقى ويعيش ويتمتع بالحياة .

طلبت أمى من أبى الاذن فى الذهاب للقيام بهذه الواجبات حتى تتمتع هى كما يتمتع هو بمتعة وجود الأبناء . وهاج الرجل وماج وهدد بأنها إذا فعلت فانه سيرميها من الشباك لتتزل بما تحمله فى الحارة على أم رأسها ! أو أنه من باب اليسر وعدم التعقيد ، أى ببساطة شديدة جدا ، يطلقها !

كانت أمى تتوقع هذا الرفض البات الذى لارجعة فيه ، ولكنها كانت فى قرارة نفسها تؤمن بما لقنته اياها زوجة عم أبى أم حسين سكينية . فهى سيدة متعلمة تعرف أكثر مما تعرف بل أكثر مما تعرفه سيدة أخرى . فكان لها أن تستسلم لأبى فى الظاهر ، وأن تؤكد لها أن طلبها كان مجرد رغبة ، وأن رفضه الاذن لها فى عمل هذه الطقوس على العين والرأس . ولكن الرغبة فى الأمومة المستمرة العارمة كانت تأخذ عليها كيائها كل كيائها . فباتت ليلتها ، ثم أدت واجباتها نحو أبى فى أثناء النوم وفى الصباح حتى خرج الى سبيله كما كان يفعل على الدوام . وتركته مطمئنا الى أن أوامره لانقض فيها ولا ابرام . وجاءت الى زوجة عم أبى بعد خروجه ، وضمت اليهما زوجة عمى أم على زينب . وتشاور الثلاث نساء زوجات أبناء أسرة أبى ، وانتھين الى رأى حاسم . لاتذهب أمى الى الحاجة صابرة ، بل هى تأتى اليها . وفى الوقت المناسب أى فى شهر الولادة ترسل الملابس اليها وتذبح الحمامتان ، وتغمس فى دمائهما ملابسها أو بعض ملابسها التى يجب أن تلبسها فى أثناء الوضع كما تغمس فى نفس الدماء ملابس المولود التى يجب

أن يلبسها بعد ميلاده مباشرة . ولكن مجيء الحاجة صابرة الى المنزل له ثمن أعلا من الثمن الذى تتقاضاه اذا ماذهبت أمى اليها . لا بأس من هذا أبدا وان رائحة البخور اذا ماقامت الحاجة صابرة بتبخير أمى يعنى أن أبى سيسمها ، اذن فلتبدأ بالبخور من الآن حتى يتعود أبى على رائحة البخور . ولعله لا يمانع اذا ماقامت أمى بتبخيره كل يوم أو كل بضعة ايام وذلك باشعال " المنقد " ووضع البخور الموصوف وماعليه الا أن يخطو فوق المنقد اذا أراد خمس مرات أو سبع مرات . ومن العجيب ان أبى وافق على أن يقوم بهذه العملية كلما طلب منه ذلك ، ولعل ذلك يرجع الى انه أيضا فى قرارة نفسه يرغب رغبة عارمة فى أن يكون له أبناء يملؤون عليه حياته كأبناء أخيه الشقيق الذى ولدت له زوجته حتى الآن عبد المنعم وزكى وزوجته بدأت تحس بأعراض الحمل التى انبثت بعد ذلك فتحية . وقد اشترط على أبى انه بعد أن تضع أمى الطفل فى أمان فان عليه أن لاترى عيناه الدعجواتان قسمات وجهه وأن لا يحمله بين يديه الا بعد انتهاء طقوس " السبوع " . أى بعد خلع الملابس التى انغمست فى دم الحمامتين حتى لا يرى هذا الدم . وقد وافق الرجل على هذا الشرط أيضا . ان الألم يحز فى نفسه إذ يتذكر أبناءه الذين ماتوا بعد ولادتهم بقليل وحتى الذين لم يولدوا ولم تمر شهور حملهم فى بطن أمى فى سلام .

وولدت أمى ، أى جاءت بى الى الحياة ، وكانت زوجة عمى أم على زينب حاملا فى شهر أو فى شهرين لست أدرى تماما . وعندما ولدت فتحية كانت زوجة عم أبى مصطفى قد حملت ، وبعد انتهاء الحمل جاءت الى الحياة سنية . وقد فعلت زوجة عم أبى كل طقوس العقد فى أثناء الحمل وفى أثناء الولادة وبعدها . أما زوجة عمى أم على زينب فلم يههما هذا الأمر فى شىء فلديها عبد المنعم وزكى ، وهى تعيش كما كانت تقول " بالتكال " . ومع ذلك فان عملية التبخير واشعال المنقد ووضع البخور الموصوف فيه وتخطية المنقد خمس

مرات أو سبع مرات كانت الشغل الشاغل للجميع ، وبخاصة ، اذا جد فى امور الحياة جديد ينغص هذه الحياة ، كأن تقوم معركة كلامية بين نساء البيت بسبب زيارة أخت زوج أو غيرها من صاحبات العيون " اللى عاوزه رصاصة تندب فيها " أو اذا مرض طفل أو عضو من أعضاء الأسرة من الكبار مرضا عارضا ، أو اذا كان الجد الأكبر لأبى غضبانا أو يدعى أنه غضبان فلا يوفر للأسرة مايجب أن يوفر لها وبخاصة فى المناسبات والاعيد ، ومناسبات شهر رمضان مثلا ، أو مجيء فصل الشتاء والحاجة ماسة الى ملابس شتوية أو غير ذلك من الأمور .

ويبدو ان مجيئ الى الحياة أعطى أمى مكانة أم صبى ، فالصبى كما يقال "يمنع العدو" . وقد فرحت أمى وفرح أحبائها أهل اسرة أبيها وخاصة خالتي أم محمد نبوية أخت أمى الشقيقة . وكان جدى لأبى مغتبطا للغاية . أما جدتى لأبى فكانت سعادتها كبيرة ، فمحمد ابنها أبى كان ابنا بارا بها . يكاد ان يقدها ، ويؤزرها فى حجرتها كل يوم جمعة ليعطيها "المعلوم" الذى تتوقعه دائما . واذا تراه يفعل ذلك ، وكنت بعد ان وعيت أفعل ذلك ، تجده الابن العظيم الذى يدل الام الحانية التى تعيش حياتها وكأنها كانت لاتعيش . ولم يتأخر أبى عن فعل ذلك أسبوعيا ، الا لضرورة قصوى كأن يلم به مرض أو يلزمه عارض كالسفر مثلا .

وبعد مجيئ الى الحياة ومجيئ فتحية وسنية بدأ العصر الذهبى لزوجات أبناء أسرة "الشيخ أحمد عويس" جدى لأبى . فقد جئنا والحرب العالمية الأولى جاءت بعد مجيئنا . وكان التغيير الذى حدث فى رجال الأسرة تغييرا سريعا فجدى صاحب دكان "العطارة" فى حى السيدة عائشة حى الخليفة أصبح وكيفا "لشركة شل" التى تباع البترول والبنزين وشبحوم السيارات وزيتوها فضلا عن "الشمع" . وحل محله فى دكان العطارة ، التى ورثها عن أمه ستى حمدة وكان يشترك أبوه معها فى ادارتها قبل

أن يموت ، عمى محمود شقيق أبى ، وزاول أبى تجارة البقالة بالجملة ونصف الجملة ثم القطاعى فى مكان خاص أصبح يسميه الناس فيما بعد "بالوكالة" ، وأخذ عم أبيه غير الشقيق عبد الفتاح ليعمل معه ويعيش فى كنفه أما عم أبى مصطفى فاستمر مستقلا فى حانوته الذى استقل به بعد زواجه مباشرة . وكان يقع هذا الحانوت فى نفس الحى بعيدا عن دكان العطاراة والوكالة . أما جدى فافتتح له مكتبا بالقرب من ميدان العتبة الخضراء بعيدا عن حى الخليفة بشوارع وحارات ويقع فى حى الموسيقى . كان هذا الجد الوكيل الوحيد لشركة شل فى مدينة القاهرة . وكان تجار هذه المدينة يجيئون اليه حيث يكون من كل صوب وحذب ليدفعوا مقدما ثمن ما يشترون من بترول . وكان اسم الشيخ أحمد عويس بينهم على كل لسان وأصبح فى خلال سنين الحرب وبسببها أحد أغنياء الحرب . وأشتري البيوت فى حى الخليفة حتى بلغ عددها عشرة بيوت ، كما اشترى الدكاكين التى بلغ عددها عشرة كذلك . وكانت دكاكين أبى وعمى محمود وعم أبى مصطفى من أملاك جدى لأبى . لايدفعون لها إيجارا وقد تركهم جدى لأبى يعملون مستقلين أو شبه مستقلين "وكل واحد وشطارته" . واضطرت الحرب ومكاسبها رجال الأسرة لكى يزيديا من مكاسبهم وأرباحهم وكان شغلهم الشاغل العمل بما يشبه الاستمرار وذلك لان المكسب "حلو" . وكانت فرصة لزوجات ابناء أسرة الشيخ أحمد عويس . أصبحت المعيشة أكثر من رغبة . وأصبحن يشعرن بالحرية من وراء أزواجهن . فأمى تذهب الى بيت ابيها دون ماأذن من أبى ، وزوجة عمى شقيق أبى كانت تستقبل الضيوف وتذهب مع زوجة عم أبى مصطفى تردان الزيارة ولاحسيب ولارقيب سوى ضمير كل واحدة منهما . والحق يقال أنه كان ضميرا حيا نابضا بالطهارة والعفة . ويبدو ان العلاقة بين الزوجات الثلاثة قد توطدت . وكان يحس بهذا كل من فى المنزل الكبار والاطفال جميعا . ومرت السنون . وكان هم كل أب أبى أو عم محمود أو عم أبى مصطفى أن يتعلم الأطفال .

كان عبد المنعم فى مدرسة "العمم" بشارع "عوام بيه" بحى الخليفة لكى يلحق بعد اتمام الدراسة فيها بجامعة الأزهر الشريف . واختار عمى محمود شقيق أبى ليكون زكى تلميذا فى إحدى المدارس الابتدائية لكى يحقق هدفاً آخر . وبدأ يرسلنى أبى الى كتاب "الشيخ طه" أولاً ثم الى مدرسة السيدة عائشة الاولى ثانياً حتى بلغت سن الثامنة ، وبعد ذلك حقق حلمه الكبير فى أن ألتحق بمدرسة "أم عباس الابتدائية" المدرسة التى تعلم فيها الزعيم المصرى "مصطفى كامل" ، أما فتحية وسنية فقد ذهبتا مباشرة الى المدرسة الاولى ثم الى المدرسة الراقية لتكون كل واحدة منهما مدرسة فى المستقبل ، ويتحقق ذلك بالنسبة لسنية حلم زوجة عم أبى مصطفى أم حسين سكينه ، حلمها الذى كان . وكانت فتحية وهى فى سن قريية منها تصحب سنية أملاً فى أن يتحقق لها ما يتحقق لسنية .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى قام الشعب المصرى العظيم بثورته فى عام ١٩١٩ ، وفى خلال ثورة ١٩١٩ أذكر اننى شاركت فيها مرتين . الأولى وأنا فى المدرسة الاولى قام التلاميذ الكبار بالمظاهرات للاضراب عن العمل فتظاهرت معهم ولم أكن قد بلغت السادسة ، والثانية عندما جاءت "لجنة ملنر" كنت أهتف مع الهاتفين دون ماوعى أو ادراك الهتاف السائد : "فلتسقط لجنة ملنر" وإننى أذكر أيضاً ماقالته لى أمى فى أثناء هذه الثورة الشعبية العظيمة هذه الأم التى عرف القارئ حتى الآن بعض سمات شخصيتها التى لاتدل ابداً على الوعى الوطنى الكافى لا عن تقاعص ولكن لان هموم الحياة الأخرى وظروف نشأتها قد أعجزتها عن ذلك . قالت لى وعيناها مغرورقتان بالدموع "ياسيد اللوا سموه .. سموه الانجليز " ولم أعرف من أو ماهو "اللوا" وإن عرفت المقطع الثانى . وكانت تعنى "اللوا" الزعيم مصطفى كامل الذى مات وهو فى شرح الشباب . ومن أجل ذلك سرت فى صفوف الملايين أن هذا الزعيم العظيم لايمكن أن يكون قد مات ميتة

طبيعية وأن أعداءه واعداء المصريين هم الذين قتلوه بالسهم ومن يكون هؤلاء الأعداء سوى الانجليز أعداء الحرية التي كان ينادى بها ، بل كرس حياته القصيرة من أجلها هذا الزعيم .

وتسميتى " بسيد " لم تكن صدفة ، فقد وهبنى أبى ، تحت الحاح أمى بايعاز من زوجة عم أبى أم حسين سكيته ، الى " السيد البدوى " لأكون فى كنفه وتحت رعايته ، تماما كما كان يفعل أجدادنا الفراعنة فقد كانوا يسمون أطفالهم بأسماء الآلهة ليعيشوا لأنهم فى كنفهم وتحت رعايتهم . والملاحظ أن تسمية أبى لابنه البكر منسوباً الى الزعيم مصطفى كامل يعتبر شيئاً من هذا القبيل . فالمصريون على مر السنين والازمان كانوا ومازالوا يفعلون ذلك . كانوا ينسبون أطفالهم الى الآلهة بتسميتهم بأسمائها ، ثم بتسميتهم بعد ذلك بأسماء الأنبياء والقديسين والأولياء وأسماء العظماء أو من حكمهم فى الشهرة مثل الملوك والحكام . لم يختار أبى ، وكان هذا من حقه وهو الابن البكر لآبيه جدى لأبى ، ولم يطلب منه أحد ، اسم آبيه لابنه الأول - كما يفعل الآباء فى الاسر الريفية . ولكن عمى محمود شقيق أبى فعل ذلك ، فقد سمى ابنه الأول البكر " احمد عبدالمنعم " وان كان الاسم المشهور به مجرداً من اسم أحمد ، فقد كان بين أعضاء الاسرة معروفاً بأنه " عبدالمنعم " فقط . ومن أجل تسميتى كان على أهلى من رجال أسرة أبى أو أسرة أمى أن يسافروا بى وأنا طفل لسنوات الى طنطا حيث يوجد مقام ولى الله " السيد البدوى " . لنؤدى واجب زيارة ضريحه والتبرك بتجليات هذا الولى . وكان من بين الأسماء التى كانت تطلق على فى الصغر وحتى عندما أصبحت صبياً أذهب الى المدارس اسم " شيخ العرب " فالظروف جعلتنى الذكر الوحيد فى الأسرة الذى يبقى فى المنزل عندما يذهب رجال الأسرة وشبابها عبد المنعم وكان يكبرنى بخمس عشرة سنة وزكى وكان يكبرنى بعشر سنوات وربما أكثر من ذلك . فكنت موضع التدليل من جميع الاناث اللاتى يبقين فى البيت أو اللاتى يكن من

الزائرات . ولم يكن يحلو لهؤلاء وأولئك الا أن يسلمن على بالقبيلات التي كنت أسمع صوتها يرن في أذنى كالطلقات وأكاد أن أختنق من رائحة العطور التي يتعطرن بها ورائحة حبات العرق التي كانت عندما يجئن من الخارج تملأ وجوههن . كان لا يحلو لهن الا أن يقبلننى في فمى الصغير وبخاصة خالاتى غير شقيقات أُمى (حميدة وعزيزة وزهرة) اللاتى كن فى سن الزواج فى ذلك الحين . وكنت موضع التكريم وبخاصة عند تناول الطعام ، فالملك لوجودى "يشيل الطبلية" . كنت ادعى لتناول الطعام لكى تحمل الطبلية على رأس الملاك ، وأذكر اننى كنت أتلکأ عن عمد فى تلبية الدعوة لكى .يكثر الاحاح عليها .

وحتى فى محيط ذكور الأسرة فيما عدا ابنى عمى اللذين كانا يترفعان على فى بعض الأحيان بل فى الكثير من الأحيان فلا يتحدثان الى حديث المودة ، كان جدى لأبى يسعده أن أذهب الى حجرته لكى أجد أبناء الأسرة من حوله أبناء الجيل الثالث من الأحفاد . كان هذا الرجل على الرغم مما يبدو عليه من تجهم فى الكثير من الأحيان ، لطيفا ظريفا مع هؤلاء الأحفاد . كان لايمانع أبدا فى أن يرى فتحية ابنة عمى محمود وهى فى سن الرابعة أو الخامسة ترقص وتغنى أمامه ، والكلمات تخرج من فمها مفككة متأكلة . وكنت تراه ومن يحيطون به فرحين سعداء . وأننى أذكر بعض فقرات هذه الأغنيات التي كانت تغنيها فتحية ، وهى مازالت فى سن الرابعة أو الخامسة من عمرها ، كانت تغنى راقصة :

"الطرح يابنات الامشاط والفليات"

وكانت تنظر الىّ إذ يرتفع صوتها ، وجدى لأبى يضحك ملء فمه . وكل من فى الحجرة يفعل ذلك ، ولعلى كنت أكثرهم حبورا أو غورا ، فقد كانت تقول وهى تغنى راقصة اغنية :

"مظلومة وياك ياابن عمى"

واذكر ماكان يفعله جدى فى ذلك الحين عندما كان يدعو احد
الاحفاد الكبار لكى يقرأ امامه وهو يصغى - ونحن أيضا نصغى -
جريدة اليوم . واذا ماأخطأ القارئ كنت ترى الجد يصصح الخطأ
وهو واثق من نفسه فتعلو قامته أمامنا وترتفع أكثر فأكثر . وعندما
ذهبت لأول مرة الى المدرسة الابتدائية ، . جاء دورى لكى أقرأ
جريدة اليوم . وتمر الايام وقد حدثت واقعة السردار الانجليزى
حاكم السودان المشهورة فى غضون شهر نوفمبر عام ١٩٢٤ .
فدعانى جدى لأبى لكى أقرأ الجريدة عن هذه الواقعة وعن تطور
التحقيق فيها . وكان يصصح لى أخطائى أولا بأول لم اكن أتأفف
من ذلك أبدا ، بل على العكس كنت راضيا مغتبطا .

وكانت معاملة أبى معاملة ناضجة ، فيها الحب العاقل والمشاعر
الرزينة أكثر من الحب الفياض والمشاعر الجارفة . كان يحبنى
مافى ذلك من شك . ومع ذلك فقد كنت أراه فى بعض الاحيان
قاسيا . كان يصحبني معه قبل غروب شمس أحد أيام الجمعة يوم
أجازته الأسبوعية فاركب معه الترام . وكان يتيح لى فرصة الذهاب
الى مسرح "على الكسار" فى حماية صديق ، ويبقى هو فى
الخارج مع باقى الاصدقاء بجوار المسرح لكى يمارس معهم لعبة
"الدومينو" . وكان ينتظرني حتى ينتهى العرض فنعود سويا الى
المنزل . ويدق على الباب فأسمع صوت أمى أو غيرها من نساء
البيت ترد قائلة "مين ؟" فاذا به فى رباطة جأش يقول بصوت أمر
"محمد" فيفتح الباب للتو ، ويدخل سويا فاذا بأمى والنوم يداعب
جفونها واقفة على باب حجرتنا منتظرة مرحبة . وكان أبى وأمى وأنا
معهما نخرج سويا لزيارة ضريح أحد الاولياء ، وكان هذا نادرا .
ولم اكن أدري وأنا حتى الآن لاأدري لماذا كانت هذه الزيارة ؟ كنا
نخرج أبى ممسكا بيدى ، وأمى فى ملأها السوءاء غالبية الثمن
والبرقع ذو "العروسة" المصنوعة من الذهب الخالص يغطى
وجهها ، تسير على بعد من ورائنا . وكثيرا مااختلست النظرات
اليها ، فأراها وكأنها كانت تتعلم السير لاتزال . كانت تسير فى

احتشام ووقار على بعد من ورائنا . وإذا ما عبرنا الحارة وشارع البقلى بحى الخليفة الى شارع السيدة عائشة ، نقف أبى وأنا معه ننتظر أمى لكى تركب معنا عربة "حانطور" كانت تنتظر فى بقعة قريبة من "كشك الترام" حددها أبى فى الغالب لكى يقف السائق فيها باتفاق سابق معه . وكان موعد الزيارات الى أضرحة الاولياء فى العادة موعدا مبكرا ، فبعد تناول وجبة الغداء واستراحة قصيرة بعدها ، نستعد للخروج من البيت . ونسير الى حيث توجد عربة الحانطور ، ثم نركب زاهبين الى ضريح الولي المختار ، قد يكون ضريح "سيدنا الحسين" أحيانا ، وقد يكون مزار "سیدی المغاوری" (بالقرب من قلعة محمد على) أو قد تكون الزيارة لضريح "السيدة زينب" أحيانا أخرى . كنت صغير السن لأدري العوامل الحقيقية من وراء هذه الزيارات . وكان يطلب أبى منى أن أقرأ الفاتحة للولي وادعو ماشاء الله لى أن أدعوه وكنت أراه يوزع النقود على العديد من الناس الذين يجلسون فى المكان أو حول الضريح ، كانت أمى تقرأ سورة الفاتحة بصوت مسموع وكأنها تؤكد لنفسها أو لمن حولها أنها تحفظ آياتها فعلا ، وكانت تدعو ماشاء الله لها أن تدعو ، وكانت الدعوة المفضلة عندها أن يرزقها الله بأخ أو أخت لسيد بن زنوبة . أما أبى فقد كان يقرأ الآيات القرآنية فى صمت ، وكان يتمم بكلمات لم أكن أستطيع سماعها وما كنت أسمعه منها لم أكن أستطيع استيعابه . وفى كل مرة نخرج كانت أمى تذكرنى دائما بأن أقرأ "قد جاءكم" ، وعلى كل حال فأننى كنت أفعل ذلك غير منتظر منها هذا التذكير فقد صارت لى عادة ان اتلو آيات "لقد جاءكم رسول من انفسكم ... ، وصارت لها عادة أن تذكرنى بهذه التلاوة . وبعد الزيارة نعود الى البقعة التى كانت عربة الحانطور تنتظر قبل الذهاب ، ثم نترك العربة ونسير أبى ويده فى يدي أولا ثم أمى تسير على بعد من ورائنا . وكنت أختلس النظرات اليها وأراها على الرغم من هبوط ظلام مابعد الغروب وكأنها تتعلم السير لاتزال .

وإذا كان جدى لأبى فخورا بى لأننى أدرس فى المدارس وأنجح فى كل عام ، فان جدى لأمى كان فخورا بى أيضا . وكان من حسن حظى أننى لم أكن أجد عائقا فى الذهاب الى بيت جدى لأمى لقربه من المنزل أولا ولأننى ذكر . مازلت فى صباى نعم ، ولكن الصبى كما يقال فى التراث الثقافى المصرى " يمنع العدو " فمكانتى فى بيت جدى لأمى مكانة رفيعة من أجل ذلك . فوجودى يعنى أننى اعطيت أمى ثقافيا اجتماعيا حقوق الامومة وهى ابنة جدى لأمى ، ووجودى كذكر حصن لأمى أن تراث ماقد يتركه أبى اذا مامات بعد ان يرث حقه مما يتركه جدى من أموال أو عقار . ومن الجهة الأخرى ، فاننى اذا ذهبت الى بيت جدى لأمى أجد فيه خالاتى غير الشقيقات اللاتى لم يتزوجن حتى الآن ، وقد أجد خالتى أم محمد نبوية شقيقة أمى وقد لاجدها ، وبالضرورة أجد زوجة جدى . ولن يكون فى المنزل غير هؤلاء سوى زوجة خالى سيد التى انجبت طفلا يحبو تبنته زوجة جدى التى لم تنجب من زوجها السابق أو الحالى . وقد أجد زوجة ابن خالتى الشقيقة محمد التى ضمها بيت جدى لأمى منذ زمن قريب . أما ذكور البيت جدى وخالى وابناء خالتى محمد وعيسى ومحمود ويوسف فهم فى أعمالهم . أى أننى عندما اذهب الى بيت جدى لأمى اكون الذكر الوحيد بين حشد من النساء . وكُنْ وبخاصة خالاتى الفتيات الأبيكار يتفننن فى الاحتفاء بى والاهتمام بنزواتى . وكن يصرون على أن أتناول طعام الغداء معهن أحيانا . وكانت خالتى عزيزة ، وهى أصغر من خالتى حميدة وأكبر من خالتى زهرة تحجز لى " أعقاب السجاير الطويلة " التى كان جدى لأمى أو كان خالى سيد يتخلص منها . وكانت تغرى زوجة خالى بأن تختلس لى سيجارة أو أكثر من علبة سجاير زوجها . ومهما يكن من الأمر فقد غمرتنى هؤلاء الخالات وغيرهن مع أمى بالحب الانسانى بألوانه بما يكفينى وزيادة . وقد بقيت أثار هذه المعاملة معى وأنا فى سن المراهقة وبعدها وحتى الآن ، تلك الآثار التى جعلتنى أوزع الحب على الجميع ، على الناس على

اختلاف اعمارهم وانواعهم ومكاناتهم ، بلا من ودون انتظار مايقابل ذلك من أحد . فالحب الانسانى بألوانه يملأ عُلَى كيانى وعندى مايكفينى منه و زيادة . ومهما صادفنى فى حياتى من منغصات من الناس على اختلاف اعمارهم وانواعهم ومكاناتهم فحبى لهم يفيض عليهم دون ماحرج لايزال . اننى عشت حياة طفولة سعيدة جدا فيها . وقبول الناس الاقرباء المقربين وغير المقربين والغرباء والأصدقاء لى ، لم يكن يحتاج الى دليل .

وعندما حصلت فى عام ١٩٢٦ على شهادة الابتدائية اقام أعضاء أسرة جدى لأمى كل على حدة افراحا فى قلب كل واحد منهم . واذ أحضر شهادة الدراسة وفيها : "سيد عويس محمد بن الشيخ محمد أحمد عويس والمولود فى القاهرة سنة ١٩١٣ أتم الدراسة الابتدائية للبنين ونجح فى الامتحان بذلك فى سنة ١٩٢٦ الخ" ، كان هذا النجاح وكأنه نجاحهم . وقد فرح أبى ولكن كان فرحه بتحفظ شديد !! ونقض وعدا كان قد وعده لى اذا أنا نجحت فى الشهادة الابتدائية ، وهو أن يشتري لى "عجلة" (بسكليت) . نقض هذا الوعد ، وكنت حزينا للغاية من أجل ذلك . وكان أصدقاء أبى اذ بروننى فى هذه الحالة يحاولون أن يعرفوا السبب فلا أشفى غليلهم ، فاذا بابى يقول لمن يسأل وكأنه يسخر "ياسيدى سيد عاوز عجلة" ، وتكون السخرية واضحة ولاذعة فى التعليق على ذلك ، فيقول موجها الحديث الى "ياابنى العجلة من الشيطان!" ويضحك الحاضرون الذين كنت ألعنهم واحدا واحدا فى سرى . ومع كل ذلك . ماحدث فى هذه المرة وما حدث فى مرات سابقة ، فأننى مازلت اكن الحب والاحترام العميق لهؤلاء الاصدقاء . كانوا يجتمعون فى "الوكالة" عند أبى يتحدثون فى شتى الموضوعات فى السياسة فى أكثر الأحيان وفى الدين أحيانا وفى غير ذلك من الموضوعات أحيانا أخرى ، مما أثر على حياتى الثقافية وحببنى فى المعرفة . ومن العجيب ان هؤلاء الناس كانوا جميعا من أعضاء الحزب الوطنى حزب الزعيم مصطفى كامل

والزعيم محمد فريد . وكانوا يتعاطون مهنا شتى فمنهم الترزى (السراوى) ومنهم النقاش (عم عبده عليوه) ومنهم الأديب (كامل كيلانى) ومنهم ضابط الجيش (عبد العزيز راشد) ومنهم صاحب المكتبة (الشيخ ابراهيم يوسف) كانوا يحضرون معا أحيانا أو فرادى أحيانا أخرى . وقد لا يحضر لعذر أو لآخر بعضهم ولكن عم عبده عليوه النقاش كان دائم الحضور . فهو اذا لم يكن يعمل يحضر فى أثناء النهار وفى أثناء الليل حتى موعد الاستعداد للانتهاء من عمل أبى . وقد عرفت فى حينه لماذا نقض أبى وعده ، كان هذا الاتجاه من أبى يرجع الى خشيته غلى فى اننى إذ استعمل "البسكليت" قد أصاب بأذى . كان هذا كل مافى الأمر . وكان يرى أنه على صواب لأنه أبعد نظرا وأوسع أفقا . وكان هذا اتجاهه فى كل مرة يرانى أحاول ان أساعد أحدا فى إدارة العمل فى الوكالة ، فانا لم أخلق لان أحمل حملا ثقيلًا مثلا أو أساعد أحد العمال فى احدى عمليات التحضير الخاصة ببيع "بضاعة" الى عميل من العملاء . كان يخشى اذا أنا رفعت "سجعة" ثقيلة من "سنج" الميزان ان تقع من يدى فتسبب ضررا مافى جسدى . ومالى ان أفعل ذلك وعمال الوكالة كثيرون ، وهم يستأجرون وتدفع لهم الأجور من أجل ذلك . ولم تكن معاملة أبى لى تنتهى عند هذا بل انه كان يخشى على من الحسد . فقد حدث ذات مرة ان واحدا من أصدقائه قد فاجئنى بسؤال عن عدد من اذا ضربتهما فى بعض يكون حاصل الضرب مساويا لحاصل جمعهما ، فاجبت توا أن العددين هما ٢ و ٢ . ثم سارعت وسألته سؤالا كان ماهى الأعداد الثلاثة التى اذا ضربتها لبعض يكون حاصل الضرب مساويا لحاصل جمعها ، فلم يجر الصديق جوابا ، فضحكت ساخرا ان الأعداد الثلاثة هى ١ و ٢ و ٣ . ونظرت الى أبى فرأيت عينيه الدعاوتين فيهما الرجاء والتوسل بأن أصمت ولاأزيد . ثم بدأ يتحدث عن بعض أنماط سلوكى التى تظهر ضعفى كىافع فى سن الثالثة عشرة أو تزيد قليلا . ولن انسى قط إذ حان الحين لان تجرى

لى عملية الختان ، وقد اجلت هذه العملية حتى بلغت سن الثامنة أو قبل ذلك بقليل ، أى قبل أن التحق بالمدرسة الابتدائية . فما كان منه أن ارسل "الاسطى أحمد شحاته" الى المنزل وابى أن يكون حاضرا . وجاء الأسطى أحمد شحاته ، وهو حلاق صحى مشهور فى حى الخليفة حيث ولدت ومارلت أعيش فيه فى ذلك الحين ، وأجرى العملية وقد فوجئت بها . وإذا كان أبى لم يكن حاضرا فان أمى أيضا لم تكن حاضرة تركتني لزوجة عم أبى أم حسين سكيئة وزوجة عمى محمود ، وذهبت وهى واجلة الى بيت أبيها القريب من منزل الزوجية . تركانى أبى وأمى فى يد الاسطى أحمد شحاته لآعن جبن ولكن كما أنا متأكد الآن عن حب عميق منعهما من أن يواجها موقفا أكون فيه متألما . ومع ذلك فإن أبى كان لايتردد أبدا اذا ما انا شكوت من ألم يحتاج الى طبيب ان يأخذنى بيده الى طبيب توا . كان يفعل ذلك دائما . وقد فعل ذلك لأخى الأصغر "عبد الغنى" عندما مرض . ولكن القضاء قد حم فمات وهو لايزال طفلا صغيرا . وقد ران الحزن على قلب كل منا نحن الثلاثة أمى وأبى وأنا . كنت واعيا بما حدث . وكان موت أخى عبد الغنى المرة الثانية التى اواجه فيها الموت بعد وفاة عمتى أم بطه فى أول رمضان . وكنت أتغنى بين نفسى بكلمات الحزن والرتاء فى لحن حزين صادر من قلب مكلوم صغير . وعندما مرضت أختى "سكيئة" أرسلها أبى الى الطبيب توا . كان يأخذ أمى تحملها وكنت أصحب الجميع فى عيادة الطبيب المشهور فى شارع الفجالة بالقرب من شارع كلوت بك . وأذكر اننا ذهبنا ذات مرة وكان اليوم أحد ايام شهر رمضان ، كان أبى صائما وكانت أمى صائمة ، ولم أكن صائما . وبعد خروجنا من العيادة وبعد ان كشف الطبيب على شقيقتى وكان الجو حارا والشمس كانت مازالت ساطعة فطلبت من أبى أن أشرب ، فذهب بنى الى محل بيع المشروبات المثلجة وشربت كوبا من الليمون وشرب معى كوبا من الليمون كذلك ، مما أثار دهشة أمى وعجبها ، ولكنها اعتبرته معزورا وأعقل الناس اعزهم للناس . وكم حزن أبى

عندما ماتت سكيّنة . وكان حزن أمى أعمق وأكثر . فقد كانت تفضل ان تكون لها ابنة ، فالابنة "حبيبة أمها" ، وهى أى الابنة أيضا موضع "أسرار أمها" . وقد حزن فى قلبى موت هذه الشقيقة . فقد بدت لى أنها كانت على مستوى عال من الذكاء . كانت تفهم وتعقل ماتقهمه ، فقد كان حديثها يدل على هذا الفهم وهذا التعقل . كانت موضع حب الجميع ، ومن أجلها كانت "فاطمة" أخت "سنية" وابنة عم أبى مصطفى التى كانت فى سنها موضع حب وحنان عند أبى وأمى . كانت البنّتان تتناولان طعام الغداء كل يوم جمعة معنا نحن الثلاثة أبى وأمى وأنا . وكان أبى يعاملهما كأنهما ابنتاه . وبعد وفاة سكيّنة استمرت فاطمة على تناول طعام الغداء كل يوم جمعة معنا . واستمرت موضع الحب والحنان عند أبى وأمى . وعندما ارادت ام فاطمة بعد وفاة سكيّنة أن تحجزها عن تناول طعام الغداء يوم الجمعة التالى على الوفاة ، ثار أبى وتوعد وطالب باحضارها وكان ماحدث لم يحدث . فالبركة كما كان يقول الجميع فى "سيد" ، و "وربنا يخليه ويبارك فيه زى مابارك الزيت فى القنديل" .

وبقيت بعد عبد الغنى وسكيّنة وحدى . لم يعطنى أبواى أخا آخر أو أختا أخرى حتى ماتا . ولايمكن ان انسى مطلقا وحدتى الرهيبة والحرمان الذى كنت أجتره وحدى بعد وفاة أبى . فقد أحسست فى ذلك الحين أن أبى قد خذلنى . كنت أعتب عليه وأقول فى نفسى لماذا تركنى وأنا فى سن السادسة عشرة وأحد عشر شهرا ويوما واحدا ولم يكن لى أخ أكبر أو حتى أخ أصغر ، وكنت أفعل ذلك دائما كلما سمعت "محمد عبد الوهاب" يغنى من بعيد أحد أغانيه المسجلة على أحد الاسطوانات التى يديرها "جرامافون" الجيران والتى يتغنى جزء منها قائلا :

"صعبان على أشوف غيرى عاش متينى"

كانت تهزنى هذه الكلمات وكنت أرددها بأنفاسى وأقول فى

نفسى لماذا تركنى هذا الرجل وانا فى هذا السن الغضة وحدى ولم
تؤهلنى الحياة بعد لكى أعيشها وتعايشنى ؟

وليلة وفاة أبى أذكرها جيدا . كان اليوم يوم السبت مساء ١٨
من شهر يناير عام ١٩٣٠ . وكنت قد انتهيت يوم الخميس السابق
من امتحانات نصف السنة للسنة الرابعة الثانوية بالمدرسة
الخدوية الثانوية . وكنت مغتبطا فقد اديت الامتحانات وانا راض
عن نفسى . وكنت مغتبطا أيضا لأن أمامى أجازة أياما معدودات
أستريح فيها وأسعد . وفى يوم السبت مساء أويت الى فراشى
المجاور الى فراش أبى . كانت امى تنام معى عادة . وكان أبى ينام
وحده عادة . وفجأة استيقظت على حركات مزعجة ، أصوات
مختلطة ملهوفة ، ووجدت أهل البيت جميعا قد استيقظوا وكان أبى
نائما على السرير مستيقظا ولكنه كان يتنفس بصعوبة بالغة . وكان
بين الحين والحين يصرخ متألما . ويبدو أنه كان يعانى هبوطا فى
القلب . وجرى البعض لاجتماع الطبيب . ورأى البعض أن يبعدنى
عن أبى وهو يعانى مايعانى فأخذنى ابن عمى عبدالمنعم الى الدور
الأعلى حيث يعيش جدى لأبى مع جدتى لأبى ، وفيما أنا طالع
السلم سمعت أبى يصرخ بكل قواه قائلا " ياابنى " . ويبدو أنه لفظ
نفسه الأخير بعد ذلك . فالطبيب قد حضر ولكنه ترك الحجرة توا .
وجاء الأقارب المقربون من بيت جدى لأمى رجالا كانوا ونساء
واختلط الحابل بالنابل وتوالت الصرخات وكنت أسمع العويل من
كل مكان فى البيت وخارج البيت . ويبدو أن الخبر قد شاع وعرف
الجيران ماحدث كما أخبر الأقارب الذين يسكنون بعيدا عن البيت .
وطوال الليل كنت أسمع الصرخات والعويل ، ورأيت نفسى أبكى
وحدى ، وقد رافقنى ابن عمى عبدالمنعم وكان يعزبنى ويبدى الى
"النصح بأننى الان وقد مات أبى فقد أن الأوان لكى أحل محل أبى
فى الوكالة تخليدا لذكراه . ولم أدر ماذا أفعل أو ماذا أقول . لم
أكن مستعدا لمواجهة هذا الموقف قط . أن يموت أبى فجأة وأن

أواجه هذا الموت وحدى مع أمى . والحقيقة أن أبى لم يمّت فجأة ، فقد حدث له ما حدث منذ سنوات قليلة . حدثت له نفس الازمة ضيق التنفس ولكن الطبيب جاء فى الوقت المناسب وأسعفه ، وعاد الى حالته الأولى . وفى تلك المرة كنت نائما أيضا واستيقظت من نومى على همسات وهمهمات ثم صرخات . وبعد أن ذهب الطبيب وعاد أبى الى حالته الأولى ذهب الجميع الى حال سبيله ماعدا أمى وماعداى . وفى الصباح تطوعت زوجة عمى أم على زينب لتخبرنى بأن ما حدث كان نتيجة لمحاولة أبى أن يمارس حقوقه الزوجية ولكن أزمة ضيق النفس قد دهمته . ولم أعقب على ماقالته لى ، ولكنى كنت أعى المعنى الذى كان يدور بخلدها . كانت هى الأزمة الأولى منذ سنوات قليلة قبل أن تدهمه الازمة الثانية التى أودت بحياته ، ومن بعده أصبحت يتيما وعشت وحدى مع أمى التكللى .

وكنت ألاحظ منذ أن التحقت بالمدرسة الابتدائية أن تنفس أبى غير منتظم وأن هناك خطأ ما فى صحته . ذلك لأننى لكى أستعد للذهاب الى هذه المدرسة فصلت لى "بذلة أفرنكى" كنت ألبس تحتها قميصا وكان لابد من أن ألبس رباط عنق . وقد روى أن البذلة لكى تحمىنى لابد أن يكون لها بنطلون طويل . والمشكلة التى كانت أمامى وأمام أمى وأمام أبى كانت كيف أربط رباط العنق ، لم يكن أحد يعرف ذلك فى المنزل سوى زوجة عم أبى مصطفى أم حسين سكىنة . كانت تربط لى هذا الرباط يوميا . ولكن يحدث أحيانا أن يحدث سوء تفاهم بينها وبين أمى فترفض أمى أن أذهب اليها لتقوم بهذه العملية التى لم يكن أحد غيرها فى الأسرة يستطيع أن يقوم بها . عندئذ كان أبى يتطوع للقيام بها ، فكنت أسمع انفاسه تخرج من صدره ثقيلة ثقيلة وكان صوتها مسموعا وكان القلق يملأ فؤادى الصغير من أجل ذلك . كنت فى الثامنة من عمرى فى ذلك الحين ولاحظت تنفس أبى غير العادى وكان القلق يملأ فؤادى الصغير من أجل ذلك . وكان أبى يعلم ماعنده مافى ذلك من شك فكان يذهب الى الطبيب المعالج وكان يتعاطى الدواء .

ولكنه كان يدخن كثيرا ، وكان مولعا بالطعام ، يقوم بنفسه بتجهيزه طعاما دسما . وكان يصنع الاكل الذى يحتاج الى "الفرى الافرنكى" لكى ينضج . وكان له ذوق الاكل الذى يحب ألوان الطعام والذى يحب أيضا أن يدعو الأقران الى التهام هذا الطعام . انظر اليه وهو يتقن فى صنع "صينية الكنافة" مثلا أو فى صنع "صينية البطاطس باللحمة المفرومة" مثلا ، أو انظر اليه وبخاصة فى "عيد شم النسيم" وهو يشرف على "أكلة الفسيخ" وماتحتاج اليه من معدات كزيت الزيتون والليمون والبصل الأخضر وغيرها وغيرها . وأنا الآن اكاد أجزم أن الأكل الكثير الذى كان أبى يلتهمه وتعطى التدخين بشراهة كانا من عوامل مرضه المستمر وبخاصة فى العشر السنوات الأخيرة من حياته . انه كان يصوم شهر رمضان مثلا ، وعندما يضرب "مدفع القلعة" ايدانا بغروب الشمس ، وكان قريبا منا ، كان أول شىء يفعله أن يشعل سيجارة ومن ورائها سيجارة ثم يأكل ماشاء الله له أن يأكل . لاحظت مرض أبى منذ أن كان عمرى ثمانية أعوام . وأذكر أنه لكى لايزعج أحدا أمى أو أباه أو أمه أو غيرهم فإنه كان يقول انه سيسافر الى الاسكندرية لكى "يغير هوا" ، ولكنه كان يترك المنزل الى المستشفى لكى تجرى له عملية جراحية مثلا لايعرف أحد عن أسبابها شيئا . وعندما ذهب جدى وعمى وابن عمى زكى وأنا لكى نزرر أبى فى المستشفى ذات مرة ، كان يأكل طعام المستشفى . وأمامنا كان يشيد "بطعامه" هذا الطعام لكى يهدى من روعة الزانرين ويطمئنهم . كان يعرف مرضه ولم يكن يهمل علاجه ولكنه كان يخفيه دائما عن الناس حتى عن أقرب المقربين اليه . كان يرى أنه من العجز أن يئن اذا دعا المرض الى ذلك ، فكان يكبت ذلك الألم حتى لايبثير الأسى فى نفوس من يراهم . وكان كل من يزوره فى المستشفى من الذكور ، لأن واحدة من نساء البيت لم تكن تجرؤ على ذلك وعلى رأسهن بالضرورة أمى .

وكان اذا هل هلال شهر المحرم يستعد الجميع من داخل البيت ومن فى خارجه من الأقرباء لكى يكتبوا كشفا بالملابس التى يحتاجون اليها . كانوا يفعلون ذلك بناء على أوامر أبى . فالوقت قد حان لآخراج الزكاة والشهر شهر المحرم وهذا هو الموعد لآخراج الزكاة فى صورة ملابس للجميع . كنت ترى نساء زوجات أبناء البيت زوجة عم أبى أم حسين سكيانة وزوجة عمى أم على زينب وأمى جللسن ، وكل واحدة تعدد الاشخاص وماينبغى أن يشتري لكل من ملابس خارجية كانت أو داخلية . والاولى تحمل فى يدها ورقة وقلمما وتكتب الاسم وعدد الأمتار من القماش ونوع هذا القماش .

ويبدأ الكشف باسم جدى لأبى وجدتى لأبى ثم أعضاء كل أسرة نووية تنتمى الى آل عويس ، ثم من يعيشون تحت أسقف البيت : الشيخ عبد الفتاح ونفيسة ورتيبة ومحمود أولاد عمتى أم بطة ، ثم "خالتي نفيسة" أخت جدتى لأبى وابنتها "أم حسين حسنة" وحفيدتها "بياضة" ، ثم "سكيانة ابنة أخت أبى المتوفاة و"عطيات" ابنة أخت متوفاة أخرى . ثم عمتى "أم زكية" وأولادها ، ثم ثم .. . ويحسب عدد الأمتار والأنواع ثم الأثمان ثم جملة المبلغ المتوقع صرفه ويرسلن الكشف الى أبى عن طريق أمى . وتنتدب زوجة عمى أم على زينب وزوجة عم أبى أم حسين سكيانة لتذهبا باذن لشراء مايلزم . وكان يعتبر يوم الشراء والأيام السابقة عليه أعياد فى الأسرة . وبعد الشراء يبدأ التوزيع على الجميع من فى داخل البيت ومن فى خارجه . وتحاول كل من زوجة عمى محمود أم على زينب وزوجة عم أبى أم حسين سكيانة ، وهما المسئولتان عن الشراء ، أن ترضيا كل من اشترى له أولها قطعة أو أكثر من القماش من حيث النوع ومن حيث اللون ومن حيث الكمية ، حتى يرضى الجميع أو حتى يدعى الجميع هذا الرضاء . وكانت أمى عادة أول الراضيات مهما كان نوع مااشترى لها ولى او لونه او كميته . وحتى ينتهى شهر المحرم كنا نسمع الروايات عما

واجهته كل من المسئولتين عن الشراء . الروايات عن البائعين فى مخلات الغورية والموسكى والتربية ، وعن راكبى "السوارس" وراكباته ، وعن "الغدوة" السنوية وأنواعها التى كانت تأكلانها عادة من عند "الحاتى" وعن ثمن هذه "الغدوة" ، وعما جد فى الشوارع وما أختفى من المعالم ، وعمن قابلاه من المعارف أو الجيران الحبيبات منهن والعدوات .

وإذا كانت وفاة عمتى "أم بطة" هى أول مواجهة للموت فى حياتى ، وكانت وفاة شقيقى عبد الغنى المواجهة الثانية ، ووفاة سكينه شقيقتى المواجهة الثالثة ، إن وفاة أبى كانت المواجهة الخامسة لالرابعة ، وذلك لأننى أذكر وأنا فى السنة الدراسيه الثانية فى المدرسة الابتدائية عدت الى البيت ذات يوم بعد انتهاء الدراسة فإذا بى أفجأ بصراخ وعويل حاد ومتواصل فى بيتنا . كان عم أبى مصطفى مريضاً منذ ايام وتركته فى الصباح وكان لايزال مريضاً . وكنت اتابع مرضه لانه كان انساناً كريماً ذا أخلاق رفيعة ، كان باختصار انساناً "طيباً" وقد ارسل أبى اليه الطبيب المعالج كما كان يفعل سواء كان المريض قريباً أو غير قريب . ولكن متابعتى لمرض عم أبى مصطفى كانت عن قرب وكنت أرى أحد المشايخ يأتى خصيصاً الى حجرة عم أبى مصطفى المريض فيقرأ له مايتيسر من آيات القرآن الكريم . وأذكر انه فى ذات مرة طلب طبناً صينياً أى مصنوعاً من الصينى وأملى على مرافقه ، فقد كان كفيلاً ، بعض الايات القرآنية الذى كان يكتبها بالحبر الأسود "بقلم بسيط" ثم طلب الشيخ من زوجته أم حسين سكينه أن يوضع فى الطبق بعد ذلك ماء الورد ثم يشفى إن شاء الله تعالى . وقد فعلت ذلك وشرب المريض الخليط المكون من الحبر الأسود بماء الورد . وكان التبخير فى المنزل لاينقطع . والادعية تتلى دون توقف ، فضلاً عن الأحبة التى تؤكد الشفاء التى كان يقوم بعملها المختصون من المشايخ وأصحاب الكرامات ولكن المريض لم يشف . ومات هذا الرجل الطيب وترك زوجته وابنتيه سنية وفاطمة

وابى جدى لأبى أن يترك المنزل وأكد ذلك أبى وتطوع أن يضمهم
 تحت جناحه مع أمى ومعى . أما زوجة عم محمود أم على زينب
 وابناؤها عبد المنعم وزكى وفتحية والبرنس ثم سنية ومعهم نفيسه
 ورتبيه ومحمود فقد تولى شئونهم جدى لأبى ، ذلك لأن عمى محمود
 على وشك الإفلاس ولم يكن يستطيع الصرف على زوجته وأبنائه
 ولما كان زكى قد تعثر فى دراسته الابتدائية فإن جدى لأبى رأى أن
 يشركه معه فى إدارة المحل الذى يشرف عليه فى ميدان العتبة
 الخضراء . وعبد المنعم سائر فى دراسته فى الأزهر الشريف
 لايعرف عنه أحد الشئ الكثير . وقد حاول أبى أن يشركه فى
 العمل معه فى الوكالة ولكنه فشل . ومهما يكن من الأمر فالذى حدث
 من تغيير لم يؤثر كثيرا فى تصدع الأسرة . وقد رحب أبى بالتقسيم
 ورضى الجميع عنه ، وأكد أبى لأمى أن كل ماتطلبه زوجة عمى
 محمود منها أو مايطلبه أحد أبنائها فى حدود امکانات تعطيه لهم
 ولاغضاضة عنده من ذلك . ومن الناحية الأخرى كان عمى محمود
 يطلب البضاعة من أبى على أن يسد ثمنها ولكن كان لايفعل ذلك .
 فكان أبى يعطيه دائما ولكنه كان يمتنع أحيانا على سبيل اعطاء
 الدرس ، وكان عمى محمود " يوسطنى " بينه وبين أبى ، وكنت
 انتصر دائما لعمى . ويبدو لى أن أبى كان يرى فيما يعطيه لعمى
 بابا من أبواب الزكاة . وكما كان يفعل عمى محمود ذلك مع أبى
 أحيانا وخاصة عند استهلال المواسم كشهر رمضان أو عيد الفطر
 أو عيد الأضحى .. فان أبى يفعل شيئا من هذا القبيل مع جدى
 لأبى ، وكنت فى كل مرة الوساطة بين أبى وجدى . كان يوم
 الخميس هو يوم " التحصيل " عادة من عملاء أبى المنتشرين فى
 حى الخليفة وبخاصة فى حى " عرب يسار " وحى " الخارطة
 القديمة " وحى " الخارطة الجديدة " وحى " الابجية " . وكان يذهب
 اليهم ليأتى منهم بالنقود نظير البضاعة التى تسلموها فى خلال
 الأسبوع . ليدفع هو بدوره ماعليه أو بعض ماعليه للتجار فى حى
 " بين الصورين " أو حى " بولاق " يوم الجمعة بعد الظهر أو عندما

يأتى المساء ، فإذا كان ما حصله من عملائه مبلغا أقل من الذى كان يجب عليه أن يدفعه فإنه كان يرسلنى الى جدى لأبى صباح يوم الجمعة لكى أأخذ منه الفرق جنيهات قد تكون خمسين جنيها وأحيانا أكثر من ذلك . وأذكر أن جدى لأبى مايكاد يبدى آية ملاحظة فإننى كنت أسارع الى الدفاع عن أبى فى صيغة يبدو فيها عنصرا أو عناصر من التمرد . وأذكر أن جدى لأبى لم يخيب لأبى طلبا أولى رجاء قط . كان يكتب أبى لجدى ورقة غير مطوية يقول فيها :

"أرجو اعطاء سيد مبلغ كذا لضرورة لزومهم"
ثم يوقع . وكنت أرى لفظ "لزومهم" . وكنت فى ذلك الحين حاصلا على شهادة الكفاءة ، ولم أملك أن اعلق بتسئ على هذا الخطأ غير الجسيم .

هكذا كانت تسير الحياة بأسرتى وأنا أعيش مع أمى وأبى وأبناء العمومة وبناتها ، ومع أصدقائى فى الحارة وفى المدرسة على السواء . وكنت فى المدرسة أحياء حياة التلميذ المرموق ، أودى واجباتى على مايرضى المدرسين والأساتذة وقبل كل ذلك على مايرضىنى . ولكن الاجازة الصيفية إذ تأتى فاذا أنا بين جدران الوكالة لا لأعمل ولكن لكى أراقب العمال الذين يستأجرهم أبى - وكان أبى حريصا جدا على ذلك - وكنت فى قرارة نفسى متألما لذلك كثيرا . كانت تبدأ الاجازة فى يونيو وتنتهى فى سبتمبر ، أربعة شهور طوال . لم تكن لى الحرية أن أعيش هذه الفترة الطويلة كما أرى . ولأننى أعلم أن أبى فى حاجة لى ولأننى تأكدت مرارا انه مريض ويخفى على الآخرين مرضه ، فقد كان قلبى يتمزق ، ولم أقل شيئا مما أشعر به لأحد أيضا . كنت أبكى وحدى أحيانا لأن صرح أبى العملاق ابن البلد الضاحك الكريم الذكى الشهم صاحب الحول والطول ذى الهيبة ينهار أمامى رويدا رويدا . وكان لا بد لى من أن ألبى رغبته وأكون فى الاجازة الصيفية فى الوكالة أراقب العمال الذين يستأجرهم .

وكانت وفاة أبى النكبة الكبرى التى حلت بالأسرة . كان أبى اليد اليمنى لجدى أبيه ، فهو الركن الركين الذى كان هذا الجد يعتمد عليه . وإذا كان جدى قد تمكن من شراء العقارات التى يملكها أو إدارة العمل الذى كان يشرف عليه فالفضل كان يرجع لأبى . والآن وقد مات فإن تصدع الأسرة الكبيرة قد حل بها وفرق بين صفوفها . وأمى كانت هناك ولم تكن أيضا . كان حزنها شديدا شديدا . كانت تبكى ليل نهار . ودموعها كانت تنهمر كأنها ماء الامطار . وكنت أراها فى ملابسها السوداء وكانت ترانى ولم تكلمنى ولم أجرو على الحديث معها . ومرت الايام وهى على هذه الحال . ولكن كان الانقاذ على يد محمد ابن اختها الشقيقة نبوية . وكانت هذه الشقيقة قد ماتت قبل ذلك بعام ، ثم مات جدى لأمى بعد ذلك بشهور . فلم يبق من أهل أمى سوى حميدة وعزيزة وقد تزوجتا واختهما زهرة التى لم تتزوج ، وهن اخواتها غير الشقيقات فضلا عن اختها غير الشقيقة زكية . كان خالى سيد مشغولا بعمله . ومهما يكن فقد كان رجلا سكيما لا يعيش الا لنفسه ومن أجل لذاته وتحقيق مصالحه . ولكن محمد ابن الشقيقة نبوية كان أقرب الى أمى من كل الاشخاص . وكان يضع أبى فى منزله عالية ، فهو لم يكن لينسى أبدا ما فعله أبى من أجله عندما انتهى عمله كسروجى فى القلعة وصار لايلوى على شىء . وانتهى به الامر ان يتاجر فى " المنى فاتورة " وكان أبى أول من شجعه واعطاه مايكفى ليكون رأس ماله الأول الذى بدأ به حياته العملية حتى صار فيما بعد تاجرا مرموقا فى السوق ، يعرف عند أهل " الحنة " ويشيدون بذكره . وكان محمد ابن خالتى نبوية قد تزوج وأصبح رجلا عندما مات أبى . كان هو البلسم الشافى لأمى . وعلى الرغم من مستواه العلمى الضئيل فقد كان رجلا متدينا انضم الى " الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة المحمدية " وحف شاربه وأعفى لحيته ولبس العمامة وأرخى العذبة . وحمل بذلك ثقافة دينية كانت تزدهر فى المجتمع المصرى فى الثلاثينيات وحتى قبل ذلك . وهنا

كان دور محمد ابن خالتي نبوية مع أمي الحزينة المكلمة . كان يأتي اليها كل مساء ويحادثها في الصبر ويتحدث معها حديث العزاء ، ويطلب منها أن تدعو لأبي المتوفى ، وان تذكر الله قبل أن تنام مرات ومرات وتهب ثواب ذلك اليه . واستمرت أمي تفعل ذلك حتى ماتت . وكانت تضيف الى كل ذلك قراءة " لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم ... " .

وبدأنا نتحدث سويا أمي وأنا . كنا قبل ذلك نتحدث بعيوننا الحزينة . وبقلوبنا المكلمة وعاشت أمي ماعاشت ولم تنس ابي أبدا . واذا كان ابي قد مات في شهر يناير عام ١٩٣٠ فإن أمي قد تبعته في شهر يناير عام ١٩٥٠ . عشرون عاما مرت من اللحظات ولم تنس هذا الزوج الذي بدأ لها في أول زواجها منه كأنه الوحش الكاسر وانتهى وبخاصة في السنين الأخيرة وكأنه الطفل الوديع . يتحدث معها كل ليلة عندما يعود من عمله حديث الود والحنان . كانا يتسامران كل ليلة قبل أن يناما . وكنت وأنا في سريري استيقظ على هذا الحديث وهذه المسامرة . وكان قلبي يخفق سرورا وحبورا . فقد كان ابي على الرغم من مجافاته لي في بعض الاحيان ودودا كريما . وكان لا يرى في مجافاته لي أمرا سيئا أبدا بل يرى فيها مصلحتي التي لم أكن لادرکها في ذلك الحين وكنت فضلا عن ذلك أكن لأبي الاحترام الشديد الذي هو الحب المخلوط بشيء من الخوف . وكان تعاطفي مع مرضه المستمر عميقا عميقا .

وشيعت جنازة أبي صباح يوم الاحد في يوم ١٩ من شهر يناير عام ١٩٣٠ . وكانت جنازة مهيبة سار فيها المئات وربما الالوف من أهل حي الخليفة . وكان يوما مشهودا قد حفرت آثاره في قلبي وبقيت حتى الآن . ووقفت اتقبل العزاء . وأقيم السرادق في المساء ثلاث ليال . وكانت أصوات المشايخ " عبد الفتاح الشعشاعي " ، " الصيفي " و " الفران " وغيرهم من قراء الجليل يتلون القرآن فيمتلئ السرادق بالناس الذين جاءوا للعزاء أو جاءوا للاستماع

لهؤلاء القراء . واستقر رأى فى خلال هذه الأيام الثلاثة التى انتهت بيوم الثلاثاء ٢١ من شهر يناير عام ١٩٣٠ الى أن اترك مدرسة الخديوية الثانوية وأنا فى السنة الرابعة لأدير الوكالة التى تركها أبى وحدى . كان جدى لأبى يطلب ذلك وكان كل من رجال الأسرة : أسرة أبى أو أسرة أمى يطلبون ذلك . لم يكن لأمى رأى فى الموضوع . انها فى حزنها الشديد لاتعيش الا مع زوجها الذى مات . حتى اذا حاولت امى أن تبدى رأيا فان خبراتها لاتسعفها برأى ، فقد كان رأى دائما لغيرها لابيها أولا ثم لستى حمدة ثم لجدى لأبى ثانيا وثالثا ورابعا . لم تكن تستطيع فى ضوء ظروف نشأتها أن تكون لها رأيا مستقلا . ورأى الجميع وقبلهم رأى جدى لأبى أن استأنف العمل فى الوكالة التى تركها أبى وأن أترك الدراسة التى كانت حلم هذا الأب أن أستكملها حتى النهاية فى مصر وبعد النهاية فى أوروبا تماما مثل الزعيم "مصطفى كامل" . لم يأت شخص واحد من الأقارب المقربين أو غير المقربين أو الغرباء ليقول لى "لاتفعل" الا "حسنين أقندى" الذى كان "الشيخ حسنين" عندما كان يدرس لنا فى المدرسة الاولى ، فقد قال لى ذلك بعد ثلاث سنوات . وكنت قد تركت المدرسة وخضت مدرسة الحياة فى شخص العمل فى التجارة ومواجهة "السوق" ومن فى السوق من أشخاص كانوا كالذئاب أحيانا أو كانوا كالكلاب أحيانا أخرى . وناظر المدرسة الخديوية فى ذلك الحين "لبيب بيك الكردانى" لم يكلف نفسه ليراجع جدى لأبى فى هذا القرار . كان من واجب هذا الرجل وهو يعلم أنني من أوائل الطلبة فى المدرسة ومن اخلصهم لطلب العلم والمعرفة أن يفعل مايفعله "حسن على" ناظر مدرسة أم عباس الأول الابتدائية ، عندما جاءه "الشيخ إبراهيم" ، وهو ماذون حى السيدة عائشة بقسم الخليفة ويسكن فى أحد بيوت جدى ، يشكو اليه منه . فاذا هو يتحدث الى أبى بالتليفون طالبا أن يأتى الى المدرسة فى أقرب فرصة ممكنة . وسارع أبى الى تلبية هذا الطلب وذهب وهو يتوجس ويظن

الظنون . فعندما عرف الموضوع قال أبى موجها كلامه الى "حسن على" ناظر المدرسة "أن مهمتى أن اربى جسم سيد وانتم تربون روحه ، فالمرجع الأول والاخير فى ذلك أنتم ، "وانتهت المقابلة على خير وتنفس أبى الصعداء ، ولم يعجب كثيرا ولا قليلا من تصرف "الشيخ ابراهيم" فهو كما كانت تقول "عيوشة زردقة" من فتوات حى الزايب المتفرع من شارع السيدة عائشة عن هذا الرجل "دا راجل سو ومسير السوينسو" . قد فعل ذلك حسن على ناظر المدرسة الابتدائية ازاء هذا الموقف غير الحاسم ولكن لبيب الكردانى ناظر المدرسة الثانوية لم يفعل شيئا ازاء موقف خروجى من المدرسة وانقطاعى عن الدراسة وهو موقف حاسم فى حياة احد الطلبة الجادين عنده .

٣ - مسيرتى التعليمية · المرحلة الدراسية الابتدائية

"العصفورة دى لمين"
"لسيد"

كان ذلك اول ماوجهنى عندما دخلت الكتاب الذى كان ملحقا بمسجد السيدة عائشة النبوية بقسم الخليفة . كان الشيخ يتغنى بالمقطع الاول ، وكان تلاميذ الكتاب يرددون اسمى وكانهم "الكورس" فى المسرح . وتكرر هذا مرارا حتى انقطع سيل دموعى وهذا روعى . ذلك لاننى كنت رافضا الذهاب الى الكتاب وبكيت محتجا على إصرار أبى على ذهابى ، فحملنى عمى محمود شقيق أبى على كتفه فى طريقه الى الكتاب ومن ورائه أبى يصرخ قائلا : "اسكت يا كلب" . وتصادف ان كانت العصافير تطير حول شباك الحجرة التى يجلس على المقاعد المرسوسة فيها تلاميذ الكتاب ، وانتزه الشيخ الفرصة فتغنى بما تغنى ، وردد التلاميذ مارددوا ، وسرعان ما انقطع سيل دموعى وهذا روعى . كانت هذه هى تجربتى الاولى مع طلب العلم وكنت فى الرابعة من عمرى وربما

أقل من ذلك . وقد اختار لى أبى هذا الكتاب لقربه من الوكالة التى يعمل فيها لآكون على قرب منه ومن عمى الذى كان يعمل فى "محل العطارىة" القريب أيضا . لآأدرى كم مكثت فى هذا الكتاب ولكن يبدو ان الفترة التى قضيتها فيه كانت قصيرة فسرعان ماوجدتنى فى "مدرسة السيدة عائشة الأولى" وكان موقعها قريبا أيضا من وكالة أبى فى "شارع الزرايب" الذى يسكن فيه العديد من أفراد "طائفة المعمار" ومن البناتين والنقاشين والمبطلين والنجارين والحجارين وغيرهم . ولم يكن يسكن فى الشارع من "الأفندية" الا عدد قليل جدا . وكان الكثير من سكان هذا الحى ممن هاجروا من الريف القريب ، فتراهم مازالوا يمارسون بعض العادات والتقاليد الريفية . وحتى اللهجة الريفية مازالت تلوكلها أفواههم . ومع ذلك فإن "آولاد البلد وبنات البلد" كانوا الفئة الغالبة . وفى المدرسة الأولى التى انتقلت الى حى "المشرقى" (عطفة السرجة) بقسم الخليفة أيضا ، لم أتعلم كثيرا . وأذكر اننى تعلمت الأبجدية وبعض العمليات الحسابية ، كما حفظت بعض الآيات القرآنية التى كنا فى الفصل ، التلاميذ وأنا ، نردها ترديدا جماعيا . وتعلمت ضمن ماتعلمت بعض الآناشيد وقطع المحفوظات التى تتضمن المواعظ التى تحض على صنع المعروف فى غير آهله مثلا . وفى هذه الآثناء وقعت الهدنة بين الحلفاء فى عام ١٩١٨ ، وتدفقت مشاعر الوطنية فى صفوف الشعب المصرى تمهيدا لقيام ثورة عام ١٩١٩ . وأذكر اننى وتلاميذ المدرسة فى كل صباح فى الطابور كنا نردد نشيدا أذكر منه

يارسول السلم الى مصرا قم هنىء العالم بالبشرى
انا أبناء النيل بنيه آعلا من قد سلفوا قدرا

كنت أردد مع المرددین هذا النشيد كل صباح وأنا لآأعنى معنى لآية كلمة فيه ، تماما كما كنت أفعل عندما كنت أردد آيات القرآن الكريم .

وفى خلال الدراسة فى المدرسة الأولية كانت الأغاني الساندة فى ذلك الحين تشنف أسماعنا ، وكنا نحفظها . ولم تكن ندرى من أين كانت تأتى إلينا . فلم يكن هناك مذياع أو تليفزيون أو أداة من أدوات الاعلام الحديثة فى ذلك الحين . كنا نغنى جماعيا :
"الحلوة دى قامت تعجن فى البدرية"
و "زورونى كل سنة مرة حرام تنسونى بالمرة"

وكنا نغنى أيضا :

"شم الكوكابين خلانى مسكين مناخيرى بتون
وقلبى حزين وعينى فى رأسى رايعين جابين"
و"سينا يابا داحنا غلأبا نسكر فين ونحشش فين
وبقيت بميتين الوقية"

المهم ان الكتاب ثم المدرسة الأولية قد مهدا لى أن أعيش مع
غيرى من الصبيان ممن كانوا فى مثل سننى أو كانوا أكبر منى
سنا . والآخرين كنت أخشاهم فهم من أبناء "حى قلعة الكباش" و
"حى طولون" و "حى السيدة زينب" الذين كانوا يعيشون فى ظل
مناخ ثقافى اجتماعى يتميز بقيم تدعو الى طول اللسان والى
العدوان . وكنت أراهم وأحد المدرسين الذى لا أذكر اسمه الآن إذ
يقف على الباب يراقب التلاميذ فى "فسحة" مابين الفصول ، وكان
هذا المدرس ذا شارب مقتول تداعبه انامله من لحظة الى أخرى ،
كنت أراهم يجمعون أنفسهم فى "كورس" ويرفعون أصواتهم
بالغناء قائلين :

"شوقوا لافندى واجف عيبصص"

"حاطط بدرة وشعره مجصص"

وكان المدرس لا يحرك ساكنا ، وكنت أقف أمام جمع هؤلاء
التلاميذ الكبار واجما متأفقا . والتلاميذ الكبار يغنون ولا يبالون أحدا
أو شيئا حتى تنتهى فترة الفسحة المحدودة ، ثم يدخل الجميع الى
الفصول ليستأنفوا الدراسة .

وقد لاحظت ان من التلاميذ عددا يأخذ كل واحد فى أثناء النهار رغيفا من الخبز الطازج ، ويوزع هذا الرغيف الطازج علنا على هؤلاء التلاميذ يوميا . وقد علمت ان هؤلاء يتامى المدرسة فقد كان من بينهم محمود ابن خالتي أم محمد شقيقة أمى الذى كان يتيم الأب . وكنت أنظر الى هؤلاء فكنت أرى فى عيونهم بريقا يشع مشاعر الخجل واللامبالاة والتميز جميعا . وكان الكثير منا يغبط هؤلاء اليتامى وبخاصة اذا قضم أحدهم من الرغيف الطازج الذى معه لقمة يلوكلها فى فمه وكأن الواحد منا كان يود لوأنه هو الذى قضم هذه اللقمة .

وجاء اليوم الخالد فى حياة تلاميذ المدرسة . كنا مازلنا نقف فى طابور الصباح وكنا نغنى نشيد الصباح ، وكان الحماس زائدا ، والأصوات عالية ، ومن أمامنا يقف رجال كبار ، قيل لنا انهم من طلاب المدارس العليا . وصمتنا وبران الصمت على المكان كله . لم يقل الناظر شيئا . ولم يقل المدرسون شيئا . حتى " الشيخ حسنين " (الذى صار حسنين افندى بعد ذلك) محبوب التلاميذ جميعا لم ينبس ببنت شفة . واذا بأحد الواقفين من الضيوف يخبرنا بأنه يجب أن نذهب الى بيوتنا وأن لانعود الى المدرسة لحين اخطار ذويها بذلك . وكانت نصيحته بعد ان هتف وهتفنا بعده ثلاث مرات :

"تحيا مصر حرة"

أن نخلد الى الهدوء فى طريقنا الى بيوتنا . وكانت هذه البيوت قريبة من المدرسة . وأذكر اننى ذهبت الى البيت فى شارع البقلى حارة الشراقة وذكرت أمى ماحدث ، فكانت تعليقها على ذلك :

"اللوا سموه ياسيد الانجليز سموه

وأذكر الآن ماختلج فى جوانحها ، وأن الدمع كاد ان يجرى من عينيه . وكانت لحظة أكدت لى فيما بعد أن الظالم المستبد يذكر عادة مايفعله وينسى ما هو أهم ، رد فعل مافعل . وأن الوطنية

مشاعر لا يقف في سبيل وجودها فقر أو جهل أو حتى ضباب
فكرى . وكانت لحظة أكدت لى فيما بعد أن المصالح تصنع النوايا
التي بدورها تدفع الانسان الفاهر ليقهر أكثر وتدفع الانسان
المقهور ليتحرر من قيود القهر ليكون حرا فيؤكد ذاته ويعمل لنفسه
ومن أجل المقهورين الآخرين .

حدث ذلك فى أحد أيام شهر مارس عام ١٩١٩ بعد ان نفى سعد
زغلول لأول مرة . وأذكر اننى لم أذهب الى المدرسة الاولى بعد
ذلك . ومكثت فى البيت بين يدى ابن عمى عبد المنعم الذى كان
يكبر أبناء الأسرة من الذكور ليعلمنى " اللغة العربية " وكان ابن
العم هذا سعيدا بتعليمى وتعليم أخيه زكى وأخته فتحية وابنة عم
أبيه سنية وحتى محمود ابن عمتى أم بطة . كنا تلاميذا له وبدأت
أعرف منه ماهو " الفعل " وماهو " الاسم " . وقد كان لذلك أثر كبير
فى اهتمامى باللغة العربية وقواعدها فيما بعد . واستمر هذا
التعليم الاختيارى فترة من الزمن لا أتذكر مداها . وأذكر أن
عبد المنعم ابن عمى كان يهتم بتلقيننا الشيء الكثير عما كان يدور
من حوادث سياسية فى ذلك الحين . فقد كان له باع كبير فى هذا
الشأن . واشتراكه فى المظاهرات فضلا عن قراءته للصحف
وغيرها من المنشورات ، كل ذلك كان ييسر له المعرفة عن هذه
الأمر أكثر سنا وربما أكثر من أى عضو آخر من أعضاء الأسرة .
وأذكر أيضا أنه كان يهتم بتحفيظى أبيات من الشعر ، وكنت أحفظه
مايلقته لى ولا أعرف من الذى قاله . وكنت أيضا لافقه لما أحفظه
من أبيات معنى . وكان ابن العم يتعمد عدم تفسير معناها ويؤجل
ذلك يوما بعد يوم . وعندما شبيت عن الطوق استطعت أن أعرف
قائلها كما أعرف معناها . ومن هذه الأبيات أذكر هذين البيتين
للشاعر أحمد شوقي وهما :

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمي فى الأشهر الحرم

رمى القضاء بعينى جؤذر أسدا

ياساكن القاع أدرك ساكن الاجم

كانت جلسات جدى لأبى مع أحفاده الذكور والاناث معا تفتح
أمامى أفاق المعرفة . كان الرجل يقرأ فى الكتب التى تملأ خزائنه
وهى كتب فى الغالب دينية ، وكان منها تفسير القرطبي وصحيح
البخارى وغيرها . وعلى الرغم من أن أوراقها كانت صفراء فانها
كانت موضع فخر الجد وفخرنا جميعا . كان يقرأ لنفسه أحيانا ،
وكان يدعو ابن عمى عبدالمنعم ليقرأ له ولنا أحيانا أخرى ، وكنا
نفهم القليل . ولكن المناخ الثقافى الذى كان يظللنا ترك آثاره فينا
بعمامة وفى أنا بخاصة . وجلسات أبى مع أصدقائه كان لها لون
آخر ، اللون الوطنى المتدفق فقد كانوا اذا ماتحدثوا كان حديثهم
الوطنية الصادقة ، حديث حب مصر والذود عنها وتحريرها من
الاستعمار الانجليزى الجاثم على صدرها . وكانوا أيضا يتحدثون
عن "أمين الرافعى" ، وكان البعض منهم يكاد أن يحفظ عن ظهر
قلب مقالات هذا الرجل الذى كان ينشرها فى جريدة "الاخبار" .
وفى هذه الجلسات كنت أسمع لأول مرة عن مصطفى كامل ومحمد
فريد وعبدالعزيز جاويش وسعد زغلول . وقد سمعت أيضا لأول مرة
عن الأفغانى وعن محمد عبده وعن عبدالله النديم وحتى عن قاسم
أمين . أسماء لم أكن أعرف عن الأشخاص الذين يحملونها شيئا ،
ولا عن أدوارهم من أجل رفعة مصر ولا عن التضحيات التى بذلوها
بسببها من أجل تحقيق آمال الأمة فيهم وأمالهم فيها وفى
مستقبلها . وفى هذه الاثناء بدء فترة ثورة عام ١٩١٩ ومابعد ذلك
حتى أوائل عام ١٩٢١ لم يكن لى مستقر ولا مصدر للتعليم سوى
جلسات جدى لأبى وجلسات أبى فضلا عن الدروس التى كان
عبدالمنعم ابن عمى يرغب فى القائها على أحفاد الأسرة من الذكور
ومن الاناث . عندئذ رأى أبى أن الاوان قد أن ليرسلنى الى حيث
تكون الدراسة المنتظمة الى "مدرسة والدة عباس باشا الأول
الابتدائية" التى صارت فيما بعد "مدرسة بنبا قادن الابتدائية" ،

والتي يعرفها الناس بأنها مدرسة "أم عباس" ، فهي المدرسة التي تعلم فيها الزعيم مصطفى ، وهذا عند أبي سبب كاف ، ومهما قيل له إنها مدرسة لاتباع الحكومة أو أن مصاريقها أعلى من مصاريق المدارس الحكومية مثيلاتها ، فإن كل ذلك لا يهم . واستعد أبي للاحاقى بهذه المدرسة . فذهب الى التزى ليفصل لى "بدلة" من قماش من الصوف المتين بشرط أن يكون "البنتلون" طويلا حتى يحمينى من برد الشتاء . واهتم أبى أيضا بتفصيل "حذاء" جديدا وقميصا تربط فى ياقته رباط عنق . واشترى لى "طربوشا" جديدا أضعه فوق رأسى . ولم يسبقنى فى لبس هذه الملابس سوى ابن عمى زكى الذى سبقنى الى مدرسة ابتدائية أخرى ولكنه لم يمكث فيها كثيرا حيث رأى جدى لأبى أن يأخذه معه ليساعده فى العمل الذى يديره فى ميدان العتبة الخضراء كان جدى وأبى وعم أبى مصطفى وعم أبى عبدالفتاح وعمى محمود شقيق أبى لايلبسون الملابس الافرنجية . كانوا يلبسون القفطان والجبة أو الجلباب وفوقه العباءة والعمامة ، وكان البعض يحلو له أن يلبس الحذاء . والبعض الآخر كان يلبس "البلة" فى قدميه . وقد شذ عمى محمود فكان لايلبس العمامة واستبدل بها لبس "الطربوش" . وفى أكتوبر وبالتحديد فى يوم السبت الأول من هذا الشهر عام ١٩٢١ ذهبت الى المدرسة الابتدائية . كان يوما حاسما فى حياتى التعليمية . وسرعان ماوجدتنى فى بيئة ثقافية اجتماعية مختلفة عما كنت أعтаده : النظافة النظافة كل شىء نظيف الأرض والحوائط والمقاعد والسيورات والمراحيض وكل شىء . النظام النظام كان كل شىء يسير فى هذه المدرسة بنظام دقيق ويشرف على تطبيقه الناظر "حسن على" ويعاونه المدرسون والاداريون وضابط الألعاب والفراشون . وواجهت لأول مرة تناول الطعام خارج الأسرة فى "اليمكخانة" ، وهو المكان الذى أعد لتناول طعام الغداء . وعندما حان الحين لكى نأكل أمرنا بالوقوف فى "طوابير" كما فعلنا فى الصباح ووجدت نفسى مع خمسة من التلاميذ نجلس أمام مائدة على كراسى ، وإمامنا الطعام على المائدة فى "عامود" ذى

ثلاث طاسات واحدة مملوءة بقطع من اللحم والثانية بالخضار
والثالثة مملوءة بالأرز ، وأمام كل واحد منا ثلاثة أطباق الواحد فوق
الآخر ، وبجوار الأطباق من اليمين توجد سكين وملعقة كبيرة ومن
الשמال توجد "شوكة" وأمام الأطباق كانت توجد سكين أصغر
وملعقة أصغر ، وبجوار الأطباق وجدت أمام كل واحد منا فوطة
نظيفة تضمها حلقة من النيكل . وأمرنا بأن لانقرب الطعام حتى
يؤذن لنا . وقبل أن يؤذن لنا قام ضابط المدرسة "صفوت أفندى"
فيينا خطيبا وأكد في خطبته أننا سنأكل لابايدينا بل يجب أن
نستعمل "الشوكة والسكين والملعقة" فى تناول الطعام . وأنا
أعرف كيف أستعمل المعلقة من قبل فقد كنت أمارس ذلك فى
الأسرة . أما ممارسة الشوكة والسكين فلم أكن أدرى عنها شيئا .
كنت مثل كل أعضاء الأسرة نأكل بأيدينا . وكان المهم كما كانت
تأمرنا زوجة عمى أم على زينب أن يكون حجم "اللحمة" صغيرا ،
أى أن "نغرس نونو" ، ويأويل من كانت لقمته كبيرة فى ضوء
تقديرها . وحتى لو كان الخضار المأكل "ملوخية" . وكان هذا
لايتعارض مع تعاليم أبى الذى ماأتى أمامه صحن الملوخية وبخاره
المشبع بالثوم المقلّى فى المسلى البلدى يفوح ، كان يقول وبين
أصابعه لقمة كبيرة يغمسها فى الصحن ثم يضعها فى فمه :

ان القلقاس رجل هلاس

أما الملوخية فيقرطوها الايدى المحنية
ويخرطوها السكاكين الذهبية ،
والزور يفرقع والطن تتطرقع
وتقول هات هات لقمة كبيرة !

وكان أبى عندما يقول "لقمة كبيرة" يقلقل القاف ...
المهم فى الموضوع أننى أذكر أن مواجهة أول مرة لتناول طعام
الغذاء فى المدرسة الابتدائية كانت امتحانا صعبا لى . ولما نظرت
خوالى وجدت أنها كانت امتحانا صعبا أيضا للتلاميذ الذين كانوا
يجلسون معى . وجاء الانقاذ على يد "عيسى أفندى" سكرتير

المدرسة الذى سرعان ملاحظ موقفنا ، فأخذ يدرّب الواحد تلو الآخر على كيفية الامساك بالشوكة واستعمال السكين . وانتهى اليوم الأول بالمدرسة على خير ، وذهبت الى البيت وحدى كما جئت الى المدرسة فى الصباح وحدى . ولم يكن يصحبني أحد فكنت اسير من البيت الى شارع الركبية مارا بالمشرقى ثم " السيدة سكيّنة " ، والى شارع الصليبية حتى بداية شارع السيوفية التى تقع المدرسة فيه . وفى الرجوع فى نفس الشوارع والحارات حتى بيتنا فى زقاق الشراقوه بشارع البقلّى .

وفى اليوم التالى ذهبت الى المدرسة فى الوقت المحدد ، ولم تنس اّمى أنّ تذكرنى كما فعلت بالأمس وكما ستفعل كل صباح بعد ذلك أنّ "اقرأ قد جاءكم" ، وحرصت زوجة عم اّمى ام حسين سكيّنة أنّ أخرج من البيت أولا ثم تخرج فتحية بعدى ثم تخرج سنية بعدها عندما أغيب عن الانظار . وكانت قد التحقتا بالمدرسة الاولى بالمشرقى وكانت قريبة من بيتنا . وفى الحصة الثالثة فوجيء تلاميذ الفصل بأن هذه الحصة حصة ألعاب ، وانه على كل تلميذ أنّ يخلع "جاكته البدة" و "القميص" ويبقى بالفانلة والبنطلون . وقد فعل ذلك جميع التلاميذ ، خلعوا ماطلب منهم أنّ يخلعوا فى المكان المعد لذلك ، وقد خلعت ماطلب منى أنّ أدخله بعد أنّ خلعوا لاننى كنت أحمل مابين الفانلة والقميص "حجابا" اصرت اّمى على أنّ أحمله منذ ان ولدت - فى قول - أو منذ أنّ نجحت فى المشى على رجلى وأنا صغير دون تعثر - فى قول آخر - وحتى الآن . وأحسست ان التلاميذ وضابط الألعاب "مقبل أفندى" اذا مارأوا هذا الحجاب الذى أحمله سيسخرون منى ، وأنا لن أكون موضوع سخرية لأحد . أخفيت الحجاب . وذهبت بدونه لنلعب الالعب الرياضية التى لم أكن قد مارستها قط من قبل وكانت فترة أسعدت الجميع وأحسسنّا بعدها أنّها حصة لاتقل شأنًا عن أية حصة أخرى . وقررت فى نفسى أنّ أستمر فى ممارستها كلما اتاحت الفرصة لى ذلك . ثم اذا ما انتهت فترة ممارسة الالعب

تسابق التلاميذ الى المكان المعد لخلع الملابس وأعادوا لبس ماخلعوا وقد ذهبت متخاذلا حتى اذا ما انتهى آخرهم ذهبت وأعدت لبس ماخلعت وكان الحجاب ضمن مالبست ، ولكننى صممت على أمر اذا ماعدت الى المنزل لأبى أن افعله . وعدت الى المنزل وقلت لأمى متمردا " أنا مش حلبس الحجاب دا تانى " . وانزعجت أمى لذلك كثيرا ، وقد حاولت اثنائى عن هذا القرار ورفضت بإباء وشمم ، فاستنجدت بزوجة عم أبى أم حسين سكىنة وبزوجة عمى أم على زينب ، وانتهى الأمر بعد أن راين اصرارى على هذا القرار الى أن يستشيرون " الحاجة صابرة " وأن يعلق فى الوقت نفسه الحجاب على الحائط بجوار السرير الذى أنام عليه بصفة مؤقتة . وقد أقرت الحاجة صابرة هذا التصرف ولم أحمل هذا الحجاب أو غيره بعد ذلك أبدا . ولكن مازلت وربما حتى كتابة هذه السطور أسمع من يقول بأن " سيد ابن بخور " فقد ذهبت الى الحاجة صابرة قبل الذهاب الى المدرسة الابتدائية بأسبوع لتقوم هذه الكوديا بعملية تبخيرى . ولم تكن أمى معى وقد فعلت ذلك من وراء أبى ودون أن تأخذ منه الاذن . ولم أمانع فى ذلك من أجل أمى فأنا دائما كنت أحب أن أرضيها وأكتم سرها وإن كانت طوال حياتها حتى مات أبى تحذرنى من البوح والا فان أبى يطلقها ويتزوج من أخرى تكون لى زوجة أب . كتمت سرها دائما عن أبى ولم أخذلها . وماهذا السر الا انها كانت تذهب أحيانا الى بيت جدى لأمى أو كانت تختلس بعض الوقت لتقوم بواجب العزاء . وقد فعلت ذلك ذات مرة عندما ماتت عمتها الأخت الشقيقة الكبرى لأبيها ، وكانت عزيزة على أسرة جدى لأمى ذهبت مع أخريات ، وعندما وصلت الى بيت العمة أخذت تلطم خديها فترة من الوقت حتى كلت يداها ، ثم سارعت بعد هذه الوجبة المؤلمة الى بيت الزوجية مستريحة البال فقد أدت واجبها بضرب نفسها بين دهشة الحاضرات من نساء وفتيات . كانت بينهن زوجتى المقبلة وكانت فى ذلك الحين فى العاشرة من عمرها .

وكان أمامي خمس سنوات دراسية حتى أتمكن اذا استمر نجاحي سنة بعد سنة من الحصول على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية واصبح أفنديا ثم أستطيع الالتحاق بإحدى المدارس الثانوية ومنها الى الجامعة وربما أدرس بعد الجامعة في أوروبا تحقيقا لحلم أبى . ومرت السنين سنة بعد الأخرى . وأنى أذكر الأشخاص وبعض الوقائع التى واجهتها فى أثناء دراستى بالمدرسة الابتدائية . فقد التحقت بها وأنا فى الثامنة من عمري وتخرجت فيها وأنا فى الثالثة عشرة من عمري لايمكن الا أن أذكر حسن على ناظر المدرسة الذى كان يرى فى " النجاة " ويقول أمام التلاميذ مادحا ان عويس " عقله بلوطة " يقصد مثل مطبوعة باللوطة التى كانت سائدة فى ذلك الزمان والذى كان يفخر أمام الضيوف فيطلبني الى حجرته ومعى الكراريس ليلقى نظرة ويدع ضيوفه أن يروا مايرى وفى عينيه معالم الافتخار بى . وكان هذا الرجل يطلبني الى تلاميذ السنة الخامسة وكنت لازال تلميذا فى السنة الرابعة لكى يسألني أمامهم عما يعجزون عن الاجابة عنه فأجيب ويقول لى متباهيا أمام هؤلاء التلاميذ بملء فيه " متشكر يا عويس " والمناسبة التى تجعله يطلبني الى هذا الفصل انه كان يشترك فى تدريس بعض المواد اذكر منها " مادة المطالعة " ومادة الصحة فى سنتي الرابعة والخامسة . فاذا عجز تلاميذ الخامسة كان يرسل الى تلاميذ السنة الرابعة ليلقنهم درسا . وكنت ضمن هؤلاء التلاميذ الذين كانوا دائما تحت طلبه . ويذكر لهذا الناظر فضلا عن هذا كله انه كان يؤمن بالنظام ويرى أن الأخلاق قبل العلم أوهما صنوان . ومع ذلك فقد كان لى معه موقف ربما يكون قد أخرج . ذلك أن أحد تلاميذ فصلى وأذكر اسمه الآن بعد مرور أكثر من خمسين عاما قد وضع " الباشورة " التى تمسح السبورة على كرسي المدرس قبل أن يبدأ الحصة أى قبل أن يحضر لبدء الحصة ، هذا التلميذ كان " عبد الغنى قدرى " وكان المدرس هو مدرس اللغة العربية . وكان هذا المدرس رجلا جادا

ولكنه كان قاسيا ، فما كان منه الا أن خرج من الفصل عندما رأى " الباشورة " على الكرسي لتوه ذاهبا الى حجرة الناظر ليشكو اليه ماحدث . وممرت لحظات الا والناظر واقفا بيننا وقد سبقته هييته التى يشعر بها الجميع دائما . وجاء ليحقق فى موضوع وضع الباشورة على الكرسي . من الذى وضعها ؟ وسأل فلم يذكر أحد منا شيئا . وسأل عددا من تلاميذ الفصل واحدا واحدا فلم يذكر أحد منهم شيئا . وبعد أن نفذ صبره طلب تلميذا كان من التلاميذ المشاغبين أن يتبعه الى حجرته . وذهبا الناظر أولا ويتبعه التلميذ المشاغب وكان ضخم الجثة كبيرا ، ومشى وراء الناظر وسمات الاستهتار وعدم المبالاة تبدوا على وجهه . لم يسألنى الناظر عن الواقعة ولم يسأل كثيرين غيرى ، ولكنه سأل البعض فقط . وانتهى به الأمر الى أن يتهم التلميذ المشاغب وأنا لاأذكر اسمه الآن مع الأسف الشديد . وفى " فسحة الظهر " بعد تناول الغداء علمنا بأن العقوبة وقعت على المتهم الذى لم يفعل شيئا ، فما كان منى الا أن انتصرت له وأعلنت أن الذى فعل ما فعل هو عبد الغنى قدرى ، وعندما مثلت بين يدى الناظر ذكرت ذلك فى صراحة وكان أن أنقذ المظلوم وعوقب الفاعل . وكان من بين المدرسين " الشيخ على بدوى " الخطاط المشهور و " كامل أفندى عطية " مدرس الرياضة والذى يدرس لنا " الخط الأفرنكى " ، ومدرس الديانة " الشيخ إبراهيم " و " أحمد أفندى على " الذى كان يدرس لنا اللغة الانجليزية فى السنة الأولى . وكانت هذه اللغة غريبة على وعلى كل عضو من أعضاء الأسرة ابتداء من جدى وأبى وأمى وغيرهم . كان هذا الرجل ممتازا حقا . وكان أسلوب تدريسه اللغة أسلوبا فريدا . كنا ندرس حروف الابدية وكأننا ندرس الاغانى . وكان هو الملحن والمؤدى وكنا نغنى الحروف حرفا حرفا غناء جماعيا . وكان هذا المدرس يؤلف تمثيلات قصيرة باللغة الانجليزية ويختار من يمثلونها منا وكان هو المؤلف والمخرج معا . وكانت الأناشيد التى يؤلفها عديدة وكلها باللغة الانجليزية تمثل معانيها ونحن نلقياها .

كان هذا الرجل مبتكرا ومن غير جدال كان يسبق زمنه . ولم أجد صعوبة في أن أحفظ دروسى باللغة الانجليزية وحدى عندما أعود الى البيت . لم أطلب معونة من أحد فانه لم يكن يوجد أحد يستطيع أن يفعل ذلك . ولم أطلب من أبى مدرسا يساعدنى على حفظ الدروس فقد كان يكفينى ما أتذكره من دروس أحمد أفندى على فى الفصل . واننى اذكر صفوت أفندى الضابط الذى كان بحرم علينا اللعب فى أثناء الفسح . كانت العصا دائما فى يده اليمنى تضرب يمينا وشمالا سيقان كل من يحاول أن يجرى فى "الحوش" وقد نالتنى منه "علقه" بسبب ذلك . وكنت كلما احتج ، وكنت أحتج ، زاد استعمال العصا على ساقى ، ولا يمكن أن أنسى "عيسى أفندى" سكرتير المدرسة الذى كان له الفضل فى تدريبي على استعمال الشوكة والسكين فى تناول الطعام ؛ ومع ذلك فقد ظلمنى عندما ظن ذات مرة أننى أحدث فى أثناء تناول الطعام ، فأخرج علبه "السجائر" من جيبه وكتب أسمى على ظهرها ، وكان هذا إيذانا بأننى قد عوقبت بعقوبة :
"خبز قفار وحبس آخر النهار"

كان ظالما عيسى أفندى هذا ، ولكنى لآنسى له أنه عندما كنت أملاً "الاستمارة البيضاء" لامتحان شهادة اتمام الدراسة الابتدائية ، نظر الى شهادة ميلادى قبل أن أكتب أسمى وأملانى اسمى ليكون "سيد عويس محمد" بدلا من "سيد محمد عويس" فقد كان مكتوبا أمام اسم المولود "سيد عويس" وليس "سيد" فقط ، ولما كان اسم والدى "محمد عويس" فانه اكتفى بأن أكتب باسمى « سيد عويس محمد » ، ومنذ ذلك الحين وأنا أفعل ذلك ، وأنا اكتفيت أحيانا أن أختصر الاسم الى "سيد عويس" فقط وهو اسمى المكتوب فى شهادة الميلاد أمام اسم المولد . وهنا يجب أن اذكر "طاهر أفندى" أحد المدرسين الذى كثيرا ما جمع منا النقود من اجل القيام برحلات التى لم نقم بها أبدا . وكذلك عم طه الذى كان مسئولا عن نظافة حجرة الرسم وتنظيمها وكثيرا ما كان يطلب

منا النقود لأنه كان دائما في حاجة إليها

وبفضل المدرسة الابتدائية ذهبت مع العديد من التلاميذ في رحلة مدرسية لنرى "أبي الهول وأهرامات الجيزة" ونعيش يوما عظيما رائعا مازالت آثاره محفورة في صدري ولن تمحوها أبدا صروف الزمان . ياللدعوة وياللعظمة لم أكن أدري حتى ذلك الوقت ، وكنت في الثالثة عشر من عمري ، ان هذه الآثار تحيا شامخة بين ربوع مصر . ولعل هذه الزيارة من وحى ناظر المدرسة حسن على الذي كان يهتم اهتماما خاصا بالتاريخ الفرعوني وقد لخص هذا الرجل التاريخ الفرعوني منذ عهد "مينا" مؤسس اول أسرة الى الأسرة الثلاثين في رسم بياني على ورق أنيق . وأعطى لكل أسرة فسافة تدل على مدتها وكتب تحتها ملوكها وأهم مقاموا به من أعمال . فكانت نظرة واحدة الى هذا الرسم تكفى لاستيعاب هذا التاريخ الطويل . وقد نال كل تلميذ نسخة من هذا الرسم نظير تمن رمزي ضئيل . وكما ذهبنا في رحلة أبي الهول والأهرام ، نظمت المدرسة لنا رحلة أخرى الى المعرض الزراعي الصناعي في عام ١٩٢٦ . وفي هذا المعرض رأينا مصر الحديثة وهي في خطواتها الأولى .

وفي أثناء الدراسة كانت الحياة السياسية في المجتمع المصرى غير مستقرة . كانت ثورة ١٩١٩ قد قامت بقيام الشعب المصرى على قلب رجل واحد . وكانت فترة ما بعد الثورة فترة لم تعرف الاستقرار ولكنها عرفت "مشروع ملنر" كما عرفت المفاوضات بين الزعماء المصريين والانجليز الغاصبين وفشلها . وعرفت كذلك نفى سعد زغلول للمرة الثانية ، ووضع الدستور (عام ١٩٢٢) وافتتاح البرلمان ، وحل مجلس النواب ، وقتل السردار (عام ١٩٢٤) .. الخ . وكانت الحياة المدرسية على الرغم من النظام الصارم الذى ألى حسن على ناظر المدرسة أن ينفذه بكل دقة تصطلم بهذه الأحداث ولم يكن تلاميذ المدرسة أو أبائهم أو أمهاتهم أو الكبار فى أسرهم يعيشون فى ذلك الوقت على هامس

الحياة فى المجتمع المصرى ، بل كان الحديث عن هذه الاحداث لاينقطع فى المدارس ولا فى البيوت ولا فى الشوارع ، وأننى اذكر فى خلال أحد الأعوام الدراسية وكان تلاميذ المدرسة يجلسون الى أمتحان نصف السنة فإذا بمظاهرة كبيرة قوامها مئات الطلبة من المدارس الثانوية العليا تقتحم المدرسة عن طريق الباب بعد كسره ، وإذا بهؤلاء المتظاهرين يملؤون حوش المدرسة الواسع . وقد أمرنا بأن نبقى فى الفصول ، وعندما ألح علينا الفضول وكانت الفصول فى الدور الأعلى فإذا ببعض التلاميذ وأنا منهم يتركون الامتحان ويطلون على الحوش فيرون عجا . كان الناظر حسن على عملاق المدرسة وجبارها فى وسط المظاهرة يحدث قادة المتظاهرين ويجادلهم وقد بدا أمامنا قزما ، ولكن لافائدة لابد ان يخرج تلاميذ المدرسة متظاهرين ولابد من ان تتعطل الدراسة للمناسبة التى تظاهر من أجلها الطلبة الكبار . وعندئذ أمر الناظر بتعطيل الدراسة والغاء الامتحان على أن يخرج تلاميذ المدرسة مباشرة الى بيوتهم فهم مازالوا صغارا لا يستطيعون ان يكونوا ضمن المتظاهرين يجوبون معهم الشوارع والميادين . ويومها كما اذكر خرجنا من أبواب سرية الى الشارع مباشرة ، ومنها الى بيوتنا .

وفى خلال العطلة الصيفية ، سنة بعد سنة ، فى خلال الدراسة فى المدرسة الابتدائية ، وكانت اى هذه العطلة تبدأ فى شهر يونيو وتنتهى فى آخر شهر سبتمبر من كل سنة ، كنت اذهب الى وكالة أبى بعيدا عن الحارة التى يقع فيها بيتنا لأكون تحت رعاية أبى مباشرة . وذلك أن الحارة كانت مرتعا لى ولأصدقائى فى خلال السنة الدراسية فى أيام الخميس والجمعة . نلعب الكرة "الشراب" أو نتبادل الأحاديث أو نمارس اللهو البرىء . وكان هؤلاء الاصدقاء كلهم من العمال الصغار ، منهم الذى يمارس صناعة الحدادة ومنهم الذى يعمل سروجيا فى القلعة ، ومنهم من يعمل فى صناعة الميكانيكا . كانوا أو معظمهم أكثر حرية منى .

فهم يجوبون الشوارع الى وسط المدينة فى طريقهم الى أعمالهم ، وهو يذهبون الى دار السينما ، "دار سينما أولومبيا" أو "دار سينما ايدىال" فى العتبة الخضراء . ويجىء "رمضان" أحدهم وهو ابن أم على نبيهة زوجة الحانوتى التى تسكن فى أحد حجرات بيت جدى لأمى . وتراه يحكى لنا عن الافلام ويذكر أسماء مثل "شارلى" و "زوجوتو" و "أيدى بول" التى لم أكن اعرفها . وتراه أحيانا يقلد شارلى وهو يمشى . وقد نجحت فى تعلم ركوب الدراجة دون ماذن من أمى أو من أحد غيرها . وكانت فرصة للمتعة والانطلاق . وكانت الحارة لى امتدادا لبيتى . فاتنا عند الجيران عامل كواحد من أبنائهم وكنت أشعر بأن أمهاتى ليست فقط أمى وزوجة عمى محمود وزوجة عم أبى أم حسين سكيته ، بل أيضا خالاتى غير شقيقات أمى وخالتى أم محمد نبوية شقيقة أمى فضلا عن "أم شعبان" الذى يملك أبنها المنزل الذى تعيش فيه معه ومع زوجته وأبنائهما . وكانت زوجة "الحاج شعبان" أيضا أم لى ، وكذلك أخت "الشيخ عبد الغنى" شيخ معهد طنطا الذى يملك منزلا فى الحارة أيضا ويتركه لأخته الأرملة وأبنائها ، وكان لايتأتى اليه الا فى الاجازة الصيفية . وكذلك "الست أم أحمد العسيلية" وهى أرملة تعيش وحدها وتكفل ابنها وابن اختها الذى كان فى سنى أو أكبر قليلا وبدأت صحبتى ثم صداقتى بابتن الاخت "محمد بدر" منذ ذلك الحين وحتى كتابة هذه السطور . كنت أدخل فى اى بيت فى الحارة أجد أما ، أطلب أن أشرب فيلبى طلبى ، واذا جعت طلبت "لقمة" فأعطى لقمة . وكان يفعل أبناء الحارة ما فعله وتلبى طلباتهم فى حب وحنان . كان التكافل الاجتماعى فى هذه الحارة سائدا . وكان من يسكن فى هذه الحارة فى ذلك الحين يسكن فى بيت يملكه ، سواء كان هذا البيت صغيرا أو كبيرا .

وفى اثناء الاجازة الصيفية انتقل الى بيئة ثقافية اجتماعية أخرى . ولكنها تشابه البيئة الثقافية الاجتماعية التى تعكسها الحارة التى ولدت فيها ونشأت . ولكن الاختلاف فى نوع السكان ،

وفى العلاقات الاجتماعية التى تربطهم . كان أغلب السكان فى البيئة الثقافية الاجتماعية التى تقع فيها "وكالة" أبى من أبناء البلد ومن بنات البلد ، وكان بعض السكان آتين مهاجرين من الريف القريب من القاهرة . وكانوا كما كان سكان الحارة ، كلهم ، من المسلمين ، وإن وجدت استثناء بعض الأحيان . كان معظم سكان حى السيدة عائشة وحى الزرايب وعرب يسار والذرعى (نسبة الى سيدى الأذرعى) وباب القرافة وقره ميدان والمحجر ، وهى الأحياء التى كانت تحيط بالوكالة التى يتاجر فيها أبى ويقوم بإدارتها ، من أبواب حرفة "المعمار" ، كان جبل المقطم قريبا فكان منهم الحجارون ، وكانت الحجارة فى متناول اليد فكان منهم البنائون ، ومع هؤلاء كان النقاشون والمبيضون والمبلطون والنجارون ، ومن السكان من كان يعمل فى الخدمات التى تتعلق بهذه الأعمال التى توفر حاجاتهم كتجار بقالة وأصحاب مقاهى . وكان من السكان من يتعاطى مهنة "التربية" ومن يقوم بخدمات الأعداد لدفن الموتى . ومن يبيع الخضار واللحم والفاكهة . كانوا يكوّنون مجتمعا محليا . فهم يعيشون فى بيئة جغرافية معينة ، وهم يحاولون تحقيق أهداف حفظ النوع ويحيون فى مستوى معاشى لائق ، وكانوا يعيشون بالضرورة فى جماعات وكانت لهم عاداتهم ، وقيمهم ، ومثلهم العليا ، التى يبتها فى العادة فيهم انمة عدد كبير من المساجد أو كانوا يتوارثونها ثقافيا جيلا بعد جيل . أما أعيانهم أصحاب الكلمة العليا فقد كانوا يعدون على الأصابع . كان أشهرهم أرباب عائلات أبو الدبل وراشد والقط ومحسن (شيخ الامامين الشافعى والليثى) واسماعيل عمران . وكان هؤلاء الأعيان أعيانا لأنهم أغنياء وأقرب الناس الى أصحاب السلطة والنفوذ سواء كانوا من المصريين أو من الانجليز

وكان يحولنا نحن الصبيان ، وبخاصة هذه الفترة من عمرى التى كان أبى يبيع لى فيها أن اختلط باندادى على اختلافهم ، أن نلعب الكرة فى "قره ميدان" أحيانا . أمام سجن مصر ، أو فى

القرافة حيث السكون الأبدى . الذى كان يقطعه أصوات المشيعين
والمسيحات لأحدى الجنازات . اى حيث يوجد الموتى فى
مقابرهم كنا نختار مكانا فسيحا لا يكون فيه مقابر لأحد ونلعب
ماوسع لنا وقت أن نلعب . وبدا لى أن الموتى المدفونين والجنازات
التى لا يمر يوم واحد الا ونشاهد منها أكثر من واحدة . فى أثناء
الصلاة على الميت بجوار ضريح السيدة عائشة النبوية . أو بعد
ذلك فى أثناء الدفن وبعد الدفن . بدا لى كما بدا لزملاى بمرور
الزمن أن الأمر عادى . وهذا شىء متوقع . وقد تأكدت من ذلك
عندما كنت فى أثناء احدى سنتين الدراسة كلما ذهبت الى المدرسة
وكلما عدت منها الى البيت وأنا أسير فى شارع الصليبية وفى
شارع الركبية حتى مسجد "السيدة سكينة" ، التى كان يقع
بجواره مسجد "السيدة رقية" . ومسجد "شجرة الدر" كنت أمر
على هياكل عظم إنسانية على طول الطريق حيث كان العمال
يحفرون لأول مرة توصيل المجارى فى هذا المكان . كانوا كلما
حفروا أخرجوا هياكل عظم إنسانية . كان أصحابها الموتى
مدفونين فى مواضع الحفر . لم أكن أشعر بشىء غير عادى . ولم
يفعل ذلك الناس من حولى . وكانت الحوانيت فى الطريق مفتوحة
ويأتى اليها روادها يسترون ما طاب لهم من مأكلا أو مشرب . كان
منظر هذه الهياكل يوحى بالتفكير ما فى ذلك من سنك وكان يجعلنى
انظر الى الحياة وكأنها سراب وان محاولة التكالب عليها هى من
قبيل عملية " قبض الريح " ، ولكنى فى الوقت نفسه كنت أسير
فى الطريق مع السانزين . كما كنت العب الكرة فى قرافة " الزرعى
" مع اللاعبين . وهنا تحققت عندى فكرة " الحياة أقوى من
الموت " وأن الموت على رهبته لن يقف فى سبيل حياة الآخرين

ولم يكن ملعب " الزرعى " الملعب الوحيد الذى كنت وأصدقاء
اللعبة فى حى السيدة عائشة والأحياء المجاورة نلعب فيه الكرة .
بل كنا نلعب كما ذكرت فى الأرض الفسيحة فى " قرّة ميدان "
بجوار سجن مصر . وكنا نلعب أيضا فى أرض أخرى بجوار سور

القلعة بجوار حي " الأبلجية " . وفى ذات يوم بعد أن لعبنا واشتد بنا التعب بدأنا العودة الى قواعدها فإذا نحن نرى بعض نساء الحي واقفات شبه عاريات تحت سور القلعة والجنود الانجليز يطلون عليهن من أعلى . كان النصف الأسفل من أجسامهن عاريا تماما ، وكانت كل واحدة منهن تضرب ساقها بيديها وماتحت الساقين ومابينهما صائحة " هالوجونى جيفت مونى " ، " هالوجورج جيفت فود " والانجليز يضحكون ويهللون ويقذفونهن ب " البقسماط " أحيانا وب " السليقة " أحيانا أخرى . وكان لهذا المنظر أثر فى نفسى ونفوس من كانوا يلعبون معى من الصبيان . ولم نجرؤ على أن نفعل شيئا الا أن نقذف هؤلاء النسوة بالحجارة حتى مشين من أمام أعيننا يجري وراءنا فلم يستطعن لأننا كنا أسبق منهن وأسرع . كان هؤلاء النسوة يمثلن حالة الناس فى حي الخليفة فى تلك الآونة من حيث الضنك الذى يعانون منه ، والبطالة التى يواجهونها باستمرار . فهم أو معظمهم أولا وأخيرا " أرزقية " ينتظرون العمل فلا عمل ، وان جاء العمل فانه يجىء متقطعا . وفى العشرينات فى النصف الأخير منها كانت الظاهرة أوضح . فالكساد كان يضغط على أنفاس سكان الحي من العمال . وأننى أذكر أن عددا كبيرا منهم ممن كانوا يشتغلون فى صناعة " لف السجاير " قد أخرج من العمل عنوة ، فقد حلت الآلات المشكلة دون الحاجة اليهم . وتعاطى هؤلاء أو معظمهم أعمالا لاتمت بمهنتهم بصلة . فمنهم من كان يبيع السجاير ، ومنهم من كان يبيع " نبوت الغفير " وهو يمثل الحلوى التى كان يهوى أكلها أطفال الحي ، ومنهم من كان يقلى السمك ويبيعه وتعاونه فى ذلك زوجته وبناته ، وقد رأيت آخرين بدأوا يبيعون الخبز مجرد الخبز ليكسبوا مايسد رمقهم . ولم أكن طوال الوقت فى أثناء فترات الاجازة الصيفية لعب الكرة الشراب ، بل كانت لى اهتمامات أخرى ، منها اننى كنت أقرأ بعض الكتب والمجلات التى كان أبى يقتنيها ومنها كتاب الطهاوى

"تخليص الابريز" ومنها مجلات مثل "المقتطف" ومجلة "الاستاذ" ، هذا فضلا عن الصحافة اليومية التي كان أبى يحرص على قراءتها يوميا . ولن أنسى ماكان يحدث لى فى بعض الأحيان ، والمعارك السياسية بين سعد زغلول وعدلى يكن على أشدها ، فأجندنى أمام حلقة تضم أكثر من عشرة من الرجال ومع احدهم الجريدة اليومية ، وكان هؤلاء يجلسون أمام حانوتى العطار الذى يديره عمى وهو على مسافة ليست بالبعيدة من وكالة أبى . أجندنى أمام هؤلاء عندما ينادى على الرجل الممسك بالجريدة وأنا أسير أمامهم قائلا :

"سيد أفندى احنا منتظرين"

وكنت أتوسطهم قارنا لهم مايحلو لهم آن يطلبوا قراءته او مايحلولى أنا قراءته . وكانوا وهم رجال كبار ينصتون وكان على رؤوسهم الطير أحيانا . وكانوا أحيانا أخرى يظهرون الإعجاب بالإشارة أحيانا وبالكلام أحيانا أخرى لما يستمعون اليه . وأنا بينهم كأتى قزم صغير بين عمالقة . وكنت ارى من بعيد أبى وهو ينظر الى وعيناه تنمان عن الشفقة وكانها كانت تدعولى الوقاية من شر الحاسدين . ومن هنا أحسست بالظلام المعنوى الدامس الذى كان يعيش فيه هؤلاء الناس . كما أحسست بالجهود المضنية التى يبذلونها من أجل ادخال شعاعا من النور لكى يبدد هذا الظلام . كانوا والملايين من المصريين يريدون أن يعرفوا مايدور حولهم من حوادث مصيرية . وكانوا يتلمسون فى سبيل هذه المعرفة الطريق ، وكان لسان حالهم يقول "من سار على الدرب وصل" . ولم أكن أحس بشيء من الغرور ولكنى أمنت بقيمة المعرفة وقداستها وأثارها وأيقنت ان المعرفة هى السبيل ليتسلط الانسان على الظواهر الطبيعية منها والاجتماعية ، ومن ثم فهى سبيل التحرر من القيود المعنوية التى تشل التفكير السليم . ومن ثم فهى نقطة البداية للحرية التى لايبقى الانسان انسانا بدونها أبدا .

ولعل أبى لكى يتفادى قيامى بهذا الدور قد دفعه الى ان يدعونى فى اثناء العطلة الصيفية التالية اى فى صيف عام ١٩٢٤ ان التحق بكتاب الشيخ طه كى ازداد لونا من المعرفة لعلى ان اتذوقه واستسيغه . فذهبت الى كتاب الشيخ " طه يوسف " وهو فى نفس الحى . وفيه عشت قريبا من أبناء الطبقة الكادحة حقا . كانوا يلبسون " الهلاهيل " وكانوا حفاة . وكان اباؤهم وامهاتهم يفعلون ذلك فعلا . وكنا نقرأ القرآن فى معظم الاحيان وكانت سنى قد بلغت الحادية عشرة فاستطعت ان احفظ " اجزاء عم وتبارك وقد سمع " حفظا وترتيلا . وكلما طلب منى الشيخ طه ان اقرأ كان يقول لى بعد الانتهاء :

" انت جيم " ثم يتبع ذلك بقوله " يعنى جاموسة " او بقوله " يعنى جحش " او بقوله " يعنى جدع " . وكان الشيخ طه رجلا عاديا لم يكن كفيفا وكان يلبس الجبة والقفطان فضلا عن العمامة والمركوب الاحمر . وكان موضع احترام أبى ورجال الحى . وكانت فرصتى كبيرة جدا لكى اعيش بين التلاميذ الصغار وكنت صغيرا مثلهم ، وقد كبروا معى فاستمرت الصداقة . واذكر منهم الكثير عندما صاروا رجالا ذوى حيثة فى المجتمع المحلى الذى يحيط بوكالة أبى وحانوت عمى محمود وحانوت عم أبى مصطفى . ومع كل ذلك فأننى ابيت الذهاب الى كتاب الشيخ طه فى صيف عام ١٩٢٥ . واقتراح على أبى ان اذهب الى مدرسة ابتدائية اهلية تقع فى شارع محمد على وهى " مدرسة حسن المسرات " . حتى تكون الفرصة لدى لاشتغل وقت فراغى فى مكان يساعدنى على التاهيل للحصول على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية فى عام ١٩٢٦ . وقد وافقت على ذلك . وسعدت بهذا الاقتراح . ولكن عندما ذهبت الى هذه المدرسة لم اجد المستوى العلمى الذى يفيد أو يضيف الى معلوماتى شينا . فابتاست من هذه النتيجة ولكن عوض ذلك انى كنت اسير فى الذهاب وفى الاياب فى شارع محمد على وكنت احذ الترام احيانا وفى الغالب كنت افضل السير على الاقدام .

فأرى الإعلانات عن المسرحيات فى مسرح رمسيس مثلا ، ولأول مرة قرأت اسم "يوسف وهبى" واسم "روز اليوسف" وايقنت ان هناك مسارح أخرى غير مسرح "على الكسار" او مسرح "الخلو" المنقل الذى كان يأتى الى حى الخليفة مرة فى كل عام او فى كل عامين

وهكذا قدر لى أن أكون فى أوقات فراغى فى أثناء السنة الدراسية مع لداتى من أبناء "زقاق الشراقة" و "شارع البقلى" وأن أكون فى أوقات فراغى فى أثناء العطلة الصيفية مع لداتى من أبناء "السيدة عائشة" و "الزرايب" و "باب القرافه" وكان هؤلاء الرفاق من الذكور عادة ولم يكن الفرق بينهم اقتصاديا شاسعا . وأن كانت القيم السائدة فى الحى الذى يحيط بالبيت تختلف عنها فى الحى الذى يحيط بالوكالة . كنا نسمع "سب الدين" طوال الليل والنهار فى الحى الثانى وحتى فى أثناء ليالى وأيام "شهر رمضان المعظم" ، كان الناس فى هذا الحى أناسا شتى ، وهم وأن تباينوا من حيث مكان منبتهم فهم متقاربون من حيث النظرة الى الحياة والموت والى الناس والى بعضهم بعضا . وكان أبناؤهم على شاكلتهم ومنهم اصدقائى ، ولكنى كنت حريصا على أن لاأقلدهم وبخاصة عندما يشتم بعضهم بعضا أو يشتم بعضهم الآخرين . كانوا "عفاريت" . وحتى الصبى الكفيف "الشيخ مليجى" كان يمثل "الوابور" والاولاد الحفاة يمسكون ذيل "جلابيته" وكل واحد يمسك جلابية الآخر وكانهم العربات يمرقون فى الشارع وكان الوابور "لايبالى بشيء" أو بانسان وهو يجرى وكأنه الصاروخ . وكنت تراه يترنم قائلا "ياوابور يامولع" وباقى الاولاد "العربات" ينشدون وراءه نشيدا جماعيا قائلين "حط الفحم" أما أولاد حارتنا فكانوا صبيان حرفيين "صنايعية" ، كنا نلعب معا الكرة الشراب أحيانا أو كنا نلعب "البلى" أو كنا فقط نغنى غناء جماعيا ولم يكن أحد يجرؤ على أن يسب أخاه سبا مقذعا أو أن يتجاسر على أن يسب

" الدين " . فالحارة فى ذلك الحين كانت عبارة عن ستة بيوت يملكها الذين يسكنونها . وكان سكان الحارة يعرفون بعضهم بعضا ويتبادلون الاحترام والمودة . وكانت الحارة تجتذب احيانا اولادا من الحوارى الاخرى مثل " حارة التاسعة " و" عطفة الدقاقيين " و" حارة المشرقى " وغيرها . كانت الحارة تمثل لهم مكانا يستطيعون أن يلعبوا فيه " البلى " أو " الكرة الشراب " . وكان هؤلاء اولاداكبارا . وكنا أنا وزملائى نلعب فى هذه الاثناء دور المتفرجين . نشاهد ونتعلم ونحن نشاهد مانشاهد .

والبنات فى المرحلة الى كنت أمر بها وبخاصة فى عام ١٩٢٦ لم يكن لهن دور كبير فى حياتى ، وأن كن موضع اهتمامى فى بعض الاحيان ، وبخاصة البنات اللاتى كن يعشن حول " وكالة " أبى . فكانت هناك " حميدة " و" فاطمة " و" حياة " يجتذبن انظارى فقد كنت محط الانظار فى ضوء ظروفى الثقافية الاجتماعية ، ولكنى كنت أذكر دائما نصيحة أمى التى كانت تحذرنى من أن " تضحك " على " احدى البنات " ، وكنت اعدھا بأن ذلك لن يحدث ابدا . ويبدو اننى فى هذه السن وحتى فيما بعدها لم اهتم كثيرا بتوطيد علاقة مع بنت من البنات ، كنت اعيش مع البنات فى أحلام اليقظة نعم ، ولكن يبدو أن حب أمى وحب خالاتى غير شقيقات أمى وحب النساء اللاتى كن من حولى من غير هؤلاء قد أشبعنى واعطانى ماكان يكفينى حتى تزوجت . وقد تزوجت مبكرا . وقد اعطانى هذا الحب فضلا عن حب زوجتى لى ماكفانى بعد ذلك حتى بعد أن سافرت الى أوروبا والى الولايات المتحدة مرات ، وكنت وحدى ، لم أبدأ الارتباط باحدى بنات الجنس الآخر أبدا ، وأن حدث الارتباط فكنت أهرب اذا أحسست بأنه قد بدأ يتوطد . لم تكن هذه هى القاعدة . فالمعروف ان القاعدة فى هذه العلاقات لها عادة استثناءات .

ومن الفروق التى يجب أن تذكر بين الحارة وسكانها وسكان الاحياء المجاورة والاولاد الذين كنت اقضى فراغى معهم وبين

سكان الأحياء التي كانت تجاور " الوكالة " آن ظاهرة وجود " الفتوات " من الرجال ومن النساء كانت موجودة في الأحياء الأخيرة . كان هؤلاء الفتوات يخوضون المعارك مع فتوات " الخارطة القديمة " و " الخارطة الجديدة " و " عرب اليسار " و " المنشية " . وكنا ننتصر لفتوات حثتنا ونسير وراءهم عندما يقول القائل ، الفتوة الأكبر عادة " اللي يعاديننا مين ؟ " ونحن أي شبان الحي وشباباته وأطفاله نردد من وراءه " نضرب بالسكاكين " .

وقد حفرت ذاكرتي . معركة وقعت امام باب القرافة " المعروف بباب السيدة عائشة " ، عندما وقع ضحيتها الشاب المشهور بأنه لم يمرض في حياته أبدا ، قتيلا كان اسمه " الاضعش " وكان شابا وسيما اسمر حسن التقاطيع تبدو عليه ، على الرغم من شهرته كفتوة ، الطيبة . وسار أبوه في الشوارع بعد ذلك يعدد صفاته وحسناته وكان يتعاطى مهنة " السقا " فيقول " داعمه ماعبي " ، " ده عمره ماشكا " .. يموت كده فطيس " وقد ثار في نفس المعركة للاضعش " " عبد الشافي " احد فتوات الحي فقتل من قتله بالسكين وواحدة بواحدة والبادي أظلم . ولكن عبد الشافي قبض عليه وحوكم وحكم عليه بالسجن خمس عشرة سنة ، ومات في السجن قبل أن يتم العقوبة . وكان يوما مشهودا عندما خرج من السجن جثة هامة وشيعت جنازته ، وقد شيعها كل سكان الحي من رجال وشبان وأطفال ونساء وفتيات وشابات ودفن في المساء في ضوء نور " الكلبات " . وكان القتل في الحاليتين بالسكين الذي كان يحمله الفتوة أو من يدعى " الفتوة " في العادة في جراب خاص يربطه في أحد ساقيه . كان الحشد الهائل من أهل الحثة وهم يشيعون جنازة عبد الشافي لايسرون وهم صامتون بل كانوا يترنحون بصوت عال قائلين :

" يا دايم هو الدايم ولدايم غير الله "

لم يكونوا يقولون جميعا ذلك بل كان قسم كبير منهم يترنم

أعضائه بذلك ، فإذا ما اكملوا العبارة بدأ أعضاء القسم الآخر يتنمون بنفس العبارة وهكذا حتى المقبرة التي دفنت فيها جثة عبد الشافى .

وفى شهر اكتوبر عام ١٩٢٥ هل العام الدراسى الاخير فى المدرسة الابتدائية . وفى خلاله أحسست بالضرورة القصوى لاجتياز الامتحان آخر العام حتى . أحصل على الشهادة الابتدائية التى لم يحصل عليها حتى الآن أحد فى أسرتنا وربما فى " الحنة " كلها التى أعيش فى مجالها . وقد ساعدنى كما ساعد تلاميذ المدرسة الاهتمام الزائد من ناظر المدرسة ومدرسيها وبخاصة الذين يدرسون علوم اللغة العربية واللغة الانجليزية والحساب . كنا نذهب فى الصباح المبكر قبل بدء الدراسة اليومية بساعة لنحضر الدرس الخصوصى فى الصباح ، وكنا نمكث بعد انتهاء الدراسة اليومية لنحضر الدرس الخصوصى بعد الظهر . ولم يكن المدرسون يطلبون منا شيئا الا أن نحضر فى الموعد . وكان الاهتمام منهم أكثر أو يوازى الاهتمام من التلاميذ . اما الاحساس بالمسئولية الاكبر فقد كان من نصيب حسن على ناظر المدرسة . كان يحضر أحيانا بديلا لاحد المدرسين لكى يؤكد لنا أهمية الامتحان وضرورة النجاح فيه . وكان فى ضوء ثقافته يدرس لنا أحد العلوم السابق ذكرها . وقد كان فى اللغة العربية مبرزا وكان كذلك فى اللغة الأنجليزية ، وكان كما كان يبدو لنا متخصصا فى علم الحساب . والاهتمام بهذا الامتحان كان مصدره البيت أيضا وبخاصة أبى الذى كان يشجعنى ويعدنى بأننى اذا مانجحت سيشتري لى "بسكليت" ، وكان هذا الوعد يغرينى فأننى بدأت أركب البسكليت دون أن يعلم ، وأحببت فى ذلك الحين مغامرة هذا الركوب . وفى الشارع لم يخل احد الا أن يدعوا لى بالنجاح . من النساء أذكر "أم حبيبة" التى كان زوجها يربى "العجول" ويبيعهها ومنهن كل قريباتى وكذلك "أم على نبيهة" التى كانت تفتح لى "الكوتشينة" أو تقرأ لى الفنجان "القهوة" السادة وترزف لى

البشرى فى كل مرة . وكانت آمى على رأس هؤلاء النساء . كانت تدعو لى بالنجاح وكانت تردف قائلة "شعر بدنى راضى عليك ياسيد يابن زنوبة إن شاء الله ناجح ناجح .. " . وكنت أقيم الصلاة فى تلك الأيام تقربا الى الله لكى ييسر لى النجاح وكنت ادعوه جل شأنه وأنا فى السجود فأقرب ما يكون المرء من ربه وهو ساجد . ولن انسى أبدا الشيخ محمد بركات "بياع العيش" عندما نادانى واخذ بيدي ثم وضع يده على كتفى قائلا لى ناصحا :
"ياسيد اذهب وزور أولياء الله وعندما تزور ضريح الامام الشافعى اكتب له ان ييسر لك النجاح فى الشهادة"

وذهبت الى أضرحة أولياء الله فى الحى بدءا بضريح "السيدة عائشة" ومرورا بضريح "السيدة سكينة" وضريح "السيد رقية" وضريح "السيدة نفيسة" وقرأت لهن الفاتحة ودعوت الله بالنجاح . ولم انس ان أقرأ الفاتحة لسيدى "أحمد البقلى" ولسيدى "الأربعين" فى شارع البقلى وادعو . وانتهى بى المطاف الى ضريح الامام الشافعى الذى بعد ان قرأت الفاتحة ودعوت وضعت قصاصة ورق كنت قد كتبت فيها :

"ياسيدى ياأمام ياشافعى ارجوك ان تساعدنى على اجتياز

امتحان الشهادة الابتدائية بنجاح ولك الشكر

سيد عويس

وكان عم حسين "سركس" بائع الكسكسى يرجو لى دائما النجاح . كان هذا الرجل يتحدث معى باللغة الانجليزية فيقول مثلا "How are you Saied" . وارد عليه بنفس اللغة . وقد روى لى من سيرة حياته انه كان فى "السلطة" . وكان يؤكد ذلك لى عندما كان يغنى الاغنية الانجليزية المشهورة فى اثناء الحرب العالمية الاولى .

It's a Long way to Tipperary ,

It's a long way to go .

It's a long way to Tipperary ,
To the sweetest girl I know .
Good — bye piccadilly ,
Farewell leicester Square ,
It's a long , long , way to Tipperary ,
But my heart lies there .

ويعتبر هذا الرجل المستنير الوحيد بين الناس الذين يعيشون معه ويعيش معهم من أهل الحنة . ولكن بصره كان قليلا ، فهو لا يقرأ الا فى النادر . لم يكن مصريا مائة فى المائة بل كان من أصل شركسى . وكان يقول لى ضمن ماقال انه كان موظفا فى "البوستة" ولكنه استقال ليحصل على المكافأة . وهاهو ذا يبيع المأكولات لصبيان الحى وأطفاله . وهوراض بنصيبه . وكانت أمه تحضر اليه فيتحدثان باللغة التركية . أما زوجته فقد كانت مصرية مائة فى المائة . وكانت هى وأولادها يعيشون معه على الطيب الطاهر وكل شىء نصيب . واننى أذكر عندما اخذته العزة يوما ما وذهب الى القسم ليشكو "محمد الضماتى" المبيض لانه شتمته . وكيف يشتمه الضماتى وهو جاهل لايعرف الالف من كوز الدرة . فى حين أن عم حسين يعرف من اللغات ثلاث : العربية والتركية والانجليزية . وعندما اعتذر الضماتى لعم حسين وقبل رأسه سامحه فى الحال .

وقد لعبت "السلطة" فى حياة سكان حى الخليفة دورا بل أدوارا حاسمة ، كان الرجال والشبان وبعض الصبيان يجندون للذهاب كعمال فى الجيش الانجليزى فى أثناء الحرب العالمية الأولى . وقد كان "أسماعيل عمران" مندوب الانجليز لاداء هذه المهمة . وكان يرسلهم زرافات ووجدانا الى الميدان فى فلسطين وفى سوريا وفى لبنان (الشام سابقا) وفى بلاد أخرى منها فرنسا فى بعض الأحيان . كان هؤلاء المجندون لايعرفون من الحياة الا

أن يكدهوا من أجل لقمة العيش . وكانت أمهاتهم وزوجات بعضهم وأولادهم من ورائهم يتوقعون أن يرسلوا اليهم بعض مايكسبون . وكانت الظروف الاجتماعية والاقتصادية من الصعوبة بمكان قد دفعتهم دفعا الى مواجهة المجهول فى بلاد الغرب . والواقع أنهم كانوا ومن يعولون دائما يواجهون هذا المجهول ولكن كان ذلك فى محيط من شبوا فى محيطهم . وكان الاغراء شديدا . فانتشرت الاغنيات التى تحبذ الخوض فى سلك عمال السلطة ، كما انتشرت الاغنيات التى تنعى الخوض فى سلك العمالة فى السلطة . كنا ونحن صغار نردد مثلا .

يالى رماك الهوى	حود على السلطة
يقلعوك الهالاهل	ويلبسوك سترة

وكنا نردد أيضا .

ياعزيز عيني	دانا بدى أروح بلدى
بلدى يابلدى	وانا بدى أروح بلدى

وكنت أحس فى أثناء العام الدراسى الأخير اذا كنت فى البيت أو كنت فى الشارع بجوار البيت أو فى الشارع الذى عن طريقه أصل الى الوكالة ان الناس يحيطوننى بالحب والحنان ، وأن نظراتهم تتبعننى حيثما أكون وعندما أكون . وانتهى العام ، وذاكرت دروسى المذاكرة التى كنت اودها أن تكون . وذهبت الى الامتحان مبكرا . وكانت لجنة الامتحان بالقرب من ميدان السيدة زينب فى مدرسة "محمد على الابتدائية" ، فذهبت لزيارة ضريح "أم هاشم" لأقرأ الفاتحة وأدعو . ثم ذهبت الى اللجنة وعرفت مكانى وجلست لأجيب عن أسئلة الامتحان أياما معدودات . وانتهى الامتحان وعدت الى منزلى ومنه الى وكالة أبى أنتظر النتيجة . وكان الانتظار طويلا فاننى لم أكن أنتظر وحدى بل كان جمع غفير من الناس ينتظرون معى . ولست أدري الآن هل كان انتظارهم من أجل شخصى الضعيف أو من أجل "خاطر" أبى أو كان هذا الانتظار من أجل أبى ومن أجلى . اننى لم أدخل قلوب الناس ولم

اكن أدري كيف أعلم مايطنون . وكان لى الظاهر من سلوكهم .
 وجاءت النتيجة بالنجاح فقد نشرت فى الجرائد "نمر التلامذة"
 وكان رقم جلوسى من بين أرقام جلوس الناجحين . وعم الفرح قلبى
 وقلب أبى وقلب أمى وقلب المخلصين من الرجال والنساء الذين
 يحيطون بنا أو يعرفون عن أمر الامتحان شيئا . وقد نشر "الشيخ
 ابراهيم يوسف" خبر نجاحى فى جريدة "الاهرام" ومنحنى لقب
 "الأفندى" فى هذا الخبر . وأسعدنى جدا أن بارك جدى لأبى هذا
 النجاح . وكان جدى لأمى سعيدا أعظم السعادة وقد عبر عن ذلك
 مرارا قائلا "ياسيد انت حتبقي وزير" . وأعفانى أبى من الذهاب
 الى كتاب الشيخ طه . وابتداً يستعد لتفصيل البدلة الجديدة
 والحذاء الجديد وتحضير اللوازم الأخرى من ملابس داخلية
 وقمصان وشنطة من الجلد لى أحمل فيها كتب المدرسة الثانوية .
 ولم تتغير علاقاتى بأصدقائى فى اللعب : خليل الشامى صبى
 البنا ، وعبد المنعم جبر الجزار ، وهنومة الذى كان يساعد أباه فى
 بيع الفاكهة ، وعزت أخيه ، وسيد بياع الجرائد . وعبد الشافى
 الصغير الذى لامهنة له وغيرهم من أهل الحطة التى تقع فيها
 الوكالة . ولم تتغير علاقتى بأصدقائى فى اللعب فى الحارة
 وماجاورها التى يقع فيها بين الأسرة . رمضان صبى الميكانيكى ،
 وعلى شعبان الحداد ، وعبد العال الحداد ، وحامد التلميذ ، وأحمد
 المحدد التلميذ ، والعربى التلميذ ، وابن عم سيد الفران وغيرهم
 وغيرهم . ولم أشعر بشيء حدث لى الا اننى كنت فى قرارة نفسى
 سعيدا فقد تكلم مسعاى بالنجاح وتحقق لى أنه من سار على الدرب
 وصل . وجاءت لحظة اختيار المدرسة الثانوية . لم اكن أعلم ان
 حسن على ناظر مدرسة والددة عباس باشا الاول الابتدائية قد انتقل
 ناظرا لمدرسة "الالهامية الثانوية" وهى تابعة لنفس الاوقاف التى
 كانت ترعى المدرسة الاولى . والمدرسة الالهامية الثانوية أصبحت
 فيما بعد تعرف بمدرسة "بناقادن الثانوية" . ولو كنت عرفت هذا
 الخبر لأصررت على أن ألحق بالمدرسة الالهامية حيث نقل إليها

ليس فقط حسن على بل بعض المدرسين الآخرين ومنهم كما علمت متاخرا " احمد افندى على " مدرس اللغة الانجليزية الموهوب . ان المدرسة الابتدائية تركت تلاميذها الناجحين ليختاروا المدرسة الثانوية التي يرغبون فى الالتحاق بها . لم يحدثنا أحد بضرورة الالتزام بالالتحاق بالمدرسة الالهامية ولاء منا لولادة الأمر الذين يرعونها كما يرعون المدرسة الابتدائية ، ولكنهم تركوا للتلاميذ الناجحين ولأولياء أمورهم الخيار . صحيح اننا ونحن فى المدرسة الابتدائية كنا نضطر للذهاب الى سراى "الوالدة" عندما تسافر الى تركيا وعند ما تعود الى مصر نحييها بها ونشرب شراب الليمون ونهتف وهى تمر من امامنا باللغة التركية

" افندى ميز شوك يشا "

ولكن موضوع اختيار المدرسة الثانوية كان قد ترك للتلاميذ الناجحين ولأولياء أمورهم دون ما التزام أو اضطرار . وطلبت من أبى أن يوافق على التحاقى بمدرسة الخديوية الثانوية التى تقع فى درب الجماميز ، فوافق . وقد كانت هذه الموافقة بردا وسلاما على قلبى المثل بالحيرة التى كنت أواجهها كلما اضطر الى الوقوف الموقف الهامشى الذى كنت آقفه كلما زرت مع تلاميذ المدرسة سراى الوالدة ونضطر جميعا الى أن نهتف ذلك الهاتف الأجنبى لحما ودما ولانستطيع المقاومة . ولن أذيع سرا اذا ذكرت أن السبب فى كل هذا هو التاريخ الذى كان علينا ان نستذكره وبخاصة ماتعلق بحقبة حكم الأتراك ابتداء من "سليم" ومروا بالممالك ثم أسرة محمد على لا رضى الله عنها . كنت كلما أتذكر مافعله سليم من تجريد مصر من علمائها وفنانيتها وعمالها المهرة فضلا عن الكتب التى نهبها وغيرها من التراث المادى والمعنوى وأرسل كل شىء الى عاصمة ملكه أشعر بالغيثان . ومنذ تلك اللحظة وأنا أتقرز وأثور على كل ما هو انجليزى . ان سليم ومن جاء من بعده فى معظم الأحيان نهبوا مصر حضاريا أما الانجليز فقد وجدوا الأرض ممهدة فاغتصبوا مصر لقمة صائغة ولكن هل حسب

الناهيون والغاصبون حساب أصالة مصر وعظمة ثقافتها القديمة المستمرة المتجددة ؟ انهم مع الأسف لم يحسبوا لكل ذلك حسابا ، وبقيت مصر وأصبحوا هم ذكرى يذكرها التاريخ حياء وخجلا .

٤ - مسيرتي التعليمية : المرحلة الدراسية الثانوية

وكان من نصيبي أن التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية . أن القرار كان قرار ابي وكان قرارى أيضا هذا صحيح ، فقد كانت مدرسة الخديوية الثانوية مدرسة حكومية وكانت مصاريفها أقل وكانت سمعتها بين المدارس سمعة طيبة . وكان أول يوم ذهبت الى المدرسة فى أول يوم سبت من شهر أكتوبر عام ١٩٢٦ . كان يوما مشهودا فى حياتى ، فما أن دخلت من البوابة حتى رأيتنى فى دنيا غير الدنيا . مبانى ضخمة فخمة ، أحواش عديدة وكبيرة ، حدائق غناء ، ملاعب للجمباز ولكرة القدم . وأصبحنا طلابا بعد ان كنا تلاميذ . وفوجئت بأنه كان بيننا طلبة كبار يعتنون باطلاق شواربهم . وكنت والطلبة الذين التحقوا فى نفس العام بالنسبة لهؤلاء الطلبة كالأقزام . وذهبت الى الفصل فى السنة الدراسية الأولى . وكان أمامى خمس سنوات دراسية حتى أحصل على شهادة "البكالوريا" ، وكان علىّ وكل من كانوا فى السنة الثالثة أن يجلسوا امتحان "شهادة الكفاءة" آخر العام ، وبعد ذلك يتقرر فى ضوء ميول كل واحد أى من القسمين العلمى والأدبى يلتحق الطالب به .

وكان الطلاب الذين معى غرباء . لم يكن واحد منهم زميلا لى فى الدراسة الابتدائية وكانوا من فئات أو طبقات اجتماعية شتى . كان منهم الريفيون ، وكان منهم من المحافظات الاخرى ، وكان منهم المسيحيون ، وان كانت اغليبيتهم من القاهريين ومن المسلمين . لأول مرة أتعايش مع هذه الانواع من الطلبة . وأحسست أن المناخ الثقافى للمدرسة الخديوية يختلف عنه فى المدرسة الابتدائية . كان مناخا تتعايش فيه القيم المختلفة كما تتعايش فيه المبادئ

والعقائد وحتى المثل العليا المتباينة . ولم يكن الاختلاف فى القيم ولا التباين فى المبادئ والعقائد والمثل العليا اختلافا أو تباينا فاقعا . ولم يكن فى معظم الأحيان متناقضا ، ولكن كان اختلافا وتباينا من نوع ما . أحسست فى أول يوم فى حياتى فى المدرسة الخديوية اننى أكثر تحررا عن ذى قبل . وقد ظهر لى ان الطالب فى هذه المدرسة قد يدخن وان كان يفعل ذلك فى دورة المياه ، وهذا أمر كانت تنابها قوانين المدرسة الابتدائية وتحرمه تحريما قاطعا . وربما نال من يفعل ذلك الجزاء الصارم فإيرفت أسبوعا على الأقل من أجل هذه الفعلة الشنعاء . لم أر فى محيط مدرسى المدرسة الابتدائية من يدخن أبدا . وان كنت ألاحظ كما كان يلاحظ غيرى أن مدرس اللغة العربية وكذلك مدرس الدين كانا يتعاطيان "النشوق" . أما مدرسو مدرسة الخديوية فقد كانوا يتعاطون فضلا عن التدخين جواهر مخدرة أخرى وكان أبرزهم مدرس الرسم "حسين زكى" . وقد نال أعجابى أن يكون مدرس اللغة الانجليزية انجليزيا ، وأن يكون مدرس اللغة الفرنسية فرنسيا . وكنا نفهم القليل فى أول الأمر وازداد هذا القليل يوما بعد يوم وأصبحنا نفهم معظم ماكان كل من المدرسين يدرسانه لنا . وكان من الطلبة الذين زاملونى من أهل محافظة دمياط ذلك لان ناظر المدرسة "ليبب الكردانى" كان دمياطيا . كان معنا "طاهر الخشاب" و "عزو" و "على العزبى" . وكانوا يمثلون ثالوثا وان كان متباينا ولكنه ثالوث يظهر الكثير من السمات الدمياطية . كان أكثرهم جدية طاهر الخشاب ويليهِ عزو ثم على العزبى . وكان الأخير يتباهى بأبيه الشاعر الدمياطى المعروف . ولايمكن الا ان أذكر ما فعله العزبى ذات مرة . كنا فى حصة اللغة الانجليزية وامتد الخلاف الذى كان بين المصريين على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم ضد الانجليز الى الفصل فى حصة اللغة الانجليزية . كان المصريون يكونون كل بغض وكراهية للانجليز المستعمرين ولكل من يمت لهم بصلة .^{١٠٩} الخلاف بنشأ من لاشئ أحيانا أو من اشياء لا وزن لها أحيانا أخرى . وحدث خلاف بين طلاب الفصل مع المدرس الانجليزى ،

وكانت الحصة آخر حصة فى اليوم الدراسى ، فما كان من المدرس الا ان أصدر "فرمان" لابد من تنفيذه وهو أن يكتب كل طالب جملة مائة مرة قبل ان يبرح الفصل فى سبيله الى الخروج للعودة الى منزله . ورضخ بعض الطلاب للفرمان وأبى آخرون أن يفعلوا ذلك وتركوا الفصل بعد انتهاء الحصة مباشرة . وجاء اليوم التالى فوجدنا أن الذين لم ينفذوا الفرمان قد مثلوا أمام الناظر لبيب الكردانى وكان ضخم الجثة ويبدو عملاقا . وانتهى الأمر معهم بتوبيخهم وانذارهم بالعقوبة الشديدة اذا فعلوا مافعلوا مرة أخرى . وفى التوالى للحظة أمسك على العزبى قطعة من الطباشير وكتب على السبورة بيتا من الشعر كان :

" كفى بالأمس من شاهد ومبين قد أبعد البنات من صف البنين "

وترك لكل طالب أن يقرأ ماكتب وأن يستوعبه ثم يتأمله . وهنا كما فى كل مكان فى البيت وفى الحارة وفى الحقة وعلى صفحات الجرائد والمجلات توضع مكانة الأنثى المصرية فى الميزان وترجع كفة مكانة الذكر المصرى دائما .

واننى أذكر من زملائى فى المدرسة الخديوية أيضا "أحمد على فرج" فقد كانت المنافسة بينى وبينه حامية الوطيس كان فى امتحان نصف العام قد يكون ترتيبه الأول ويكون ترتيبى الثانى ، وكان العكس يحدث تماما فى عام آخر . ولايمكن الا أن أذكر أننا فى امتحان الكفاءة فى آخر عام السنة الثالثة الثانوية عام ١٩٢٩ رسب احمد على فرج بين دهشة الجميع ثم نجح فى الملحق فى حين أن كثير من الطلبة الذين كان مستواهم العلمى فى العادة أقل نجحوا . وكان "فتحى الزاملى" أحد الزملاء الذين كانوا يتبادلون معى الرسائل فى أثناء العطلة الصيفية . كان طالبا رزينا ولعله كان أول من عزانى بعد وفاة والدى وانقطاعى عن الدراسة ، وكان من كرمه أن عرف عنوان "الوكالة" التى قمت بإدارتها بعد أبى وأخذ يشجعنى قائلا "الآن قد التحقت بمدرسة الحياة وهى

خير معلم" وقد قبلت هذا التشجيع وقتئذ على مضض وشكرته ثم انصرف ولم أره بعد ذلك ابدا .

وفى أثناء "الفسحة الكبيرة" كنا ننتظر طعام الغداء ونشغل الوقت إما بالحديث فى السياسة ، وكان "سعد زغلول" قد مات فى أغسطس عام ١٩٢٧ ، وحدث بعد وفاته ما حدث من أحداث بين الساسة المصريين وبينهم وبين الانجليز أو بين السراى . وسعد زغلول عندما مات كنت فى الأجازة الصيفية وقد دفن فى قراة الامام الشافعى "بجوار الحى الذى تقع فيه "وكالة أبى" كانت الجنازة مهيبة رهيبة فى آن واحد ، احتشد وراءها أناس وكانهم بحر من الطرايش فيه حيتان من الععم . كانوا شبانا ورجالا ونساء . كان فيهم الابيض والاسمر . وكنت اتفرج على الجنازة من عل . فانا ابن الحنة اعرف الاماكن المناسبة للتفرج فاخترت ماييسر لى هذا وأنا بعيد عن الزحام الشديد والسيل من الناس المشيعين الذى لاينقطع . كنت مسلحا ثقافيا وعاطفيا بسياج مبادئ الحزب الوطنى فلم تكن وفاة سعد زغلول قبل ان اراها وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى ذات أهمية كبيرة ، ذاكر فى نفسى جنازة "جثة محمد فريد" التى لم يشيعها الا الوطنيون الحقيقيون وكانوا قليلون بعد ان تبرع من أجل احضارها من برلين أحد المواطنين الأحرار الكرام . ولكنى ماكدت ارى مارأيت فاذا بدموعى تنهمر مدرارا أسفا وحزنا على وفاة سعد زغلول . كان زعيما ما فى ذلك من شك . وكان انسانا من حقه ان يخطىء أحيانا وأن يصيب أحيانا أخرى . وكان قبل ذلك وليس بعده من مريدى "الشيخ محمد عبده" .

والمدرسة الخديوية كانت مملوءة بالنشاطات العديدة منها النشاط الرياضى بألوانه . ومنها النشاط المسرحى ومنها النشاط الموسيقى ونشاط الكشافة وغيرها . وكان يستهوى الكثير من الطلبة فى أثناء الفسحة الكبيرة ان يتفرجوا على نشاط الجمباز الذى كان من عمده أحمد مرزوق وأخوه الأصغر فرحات مرزوق . كنا

نشاهد العابهم على الحصان وعلى العقلة وعلى المتوازيين . وكنا نعجب ونسعد في آن واحد . وقد تستغرق المشاهدة فترة الفسحة كلها في الكثير من الاحيان . وقد شجعني ابي على الالتحاق بقسم الموسيقى الذي كنا ننخرط فيه نظير مبلغ رمزي ، ولم تكن الثقافة التي تعيش في ظلها أعضاء الأسرة تسمح باقتناء بيانو . ولكنني اكتسبت حاسة التذوق الموسيقي الذي هو والقراءة أصبحا عزائي الأول في حياتي بعد ذلك . ولم أشأ أن أقف موقف المتمرد أمام الأسرة في ذلك الحين فقد جربت ذلك يوما ما وأنا في المدرسة الابتدائية عندما علمت بأن "فحم المنقد" بعد اشعاله يخرج غاز ثاني أكسيد الكربون وهو غاز سام . وكان أهل البيت يستعملون فحم المنقد للتدفئة في الشتاء ، فلما عدت الى البيت وكانت المناقد مشتعلة والجو مملوء بالغاز السام ، سارعت الى فتح "الشبابيك" ليخرج هذا الغاز فما الذي حدث ؟ أو ما كاد الذي يحدث ؟ كان الصراخ في وجهي احتجاجا من الجميع وكانت أمي بينهم ، وكادت زوجة عمي محمود ان تتناول عليّ بالضرب . كنت في الثانية عشرة من عمري في ذلك الحين . وأنا الآن كدت ان ابلغ الخامسة عشرة من عمري . ولكنني أثرت أن أهادن فلا أطلب شراء بيانو لاتدرب عليه . وأنا الآن أقول لو أن موهبة الموسيقى كانت تسيطر عليّ لكنت فعلت المستحيل من أجل ذلك . وأنى تكون لدى هذه الموهبة وأنا أسمع الصراخ ليل نهار صراخ العراك بين نساء البيت أحيانا وصراع العراك بين نساء الحارة ، وأخيرا وليس آخرا نهيق الحمار الذي كان يقتنيه جدى لأبي لكي يركبه مارا على زبائنه في طول القاهرة وعرضها ليحصل منهم نقود مااشتروه من غاز البترول باسمه من شركة "شل" الانجليزية .

وأنا لأذكر من مدرسي مدرسة الخديوية الثانوية الا مدرسا واحدا هو "امبابي الكفافي" مدرس الرياضة الذي كان يحبني وكنت أحبه والذي كان معروفا لدى الطلاب بأنه المدرس الذي لايبتمس الا مرتين في أول العام الدراسي ومرة أخرى في آخر العام الدراسي . أما المدرسون الآخرون فمع الأسف الشديد فانني

لا اذكر واحدا منهم ، حتى مدرس اللغة العربية فلا أذكره ، ومدرس الكيمياء العلم الذى كنت فيه مبرزا لاتسعفى الذاكرة فاذكره . ولييب الكردانى الناظر ضخم الجثة العملاق أذكره جيدا فقد كان فى أحد أيام الشتاء القاسية وكنت أسير فى الطابور الى الفصل واضعا احدى يدي فى جيب الجاكتة دون ماوعى ، فاذا به يصرخ صرخة مزعجة محتجا كان بسببها أن انتفض جسمى الغض وأحسست اننى ارتفعت من على الأرض هلعا ثم نزلت مرتجفا . لايمكن ان انسى لبيب الكردانى وقد حدث ماحدث فى ذلك اليوم البعيد فى الشتاء عام ١٩٢٨ أى عندما كنت أبلغ الخامسة عشرة من عمرى .

امتحنت فى صيف عام ١٩٢٩ امتحان شهادة الكفاءة وحصلت على هذه الشهادة . واخترت القسم العلمى لكى التحق بعد حصولى على شهادة "البكالوريا" بكلية الهندسة أو كلية الطب . وعم الفرح بالنجاح قلوب أبى وأمى وكل من فى الاسرة . وأصبح لى مكانا مرموقا فى محيط الاسرة . وقد فضلت القسم العلمى على مضض فأنا أحب الرياضة والكيمياء والطبيعة نعم ، ولكنى أحب أيضا التاريخ والفلسفة واللغة العربية وآدابها .. الخ وكنت مترددا وارى أن التقسيم تعسفيا . ان المعرفة كل لايتجزأ أو يجب أن تكون كذلك . ورغبتى فى الشمول كانت غالبة ، ولكن مباليد حيلة . فقد كان على أن اختار وترك أبى لى هذا الاختيار ، فهو فى ضوء ثقافته لم يكن ليرى أن يدخل فيما لايعنيه . وكان يعتبرنى وأنا فى هذه السن رجلا صغيرا . وكان فى ضوء ظروف صحته المتدهورة لايقوى على أن يبت فى أمر كهذا ولم يكن من أصدقائه أحد يستنصحه ولا من أعضاء الاسرة من يصلح لذلك . كان القرار قرارى وكنت أرنو الى المستقبل البعيد وأدعو الله بالتوفيق والسداد

ومرت الأيام فى سرعة مزهلة وهأنذا فى يوم السبت الاول من شهر أكتوبر عام ١٩٢٩ أدخل فصل السنة الرابعة الثانوية قسم علمى بمدرسة الخديوية الثانوية . كان الطلبة غير الطلبة الا

القليلين . وكان المدرسون غير المدرسين . وبدأ المناخ الجاد يخيم على نشاطات الفصل . يدخل المدرس الفصل فى الموعد المحدد ويخرج فى الموعد المحدد . وبدأت أحترم الجميع وأقدرهم الا واحدا . كان هذا الواحد مدرس الرياضة الذى لم اره من قبل . كان رجلا كبير السن . وكان درسه حكايات عن ماضيه وعن تلاميذه الذين أصبحوا منهم الوزير وأستاذ الجامعة فيما بعد . وكنت ارى أن هذا الكلام غير ذى موضوع وبخاصة فقد كان الدرس الذى يدرسه لنا درسا جديدا هو "حساب المثلثات" الذى لم تكن تعرف عنه شيئا من قبل . وكان يجارى هذا المدرس الكثيرون من الطلبة ، وكنت اتقزز عندما ارى أحدهم يقبل يده دون ماداعى الا ان يتقرب اليه . وكنت اتقزز اكثر عندما يمد مدرسنا يده عامدا متعمدا لكى يقبلها من يقبلها . وأنا لا أعرف سبيل التقرب لأحد الا الجد والاجتهاد فى تحصيل العلم والمعرفة والا فى تأدية واجباتى على خير وجه . هكذا وحتى الآن كان هذا سببلى . وقد نجح . فأسمى يعرفه الكثيرون فى محيط الطلبة والمدرسين وغيرهم . وآبى هو أبى وأمى هى أمى . ولقد أمنت منذ ذلك الحين وحتى الآن بأن "الباسبورت" الى احترام الآخرين (حتى الأعداء) وتقديرهم ، مهما خانت الظروف ذلك ، هو العمل الجاد الخالص المخلص . وقد خانتنى الظروف كثيرا من أجل تمسكى بهذا الشعار ولكنى لم أحد عن سببلى . وأنا لا أفعل ذلك كما يفعل المجرم المعتاد الذى يستعمل اسلوب ارتكاب جرائمه باستمرار لأنه اسلوب ينجح معه فى اغلب الاحيان ، ومن ثم تراه يقع فى ايدى رجال الشرطة . ثم يعود الى استعمال ذلك الأسلوب . فالقياس هنا مع الفارق . ذلك لأننى استعمل الاسلوب الذى ييسر التغيير الى الأفضل . تغييرى وتغيير ما حولى من أوضاع وتغيير من حولى من الناس الى الأفضل . فأنا أرى أن الزيد يذهب جفاء وأن ما ينفع الناس يمكث فى الأرض . وقد اتخذت هذا الشعار وكان صديقى المغفور له ابراهيم المنوفى يشركنى فى ذلك . كان يعمل فى ميدان الخدمة الاجتماعية الريفية فى قرية "شطانوف" فى جد واخلاص نادرين .

وكان يعمل لا يآبه نقد الناقدين أو حسد الحاسدين . فقد كان رائداً في هذا الميدان وكان النقد لأعماله والحساد له كثيرين . فكنا هو وأنا إذا ما تقابلنا نختتم حديثنا الطويل بالعبارة التي اقتبسناها من القرآن الكريم وجعلناها شعاراً لنا قائلين والرضا يملؤ قلوبنا وعقلينا :

"وأما الزبد فيذهب جفاء" .

وكنا نؤكد على كلمة "جفاء" فنكرها مرة ومرات . ومن ثم كانت صلتى بالمدرس المذكور صلة غير وثيقة . فقد ضقت به ولم اتعاطف أبداً مع حكاياته وقصصه عن ماضيه وعن تلاميذه الذين أصبحوا وزراء ومديرين وأساتذة في الجامعة .

. وكانت نشاطاتي خارج المدرسة وبخاصة في العام الدراسي ٢٩ / ١٩٣٠ في أثناء العطلات الأسبوعية بخاصة وفي أثناء العطلات الرسمية مثل عطلة العيد نشاطات عديدة . كنت مع غيري من الطلبة نذهب أسبوعياً الى السينما بعد ظهر يوم الخميس . فقد كانت "سينما أولومبيا" و "سينما ايدىال" تحيان حفلات خاصة بالطلبة في هذه الفترة . كنا نذهب متسابقين لكي نحظى بمشاهدة الأفلام المعروضة لتكون مادة عندنا نتحدث عنها ونعلق عليها ونظهر مدى ثقافتنا السينمائية . وكان المسرح أيضاً هدفاً للذهاب اليه وبخاصة مسرح "فاطمة رشدى" صديقة الطلبة ، ومسرح "رمسيس" لنرى "يوسف وهبى" وأعضاء فرقته . وبدأ اقتناء الكتب المدرسية وشراؤها هواية لنا . وكنا نقرأ ونحاول أن نستوعب مانقرأ في فهم شديد . برز اسم "المنفلوطى" وكتبه "العبرات" و "النظرات" . وعن المجلات بدأنا نقرأ "للطائف المصورة" بعد ان كنا نقرأ "مجلة الأولاد" وكل ذلك فضلاً عن الجرائد اليومية . فنحن الآن في المدرسة الثانوية أى أننا في البوتقة التى تهيئنا للدراسة العليا في الجامعة . ومن حقنا ان نشب مواطنين ووطنيين صالحين فالعدو مازال رابضاً على ارضنا بل هو بئقله رابض على القلوب والنفوس . وأصبحنا ونحن في حمية الشباب نضيق ذرعاً

بهذا الحمل الثقيل . ولا أنسى أنني في فترة من فترات الحماس التي كانت تتابني حيناً بعد حين أن أرحب بزيارة البرلمان المصري ، وزرت أحد جلسات مجلس النواب . ورأيت الزعماء السياسيين وجهاً لوجه . وقد اغتبطت لرؤية "مصطفى النحاس" و "مكرم عبيد" و "النقراشي" و "أحمد ماهر" و "عبد الحميد سعيد" و "فكري أباطة" وغيرهم . أسماء كنا نرى صورها في الجرائد . وأشخاصها الآن ماثلة أمامي . أراها تتحرك وتتكلم أحياناً وأراها وهي صامئة أحياناً أخرى . ورأيت "مكرم عبيد" وهو ينزل من على درج في المجلس فرأيت في حركاته خيلاء لم يستسيغها قلبي ولا عقلي . وأنه في ذلك الحين كان في قمته وكنت أود لو أنه في سيره أو في نزوله من على سلالم الدرج أكثر تواضعاً . ويبدو أن هذه سمة لكل من يرقى إلى قمة القمم وبخاصة إذا كانت هذه القمة الوزارة . فقد رأيت الكثيرين بعد ذلك ممن تبوؤوا كرسي الوزارة يفعلون ما كان يفعل مكرم عبيد . واستثنى من ذلك "الدكتور محمد صلاح الدين" الذي تبوؤ كرسي وزارة الخارجية في أوائل الخمسينات . كان هذا الرجل ناضجاً إلى درجة أنه لم يسعه إلا أن يكون متواضعاً .

وكشخص ولد في أحد حواري المدينة وعاش في المدينة فقد كانت الدعوة إلى قضاء أحد أيام عيد الأضحى في قرية بالقرب من بلدة "الخطاطبة" مفاجأة سارة لي . فقد كان معظم العمال الذين يعملون في وكالة أبي أو في نشاطات التجارة عند جدي لأبي من الريف القريب . وقد دعانا بعضهم ممن ينتمون إلى هذه القرية . كان من المدعوين زكي ابن عمي محمود شقيق أبي ومحمود ابن خالتي أم محمد نبوية شقيقة أمي وحامد (وكان أخرسا) زوج بنت عمتي أم بطة شقيقة أبي ، وكانت قد تزوجت منه قبل ذلك بعام ، وبقيت أختها رتيبه في منزل الأسرة حتى تزوجت فيما بعد ، وكان أحبها كذلك الطوخي وهو زوج الست "سنية" إحدى قريبات زوجة عمي محمود أم علي زينب . كنا خمسة ممن نشأوا في حواري

مدينة القاهرة وعاشوا فى هذه الحوارى وماجاورها من شوارع .
انتقلنا ونحن نحمل ثقافتنا كل واحد على حدة الى ثقافة الريف
المصرى لأول مرة فى حياتنا . ركبنا القطار ، ثم المعديّة ، ثم
الحمار ، الى أن وصلنا الى الدار . وفى أثناء الرحلة ونحن فى
المعديّة ينطلق الطوخى ويرفع عقيرته بالغناء :

"يا بدر ياللى بنات خلفاك حلوك"
ماضقت فى كرب الا لما الله يحلوك"
"الشمس والقمر لاثنين سجدوك"
"يا بدر"

وكان الطوخى يعيد ويبدى فى لفظ الاثنتين مرات ومرات . وكان
صوته مقبولا وكان يحولنا أن نردد معه بعض مايقول .. ثم يتناول
الغناء موالا آخر :

"عينى رأت بنت بيضة والندا نازل"
"والشعر الأصفر على الخد الجميل نازل"
"طلبت منها الوصال قالت لى يا جددع"
"ارجع لتموت قتيل المحبة والندا نازل"

واخيرا وصلنا الى الدار فوجدنا الطعام ينتظرنا . وجدنا ألوانا
عديدة من طعام الزيف الأصيل . الفطير المشلتت بالمسلى البلدى
الساخن والعسل النحل الذى مازال بكرا لم تمسه يد غشاش ،
والجين بأنواعها الحلوم والقديمة ، واللبن الطازج والقشطة
الطازجة فوق كل ذلك . وكانت الكميات "وافرة" فأكلنا وأكلنا
صوابعا وراء ماأكلنا . ثم حان وقت النزهة فى حقول القرية ،
وركبنا الحمير وكان نصيب كل واحد منا حمارا ، وكان يرافق كل
واحد منا أحد شبان القرية وذلك لان ركوب الحمير لم يكن أحد
عوائدا . وجبنا الحقول وسمعنا صوت "الساقية" قبل ان نراها
ورائنا "الطنبور" وهو يعمل . وشاهدنا الفلاحين المصريين
الكادحين وهم مكبون على العمل والعرق يسيل من على الجبهة تماما
كما يسيل عرق عم عبد الفتاح عم أبى الذى يعمل فى الوكالة وهو

يطحن البن بقواه البشرية . ورأيت ذلك وعرفت أن الكادح فى المدينة مثل الكادح فى القرية الكل يعرق والكل عرقه يسيل من على الجباه وحول الرقاب مروراً بما وراء الآذان . ومن العجيب اننى رأيت هذا الكدح وهذا العرق ونحن فى أجازة العيد . فبدأ لى أن العمل فى الحقل لايعرف الاجازات . وكنت اتوق لارى الجاموس والبقر فى الواقع الحى ، وأرى كيف تحلب الجاموسة أو البقرة وكيف يسيل اللبن من ضرعها كما تسيل المياه العذبة من الصنبور فى بيتنا . وكانت المرأة الفلاحة والفتاة الفلاحة تشاركان الرجال والشبان العمل . فى البيت تراها كادحة تماماً كما تفعل أمى وكما فعلت منذ ان شبت عن الطوق وحتى الآن ، ويبدو ان سن السادسة عشرة قد فعلت فى جسمى ما تفعله عادة هذه السن فى جسم سليم . وكانت يد اية فتاة ريفية ترتعش كلما مست يدي . وكانت الفتيات ينظرن الى نظرة فيها معان معينة لاتغيب عن مشاعري وحواسي ، فقد كنت اصغر الزوار سناً . وكان من بيننا ثلاثة متزوجين . اما الرابع فقد كان يشكو مرضاً فى احدى عينيه . وكنت بينهم الفتى اليافع السليم ذو القسمات المتناسقة الصالح لاشباع شهوات العيون النهمة .

وكان يوماً سعيداً سعيداً . كان من الضروري أن تناول الطعام فيه مرة ثانية ، فقد ذبحت الفراخ : وجاء الثريد وفوقه كتلات من لحم الضأن لحم الضحية ، والفطير المشلتت ايضا ، ثم البطيخ بعد كل ذلك . واستعد كل واحد منا للعودة فقد أن الآوان وكادت الشمس الساطعة أن تغيب . وعدنا الى ركوب الحمير ثم المعديّة ثم القطار ومنه الى بيوتنا . ورجعت وكان أبى فى المنزل نائماً وكانت أمى فى انتظارى وفى قلبها الهواجس تروح وتجيء ورأنتى فهذا روعها ، وذهبت بعد فترة الى سريري لأنام فى الغرفة التى تضمّنّى مع أبى وأمى . ولم يحدثنى أبى فى أمر الرحلة الى الريف بشيء . فاننا فى نظره قد اصبحنا رجلاً صغيراً وأنا فى كنت رفيقة من يامن لهم ويانس .. ولعل السبب الحقيقى أنه صار رجلاً آخر غيره منذ

سنوات . فقد كان يعاني من المرض وكان لايقدر على مسألة أحد كما كان يفعل من قبل وكانت الأيام أيام عيد "أيام مفترجة" فلاداعي لأن يكدر صفوى أو صفو أحد غيرى ونقشت زيارتى للخطاطبة حتى زرت بعد سنوات عشر قريتي "شطانوف" ثم "المنایل" واستعدت الذكريات وعانيت مما رأيت فى كل مرة أزور الريف فى هذه الزيارات وحتى بعد هذه الزيارات وحتى الآن .

وفى علاقات الأسرة تغيرت بعض الظروف منها زواج نفيسة بنت عمتى أم بطة ، ومنها سوء حال عمى محمود شقيق أبى واعتماد اسرته على دخل جدى ، ومنها اعتماد زوجة عم أبى مصطفى وبنتها على دخل أبى ، ومنها ان عبد المنعم ابن عمى محمود انقطع عن الأزهر وذهب يعمل فى مجلة " اللطائف المصورة" فى وظيفة مصحح ، ومنها ان محمود شقيق نفيسة ورتيبة أبناء عمتى أم بطة بدأ يعمل تحت رعاية أبى فى الوكالة . وماتت خالتى أم محمد نبوية شقيقة أمى ، وبعد أن تزوجت خالتى حميدة غير شقيقة أمى مات جدى لأمى ، وفى يوم الخميس عند انتهاء امتحان نصف العام للسنة الرابعة الثانوية بالمدرسة الخديوية زفت خالتى عزيزة غير شقيقة أمى ، وكان أبى هو الرجل الكبير الذى يباشر المسئولية من أولها لآخرها . وبقيت خالتى زهرة تنتظر "العريس" وتخشى أمى قبل كل انسان أن يتأخر هذا العريس . كانت أمى هى الأخت وهى الأم لهؤلاء الأخوات غير الشقيقات . وأصبحت أمى بعد وفاة الأخت الشقيقة أم محمد نبوية الأم لابنائها محمد وعيسى ومحمود ويوسف . تعمل من أجلهم كل مافى وسعها فى حب شديد عميق لانجد له مثيلا الا نادرا . فقد عز على أمى وفاة هذه الشقيقة موضع سرها وحبيبته التى لم تعوضها الا بعد ان رزقت بابنتى الكبرى "آمال" بعد ذلك بسنوات . فقد كانت الأخيرة على صغرها محط الآمال عند أمى وكان إنجابها تحقيقا لرغبة دفينة فى صدرها . وكانت آمال الصغيرة حلم أمى الذى تحقق ، ولكنها صغيرة وتركتها وهى يافعة .

ومرت الأيام مرور السحاب وجاء يوم امتحان نصف السنة فى شهر يناير عام ١٩٣٠ . وانتهيت من هذا الامتحان فى يوم الخميس ١٦ من شهر يناير عام ١٩٣٠ ، وحضرت مع أبى زفاف خالتي عزيزة التى تزوجت من مدرس لغة عربية يعمل فى احدى المدارس الابتدائية ، وقد تخرج فى دار العلوم ، وكانت عزيزة زوجته الثانية ، أما الأولى فقد طلقها لعدم التوافق . وذلك لأن اباه كان يعمل "حجارا" ولما نال "سيد محمود" وهذا اسمه الشهادة رأى أن يوجه احدى بنات أحد المقاولين المرموقين فى حى الخليفة الذى كان يملك "قمينة" تعد جبر البناء . فرحب به المقاول وزوجه احدى بنات أسرته . وعاشت الزوجة مع أسرة الزوجة مع أسرة الزوج ومن أعضائها اخت مطلقة أنجبت ابنة . وسكنت هذه الأسرة شقة فى احد البيوت التى بنيت حديثا فى حارتنا . شقة حديثة تليق بالمقام . وعاشت الزوجة حياة ضنك وعراك . وقد سمعتها تقول لاحدى قريباتى التى كانت تحادثها وهى مطلة من الشباك وكانت وحيدة فى تلك اللحظة ، سمعتها وكنت اراها وهى لاترانى تصف زوجها "سيد افندى محمود" بأنه "وردة حوالها شوك" وانتهى الامر بطلاقها اذعانا لرغبة الاخت المطلقة . وتزوجت عزيزة من هذا الرجل وكانت نصيحة أمى لها أن تصبر صبر المجاهدين فزواجه منه هى فرصة العمر ، فهو مدرس " قد الدنيا " وسنها يزداد عاما بعد عام . وفى اسرتها لا يوجد مدرسون وان وجد حرفيون أو تجار شرفاء . زفت خالتي عزيزة يوم الخميس بين سعادة الجميع وفرحهم . وجاء يوم الجمعة فأدى أعضاء اسرتها الواجبات التى تؤدى عادة يوم

الصباحية ، فهى أولا وقبل كل شىء يتيمة مات ابوها (جدى لأمى) منذ عام ، وماتت أمها وهى صبية . وكان لأبى السهم الوافر فى أداء هذه الواجبات عن طريق أمى . وجاء يوم السبت ١٨ من يناير عام ١٩٣٠ . وخرج أبى فى الصباح كعادته قابل من قابل وتعامل مع عملائه ماتعامل ، وكان راضيا عن نفسه فقد ذهب الى "أمين الزينى" التاجر بحى بولاق ، وتيسر له أن يدفع قسطا كبيرا

من ديونه . فقد أصبح الزينى التاجر الوحيد أو كاد الذى كان أبى يتعامل معه ويأخذ منه البضاعة التى يحتاج إليها ويدفع له بعض ثمنها ، ثم يدفع الباقي كل أسبوع ، ويطلب غيرها ، وهكذا . كان مادفعه أبى للزينى ماجعله هادىء النفس غير قلق . ولهذا فقد كان يوم السبت رضى النفس . وكنت بدورى أرنو الى اجازة نصف السنة أرتع فيها وألعب وأجد وأمزج ، وربما أديت واجبى نحو أبى فأذهب الى الوكالة اذا رأى أنه فى حاجة الى .

وفى يوم السبت مساء عاد أبى كعادته . وكنت نائما . ولم استيقظ على أحاديثه مع أمى قبل أن أنام كما تعود على أن يفعل ذلك فى السنوات الأخيرة . كان يحدثها فى كل شىء وهى صامئة أحيانا أو وهى تتمم بالدعاء له بالصحة والعافية أحيانا أخرى . وكان حديثه حديث المحب المخلص الذى رأى فى ضوء تجاربه المتباينة تجارب "السوق" أن الشخص الوحيد الوفى له هو أمى . فكان يريح اعصابه بالحديث معها عن الماضى البعيد وعن الماضى القريب ، وعما حدث له اليوم ، وعما يزمع أن يفعله غدا . وكان يحدثها شاكيا لها جدى ومافعله معه أو ماقاله له من قول تعبر عنه أمى بأنه قول "تقيل" . وكنت حين استيقظ على هذه الأحاديث أسعد ولا اتململ ، وكنت أنصت الى مايقولانه أحيانا وكان النوم يغلبنى فى معظم الأحيان .

أما ليلة السبت مساء فاننى استيقظت لا على أحاديث أبى مع أمى ، ولكن استيقاظى على صراخ وعلى أنات مكتومة ، صراخ أبى ، وأنات أمى . وسمعت هرجا ومرجا فى الحجرة الضيقة التى ملئت بمن فى البيت من النساء وبعض الرجال والشبان . قمت فى فزع شديد . ووجدتنى ادفع دفعا خارج الحجرة التى كان يصرخ أبى من الألم فيها . ومالبثت أن سمعت صوته عاليا وهو يقول "ياأبنى" وكنت فى ذلك الوقت فى طريقي الى الدور الأعلى حيث يسكن جدى وجدتى لأبى . وقد فزعا فزعا شديدا . وجاء الطبيب

المعالج ولم يعالج بل ترك الحشد الذى أمامه هاربا . وآيقن الجميع ان القضاء قد حم ، وأن أبى قد أصبح ذكرى . ولكن أبى لم يصبح ذكرى عندى فهو معى فى كيانى أذكره فى كل لحظة تقريبا ، اذكر شهامته واسلوب حديثه ، كما اذكر تعاطفه مع المستضعفين من الأقارب ، فالأقربون كما كان يقول أولى بالمعروف ، وتعاطفه مع المستضعفين من الغرباء من أهل الحى من النساء ومن الرجال جميعا . وكانت "عيوشة" من عائلة "زردق" وهى عائلة نساؤها قبل رجالها من الفتوات ، فى أواخر أيامها مريضة بمرض "الاستسقاء" . وكان على الرغم من طول لسانها وقبح سريرتها يبادر أبى فيرسلها الى الطبيب ويدفع ثمن الدواء فإذا خفت وطأة المرض عنها بادرت بشتم أبى دون ماداع . فهو عندها أى أبى أولا وقبل أى شىء "شبعة بعد جوعة" ، ولم يكن أبى يأبه لما تقوله . وإذا ما عاودها المرض يؤدى واجبه كأى رجل شهم فلا يلتفت الى الوراء ولا ينظر الى ماضى وينسى كل مامسه منها من أذى . وكان أبى يردد دائما القول الذى كان يعتقد بصحته "دارى السفية ولو بنصف مالك" . كنت أذكر هذه المواقف وأكثر منها . فقد كان أول من دفع لمحمد ابن خالتي نبوية شقيقة أمى المبلغ الذى كان رأس ماله الأول عندما اعتزم بيع ادوات "المنى فاتورة" كالفانلات والجوارب والمناديل المحلاوى وغيرها . ليأكل من وراء ذلك قوت يومه ويسد بعض المصاريف التى كانت خالتي فى حاجة اليها . وأصبح محمد بعد ذلك "الشيخ محمد" فقد انخرط فى سلك دعوة "الشيخ محمود خطاب" ومن بعده "الشيخ أمين خطاب" ثم "الشيخ يوسف خطاب" اصحاب الدعوة الى العمل بالسنة المحمدية . كما أصبح الشيخ محمد يتاجر فيما بعد فى ضوء استقامته وجدده وكفاحه فى عشرات الألوف بل مئات الألوف من الجنيهات . وكما فعل أبى ذلك مع "الشيخ محمد" فعله مع زوج خالتي "حميدة" الذى كان يمتهن مهنة "التنجيد" وكان يعمل أحيانا ولا يجد ما يعمله أحيانا أخرى . يسر أبى له ولزوجته شقة فى

أحد بيوت جدى لأبى بأجر شهرى بسيط يدفع أحيانا ولا يدفع أحيانا أخرى ، وكان يمد هذه الأسرة بحاجياتها الضرورية وبخاصة بعد أن أنجبت طفلة ثم طفلا . وكان عم "عبد عليوة" النقاش الذى كان انيس أبى فى وحدته ، وزميله فى الحزب الوطنى العتيق . كان ككل عامل فى أواخر العشرينات عاطلا معظم الوقت فكان أبى يضعه بكل رفق وحنان فى ظل جناحه ، فلا يجعله يحتاج شيئا . وكان من حسن تصرف هذا الأب انه كان يخلق لعم عبده العمل فى أحد بيوت جدى لكى يعمل فلا يشعر انه يأخذ شيئا بدون مقابل . وبيوت جدى لأبى عديدة تبلغ العشرة بيوت . وفيها متسع لأعمال عم عبده عليوة ، وفيها أيضا متسع لأعمال "عم صالح" النجار أحد أصدقاء أبى الذى ترك مهنة النجارة الى ميدان آخر كان يلتفت أنظار الناس وأنا من بينهم . فقد كان يتاجر بعقول الناس فهو يستطيع ان يقوم بأعمال السحر العديدة ، وكان يحفظ العديد من الصيغ السحرية التى تلتفت الانظار وتجعل الانسان أيا كان فى حيرة بين مصدق ومكذب . ومع ذلك فإن "عم صالح" هذا كان يقسم بأغلظ الايمان بأن كل مايقوم به هو فى سبيل تحقيق السلام والوئام بين الناس والأزواج والزوجات والآباء والأبناء وبين الأصدقاء ، وأنه لم يفعل مافيه ضرر لأحد . فالله الذى وجهه الى مايقوم به جميل يحب الجمال . والفعل الجميل لاينتج شرا أبدا .

كان أبى فى كيانه وفى دمي ولم يكن عندي مجرد ذكرى فكثيرا ماكنت اضبط نفسى وأنا أقول ماكان يقول وأنا افعل ماكان يفعل وأحيانا كنت اضبط نفسى وأنا افكر كما كان يفكر . ومنذ اللحظة الأولى وبعد وفاته أيقنت هول ماسيحدث للأسرة . انها حتما سستمزق أوصالها وقد حدث ذلك . انها حتما سيتفرق أعضاؤها شيئا وقد حدث ذلك . فى البيت احست زوجة عم أبى أم حسين سكينه أن السند الوحيد الذى كان لها فى البيت قد انهار . فما كان منها الا أن هيات نفسها لما قد يحدث فقد كانت أكثر نساء أبناء الأسرة الكبار تعليما ، وكان مستوى ذكائها عاليا ، وكان سلوكها

متزنا واعيا . ومن هول الصدمة ماتت جدتي لأبى بعد وفاة أبى بأربعين يوما . وبقي جدى لأبى وحيدا تخدمه رتيبة ابنة عمتى أم بطة . وأصبحت رتيبة هى الكل فى الكل . تتحكم فى أسرة عمى محمود ، وكانت زوجة عمى محمود أم على زينب تشكو من تصرفاتها مر الشكو . فهى وزوجها وأبناؤها مازالوا يعيشون فى كنف جدى لأبى ، ورتيبة أصبحت بعد جدتى لأبى هى المهيمنة على المصروف الذى يتركه جدى الذى بدأ صرحه يتهدم ان لم يكن قد تهدم فعلا . ألم يكن أبى الذى مات هو ابنه البكر وساعده الايمن والعقل الرشيد الذى كان يهدى سفينة الأسرة دائما الى البر السالم ؟ انه فقدته فأحس بأنه فقد كل شىء . ومع ذلك فهو من أبناء البشر مازال يعيش للدنيا ويتمسك بها تمسك الغريق بكل ماتمسه يداه . انه يعلم العلم اليقين ان عمى محمود لا يصلح لشىء الا أن ييعثر كل ما يحصل عليه . فهو من الغباء الى الدرجة التى لا يعرف من يفيد من يضره . كان لا يعيش الا لكل ما هو محسوس ، للاكل ، لممارسة حقوقه الزوجية ، لتعاطى بعض العقاقير . وما بعد ذلك فلا يأبه له . مات سنده الوحيد هكذا أحس جدى بعمق وان ادعى غير ذلك فى ظاهر الامر . وهو يفعل ذلك لان زكى ابن عمى محمود يعمل معه وأصبح الآن ذا الحول والطول ، لا يستطيع ان يعمل بدونه مهما كان يقترب من مخالفات . وعبد المنعم أخ زكى الاكبر اين هو ؟ انه ترك الأزهر وهو يعمل فى دار احدى المجالات الاسبوعية . انه دائما يطلب نقودا ولا يذكر جدى أنه اعطى شيئا . واننى لا أنسى أنه عندما بشر ابن عمى عبد المنعم بالعمل فى هذه المجلة رأى أن يحصل على نقود ليشترى "بدلة أفرنجى" بدلا من العمامة والجببة والقفطان التى كان يلبسها عندما كان طالبا ازهريا . وقد تطوعت للقيام بمهمة اقناع جدى لأبى لاصح له على النقود المطلوبة . وقد اقتنع الجد ولكنه طالب بأن يأتى عبد المنعم ليأخذها بنفسه ، وقد ذهب فعلا وأخذ من جدى عشرة جنيهات ذهبية اشترى بها ما يحتاجه من ملابس للوظيفة الجديدة . وجاء

دورى لكى أساعده على لبسها ولكى اربط له رباط العنق ، وماكان له ان يعرف عن ذلك شيئا ، تماما كما كنت افعل عندما لبست الملابس الافرنجية عند أول ذهابى الى المدرسة الابتدائية . وكما يدين الفتى يدان .

وبعد شهر من وفاة جدتى لآبى ماتت عمتى أم زكية ، وأصبح عمى محمود مرشحا ليكون الوريث الوحيد لجدى اذا مات جدى قبل أن يموت هو . وفى لحظات انخفضت اسمهم مكانة "رتيبة" ، وصارت زوجة عمى أم على زينب هى الملكة . ملكة الأسرة . ونبذت رتيبة نبذ النواة التى سارعت وقبلت الزواج بعد ان كانت رافضة ، من ابن خالتها "محمد البودى" ابن عمتى أم زكية . وكان زواجها صامتا حزينا . لم يفرح له أحد الا الذين يرون أن "ستر العرض" هدف نبيل شريف وبخاصة اذا كان هذا العرض هو عرض "ولية" مثل "رتيبة" يتيمة الأم والأب معا . صارت أصوات زوجة عمى محمود وزكى ابن عمى تجلجل فى آباء بيت الأسرة . وكانت لاتخلو من أوامر . وكنا أمى وأنا لآنا بة لشيء مما يحدث أبدا . فنحن فى غنى عن كل عرض زائف . وأمى وأنا لن يضيعنا الله . وبقينا صابرين على بلوانا . لم نطمع أو نطمح فى ميراث فالقانون كان حتى ذلك الحين يمنع الحفيد من ان يرث حق ابيه الذى يتوفى قبل الجد . لم يبرز هذا القانون الى حيز الوجود الا بعد ذلك بسنوات . فحزمت من ميراث جدى لآبى . واصبح عمى محمود هو الوريث الوحيد لجدى لآبى عندما مات بعد وفاة أبى بعام أى فى غضون عام ١٩٣١ . ولعل هذا الموقف قد حز فى نفس أمى وبعض أهلها من المقربين وبخاصة أبناء خالتي أم محمد نبوية ، ولكنى كنت واثقا بأن البذور التى وضعها أبى فى قلبى ستثمر حتما ولن تموت . وبعد وفاة أبى عاشت أمى ، وكانت فى الخمسين من عمرها ، فى معزل من الآخرين ، كانت فى وحدتها تبكى دائما واذا لم تبكى عيناها فان قلبها كان يبكى . كنت احس بذلك أحساسا . فانا أقرب الناس اليها . وكانت تنظر الىّ وتقول دون ان تنطق بحرف كل

ماكانت تبغى ان تقول . وأنا أفهم ماتقول . فقد كان الأسى يملأ عليها كيائها . ولكن ماباليد حيلة . واستمرت أياما بل شهورا وهى تنفر من مقابلة جدى لأبى . فلم يرها بعد وفاة ابنه الا مرات قلائل ، كانت فى اثائها لاتقف مع الواقفين أو الواقفات احتراما له . فكان يضطر الى الدخول عليها فى حجرتها فيجدها نائمة أو شبه نائمة أو تدعى النوم . وكان الرجل وقد هزته نكبته فى ابنه لا يغضب قليلا أو كثيرا . ولكنه كان يواجه الواقع ساكتا صامتا . وكان موقفى من جدى لأبى موقفا مخالفا ، فقد اردت وانا ابن السابعة عشرة من عمرى أن اتعامل معه فى أدب كاذب . وكنت كلما انفردت به احاول اقناعه بأنه لم يكن جدى لأبى فحسب بل أصبح الآن أبى أيضا . وكان غرضى شخصا بحثا . فقد قدرت أننى اظلم اذا لم أرث شيئا من نصيب أبى فى تركة جدى لو انه مات قبل أبى . فكنت أذكره بهذا الظلم اذا ماحدث . وكان الرجل صامدا كالجلمود لايعير لكلامى وزنا ، ورفض كل اقتراح من هذا القبيل رفضا قاطعا . وقد بدا لى أننى كنت الوحيد الذى حدثته عن هذا الموضوع ، ولكن الكثير من الأهل ومن الغرباء تحدثوا معه فى شأنه ، فكان يعد وفى نيته عدم تحقيق مايعد به . وكانت زوجة عمى محمود أم على زينب تلعب دورا كبيرا فى سبيل عدم تحقيق اى وعد من هذا القبيل . وكانت تحدثنى فى هذا الأمر بوجه مكشوف وتؤكد لى أننى احد ابنائها وأننى لايجب ان ألح على جدى ليكتب لى بيتا أو بيتين أو أقل من ذلك أو أكثر . فالرجل قد كبر وهو يعانى الشيخوخة وامراضها . وازعاجه لايفيد احد . وتأكدت من ملاحظة جدى لأبى عندما طلب منى أن أصبحبه الى "شركة شل" وذهبت معه ، وكنا وحدنا ، واذكر عندما قابل احد مسئولى الشركة قال له كاذبا اننى احد ابناء أبى التسعة وانه يكفلنا مع أمنا جميعا ، وأن مبلغ التأمين الذى وضعه أبى باسمه فى الشركة نظير مايطلب له ولعملائه من طلبات غاز البترول على الحساب ، وكان قدره خمسمائة جنيه مصرى فقط ، وهو الذى دفعه وليس أبى . وأنه نظرا للعبء الثقيل

الذى على كاهله بعد وفاة أبى يرغب فى سحب هذا المبلغ ويستلمه حالاً زللاً لنفسه . واذكر ان المسئول تحدث الى شخص امامى باللغة الانجليزية التى كنت اعرفها متسائلاً عن حق جدى فى هذا الطلب . فقال الشخص المشار اليه ويبدو انه كان محامى الشركة ان هذا مستحيل ، لانه عندما سألتنى عن عملى باللغة العربية (المكسرة) قلت له سبعة عشر عاما ، وذلك لأن المبلغ الموضوع باسم أبى لايمس حتى أبلغ سن الواحد والعشرين . عندئذ يستحق ورثة أبى وهم أمى وأنا وجدى وجدتى أن يأخذ كل واحد منهم نصيبه . عرفت ذلك باللغة الانجليزية عند سماعى الحديث الذى دار بين مسئول الشركة ومن كان يبدو فى عيني انه محامى الشركة . وتأكد ذلك عندما وجه مسئول الشركة الحديث الى جدى قائلاً له مضمون ماأفتى به الشخص الذى كان يبدو لى أنه محامى . قال لجدى ماقاله بلغة عربية "مكسرة" ، وكرر ماقاله أمامى أكثر من مرة لكى أكون على وعى من موقف الشركة من هذا الموضوع . وخرج جدى لأبى كسير الفؤاد ثم تبعته وسرنا على الأقدام فى شوارع القاهرة من مبنى شركة شل الذى كان يقع فى شارع الشرفيين الى الحانوت الذى كان جدى يديره فى العتبة الخضراء . وفى خلال السير على الأقدام كنت أحاول أن أقنع جدى بترك هذا المبلغ لى ولاداعى لاقحام نفسه فى محاولة سلبه منى ومن أمى . فهو ليس فى حاجة اليه ، فى الوقت الذى نحن وأمى فى مسيس الحاجة اليه . فقال لى غاضبا وهو يترنح بسبب عوامل الشيخوخة التى يبدو انها برزت فجأة بعد وفاة أبى بعد ان كانت كامنة ، ماذا تقول ياسيد "دول خمسمائة جنيه مش خمسمائة فولة .. هم خمسمائة فولة .. هم خمسمائة فولة" ، واخذ يكرر عبارة "خمسمائة فولة" وهو يهتز غضبا أو مرضا أو هما معا . عندئذ عرفت بأنه لافائدة من هذا الرجل . لن يلين قلبه ابداً . فهو قد عاش حياته من أجل النقود ومايمثل النقود فلن يتخلى فى أواخر عمره عنها . ولن يجبره أحد على فعل ذلك . وهنا رأيت العزيمة

تقوى فى كيانى وارادتى من أجل حياة أفضل اصبحت ارادة صلبة لاتلين . وتركت من ورائى القيام بدور المهادن أو المستكين . وعرفت قدر نفسى .. واكدت لها ان اعتمد عليها ولن يقف امامى عائق الا وقد حطمتها . المهم فى الموضوع اننى منذ هذه السن الغضة لم يصدر قرار يتعلق بأمى أو يتعلق بى الا من ذاتى وكيانى ورب ضارة نافعة .

وكذلك كان الحال بأمى فى علاقتها بزوجة عمى محمود (سلفتها) التى كانت على وشك التربع على عرش الاسرة مع زوجها واولادها . لم تكن علاقتها بهم العلاقة السابقة . نسي الجميع عطاءها الذى لم يكن ينقطع أبدا . وعاش الجميع قبل وفاة جدى منتظرين هذه الوفاة ، وبعدها عاشوا حياة الانانية التى لاتعرف الخير للآخرين . ولم تخل أمى من حسد الآخرين لها وعلى رأسهم هذه الفئة التى بدأت تمسك الصولجان . فأمى لها ابن . وهو كفيل بأن يحميها من غوائل الدهر ونكباته . وماذا تحتاج اليه " أم كامل " ؟ انها فى بسطة من العيش ، ومن يدرى ماذا ترك أبى لها من نقود " سائلة " أو من أشياء أخرى ثمينة ؟ ألم يكن أبى قد اشترى لها زوج من " الاساور " من الذهب الخالص ؟ صحيح انها أعطته لابيهما لكى يساعد بئمنه فى تجهيز حميدة أختها غير الشقيقة عندما تزوجت وقد كتب لها أبوها نظير ذلك قيراطين فى بيته لم يسجلهما قبل وفاته . ومهما يكن من الأمر فهى " بزورها " وابنها الله يحميه سيقوم بإدارة الوكالة التى تركها له أبوه دون أن يطمع أحد فى شيء فيها . تركت الوكالة لسيد بالكامل ، ولم يرث منها جد أوجدة دانقا . وفضلا عن ذلك فام كامل ، أمى ، تعلق فى " برقعها " عروس من الذهب البندقى الخالص . وأليست هذه ثروة فى حد ذاتها . وماخفى كان أعظم .

وبقدر مابعدت الشقة بين أمى وزوجة عمى محمود أم على زينب ، كانت العلاقة بينها وبين زوجة عم أبى أم حسين سكينه تتوطد يوما بعد يوم . فهما فى الهم سوى . ولكن أمى لها ابن

"صبي" وأم حسين سكينة لها بنتان سنية وفاطمة . أى أنهما وأمهما "ثلاث ولايا" . فلهن الله . ولهن عقل الأم المدير الذكى الذى يهدى الجميع الى الرشاد . وكانت تطمع أم حسين سكينة . أو هكذا كانت الاشاعات فى محيط الأسرة تقول ، فى أن أتزوج سنية ابنتها . فهى من حيث السن تليق بى وأنا أليق بها . وهى الآن تدرس لكى تتخرج مدرسة فى احدى المدارس الأولية . وأنا قد درست حتى السنة الرابعة الثانوية . واما الآن سمن على غسل مع أمى . وقد نكبت قلبها فى زوجها وأمى الآن منكوبة فى زوجها . أى أن يتيما يتزوج من يتيمة . ولكن ماكانت تقوله الاشاعات شىء وماحدث فى الواقع كان شيئا آخر . فانا لم أتزوج من سنية لاننى لم أفكر قط فى ذلك ، لأقبل وفاة أبيها ، ولأقبل وفاة أبى ، ولأبعد ذلك .

استمرت العلاقة بينى وبين أمى علاقة صامته تتضمن الحب والاسى والاسف والشعور بالذنب والامل فيما هو أحسن وأفضل جميعا . ومات جدى وبان كل ما هو مستور . تركت زوجة عمى مصطفى البيت وخرجت لتسكن مع ابنتيها شقة فى بيت غريب . لم تذهب الى منزل أبيها الذى تعيش فى كنفه زوجة ليست أمها مع أولادها ، ولم تذهب إلى منزل أمها التى كانت تعيش مع ابنتها عطيات مع أخيها ، وزوجته التى لم تنجب وكانت معهم أيضا شقيقة لها تدعى "أم حسن" وهى أرملة كما اذكر ولم ير أحد ابنا لها اسمه حسن أبدا . ولكنها أى زوجة عم أبى أم حسين سكينة قررت ان تعيش وحدها مع ابنتيها . فقد أنهت سنية دراستها بالنجاح وأمكن "الأولاد الحلال" ان يلحقوها فى وظيفة مدرسة باحدى المدارس الأولية أثرت أن ابقى مع أمى فى منزل الأسرة فترة من الوقت حتى أبت فى أمر كان يشغل بالى كثيرا هو أن أستأنف الدراسة مرة أخرى حتى أحصل على الشهادة الجامعية المرموقة . وماكنت لاذكر لأمى مايشغلنى فى حينه ، وبخاصة وقد بدأت نفسها تهدأ وايمانها بقضاء الله وقدره بدأ أيضا يتأكد . ولعل الفضل فى

ذلك أن يرجع الى ماكان يسربه اليها " الشيخ محمد " ابن اختها أم محمد نبوية . فقد كان يأتى يوميا لزيارتها ويعيش معها فترة يؤكد لها أن الله جل وعلا يمتحن المؤمن ، والمؤمن القوى بالايمان خير من المؤمن الضعيف . والبركة ستحل فى "سيد" اذا ما اتجهت الى الله فذكرت الله كثيرا قبل أن تنام ، وتدعوه جل وعلا ليغفر لأبى ما أمكنها أن تفعل ذلك . فالحياة دار العمل . وينقطع عمل ابن آدم (اذا مات) الا من ثلاث منها الولد الصالح الذى يدعو له . فكان يطلب منها أن تدعو لأبى المتوفى وان تدعولى لكى أكون ولدا صالحا . وكانت دعواتها لى بعد أن انفجرت الغمة أو كادت لاتنقطع ، وكانت تتعدد وتتباين ، فكنت اسمعها تقول

"ربنا يجعلك ياسيد ياابن زنوبة مقبول عند العبد وعند الرب"
و"راضى عليك قلبى وبزى وحجرى ياابنى ياسيد ياابن بطنى"
و"الهى مايمنى الا واشوف عيالك يملو على البيت ويكوبوا
اخواتك لما يكبروا "

وكانت فى بعض الاوقات تقول معترزة مفاخرة بعد كل دعوة تدعوها لى :

"دا أنا طاهرة فاخرة وربنا يتقبل منى " . ثم تدعو قائلة :
"بعدد شعر رأسى وشعر بدنى بادعيلك ياسيد ياابن زنوبة
انك تكسب وتربح ويقيم ربنا شانك .. " .

وعندما اضطرت الى ترك المنزل الذى ولدت فيه وعشت بين جنباته طفولتى السعيدة ، وافقت أمى على ذلك . فهى والحق يقال لم ترفض لى طلبا منذ ان مات أبى وحتى ماتت . تركنا بيت الأسرة ولم تكن فى نفسى غصة ، بل على العكس تماما كنت أؤكد ذاتى وأعلن إرادتى وأبدأ عهدا جديدا عهد استقلالى التام . ولكن أمى لم تبرح الدار الا وهى مضطرة على الرغم من العوامل المنطقية التى دعتنا الى ترك هذا الدار بما فيها وبمن فيها . كانت تترك الدار وجزءا طويلا طويلا من حياتها وهى فى الثامنة عندما دخلته متزوجة لأبى مازال فيه . انها العشرة . ونحن المصريين نقول دائما " ان

العشرة ماتهونش الا على اولاد الحرام" تركت أمى بيت الأسرة الكبيرة التى أصبحت غير كبيرة لتعود اليها فى زيارات متعددة . مرة أو أكثر فى الاسبوع تراها مرة فى بيت عويس البيت الذى كان جدى لابى يصل فيه ويجول ، وتراها مرة أخرى فى بيت ابياها حيث لا يوجد فيه الا أخوها وزوجته وابنه وزوجة ابياها الاخيرة واختها غير الشقيقة زهرة ، والشيخ محمد وزوجته وابنة له ومحمود ويوسف شقيقاه ، وأم على نبيهه وأبنائها الذين يسكنون احدى "المنادر" فيه . وتراها مرة ثالثة عند اختها غير الشقيقة حميدة المتزوجة وتعيش فى مسكن خاص لها ، أو تراها مرة رابعة تزور اختها غير الشقيقة عزيزة فى مسكنها الخاص ، أو تراها تزور زوجة عم أبى أم حسين سكيئة وبنيتها سنية وفاطمة فى مسكنهن الخاص . كانت تزور هؤلاء . وهؤلاء فى المناسبات وغير المناسبات . لانها تركت الجزء الأكبر من تاريخ حياتها عندهم . فهى لاتطبق ان تعيش طويلا فى المسكن الذى اتخذناه مأوى لنا . فالعشرة كما كانت تقول لى وتكرر "ماتهونش الا على ابن الحرام" وكنت اراها عندما تعود يشى وجهها بأمور غير مستحبة تكون قد وقعت لها فأسالها فلا تقول شيئا . إنها لاتكذب أبدا ، ولكنها لاترغب فى أن احزن من اجلها وبخاصة اذا أساء اليها أحد . كانت تخفى عنى ماكان قد حدث لها من أذى فى أثناء زياراتها حتى لأغضب فاطمب منها أن تكف عن هذه الزيارات . واستمرت تزور وربما لاتزار الا غرارا . وكنت افاجئها والدموع على خديها فأقول لماذا تبكى يا أمى ، فتقول وشفتاها تنفرجان عن ابتسامة غير عادية وهى تبادر بمسح سيل الدموع من على خديها :

"أبدا يا ابنى اننى لأبكى وادينى أهو باضحك شوف"

وكنت أصمت على مضض ، فانا أعيش من أجل هنائها وسعادتها فى حدود قدراتى . ولكن هل هذه المرأة منذ أن ولدت وحتى ماتت أحست بالهناء الحقيقية أو بالسعادة الحقيقية ؟ هكذا كنت اقول لنفسى . أنها ولدت وعاشت ثم ماتت ولم يكن لها نصيب

قط من هناة حقيقية أو من سعادة حقيقية . كانت راضية بالقليل القليل وقد نشئت على هذا الرضى ، وكان هذا الرضى القليل القليل هو كل ماكانت تبغى أو قالت لها ظروف تنشتتها انه كل ماكانت تبغى . ولن أنسى ماحبيت عندما كنت فى الولايات المتحدة فى " جامعة بوستن " أدرس من أجل الحصول على الدكتوراه بعد وفاتها بثلاث سنوات ، أى فى عام ١٩٥٢ ، وجاءنى أحد الزملاء من أبناء الولايات المتحدة ، وكان متزوجا ، يقول لى :

" اليوم حدث أمر خطير لزوجتى ، انها بكت امامى .. ويبدو انها مريضة نفسيا . وانا فى حاجة الى مساعدتك لكى نذهب بها فى العربة الى أحد الاطباء النفسيين فى مستشفى بوستن السيكوباتى "

كان " هارولدبيرك " وهذا اسمه يتحدث باللغة الانجليزية ، وكنت اسمع له وقد رايت على صفحة وجهه علامات الحزن والاسى . فما كان منى الا أن اصرخ باللغة العربية قائلا :
" ياعينى عليك يامة "

فانا لم أر امى ، وبخاصة بعد وفاة أبى ، الا وهى باكية أو على وشك البكاء ، ولم أفكر قط فى ارسالها الى طبيب نفسى . وتساء مصر ييكن دائما وبخاصة عندما يواجهن المواقف غير المستحبة فى علاقاتهن مع الأزواج أو مع الآباء أو مع الاخوة الكبار ، وعند الموت ، وبعد الموت ، ترى بكاءهن هو المنفذ الوحيد للتنفيس عن توتراتهن التى تأتى بها الاحزان أو الاكدار . لايعرفن وسيلة مثل قراءة الكتب أو الذهاب الى دور السينما أو الى المسرح أو سماع الموسيقى أو غيرها من وسائل تيسر هذا التنفيس بأسلوب حضارى . وأنى لهن أن يفعلن ذلك فى الوقت الذى كانت امى تعيش وتحيا وحتى بعد ذلك الى وقتنا الحاضر ، وقت كتابة هذه السطور . ان امى مثلا لم تذهب الى مسرح قط أو الى دار للسينما قط أو تستمع الى موسيقى قط . ولم تكن تستطيع أن تقرأ كتابا أو حتى جريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات . انها لم تذهب الى

أحد المصايف لتروح عن نفسها لم يفكر أبى فى أن يفعل ذلك . ولم أفكر أنا أن أحقق لها ذلك . فانا نفسى لم أذهب الى المصيف الا وأنا فى سن الثلاثين ومابعدھا . لم تطرأ فكرة الذهاب الى المصيف على لان امكاناتى لم تكن كافية لهذا الغرض وفى مجتمع الولايات المتحدة على علاته عندما تبكى المرأة يرى زوجها ان يرسلها الى الطبيب النفسانى . ان المستوى الحضارى يختلف ويتباين بين هذا المجتمع وبين المجتمع المصرى منذ ان كانت امى تعيش وتحيا حياتھا وحتى قبل ذلك وبعد ذلك بالطبع . فالبكاء ظاهرة فى محيط المرأة المصرية ويكاد أن يكون جزءا من الثقافة السائدة . أى هو أمر عادى تقرره الثقافة المصرية ولايعتبر مرضا او ظاهرة على مرض نفسانى أو غير نفسانى . إنه جزء من هذه الثقافة على عكس ماتقف الثقافة الامريكية منه التى تعتبره مرضا يتطلب العلاج .

ومن أجل ذلك فان ماكانت تفعله امى كان شيئا عاديا . ففى ضوء " العشرة " يهون كل شىء . ولكونها امرأة معطاءة وان أخذت فانھا تأخذ القليل القليل ولا تلح من أجل ذلك أبدا ، فهى مسامحة أيضا . تسامح كل من يمسهأ بأذى سواء كان هذا الأذى بالقول أو الفعل . فهى تعطى وتسامح وأن أخذت فانما تأخذ القليل القليل دون ما ألحاح .

٥ - بداية المسيرة فى مدرسة الحياة

قبل أن يموت أبى كنت ككل البشر فى المجتمعات الانسانية ومنها المجتمع المصرى أؤدى أدوارا اجتماعيا فرضها على " هذا المجتمع " فانا ولدت فيه ووجدتها تنتظرنى . كنت أؤدى دور الذكر ودور الابن ودور الحفيد ودور ابن الأخ ودور ابن الأخت ودور ابن الخال ودور ابن الخالة ودور الاخ (أحيانا) ثم دور الطالب . وبعد أن مات أبى أصبحت فجأة أؤدى أدوارا أخرى .. ورايتنى بعد أن

أرغمت على ترك المدرسة الخديوية الثانوية وأنا فى السنة الرابعة ان اتخلى عن دور الطالب ، ولكنى أصبحت أؤدى دور رب الأسرة ودور صاحب العمل ودور التاجر الذى يبيع لزيائته ودور الزبون الذى يشتري من التجار ودور يتيم الأب . حدث كل ذلك فجأة تماما ، كما حدث ، عند ولادتي ، فقد فوجئت بالعديد من الأدوار السابقة على وفاة أبى ، كما فوجئت أُمى وأصبحت تؤدى دور الأم وفوجئ أبى وأصبح يؤدى دور الأب . أى اننى أعطيت أُمى وأبى حقوقا لهما قبل أن يعطيا لى حقا لى . فلأُمى حقوق الأمومة ، ولأبى كانت حقوق الأبوة . وهكذا لمجرد وفاة أبى فوجئت بهذه الأدوار الثقالة التى لم تعطنى حقوقا بل أعطتنى حقوقا وواجبات ومسئوليات . وكنت مازلت غص الأهاب ، لا أدرى من تجارب الحياة الا ما اكتسبته منذ أن كنت طفلا حتى بلغت سن السابعة عشرة أو نحوها .

وفى يوم الأربعاء ٢٢ من يناير عام ١٩٣٠ أخذت مفاتيح " الوكالة " وذهبت يصحبني خالى سيد وابن خالتي الشيخ محمد ، وفتحت الأبواب وكان ينتظرنا عم عبد الفتاح عم أبى ومحمود ابن عمى وأحد العمال الذى أتى من واحات صحراء مصر . كان الثلاثة عمال المحل وأصبحت أنا المسئول عنهم وهم المسؤولون أمامى وكنت أصغرهم سنا . وبدا لى أن التعاون سيستمر بيننا وإن بهذا التعاون يمكن أن نؤدى عملا جماعيا مفيدا . كنت لا أعرف الكثير عما فى الوكالة ، وكنت لا أعرف شيئا مطلقا عن الادارة ، ماهى واجباتى وماهى مسؤولياتى . ولكنى اعتمدت على الممارسة . ولم يكن الذنب ذنبى فقد كان أبى يأبى اباة شديدا أن أتدخل فى شئون العمل وكان دورى وبخاصة فى أثناء العطلة الصيفية أن أراقب كل ما يدور فى الوكالة من نشاطات . وفى هذا اليوم تهاقت أهل " الحنة " على باب الوكالة رجالا ونساء وشبابا وشابات يؤدون واجب العزاء لى مرة أخرى أو للمرة الأولى . وكانت نساء الحى الطبيبات منهن والشريرات ينظرن

التي وعلى وجوههن سمات الأسى والحزن . وكانت السننهن تلهج بالدعاء لى . " أم حبيبة " وهى سيدة عجوز لابن لها ولابنت تدعو لى دعوات أحس أنها خارجة من قلبها ، كانت تقول مثلا " يارب يطرح البركة فيك ياسيد ياابن حوا وأدم كما طرح البركة فى الزيت فى القنديل " . وكانت " أم على زردقة " وهى أم الفتوات على ومحمود وعيوشة هى الأخرى ترفع يديها الى السماء وهى تدعو . وكانت أم على زردقة هذه تسكن فى دكان امام الوكالة تماما تتبع فيها مع زوجها وأولادها فاكهة الموسم . وعلى الرغم من أن لسانها كان لايفك عن الشتائم فهى اليوم تدعو بلسانها لى دعوات تتضمن الحب والأمل والبركة . وغير أم حبيبة وأم على زردقة ، كانت " عيوشة " بنتها وكانت " نبيهة " أختها و " أم حسن أمونة " أختها أيضا " وسكينة الخضرية و " عشة " بائعة الحلوى وأم محمد " بائعة العيش " وغيرهن وغيرهن تلهج السننهن بالدعاء لى وأن الله " يطرح البركة فى " وأن أودى واجبى " بدل أبوه " . والرجال كان عددهم أكثر . فها هو " الحاج فرج " أب زوجة عم أبى أم حسين سكينة و " حسين " ابنه و " عم جبر " الخضرى (الكفيف) و " الحاج حسن القهوجى " و " محمد الشامى " العلاف ، و " حسن دعبس " القهوجى و " محمد السيد " البقال و " " عم صيصة الطعمجى " ، كلهم وغيرهم جاءوا يعززون ويشجعون ويقولون قولاً طيباً . ومرة اليوم الأول ثقيلًا ثقيلًا .. وبدأت عجلة العمل تدور ولم أكن أدري الى متى ستدور هذه العجلة . وكان على " أن أذهب الى عملاء الوكالة لأريهم نفسى وأحصل منهم مايمكن أن يدفعوه من الحساب . وذهبت الى تجار البقالة فى حى عرب اليسار وكان عددهم كبيراً . كان هناك " الحاج أحمد " و " الشيخ عبد العزيز " و " الجدوى " و " عم وهبة " و " الشيخ قطب " و " عم اسماعيل " و " الشيخ على أمين " وغيرهم لاأذكرهم الآن . كانوا يرحبون بى ترحيباً طيباً . وأحسست وأنا الصبى الذى كنت ، أصبحت امامهم الرجل الذى أكون . كانوا

يعاملوننى لالكند اللند بل كما كانوا يعاملون أبى أى أنهم كانوا يعاملوننى كالتاجر الذى ييسر لهم أن يستمروا فى تجارتهم ومن ثم فهو أعلى منهم درجة . كل ذلك حدث فى سرعة مذهلة . وايقنت فى ذلك الحين معنى " مات الملك يحيا الملك " عندما يموت الملك الأب ويتولى الملك الملك الابن . واستمع للشيخ على أمين وكان رجلا مستنيرا بالنسبة للآخرين ، فقد كان أزهرى ولم يكمل تعليمه وفضل أن يفتح حانوتا يبيع فيه ويشترى . قال لى هذا الرجل الذى كنت منذ أيام لاتزيد على أيام الأسبوع اعتبره والدا " ياسيد افندى احنا لما نولع صوابعا العشرة شمع لايمكن أن نؤدى واجبنا نحو المرحوم والدك " . وعندما ذهبت الى تجار حى الخارطة القديمة وخارطة التونسى والابجية ، وجدت نفس المعاملة منهم ، كانوا على مستوى الآداب المرعية فى الظروف الاجتماعية التى كنت اجتازها . ولايمكن ان انسى موقف " الشيخ عبدالعزيز جاويش " الرجل المسن الذى كان كلما رآنى قبل وفاة أبى ينفحنى بالنقود لأصرفها كما أشاء تبرعا منه لى ، والآن يقول لى باكيا " البركة فيك ياسيد افندى " وبدلا من أن يعطينى نقودا خارج حساب البضاعة التى كان يدين بها لأبى فقد أعطانى نقودا لحساب ماعليه من دين . لقد أصبح دوره الآن يختلف عن دوره السابق ، تماما كما أصبح دورى مختلفا عن دورى السابق . و " عم عارف " الذى كان يأتى بالبسكليت الى الوكالة راكبا ، وكنت اطلب منه الاذن لأركبها فترة من الوقت ، وكان يأذن لى ، قد تغير اسلوب معاملته لى فكان يحدثنى وكانى قد كبرت سنين عددا وأصبحت فى نظره " تاجر " الذى من واجبه أن يبدى له الاحترام وأن يكون سلوكه معه سلوك المتحفظ الرزين .

وكان الموقف من التجار الذين كان أبى يتعامل معهم موقف المجاملة المتحفظة . فهم من أحياء مختلفة ، فمنهم من كان يمارس تجارته فى " بين الصوريين " ، ومنهم من كان يمارس تجارته فى

"السكة الجديد" أو بالقرب من "جامع البنات" ، ومنهم من كان يمارس تجارته فى حى بولاق . وكنت اكن لهؤلاء الاحترام والواجب . فهم رجال أكبر منى سنا وأكثر خبرة وأنا فى حاجة اليهم أكثر مما كانوا هم فى حاجة الى . وكان احترامى شديد للحاج "أمين الزينى" تاجر بولاق . لم يكن كريما معى ولكن كان مستقيما ولاتشوب امانته شائبة . وكنت كلما اذهب اليه ، كما كان يفعل ابى قبل وفاته ، كل يوم جمعة ، أحس بالمهابة تشع من حوله . فالصمت فى المحل هو القاعدة ، والموظفون فى عمل دائب . وهو يتحدث بالتليفون ويرد على التليفون ، ويساوم ويجادل ويناقش ثم يبت فى كل أمر يتعلق بالعمل . وحتى عندما كنت احدثه بالتليفون من الوكالة كنت أحس وكأننى أمامه فكانت هالة المهابة من حوله تخترق سماعة التليفون وكنت أكاد أن أراها فى صوته وفى مجادلته ومناقشته جميعا .

وبدأت أعيش الحياة فى الوكالة ، وبدأت ملامح شخصيتى تظهر أمام الناس ، فى داخل الوكالة وفى خارجها فى شوارع الحنة من حولى وفى البيت وفى خارج البيت . وأصبحت رجلا وكأننى فى الخمسين وكان عمرى لايزيد على الثامنة عشرة . وكنت انفر نفورا شديدا اذا سمعت أحدهم أو احداهن يقول أو تقول فى اعتذار عما يكون قد صدر عنى من سلوك أراه أنا صحيحا سليما ويراه البعض غير ذلك ، فيقول هذا البعض « سيد دا لسه عيل ياناس استحملوه » . كان نفورى فى ذلك الحين شديدا جدا وكان غضبى لاجدود له . فأنا لست « عيل » بل أنا « راجل ابن راجل » . وهأنذا الآن أضحك من نفسى على هذا السلوك الذى كان . وأرجو وأنا أكتب هذه السطور أن يعود سنى الى الثامنة عشرة أو حتى الى العشرين ولأكن « عيلا » فأنا موافق . ما أكثر مايضحك الواحد منا على أنماط سلوكه عندما كان يواجه المواقف الاجتماعية العديدة وهو أصغر سنا ، واستمر ضحكى من أنماط سلوكى الماضية كلما مر الزمن واستهلك العمر .

وفى أثناء وجودى فى الوكالة ، فى معمعة الحياة . وأنا أعيش فى قاع المدينة فى حى السيدة عائشة وفى شارع الزرايب وماحول ذلك من شوارع وحارات ، وكنا فى أعوام الثلاثينات الأولى - أحسست بالأزمة التى كانت تخيم على الأهالى كبارا وصغارا على السواء . أصبح الرجال امامى أشباه رجال . كان العمال لا يعملون لأنهم لا يجدون العمل . وحتى الذين كانوا يعملون فى « السلطة » وأتاحت الفرصة لهم ان يقبضوا تعويضا بعد الكشف عليهم وإثبات وجود مرض عندهم ، أخذوا التعويض وافتتحوا حوانيت للبيع والشراء . ولم يلبثوا ان أغلقوا هذه الحوانيت لأنهم لم يجدوا الزبائن وأن وجدوهم فلم يجدوا معهم النقود لأنهم لا يعملون فكانوا يبيعون بضائعهم « على الحساب » ، وكنت ترى الواحد منهم يكتب على واجهة الحانوت عبارة « اذا نطق الديك شكك أديك » ، ومع ذلك فقد كانوا لكى تدور حركة العمل فى الحانوت يبيعون « شككا » . ومن هؤلاء التجار من كان من زبائنى . أذكر منهم « محمد السقا » الذى كان يمتهن بيع المياة بالقرية وعندما قبض التعويض افتتح حانوتا ، وأذكر منهم « أحمد عبدالعال » وهو شخص لم يكن يعمل شيئا معينا ولكنك كنت تراه « سمسارا » تارة ، وكنت تراه « متعطلا » مرة اخرى وكنت تراه يبيع « الحمام » فعنده « غية حمام » يشتري لها ويبيع منها ، فعنده حمام « القطاوى » و « القمرى » و « الشقلياظ » و « الرومى » وفى سوق الحمام بالقلعة وهى سوق معروفة للغواة من « البكوات » و « الأفندية » وغيرهم ترى أحمد عبدالعال بالقلعة يبيع ويشترى او يبيع ولا يشتري او يشتري ولا يبيع . ومن هذين الشخصين ومن غيرهما عرفت الكثير عن معاملة الانجليز لهم عندما كانوا عمالا فى السلطة . كان « اسماعيل عمران » أحد أعيان قسم الخليفة المسئول عن تجنيد هؤلاء ، عندما كانوا شبانا . كان الواحد منهم يوقع استثمارة التجنيد فى نظير مبلغ معين يأخذه « عمران » الذى كان يأخذ من الجيش الانجليزى أيضا « معلوما » عن كل نفر

مجدد . ويذكر محمد السقا أن عمران هذا ذهب اليهم فى " الشام " لابساً ملابس ضابط انجليزى وكان يخطب فيهم بالعربية ويحضهم على السمع والطاعة . فهو يعرفهم واحداً واحداً وهم يعرفونه واحداً واحداً . وكان العمال المصريون يذهبون الى الشام أو أوربا فى فرنسا مثلاً . كانوا يلبسون ملابس الجنود الانجليز اذا كانوا فى أوروبا وكانوا اذا مانودى عليهم فى الطابور يصيح المسئول كما يقول محمد السقا باللغة العربية " ايجيشان لايكور " وهو يقصد بالطبع العبارة الانجليزية Egyptian Labour Corps ويروى أحدهم أنه عندما كان يحين الوقت فيؤمر الجنود الانجليز أو جنود بريطانيا العظمى بالهجوم . يذهب الواحد منهم الى ساحة القتال وهو يبكى خوفاً وطمعاً . وهذا أمر طبيعى . فالروح سواء كانت روح انجليزى أو روح مصرى « حلوة » مافى ذلك من شك . وكانت طائرات الاعداء تحوم حول العمال المصريين ومن معهم فيدفن الواحد منهم نفسه فى الرمال ثم ينطق بالشهادة موقناً انه اذا أحياء الله وعاد وتزوج فانه بسبب « الخضة » لن ينجب . ويروى البعض ان المسلمين من هؤلاء العمال كانوا هم الكثرة وأن المسيحيين كانوا هم القلة . وانه عندما مرض احد المسيحيين وأحس أن مرضه الموت أسرع وأعلن امام حشد كبير من زملائه المسلمين « شهادة الاسلام » فلما مات غسل وكفن ودفن وصلى عليه وكأنه ميت مسلم تمام . وكان العمال المصريون فى أغلب الأوقات ، فى أوقات الفراغ ، لا يجدون تسلياً الا لعب القمار يلعبون بما معهم من نقود أحياناً ، أو كانوا يقامرون بالتعيينات (السجاير والشاى) أحياناً أخرى ، ومما كان يحز فى نفوس العمال المصريين جميعاً ان رؤساءهم لم يكونوا من المصريين المسلمين أو المسيحيين ، بل كانوا من يهود فلسطين الذين كانوا يعرفون اللغة العربية . كما يعرفون اللغة الانجليزية . كان هؤلاء الرؤساء يلبسون ملابس الجنود أو الضباط الانجليز ، وكانت معاملتهم للعمال المصريين معاملة قاسية غير انسانية . فقد كان

يحكم على العامل المصرى اذا اخطأ خطأ يسيرا بالجلد مائة جلدة
وينفذ الحكم علنا امام الجميع ، وكان الحكم الصادر من الامباشى
اليهودى او الضابط اليهودى لامعقب عليه ولانقض له ولا ابرام .
وقد يكون الخطأ المنسوب الى العامل المصرى المجند فى السلطة
العسكرية الانجليزية انه تأخر عن الطابور برهة من الوقت او انه
بدلا من ان يتجه فى الطابور الى اليمين حسب نداء القائد اتجه
الى الشمال او العكس ، كان الانخراط فى العمل مع الانجليز فى
الحرب العالمية الاولى مهانة للعاملين المصريين ومذلة . ومنهم من
كان يحس بذلك . والكثير منهم لا يرى مضطرا الا ما يحصل عليه من
نقود او تعيينات . وكان لهذا العمل على الذين عادوا سالمين او
مرضى وهو لا يشعرون بصمات . فقد ادمن الأغلبية منهم
التدخين ، وادمن الجميع تعاطى الشاي باللبن ، تماما كما كانوا
يفعلون ايام العمل بالسلطة . ومن مات منهم فى اثناء العمل اعتبر
عند اخوانه من الشهداء ، وترملت الزوجات ، وتيتم الأبناء ، وثكلت
الأمهات . وبعد فترة طويلة او قصيرة لم يذكر الناس عنهم شيئا .
وكانت المفاجأة الكبرى لبعض الأحياء من الذين عادوا احياء ان
منحوا اذا كانوا مرضى تعويضات استطاع بعضهم ان يستثمرها
فى فتح حوانيت للبيع والشراء . وصرفها البعض على تعاطى
المخدرات مثل الحشيش ، وأحيانا « شم الكوكايين » وتعاطى
المخدر الثانى انتشر فى محيط الشبان المصريين فى اواخر
العشرينات وأوائل الثلاثينات انتشارا كبيرا ، وكان مثل تعاطى
الحشيش لا يفرق بين غنى او فقير او متعلم او جاهل . فكنت ترى
« محمود زردق » و « أبو شبكية » من الطبقة الدنيا مع « على
راشد » وكان من اعيان الحنة . وتراهم يخرجون من السجن وقد
رجعت اليهم الحياة والصحة والحيوية والصحة تلمسها فى
خودهم الحمراء ، وما ان يلبث الواحد منهم بعد فترة من الوقت أن
تراه قد ذبل ، ينام وهو جالس ويجلس وهو نائم ، ينفر منه الناس
الشرفاء ، ولا يقربه الا من كان على شاكلته . وكنت تراه يستجدى

لا ليأكل ولكن « ليشم » . ومن ثم راجت أغنية :
شم الكوكابين خلانى مسكين
مناخيرى بتون وقلبى حزين
وعنيا فى راسى رايعين جابين
كما راجت ايضا الشتائم على أفواه الاطفال ومنها كما اذكر
الآن :

« آه ياشمام انشالله تموت وتخر الدم »
والمخدرات فى محيط اهل الحثة غير الحشيش وغير الكوكابين
كانت رائجة . وقد تجسد عم « لمعى » وهو يبيع « المنزل » علنا
على الرغم من تجريم بيعه او شرائه فى ذلك الوقت . فكان يتخذ من
صناعة « ترزى بلدى » واجهة لبيع مايعرض من بضاعة
« المنزل » وهو مخلوط من الحشيش وجوز الطيب والقرنفل
والسكر المطحون وأشياء أخرى . وقد يقبض عليه ويسجن او
يحبس او يدفع الغرامة ، ثم يعود الى ماكان عليه فلا ردع ولا
مبالاة . ويخرج من السجن او الحبس ويقول للناس صارخا :
« ياناس ده كارى وأكل منين ؟ »

والزبائن تذهب اليه وتروح ، لايبالى احد بما يقال ، ولايبالى هو
بما ينتظره من عقاب ومن زبائنه من كان يواظب على الصلاة وعلى
صيام شهر رمضان ومنهم من كان لايفعل ذلك . وقد تفاجىء
بأحدهم يصيح قائلا دون مناسبة :

« ميت ألف جنيه وسرايا وعزبة »

ودسته نسوان . وجبل

حشيش وبحر خمرة

والجوزة ذهب والماشة

فضة ، وأجرة الشيال ... »

ولعل هذا القول قد يعكس اقصى مايتمناه اهل الحثة المطحونين
من الذكور ، اهل الحل والعقد ، لأنهم مجرد ذكور . فينتشون
بأحلام اليقظة ، وهم يعلمون علم اليقين بأن مايلحمون به لايمكن

ان يتحقق . ومن ثم فالإكتفاء بالنشوة متعة وهو وان لم يكن خيرا كله فهو ليس بالشر المستطير .

وعلى المقهى قد تجد احدهم يقول هامسا لمن حوله ، أو يقول بصوت مرتفع متسائلا ومجيبا عن تسايله فى نفس الوقت :

« هى ايه اللذة فى الدنيا ، اللذة هى

أكل اللحم ، ولكن لذة اللذة هى ركوب

اللحم اما لذة اللذة فهى

دخول اللحم فى اللحم « ها . ها . ها » .

ويضحك معه الجميع وقد خدرهم ماتخيلوه وودوا لو أنه يتحقق ومن بصمات العمل فى معسكرات الانجليز فى اثناء الحرب العالمية الأولى على الذين عملوا فيها وعادوا ان برز منهم الذين يحلو لهم الحديث عما راوه وعما سمعوه وعما خاضوه من تجارب سواء كانت مرة أو حلوة . ترى الواحد منهم يحكى ويحكى والناس من حوله يستمعون ولاينتهى من حكاية الا ليبدأ حكاية أخرى . وكان منهم « الحاج محمد » وهو من عائلة « الحاج سيد » الذى كان من أبناؤه « أحمد السيد » و « عبده السيد » . والحاج سيد كان مقاولا وصاحب « ملك » وله حيثة وعزوة . وكان الناس يخشونه فهو طويل اللسان ، وعلى الرغم من كبر سنه فقد كان لايرعوى عن الشتم بأقبح الشتائم ، كان يشتم النساء كما يشتم الرجال ، وله من أبناؤه وماله مايحميه . ومع ذلك فان « الحاج محمد » وهو أخوه لم يسلم من السخرية من أهل الحثة . فكان كلما بدأ يحكى حكاياته ويروى رواياته فاجأه بعضهم بأن مايقوله هو مجرد « معر » ومن ثم أصبح اسمه بين الناس الرجال والشبان والنساء والشابات والأطفال « المعار » فاذا قيل « المعار » فقد كان يعنى أنه « الحاج محمد » أخ « الحاج سيد » . وتراه وقد جن جنونه يجرى من وراء من يقول « المعار » حتى يلهث ، او تراه يسب سبا جارحا يؤذى أذن السامع حتى ولو كان من أهل الحثة . استمر هكذا حتى مات . واستمر الناس يعاملونه فى سخرية حتى،

مات وبعد ان مات . وان كانوا بعد ان مات كنت تسمع منهم بعد ذكر اسمه مشفوعا بلقبه الساخر « الله يرحمه » .

عشت فى الحة كل يوم افتح الوكالة فى الساعة الثامنة صباحا وأغلقها عند الساعة الحادية عشرة مساء ماعدا يوم الجمعة ، فقد كنت أغلقها بعد صلاة الجمعة كما كان يفعل أبى لاتناول طعام الغداء ثم آنام قليلا وبعد ذلك اخرج الى التجار لأدفع ما على من دين وأطلب ما احتاج اليه من بضاعة . وكنت ارى امامى الناس ومايحدث منهم ولهم وكاننى ارى « بانوراما بشرية » . وتقمصت الأدوار الاجتماعية الجديدة وقمت بأدائها خير قيام . وكانت مظاهر الجدية تبدو على تصرفاتى . فانا لا أداعب الفتيات كما كنت أفعل . كانت تأتى فاطمة أو حميدة أو حياة فكانت معاملتى لهن معاملة جادة ، وان كن لايبدين النفور منها ، فكنت اراهن يجئن الى الوكالة لشراء مايطلبون والعمال يؤدون الواجب وانا جالس الى مكتبى وبجوارى التليفون ، وكان التليفون هو الوحيد فى الحى الذى كان يحيط بالوكالة . ومن ثم كنت تجد اهل الحة يستأذنون فى استعماله فأذن لهم . كان الزبون الأول « الشيخ ابراهيم يوسف » صاحب المكتبة وكان له اتصال وثيق بجريدة الأهرام فقد كانت لافتة المكتبة عليها « مكتبة الأهرام » ، وكان « كامل كيلانى » يستعمل التليفون أيضا ، كنت اسمعه يحدث عن طريقه « أحمد شوقى » الشاعر الكبير . كان يبدأ حديثه عادة ببيت من الشعر يتضمن المديح لأمير الشعراء . وأصحاب المصالح « المعلم سيد » مبلط القيشانى ، والحاج محمود « صاحب المقلة » ، والحاج برعى ، بائع « الدقيق والردة » و « الحاج محمد خودة » صاحب « القمينة » وغيرهم وغيرهم . وقد كانت لى فرص عديدة لأتحدث باسم « العقاد » لمن فى منزله أطلب اليهم ان يحضروا له مايحتاجه عندما كان محكوما عليه بالسجن تسعة شهور عقوبة على جريمة « العيب فى الذات الملكية » كان نزيل سجن مصر بالقلعة ، وكان يرسل اوامره عن طريق « الحلاق » الذى كانت ادارة السجن

تستأجره ليخلق لنزلائه وكان العقاد من هؤلاء ، وكان ترحيبي كبيرا لكي أؤدي هذه المهمة كلما جاء الّى حلاق السجن الأمي ومعه الورقة التي كتب عليها رقم التليفون والأشياء المطلوبة للأستاذ العقاد . وكان المطلوب اشياء بريئة او قد تبدو بريئة . كان يطلب ملابس بعينها ، وكان يطلب كتباً بعينها . وكنت لأعلم هل كان ما يطلبه فعلاً ملابس بعينها او كتباً بعينها او ان ماكان يطلبه رموزاً لأشياء أخرى أو مجرّبه « كود » للغة لا يود أحدا أن يعرفها غير الشخص المطلوب . كانت « بانوراما بشرية » ما أراه وما أتعاش معه وفيه . وكانت « استر » تحضر الى الوكالة لتشتري ما شاءت ان تشتري ، وأنا اراها ولا أحدثها في قليل او كثير . كانت احدى بنات الحنة ، ولكن من يراها لا يمكن ان يؤكد ذلك . كانت بيضاء ذات شعر أصفر وعيون زرقاء . مازالت فتاة ولكنها تبدو شابة . وكانت تسير مثل معظم الفتيات حافية القدمين ، وقد تلاحظ القذارة على وجهها وفي شعرها تنمو الحشرات وهى لا تبالي لأنها لاترى شيئاً غير عادي . وكان أبوها يتعاطى مهنة « السمكرية » وأمها تعمل معه تراقب الحانوت عندما يغيب عنه ويذهب الى « المدينة » ليشتري البضاعة التي يحتاجها ، ثم تغيب ولا يراها أحد عندما يعود . واستر تلهو وتلعب امام حانوت ابائها الذي كان يبدو انه ليس بأبيها ، وأمها تعايش الناس من حولها وعدم المبالاة هالة تحيط قسمات وجهها . واستر تكبر وتنمو ، وكنت اراها واطيل النظر ، ولا تنفرج شفتاي عن كلمة واحدة . وكان أهل الحنة يرونها ويطيلون النظر ويفعلون ما أفعل ، والدنيا تسير والناس يعيشون والحياة تتدفق أحيانا وتتقطع بعض الأحيان واستر تكبر وتنمو وملامحها تبدو وكأنها « برنسيصة » . وفي لحظة لم يجدها الناس ، وما زال ابوها يعمل في حانوته يصنع الفوانيس والكيزان ، ويلحم الأواني المصنوعة من الصفيح ، وقد يتجاسر ويصلح "وابور الجاز" . والأم تعمل معه وتراقب الحانوت عندما يغيب عنه ويذهب الى المدينة ليشتري البضاعة التي يحتاجها ثم تغيب ولا يعرف أحد أين

تذهب عندما يعود . وقال الناس فى همس أن أستر ذهبت الى
وعدها وبلعتها الحياة الحرفة الطاحنة المطحونة

وفى خلال عام ١٩٣١ مات جدى ثنى . عاش سنة واحدة
وكسور بعد وفاة بى . وانفجر الستار ولعب عمى وزوجة عمى أم
على زينب وابنها زكى وباقى أولادها عبد المنعم وفتحية والبرنس
وسميرة أدوارهم الجديدة . وكان زكى أعلى الجميع صوتا فقد كان
أدرى بأسرار العمل الذى كان يشرف عليه جدى . وكانت النقود
(السائلة) فى حوزته أو معظمها . وسرعان ما أعلن طلبه الطلاق
من "عطيات" ابنة عمتى وابنة عمته التى أنجبت له بنتا عاشت فى
كنفها فترة حتى كبرت ثم عادت الى أبيها . وطلقت عطيات الشابة
الوديعة الطيبة التى كانت تكاد ان تعبد زوجها زكى . ولكن ماباليد
حيلة . تلك هى إرادة المجتمع المصرى الذى تعيش فيه ان تطلب
فتجيب وأن تنبذ نبذ النواة فترضخ ولا تنمر . ان نساء مصر فى
ذلك الوقت وحتى الوقت الحاضر قد جئن الى العالم لا ليعترضن
ولكن ليرضخن . أمر غريب هذا الذكر المصرى الذى حتى ولو كان
يستطيع أن يكون أما فهو لن يستطيع ان يلد ابنا . ومع ذلك فهو
الأمم الناهى الذى يعطيه المجتمع من الصلاحيات ما يباه على من
تعطى الحياة لهذا المجتمع ومن تحفظ تراث هذا المجتمع وتجدد
فى هذا التراث من وقت لآخر . وانظر الى هذا الرجل الذى قدر
ليكون ابن عمى شقيق أبى وهو يعدد صفات الزوجة المقبلة . انه
يريد ان يكون طولها كذا وعرضها كذا ولونها كذا وسنها كذا ولم
يذكر شيئا عن ذكائها أو ثقافتها أو عن أسرتها . انه وهو يعدد هذه
الصفات لأمه تحسبه يعددها لواحد من النخاسين الذى يبيع
ويشترى أبناء البشر فى سوق النخاسين . وجاءت "زينب" زوجة
الى بيت الزوجية بعد ان رافت فى عين زكى وتزوجها على سنة الله
ورسوله . كانت ابنة لسيدة أرملة تعيش مع ابنة أخرى (كبرى)
وابن صغير على معاش زوجها المتوفى . ورضيت هذه الأم عن
زواج الصغرى قبل الكبرى ولا أدري حتى الآن لماذا كان هذا

القبول . وذهبت مع زكى ابن عمى لنرى العروس وكنت فى الثامنة عشرة من عمرى أو أكثر بقليل فراقته فى عيني الكبرى ولم تنل الصغرى التى تزوجها ابن عمى الحظوة عندى . والناس فيما يعشقون مذاهب . وانتهى الامر والله يهنى "سعيد بسعيدة" ولابنة عمتى عطيات الله ومن قلبى وقلب أمى الدعوات الصالحات بالستر والسعادة فى حياتها المقبلة .

وكانت من نساء الحنة المرموقات الحاجة صاحبة "التخت" أو "المعصرة" التى تعصر الزيت ويقال لها "الحاجة التختة" . رضى تصنع تحت اشرفها الزيوت المختلفة كالزيت الحار والريت الحلو البلدى والزيت السيرج فضلا عن بيع اللبن الذى تدره الجاموس المستخدم فى التخت . كان لديها العمال من الرجال . وكانت وحيدة لاسند لها ولا معين غير ماتملك من مال وعقار وماتمارسه من تجارة . تركها زوجها أرملة ولم تنجب منه أو من غيره من أزواجها السابقين أبناء . وكانت على غير وفاق مع أهلها المقربين وغير المقربين . كانوا يطمعون فى أموالها وكانت هى تضمن عليهم بكل شىء القليل منه أو الكثير . وكانت هذه السيدة ضمن من تقدمت التى تعزيتى فأنا مثل ابنها اذا ما أنجبت أما وهى لم تنجب فهى ترانى ابنا لها فكانت فى ضوء الرابطة التجارية التى بيننا تدعولى دائما أحسن الدعوات وأرقها . وكانت تتسكوى لى أهلها والجشع الذى تراه فى عيونهم وكأنهم يرجون موتها لكى يتمتعوا بما تترك من مال وعقار وتجارة . ولكنها خيبت ظنون الجميع وقدمت طلبا لتحضن ولدا وبناتا من الأطفال غير الشرعيين لكى ترعاهما ويؤنسا ماتعانيه من وحدة ولبى المسئولون الطلب . وكان اسم الولد هو الاسم الذى كان يسمى به كل طفل لقبط "محمد عبد الله" فأسمته هى "حزين" ، أما البنات وكانت فى مثل سن الولد فقد كان اسمها "زينب عبد الله" فأسمتها الحاجة "حزينة" ، وملا حزين وحزينة دنيا الحاجة التختة ، وعاشت لهما ومن اجلهما ، وعاشا لها فهى أمهما ، لها حقوق الأمومة عليهما . وعليهما واجبات البنوة ، ونشأ

مدللين لايجرؤ عامل أو زبون أن يمس أحدهما بما لايليق بحسن معاملتهما . ولما اشتد النزاع بين الحاجة وأهلها المقربين فكتبت كل ما عندها من مال وعقار وتجارة لكل من حزين وحزينة . وعرف الناس قبل الأهل بذلك ، وعرف الأهل وتميزوا بالغيط الشديد وملاً قلوبهم الحقد العنيف الذى ظهر وبان عند وفاة الحاجة . جاءوا نساء ورجالا وهى فى سريرها ممددة وعلامات الموت بادية على وجهها وفى جسدها . وتظاهروا أمام الجثة وتسابقوا وكل يحمل أداة لضرب الوجه المسجى ، النساء يحملن " الشباشب " والرجال يحملون " البلغ " والكل يضرب على وجه المتوفاه يمينا وشمالا وعلى الجسد والأطراف وحزين وحزينة لايملكان أن يفعلا شيئاً بل نالا بعض الضرب والكلمات المهينة الى أن سارع الجيران وأنقذوا الجثة من هذه القسوة التى لاتبدو الا من انسان موتور يملأ قلبه الحقد الأسود . وكانت " فضيحة " بلغ صداها أسماع أهل الحثة الذين لم يملكوا الا أن يتمتموا بالاستغفار الى الله . وعاد المعتدون الى حيث جاءوا وجاء " اولاد الحثة " وعلى رأسهم العمال ليقوموا بأجراءات الدفن ، وشيعت الجنازة بلا مشيعين تقريبا . ونال حزين وحزينة مانالا من مال وعقار وتجارة ، ومالبتت التجارة أن بارت وقفل التخت ونسى الناس ماحدث ، وعاشوا حياتهم كما يعيش الاحياء . وقد ترك ماحدث فى نفسى أثارا لم يمحها الزمان ، وكلما تذكرت ماحدث للجثة من أقرب الناس الى صاحبته كنت أردد مااقسى الانسان أحيانا ، وكنت اتبع ذلك توا وماعظمه أحيانا أخرى . وتذكرت حزين وحزينة . وعاشا معي أياما وشهورا ماخطبهما وأى ذنب جناه أيهما ؟ أليس من البشر ؟ أليس لهما حق الحياة ؟ وما أكثر امثالهما المعروفون وغير المعروفين ! وأليس من واجبي وأنا الوحيد الذى لاأخ لى وأخت أن أطلب احتضان ولدا وبنثا ليكونا لى أخا وأختا . وأخذت أفكر فى تقديم هذا الطلب وكنت على وشك أن أفعل ذلك ، فلقد كنت جادا . ولكن امى عندما ناقشتها فى الأمر طلبت منى ارجاء تقديم الطلب حتى

تفكر هي الأخرى . وبعد أيام فاجأتني بقولها : "ياسيد يظهر انت عاوز تتجوز . فانت بدلا من أن تقول هذا مباشرة تقول انك ترغب فى تقديم طلب لكى تحتضن ولدا وبناتا من الأطفال غير الشرعيين .. "والحق يقال اننى لم أكن أفكر فى الزواج أبدا فانا الان اقترب من سن التاسعة عشرة من عمرى ، وقد اقتلعت فكرة الارتباط بالمرأة عن طريق الحب أو الزواج اقتلاعا . فحب أمى وحب خالاتى وغيرهن قد ملك على فؤادى وملاءه حتى فاض . اننى منذ أن حذرتنى أمى بقولها "أوعى ياسيد يضحكوا عليك البنات ... انت عاقل انا عارفة خد بالك من نفسك "منذ هذا التحذير وأنا أكبت كل المشاعر أو معظمها نحو الجنس الآخر . وكنت أحس بالشبع فقلبى مرتوى بالحب والحنان النسوى اللذين اجدهما من حولى حيثما أكون . وكان قول أمى الذى قالت لى وأنا اقترح تقديم الطلب لاحتضان طفل وطفلة ليكونا لى أخا واختا ، وبخاصة عندما ماأضافت "اذا كنت عاوز طفل أو طفلة يبقى أحسن يكونوا من ضهرك "وجدته منطقيا . وبدأت مشاعرى نحو الزواج تنمو وتلتهب ، فوافقت على الزواج وبخاصة فان زكى ابن عمى كان قد تزوج للمرة الثانية منذ عهد قريب . وعندما سئلت ماالذى ترغبه من صفات فى الزوجة المرغوب فيها فلم أزد على أن تكون طيبة القلب نقية السريرة تعيش فى كنف ابوين سعيدين وبين أخوة وأخوات إذا كان ذلك متيسرا يظلمهم الحب والحنان والعلاقات الطيبة . واختيرت زوجتى "نعمات" ، وهى احدى قريبات وهى أقرب الى عائلة أمى منها الى عائلة أبى . فهى ابنة ابنة عمتها "نفوسة" شقيقة جدى لأمى . وقد أضافت أمى الى صفاتها أنها "ست بيت" (من كله) . ليس فقط تعجن وتخبز وتغسل ولكنها تستطيع طهو الطعام . وفضلا عن ذلك كله فهى التى اختارتها لى خالتي أم محمد نبوية شقيقة أمى قبل وفاتها ، أى وأنا وهى كنا مازلنا صغارا نرتع ونلعب ونأمل فى المستقبل ليتحقق الاهداف والأغراض :

"كل له غرض يسعى ليدركه"

وجاء منتصف شهر شهر مارس ١٩٣٢ ، وزفت عروستى الى .
وكننت فى سن التاسعة عشر وشهر أو أقل قليلا .

ومنذ يناير عام ١٩٣٠ وحتى الآن وقد مر عامان أو يزيد كنت فى معركة الحياة أعيش فى بحرهما الشاسع . الاطم أمواجها وتلاطمنى أمواجها . والحياة كما رايتها فى خلال هذه الفترة وما بعدها كانت (ولاتزال) معركة ، ميدان قتال ، وكننت أرى أنه لاينبغى للمرء فى معركته ان يركن الى الخمول حتى لاتضيع الفرصة التى من أجلها يجنى ثمرة الغنى وزهرة الخبرات التى يكتسبها . وكمن من الخبرات اكتسبت فى تلك الفترة وهانذا أبداً صفحة جديدة فى حياتى ، الحياة الزوجية . ونظرت أسمى الى أمام لتلقى ثمرات هذا الزواج من أبناء ذكور وبناات اناث . انها تعيش من أجل تحقيق هذا الحلم ، فلفل هذا التحقيق أن يخفف عنها ماتعانيه من احزان واتراح . ولعل هذا التحقيق أن يبدل هذه الاحزان والاتراح أفراحا تفعم قلبها المظلوم وتعيد اليها توازن الحياة الذى حرمت منه منذ وفاة أبى . كانت هى فى الواقع ترغب رغبة أكيدة فى زواج مثمر ففسرت اقتراح طلبى احتضان طفل وطفلة ليكونا أخا وأختا لى أننى أريد الزواج ورحبت أن يكون زواجاً مثمراً ينبج الأطفال الذكور والاناث جميعاً . وانا غير نادم على هذا الزواج المبكر . لقد ندمت فى بعض الأحيان بعد ذلك . ولكنى أرى أن هذا الزواج المبكر كان عاملاً من العوامل التى يسرت لى الطريق الذى انتهيت اليه فيما بعد . كان الفرق بينى وبين زوجتى نعمات شاسعا من حيث نظرتى نحو الحياة ونظرتها نحوها ، ومن حيث فهمى لأسرار الحياة وفهمها لهذه الأسرار . كنا بالطبع مازلنا فى مرحلة الشباب أو مرحلة المراهقة المتأخرة ، بدانا كذلك ولكن الاستمرار وطوله والعشرة وطولها جعلانا نتقبل بعضنا . وجاء محمد ثم أحمد ثم أمال ثم سمير ثم تيسير ثم مسعد كانوا لنا الحبل المتين الذى حفظ زواجنا من الانهيار . وعندما توفي محمد لم يكن الحزن عليه شديدا فقد كان أحمد موجودا . وبقيت ثمرات زواجنا ، وكانوا فى احضان أسمى

يعيشون حولها ويملؤون عليها حياتها . فهي الصدر الحنون ومن قلبها الحب الذى يتدفق على كل واحد منهم ، والرقّة فى صدرها لاتنضب . كانوا صغارا جاءوا الواحد بعد الآخر فتراهم ينامون معها ويسابقون بعضهم بعضا الى اقرب مكان من جسدها . كان عرقها فى أنوفهم الصغيرة عطرا لا ينفون منه بل يشتهون سمه . انظر اليهم ، عندما كانت أمى تعود من زيارة لأقارب ، وهم يغنون النشيد المحبب لديهم :

”ستى جت ستى جت“

وأنظر اليها تتلقاهم فى فرح وحيور وتبدأ تخرج من بين ثديها الحلوى اشكالا وألوانا وتعطى منها كل واحد نصيبه . والسعادة تخيم على الجميع . وأنا انظر الى هذه الروابط الانسانية فلا أقول شيئا وإن كنت اترك لقلبي أن يقول مايشاء . ان كل همى فى هذه الحياة أصبح أن أسعد بسعادة الآخرين ، فاذا كان الآخرون هم أمى وزوجى واولادى فقد أدت واجبى .

وكان لشهر مارس عام ١٩٣٢ فى حياتى أثر كبير آخر ، فقد حدث قبل دخولى بزوجتى نعمات باسبوع أن طلبت للتجنيد ، ولما كنت ”وحيد والده المتوفى“ فقد افرج عنى فلم أجند ولم ادفع ” بدل تجنيد “ كما كان يحدث ذلك فى ذلك الحين . ولكن الذى حدث كان امرا خطيرا . كانت ”كلية العلوم“ تقع فى ميدان العباسية بجوار ادارة التجنيد ، وعند زهابى الى الادارة مررت بالكلية وعند عودتى من الادارة وقد اطلق سراحي مررت بالكلية . وقد رايت فى المرة الثانية الطلبة فى ”فسحة“ ، وعرفت منهم أكثر من واحد كانوا معى فى نفس الفصل بالمدرسة الخديوية الثانوية . بدأت اللهفة على مواصلة التعليم بعد الحرمان منه فجأة تتحرك فى نفسى فجأة ايضا . عشت مع هؤلاء الطلبة زملائي فى أحلام اليقظة . وكنت فى أثناء النوم أرانى أحلم أننى أجلس معهم اتلقى الدروس فى الفصل تماما كما كنا فى السنة الرابعة الثانوية .

وعشت قلقا وأحسست بأن البذرة التي وضعها مروى أمام كلية العلوم ، بذرة التفكير فى العودة الى طلب العلم . بدأت تنمو وتتفتح . ولكنى هأنذا قد تزوجت وأصبحت أؤدى دورا جديدا هو دور الزوج ثم بدأت أؤدى دورا آخر هو دور الأب فكيف السبيل الى استئناف طلب العلم ؟ بدأت أقرأ ، اشتري كتباً ومجلات جادة مثل "السياسة الاسبوعية" و"مجلة المصور" و"مجلة الرسالة" . وكانت الكتب تدور حول الادب مثل كتب العقاد والمازنى وقبلها المنفلوطى "النظرات" و"العبرات" وغيرهما . وكتب طه حسين بدأت بكتاب "الايام" ، وكنت أقرأ كتباً دينية معظمها من الكتب الصادرة عن "الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة المحمدية" بعطفة الجوخدار بالمغربلين . بدأت أذهب الى هذه الجمعية يوم الجمعة من كل أسبوع لأداء صلاة الجمعة ثم بعد صلاة المغرب فى نفس اليوم لاستمع الى دروس "الشيخ محمود خطاب السبكي" وقد اجتذبتنى هذه الجمعية لعوامل عدة منها أن ابن خالتي "الشيخ محمد" قد انخرط فى صفوفها ، وتبعه ابن عمى "محمد البودى" وكان صديق الحارة "محمد بدر" قد سبقنى الى الانضمام . وفى "الحته" رأيت العديد من أشرارها قد أرخوا لحاهم وحفوا شواربهم ولبسوا العمامة ذات العذبة . كانوا يمرون امام الوكالة يبدون لى النصيحة لى آكون واحدا منهم . ومن هؤلاء كان "الشيخ كركر" بائع الشاى . كان ينادى على الشاى قائلاً فى وقار "شاى عنبر" ويبيع لمن يطلب منه شراء كوبة أو أكثر بنقود قليلة لاتسمن ولا تغنى ولكن البركة "حاصلة" وكان من زبائن الوكالة "الشيخ عبدالعزيز" و"الشيخ قطب" و"الحاج أحمد" وغيرهم من تجار حى عرب اليسار . والأخير كان متيسرا أى ذا املاك ورثها عن أخته التى كانت تتاجر بجسدها . عندما طلب الفتوى فى هذا الميراث هل هو حلال أم حرام ، فقيل له أنه ميراث حلال ، والوزر لا يكون على الوارث ولكن على المورث . فتنفّس الصعداء وابدى همة كبيرة فى العبادة وفى الكرم . وعندما احس

"الحاج أحمد" بقرب الوفاة مر على جميع من كانوا يدينونه ومات في يومه عندما سد ديوته جميعا . واعتبر ما فعله "الحاج أحمد" كرامة منه ودليلا على صلاحه . وكان ضمن أعضاء هذه الجمعية "الشيخ محمد الذوق" وكان يعمل في صناعة النجارة وكان حاذقا أميناً . وكان الشيخ الذوق وكان أكبر سناً . لايفتا أن يحكى لنا عن مغامراته في ثورة عام ١٩١٩ من حيث الاشتراك في إقامة "المتاريس" وتوزيع المنشورات وغيرها .

وأنا اعتبر أن الشيخ محمود خطاب استاذى الأول في الدراسات شبه المنتظمة . كان شيخا وقورا حافظا لعلمه ومواظبا على العمل بما يعلم . كان تقيا نقياً وكان يدعو الى العمل بالسنة كما كان يؤديها النبي محمد صلى الله عليه وسلم سواء كان يؤديها قولا أو عملا . ويستشهد بالآيات القرآنية التي تؤكد أن الرسول عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة ، وإن ما جاء به عليه الصلاة والسلام يجب أن يؤخذ به وأن مانهى عنه يجب أن ننتهى عنه . ودرس الشيخ محمود خطاب درس السهل الممتنع . كنا نرى الرجل وهو يتحدث وكأن النور يخرج عقب كل كلمة ينطق بها . كان وجهه مضيئا دائما ، وجبهته بيضاء لامعة . وكانت عمامته بيضاء تبدو منها العذبة تتهدى وهو يحدثنا بين كتفيه . اما لحيته فبيضاء طويلة وكأنها الفضة . وكان المصلون بعد صلاة الجمعة أو بعد صلاة المغرب في نفس اليوم يحملون "دكة" يجلس عليها في صحن الجامع الذي بناه خصيصا لكي تزدى العبادات كما كانت تؤدي في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان يحمل عصا . وما أسعد من يضربه بها من الملتفين حوله . فضربه بركة وشفاء . وكان يرفض رفضا قاطعا إذا ما أراد أحدهم أن يقبل يده . كانت دروسه خصبة فيها الاخلاص يحسه السامع من الاعماق . وكنيت أقرأ كل ما ألفه الشيخ محمود . وقد أسعدنى ذات مرة عندما ذكر أحدهم اسم "الشيخ محمد عبده" فقال توا "رحمه الله" . فالشيخ محمود خطاب لم يكن على وفاق مع العديدين من مشايخ الأزهر .

كان يرى غير مايرون . وكانوا يرون فيما يدعو اليه عدم المرونة .
فالعصر غير العصر . والظروف غير الظروف . ولكنه كان مصرا
مؤمنا بكل مايقول ويدعو اليه . ودليله القرآن الكريم والسنة
المحمدية السمحاء . وكنت فى بعض الأحيان اجلس مع آخرين
جلسة بعد العصر حتى يأتى موعد صلاة المغرب فنصلى ويذهب
كل واحد بعد ذلك الى حال سبيله أو ينتظر ليصلى صلاة العشاء .
كان فى اثناء هذه الجلسة يتحدث فى أشياء عديدة تدل على سعة
أفق . وقد سمعته يعلن أمامنا أن قراءة القرآن الكريم فى الاذاعة
حلال حلال حلال . وقد كانت هذه القضية قضية الساعة . قال
الشيخ محمود أن المرء منا قد يكون فى الحمام ويسمع جاره يقرأ
فهل يطلب من الجار أن يصمت حتى ينتهى جاره الذى يقضى
حاجة . ولعل هذه الفتوى ان أكدت للقارئ المصرى المعروف
" الشيخ محمد رفعت " اباحة قراءة القرآن فى الاذاعة فقد كان
ممتنعا تحرجا وخشية من أن القرآن يسمع والناس على المقاهى او
على قارعة الطريق ولايستمعون له أو ينصتون لعلهم يرحمون .
وكان وهو فى جلسة بعد العصر يضع أحدهم "كوزا" به ماء وأراه
يضع أصبعه فى الماء ويتمم بعبارات لاتسمع ، ثم يأخذ الكوز بين
يديه ويضعه على فمه ويعب منه أكثر من مرة ولايلعب ما يصب ، ثم
يدور الكوز على الحاضرين فيتناول كل واحد من الحاضرين
شربة . وكنت امتنع عن فعل ذلك . فلم اكن أثق فى تأثير ما فعله ،
الشيخ محمود خطاب وهو يضع أصبعه فى الماء ثم يتمم بعبارات
غير مسموعة ثم يعب دون مايلعب شيئا من الماء . ومن ثم فابتعد
عن تناول الكوز الذى يتهافت عليه الكثيرون ولايلاحظ احد
امتناعى ، وكنت لأشعر بأية خطيئة فيما أفعل .

وعرفت من مدرسة الشيخ محمود خطاب السبكى غير من سبق
أن عرفتهم " الشيخ عبدالله العفيفى " الذى كان يخطب الجمعة
ويصلى بالناس اماما وعلى رأسهم " الشيخ محمود " نفسه . وكان
خطيبا مفوها . ترى عينيه مكحولتين بالكحل " الأثد " أسوة بما كان

يفعل الرسول عليه الصلاة والسلام . وشعر راسه وشعر لحيتـ
الكثة مصبوغين بالحناء ، وكان وجهه أبيض مستربا بالحمرة . فكان
يبدو على الرغم من كبر سنه وسيما . وكان فارغ الطول ضخـم
الجهة ذا طلعة مهيبة . ومع ذلك فقد قيل عنه أنه كان مزواجا . كان
كلما دعى للخطابة فى قرية من القرى يتزوج ويطلق قبل أن يتزوج .
والشيخ درويش الجعبرى كان من أساتذة المدرسة الخطابية . كان
من أهل فلسطين ، وكانت سمات وجهه ولهجته تنم عن ذلك
بوضوح . وكان فى الدرس لايقول الا ماقاله فى الدرس السابق .
فكان حديثه يدور دائما حول حديث الرسول صلى الله عليه وسلم
الذى يأمر باغفاء اللحي واحفاء الشوارب . وتراه من الذين يخلقون
ذقونهم سخرية لاتهز مشاعر المصريين . وكانت تشبيهاته معادة
ومكررة . ومع ذلك فكنت ترى وجهه وكأن النور يسطع منه ، نور
الطيبة وضياء التقوى . أما " الشيخ على حلوة " فقد كان الاخلاص
المجسم والتقى النقى والحافظ للقرآن الكريم وللأحاديث النبوية ،
والمفسر للآيات وللأحاديث . وكان يبدو لنا وهو يحدثنا وكأنه غير
موجود ، فصوته مسموع ولكنه كان يأتى من بعيد . ولهذا الرجل
معى موقف . فقد كنت أحب هذا الرجل وكان يحبنى . وكنت آجله
وكان يدعو لى بالدعوات الصالحات . ولما اشتد اهتمامى بالفكرة
التي داعبتنى منذ مرورى أمام كلية العلوم ورأيت زملائى واقفين
فى حوش الكلية يتسامرون ، فكرة العودة الى استئناف الدراسة
المنتظمة . ولما كانت هذه الفكرة تلح على " الحين بعد الحين على
الرغم من ارتباطاتى بإدارة الوكالة وبالزواج وانجاب الأبناء فضلا
عن رعاية أُمى - تجاسرت وسألته فى أثناء الدرس الذى كان يلقيه
فى الزاوية التى أنشأتها مع بعض الاخوان بجوار الوكالة - عن
وجهة هذه الفكرة ، وكنت على وشك بلوغ سن الواحدة
والعشرين . فقال لى أمام الملأ :

" ان كنت تبغى من استئناف الدراسة وجه الله فاعتمد على
الله ، وافعل وان كنت تبغى عرض الدنيا فعرض الدنيا
زائل " .

واعتبرت الاجابة عن سوالى بالايجاب واكاد اجزم الآن وأنا
اكتب هذه السطور أنه لو أمرى بالكف عن التفكير عن موضوع
استئناف الدراسة المنتظمة لكففت عن ذلك حتما . كانت منزلة هذا
الرجل عندى رفيعة وكنت أقدر اخلاصه وتواضعه وغزارة علمه .
واذكر ضمن من اذكر من أساتذة المدرسة " الشيخ احمد
على " . كان رجلا طيبا بمعنى الكلمة . كان نظيفا أنيقا طاهرا
مباركا فيه . يقول الكثيرون عنه أنه صاحب كرامات . فقد كان أهم
مايشغله الورق الذى يرميه الناس فى الشوارع مثل ورق الجرائد
والمجلات أو الكتب القديمة . ان هذا الورق مملوء بالفاظ وعبارات
حروفها كلها حروف اللغة العربية . واللغة العربية لغة القران
الكريم ، وان بعض هذه الحروف قد يكون "لفظ الجلالة" أو قد
يوجد فى بعض هذه الأوراق لفظ الجلالة أو اسم سيدنا محمد عليه
الصلاة والسلام . او قد توجد بعض الآيات القرآنية . فكيف تترك
هذه الأوراق فى شوارع القاهرة يدوس عليها الناس بالاقدام . ان
الشيخ أحمد على عليه واجب مقدس هو أن يحمل كل يوم بعد صلاة
الفجر مباشرة "جوالا" ويجمع فيه هذه الاوراق المبعثرة فى
الشوارع أو فى الحارات . ثم يحرقها ليتأكد من صيانة اللغة
والآيات الكريمة وأسماء الله الحسنى وأسم سيدنا محمد عليه
الصلاة والسلام . وذلك كله تقربا الى الله جل شأنه وزلفى لرحمته
عزل وجل . كنت أسمع عن هذه المهمة التى أخذ الشيخ أحمد على
على عاتقه أن يقوم بها بعد صلاة الفجر كل يوم حتى يكل ويتعب أو
حتى يتم له مايريد من جمع الاوراق أوراق الجرائد وأوراق المجلات
وأوراق الكتب القديمة التى يرميها الناس بلا مبالاة فى شوارع
وحارات مدينة القاهرة فى النصف الأول من الثلاثينات - ولم أكن
أجد لهذا المجهود الكبير فائدة عظمية للانسانية . كما فعل
"اديسون" مثلا عندما اخترع "لمبة الكهرباء" . وكنت أقارن

واقارن وكانت كفة " الشيخ أحمد على " عندى غير راجحة .
وقد زاملت فى مدرسة الشيخ محمود خطاب السبكي الكثيرين
من الشباب الذين كانوا فى مرحلة عمرى أو كان سنهم أكبر او
اصغر قليلا . كان زميل الحارة "محمد بدر" أحدهم . وكان
"السيد سابق" و"شوكت وأخوه الأكبر" و"زاد الدين نور الدين"
و"محمد صقر" ، و"خالد محمد خالد" . كنا نجتمع كلنا أحيانا
وكان يجتمع البعض منا أحيانا أخرى . وكان الهدف الأول من
اجتماعاتنا أن نعمل عملا صالحا من أجل أنفسنا ومن أجل الدين .
وقد فكرت مع بعض الاخوان فى انشاء فرع للجمعية الشرعية
بالسيدة عائشة . واتخذنا مكان الكتاب الذى كان يديره " الشيخ طه
يوسف " وكنت طفلا من بين أطفاله أتلقى التعليم فيه ، اتخذناه بعد
أن أقفل لوفاة الشيخ طه ، وكان يتبع وزارة الأوقاف ، زاوية لنصلى
فيها ونتعبد . وقد نجحنا فى فتح الزاوية دون أن نأخذ إذنا من أحد
، وفرشت الزاوية بالحصر . وأدخلت المياه ، ونقشت الحوائط ،
وصنع المنبر ، تماما كمئبر الرسول بمواصفاته ومن نفس نوع
الخشب "الاثل" ، ودفعت ثمن الخشب الخام ، وصنع المنبر
النجار الماهر " الشيخ محمد الذوق " . وكانت كل التجهيزات التى
عملت فى الكتاب ليكون زاوية قام بها متطوعون . فالاخوان كان
فيهم الحرفيون من كل المهن . وفى ضوء اقتراحى تكونت جمعية
تعاونية تجمع التبرعات وتدير الزاوية . وكان يأتى اليها أحد
مدرسى الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة المحمدية مرة
كل أسبوع . يلقي علينا الدرس فى الوقت الذى بين صلاة المغرب
وصلاة العشاء . وكان الجميع يحرص على صلاة الفجر حاضرا ،
وكانت صلاة العيد تقام فى مكان ممهد فى جبل المقطم . وأصبح
الأفراد بفضل الزاوية وما تستلزمه من القيام نحوها من مسئوليات
رجلا واحدا . وأصبحوا فعلا وحقا على قلب رجل واحد . يسارعون
الى الخيرات ويعملون من أجل الخير العام ، الخير الذى يعمهم
والخير الذى يرفع من شان دينهم . كانوا أو كان معظمهم من

الناس البسطاء ، لا يملك الواحد منهم أكثر مما يقاتل وكان الجميع يعملون من أجل لقمة العيش السريفة الخالصة وكان الأمى منهم يحاول أن يتعلم القراءة والكتابة ، وإذا لم يجد الوقت لذلك فهو يحفظ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ويعرف ماهو حلال فيعمله وماهو حرام فيتجنبه . كانوا يعاملون "جماعاتهم" أى زوجاتهم معاملة حسنة . ولم يخل بعضهم من أن يرتكب المخالفات . وسرعان مايعود مستغفرا . وأذكر أن أحدهم وكان يعمل فى مصانع "السكة الحديد" ولم يكن متزوجا وكان بحكم وظيفته من حقه أن يركب القطار الى أى مكان مرة فى العام ولايدفع ثمنا لتذكرته . وإذا كان متزوجا فان من حقه أن يأخذ لزوجته تذكرة ركوب مجانية . ولسبب قد يرجع بالضرورة الى "الطمع" وكل واحد منا نحن البشر يداعبه شىء من الطمع قل هذا الشىء أو عظم - وهذا هو الوتر الحساس الذى يلعب على المجنى عليهم به كل نصاب - فان هذا الاخ ادعى بأنه متزوج وطلب تذكرتين للسفر مجانا الى الاسكندرية ، وصحبته فى هذه الرحلة ذهابا وإيابا اخت من أخواته . وانتهى الأمر ولم يعرف احد عن هذا الموضوع شيئا . وحدث أن تزوجت هذه الأخت أحد الاخوان . وعندما اختلف الزوج مع زوجته أخت العامل بالسكة الحديد وكان قد عرف بموضوع التذكرتين أبلغ المسئولين فى الادارة ، فحقق مع العامل ، وكان نصيبه الرفق من العمل . وعرف أن هذا تكفير لخطأ ارتكبه ، وصعد للأمر ، واستغفر الله كثيرا كثيرا ، وعوض عن وظيفته بعمل آخر كان أنفع . كانت هذه المخالفات تحدث من آن لآخر . ولن أنسى ماحييت عندما جاءنى "الحاج محمد الفولى الفراش" وكانت عيناه كالدم احمرارا . وذكر لى أن الدرس الذى حضره بالامس ذكر الشيخ فيه أن "سب الدين" من أكبر الموبقات ويودى بصاحبه الى الكفر ومن ثم فان زوجته تصبح طالقا ، فماذا يفعل وله من زوجته أبناء ، وانه كان قبل أن "يهتدى" يسب الدين فى اليوم

مرات ومرات ؟ فذهبنا الى الشيخ الذى قال له " ان الدين يسر
لاعسر فلا عليك يا هذا فان ابناءك هم ابناءك فالابن للفراس " ورأيت
الرجل بعد ذلك يبكى فرحا ومالبت ان انفجرت أساريره وواجه
الحياة بعد ذلك بصدر ارحب وجاءنى فى احد الايام "محمد
السقا" وقال لى أنه عندما كان فى شرح الشباب كان يمتن ببيع
الماء بالقرب ، أى أنه كان يعمل "سقا" . وكان يدخل البيت حاملا
القربة مملوءة بالماء ويفرغها فى "الزير" حيث ان البيوت أو
معظمها فى ذلك الحين لم تدخل فيها المياه الجارية "عبد
الكومانية" . كان يدخل البيت كما يدخل اليوم كتشاف عداد
الكهرباء أو العامل الذى يصلح التليفون فلا يجد أحدا من الذكور
البالغين ، قد يجد أطفالا أو لا يجد أطفالا . ولكنه فى كل مرة
تستقبله "ست البيت" وكان محمد السقا شابا مملوءا بالحيوية
وفورة الشباب بادية على جسمه وتنظر من عينيه . فكان محط أنظار
"ست البيت" الشابة التى يجتذبها شبابه وتغيرها حيويته .
وسرعان ما يحدث بينهما ما يحدث عادة بين الزوج وزوجة . ولارقيب
يخشىانه ولكن جاذبية الجنس كانت تكون دائما هى الغالبة . وقد
تكرر ذلك منه كلما كان يذهب الى بيت "زوجة الشيخ محمد بركات
بياع العيش" ، ويبدو ان حيوية محمد السقا الشابة الجذابة كانت
تجتذبها فكانت لاتخشى أحدا ولاترى سوى اشباع نهمها
الجنسى . وكبر محمد السقا وترك مهنته . ثم تزوج . وهاهو يندم
على ماكان يفعل . والشيخ محمد بركات أصبح أحد أعضاء
الجمعية وكان رجلا مسالما متوكلا على الله ولاهدف له الا أن
يعيش فى الدنيا حياة طيبة آملا فى سعادة الحياة الآخرة . فكان
ورعا طيب النفس مسامحا . وذهبت بمحمد السقا اليه ، وكنت عند
الرجل أثيرا ومحبويا فطلبت منه بعد تحية السلام الدعاء لى فدعا
لى بحرارة ثم طلبت منه أن يسامحنى فسامحنى أيضا بحرارة .
وطلبت لمحمد السقا نفس ماطلبت . ثم ذهبتا لمحمد السقا وأنا الى
الوكالة ، ورأيت ان أسارير محمد السقا قد عاد اليها الأمن

والأمان وانه أكد ندمه على ما فعل . فان الذى فعل كان من "طيش السباب" ، وأطمأن لأن الرجل قد سامحه وان كان لم يعرف عن أى سىء مسامحته له .

والأحاديث عن المخالفات كثيرة . ونسّر كانت اعظم منها الإيجابيات التى تطفئ عليها وتكاد ان تمحوها فكان الجميع كل واحد منا يتبع السيئة الحسنة لتحوها وكنا لانستبدى إلا ما كنا نعتقد انه خير للناس وخير للدين . ولكنى لم اكن استسيغ بعض الامور وكنت أخالفها أو أجادل فيها علنا . كان يحرم علينا مثلا ان نقرأ الجرائد فهى مضيعة للوقت . وكنت أقرؤها . وكان يحرم علينا ان نقرأ مجلات المصور وأشباهاها لأننا نجد فيها صوراً للنساء العاريات الكاسيات . وكنت أشتريها وأقرؤها . وعندما ظهر فى السوق كتاب "الضاحك الباكي" لفكرى أباطة كنت أول من اشتراه لأقرأه ، وكتاب "عودة الروح" لتوفيق الحكيم اشتريته وقرأته . وكانت "مجلة الرسالة" "الطقة الغذائية الأسبوعية" لعلى اشتريها وأحرص على قراءتها . ولم اكن أبالي لما كان يقوله البعض عنى . بل على العكس كنت أحرص هذا البعض أو غيره على قراءة ما أقرأ . وكنت كلما قرأت لاشبع . وكنت أشعر باننى أفهم أكثر وأسرع وفى حاجة الى أن أقرأ . ولم أترك البانوراما البشرية التى كانت أمامى فى السوق وفى المسجد وفى كل مكان وفى كل مناسبة أقرأ فى ضوء خبرتى الضئيلة بعض سطورها . كان المجتمع المحلى الذى أعيش فيه وأصعبه ويصعبنى كتابى الأول . فانا مبهور بما أرى فى الأفراح وحفلات الميلاد وحفلات الزار وعندما تنشب المعارك بين "عائلة زردق" وبين عائلة "الحاج سيد" . وكانت هذه المعارك تبدأ عادة فى شهر رمضان . كنت أرى النساء والرجال يختلطون بعضهم ببعض اختلاط الحابل بالنابل . كانت شتائمهم تبدأ من بعد الظهر حتى وقت الغروب . وربما سالت الدماء بينهم . وكنت أرى أجساد النساء عارية وهن يؤذين ضروب الاعتداء باللسان أو باليد أو بالراس "الروسية" . ولم يهتم أحد

برمضان "الشهر الكريم" . ولا يحاول احد التدخل وكان رجال
المؤليس (الشرطة الآن) لا يتدخلون ويتركون المتعاركين يتعاركون
حتى تهمد انفاسهم . وتهمد انفاسهم فعلا حين يضرب المدفع وقت
الغروب . كانت كل هذه الأمور تستهوى انتباهى وانا بالطبع لست
راضيا عنها ولكنى راصدا لها . وقد لعبت ظاهرة الموت دورا كبيرا
فى حياتى منذ ان كنت طفلا عندما ماتت عمتى او عندما وجدتها
ملقاة لا تنفس امامى . وكان شارع السيدة عائشة يمر به الموتى
كل يوم . وكنت عندما لعب الكرة فى تـرانة "الزرعى" ارى الموتى
وهم يدفنون . وقد كان لموت الابرار فى حياتى فى مستقبل
عندما مات ابنى وكنت فى السابعة عشر من عمري او قبل ذلك
بقليل ، عقب أداء امتحان نصف السنة الدراسية للسنة الرابعة
الثانوية مباشرة .

وكان انقطاعى عن الدراسة غصة نكبت بها ولم ينقضى منها الا
إجابة الشيخ على حلوة . كان عام ١٩٢٤ قد بدا . فأخذت استعد
لاستئناف الدراسة من أجل الحصول على شهادة "البكالوريا" .
وعزمت على ان ادرس علوم السنتين الرابعة والخامسة فى عام
واحد وهو عام أكتوبر ١٩٢٤ - يونيو ١٩٢٥ . واشترت الكتب
الضرورية . وبدأت استذكر دروسى . ورايتنى استوعبها وأنا اكثر
نضجا . فلم اجد صعوبة كبيرة فى الاستذكار . ولكن الوقت
لايسعفى . فانا مازلت أدير الوكالة ومعى العمال الذين ينتظرون
أجورهم فى اول كل شهر . وانا مهتم فى أوقات أخرى ، كسكرتير
مجلس إدارة الجمعية الذى يشرف على إدارة الزاوية ، بالإشراف
على مهام عديدة واداء بعضها . وانا مسئول عن أمى وزوجتى
وابنى أحمد . وكنت مازلت أعيش فى بيت أسرة جدى لأبى تحقيقا
لرغبة أمى التى لاتزال ترى أنها قطعة من هذا البيت وان هذا البيت
قطعة منها . واستشرت احد اصدقاء أبى "الشيخ سيد قاسم"
وكان عميلا لأبى ثم ترك حانوته . وعمل باحد الوظائف فى
"كتبخانة القلعة" واصبح لديه الوقت الكافى لكى يزور ويزار . فقد

اصبح "موظف حكومة" وكان رجلا رشيدا منصحنى بعد ان
تسجعتنى بأن التحق بالمدرسة "الثانوية الليلية" . ففى مدرسة
معروفة وسمعتها العلمية لانتسوبها شائبة . وكانت هذه المدرسة
تقع فى شارع "ابراهيم باشا" ثم نقلت الى حى "العجالة" . وكان
يديرها "الاستاذ راغب مرجان" . كان يجلب لها احسن المدرسين
ويتقاضى مصاريف معقولة . وكان ضمن المدرسين استاذ
الجغرافيا والرحالة المعروفة "الاستاذ محمد تابت" ، وكان مدرسو
اللغة العربية واللغة الانجليزية واللغة الفرنسية من أعلى المدرسين
مكانة وشهرة . وذهبت الى الثانوية الليلية فى شهر اكتوبر عام
١٩٢٤ ، ووجد عددا كبيرا من الطلبة من العاملين فى وظائف
الحكومة أو فى الشركات . وكنت بين قليلين الذين كانوا يعملون فى
الأعمال الحرة . ولايمكن الا ان أذكر اليوم الأول الذى التحقت فيه
بالمدرسة . كان يوما حاسما فى تاريخ حياتى مافى ذلك من شك .
وقد رايت أن اشترى "بسكليت" لأذهب بها وأروح . فكانت
المسافة بعيدة من حى الخليفة حيث تقع الوكالة أو بيتى الى مكان
المدرسة . فكنت أركب البسكليت من شارع السيدة عائشة حتى
الميدان ثم أمر بشارع "عوام بك" وهو شارع منحدر ، ثم الى
الحلمية الجديدة فالحلمية القديمة فميدان عابدين فشوارع ابراهيم
باشا ثم عندما انتقلت المدرسة الى شارع العجالة انتهى اليه .
كانت رحلة تبدأ من الساعة الخامسة مساء وتنتهى عندما أعود الى
الوكالة فى الساعة العاشرة مساء . خمس ساعات أقضيها فى
السعى الى تلقى العلم وتلقيه فعلا . وللمرة الاولى اجدنى اتعاش
مع زملاء أكبر منى سنا وأصغر منى سنا وكان عدد المسيحيين
أكبر من عدد المسلمين . وكان هم الجميع هو الاجتهاد فى سبيل
التحصيل حتى يتم الحصول على الشهادة المطلوبة شهادة
البكالوريا . استمرت الايام والليالى فى الخريف ثم الشتاء ثم
الربيع ثم الصيف وكانت حيرة من اجل التحصيل جهودا
محببة الى نفسى . كنت استعد عنيا ووجدانيا لكل ليلة . وعندما

أقرب من شارع عوام بك فلا أستطيع لهذا الشارع المرتفع رقيا .
فكنت أمشي وأنا أجر السككيت بجوارى . وعزمى يستد وارادتى
فى سبيل تحقيق الهدف تبدو حديدية وجاء سبهر يناير عام
١٩٣٥ . وقد مرت على وفاة أبى خمس سنوات بالتنام والكمال .
وعلى الرغم من الأعباء التى كان كاهلى ينوء بها او كاد فاننى قررت
أمرا وافقت عليه أمى دون عاترد . فقد اجابت عندما قلت لها اننى
لن أعود الى الوكالة بعد اليوم . وكان اليوم يوم ٢٢ من يناير عام
١٩٣٥ نفس اليوم قبل خمس سنوات عندما أخذت مغاتيح الوكالة
لأبدا فى ان أحل محل أبى المتوفى قبل ذلك بخمس سنوات
وانقطعت عن الدراسة وكنت فى منتصف العام الدراسى . اننى
اذكر ذلك اليوم جيدا ولايسكن ان انساه . فقد كان يوم قطع مرحلة
من حياتى قسرا واضطرنى لأن أبدا مرحلة من حياتى قسرا أيضا
- قالت أمى "اعمل اللى أنت عاوزه ياابنى . أنا دعيالك . وربنا
معاك" . وكان قرارى منطقيا فانا أدرس علوم سنتين فى سنة
واحدة . والآن . فى ذلك الوقت . ويبقى حوالى ستة شهور فلاتفرغ
للاستذكار حتى أضمن النجاح . ان الوقت عندى كنت أقول
لنفسى . من ذهب . بل مما هو أغلى من الذهب . ويكفينى أن
ضاعت من عمرى خمس سنوات هباء . والواقع وأنا أنظر الى
الخلف الآن أرى ان تلك السنين لم تذهب هباء . لقد زودتنى
بالخبرات التى لم أكن أجدها الا فى موسوعة الحياة الاجتماعية
التي خضت غمارها فصقلتني وصقلتها ، وعشت بها بعد ذلك ومعها
. ولكنى فى ذلك الحين فى يوم ٢٢ من يناير عام ١٩٣٥ كنت أعتقد
ان ١٨٢٥ يوما ذهبت من عمرى دون ماداعى . وأننى لو كنت بقيت
مستمرا فى دراستى لكنت قد تخرجت فى احدى كليات الجامعة أو
كنت على وشك هذا التخرج . ولكن ماكان قد كان . والآن فى ضوء
عزيمتى التى برزت من التجارب وارادتى التى استمدت صلابتها
من الخبرات . فاننى مززع على طلب العلم المنتظم ، وليلهمنى الله
الترشد والصواب . وليحقق لى الآمال . اننى أطلب العلم للعلم لكى

خدم الإنسانية لذاتها إذا كان لكل امرئ غرض يسعى ليدركه .
ما الحر يجعل ادراك المعالي له عرصا . كنت اتعبد بهذه المعاني
المطلقة فى سرى احيانا . وكنت اتعبد بها بصوت مرتفع احيانا
أخرى . كنت كما بدا لى فى ذلك الوقت استمد من ترمى بهذه
المعاني القوة على ماانا بصدد تحقيقه فى خطواتى الاولى ، خطوة
الحصول على شهادة "البكالوريا"

وقد يسر لى مرور الوقت وانا أعيش فى البيت مع أمى وزوجى
وولدى أحمد . ان ابن عمى عبد المنعم كان منذ اكثر من عام قد
راى بعد ان خلا الجو من منافسى ابيه فى الميراث بعد وفاة حدى
ان يطالب بحوش المنزل ومافيه من حجرات ليجعل منها فصول
مدرسة ابتدائية أهلية يكون هو ناظرها . واجيب الى طلبه بعد عمل
بعض الترميمات اللازمة . وكان يعوزه بعض النقود لكى يؤث هذه
المدرسة ويشتري لها "التخت والسبورات وغيرها من الأدوات
الضرورية" . وقد طلبت منى أمى ان أقرضه النقود التى يحتاجها
وكنت مازلت فى الوكالة . ففعلت وبعد قرارى بترك الوكالة
استعدادا للاستدكار من أجل اجتياز الامتحان فى شهر يونيو عام
١٩٣٥ . وجدت ان اقضى بعض الوقت ، للتغيير الضرورى ولكى
أفسح لأمى وزوجى المكان لكى يؤدبا ماعليهما من مهام من حيث
النظافة والطهو وتنظيم الحجرات . فى المدرسة . وتفرغت لتدريس
اللغة الانجليزية . مقتفيا آثار مدرسى الاول فى المدرسة الابتدائية
"أحمد أفندى على" . وقد سعد التلاميذ بهذه الدروس كما
سعدت . فقد احببتهم فوجدتهم أحببوا . وكنت فى كل قوله أقولها
أو حركة أؤديها أبغى مايفيد ويصلح . وكانت النتيجة متمرة لى
ولهم . فقد تدربت على ترويض الاطفال والصبيان . وهم أفادوا من
توجيهاتى ومن دروسى . عندئذ لم يحز فى نفسى كثيرا عندما
أبلغتنى أمى ان عبد المنعم . وكان مولعا بقراءة الكتب واقتنائها ،
كان قد طلب ان يأخذ كتب أبى والمجلات التى كان يحفظها فى
مكان مناسب لائق يؤكد اهتمامه بها واحترام مؤلفيها ومن يكتبو.

فيها ، فأعطتها له ولم تقل لى سينا عن ذلك الا بعد فترة طويلة
حزنت من أجل اعطائها هذا التراث من أبى . وكنت اولى به من أى
شخص . ولكن اتاحة الفرصة لى لكى أقوم بالتدريس فى المدرسة
الابتدائية الاهلية التى كان يديرها عبد المنعم ابن عمى محمود
شقيق أبى لطف من هذا الحزن وان لم تمحه محوا تاما . فانا فى
هذه السن ومازلت أذكر اعطاء أمى كتب ومجلات أبى التى كنت
أولى الناس جميعا بأخذها واقتنائها . صحيح ان أمى أعطت للعديد
ممن يستحقون ماكان يلبسه أبى من ملابس ، ومنها الجديد الذى
ماكاد أن يلبس . ومنها الاقدم الذى لم يبل ، ولكن الملابس شىء
والكتب والمجلات شىء آخر . ربما كانت الملابس أغلى ثمنا
وعندما كانت أمى تمنحها للآخرين أو غيرهم كانت تمنحها على
سبيل الصدقة . ولكن الكتب . وما أدراك ما الكتب ' ولكن المجلات (
مجلات عبد الله النديم وصروف وغيرهما) وما أدراك ما المجلات '
أمر أخرى غير الملابس . ليتها أخذت رأى فى طلب عبد المنعم
ابن عمى ، انها لم تأخذ رأى فى منح الملابس ولم أكن اهتم فهذا
أمر لم أكن أكثرث به فى ذلك الحين .

وجاء الامتحان فى غضون شهر يونيو عام ١٩٣٥ ، وقد بلغت
الثانية والعشرين من عمرى أو يزيد . وجلست فى الامتحان فى
مكان لم أكن أتوقعه . كانت لجنة الامتحان معقودة فى "مدرسة بنبا
قادن الثانوية" حيث ناظرها "حسن على" ناظر المدرسة
الابتدائية . ورأيت أحد ضباط المدرسة الذى كان يعمل فى
المدرسة الخديوية الثانوية ، وكان أحد المراقبين . ورأى . ونظر
الى مليا وقد عرفنى ، وكنت بالضرورة أعرفه فهو واحد من أحاد اما
أنا فكنت طالبا من مات . ولكنه لم يحدثنى وأنا بدورى لم أحدثه .
وذهب الى حيث لا أعلم ومن يومها بلعه الزمن فلم أره قط . وكان
انتظار نتيجة الامتحان أمرا بالنسبة لى ولظروفى الاجتماعية
والاقتصادية أمرا صعبا . كنا ونحن نجلس على "الطبلية" لنتناول

"العداء" أو طعام "العشاء" تتلاقى عيوننا عينا امى وعينا زوجتى وعيناي وتتحدث العيون ولاتنطق الاغواء بكلمة . كما نعيش على الرجاء ونرجو الصحة و الستر . والصحة فى ذلك الحين كانت متوفرة ولله الحمد والمنة ، وكان الستر هو المطلوب كل المطلوب . واحمد بيننا يلهو ويلعب ويناعى ويلاغى فما رال فى سنته الثانية لم يستكملها . فله الله ولامى ولزوجتى ولى الأمل فى وجهه الكريم . اننى شاب كما يقول العديون من الناس . من أعضاء الجمعية ، ومن غير الأعضاء . شاب نشأ فى طاعة الله . تدعولى أمى اناء الليل وأطراف النهار . وثق فى زوجتى وتأمل فى المستقبل الخير لها ولى ولابنها ولمن يأتى من بعده . فالأمل كبير فى مستقبل كبير . لم أندم قط على ما فعلت حتى تلك اللحظة . وكان وجهى الى الامام . وكان اذا واجهت ما يذكرنى بسلوك بعض الناس نحوى ، وبخاصة الذين كانوا يعاملوننى فى حياة أبى معاملة كريمة وفوق الكريمة . كان هؤلاء الناس من الأقارب وكان بعضهم من غير الأقارب ، وكنت عندما اهل امامهم أجد الحب والحنان مشفوعين بما يملؤن به جيوبي بالحلوى أو النقود أو الحلوى والنقود معا . ما الذى حدث الآن . ان أبى قد توفى هذا أمر لا مرأ فيه ، وهأنذا تركت الوكالة وهو أمر لامرأ فيه أيضا . ولكنهم بدأوا يغيرون من سلوكهم نحوى بعد وفاة أبى قبل تركى الوكالة . وهذا فى ضوء التجارب ، كما بدا لى أخيرا جدا ، أمر عادى . فالمكانة مكانتى قد تغيرت . وأدوارى الاجتماعية أيا قد تغيرت . ومصالحهم هم قد تغيرت . والمصالح كما رأيت بعد ذلك تصنع المواقف ، والمواقف بدورها تصنع النوايا نحو الآخرين . ونحن بشر ، أى أن كل أو معظم ما يصدر عنا من انماط السلوك يكون فى ضوء كل ذلك .

٦ - مسيرتى فى مدرسة الحياة ومسيرتى التعليمية جنبا الى

جنب

وظهرت نتيجة امتحان شهادة البكالوريا فى عام ١٩٢٥ فى

موعدها الموقوت ، وكللت جهودي بالنجاح . والآن قد حصلت على هذه الشهادة وكان الحصول عليها في ضوء ظروفى الاجتماعية والاقتصادية هدفا مرموقا . وقد فرحت من أجل ذلك ، وكان فرحى فرحا رزينا . ولعله كان فرح الواثق في رحمة الله ورضوانه . وقد فرحت أمى وكذلك زوجى من أجل حصولى على الشهادة فانا الآن صرت " أفنديا " حقا ، ونجاحى فى نظريهما هو مجرد تحقيق هدف ولا بد أن تتبعه خطوة أو خطوات أى أننى لابد أن أخطو خطوة أخرى على الأقل فأجد العمل المناسب حتى أستطيع أن أكفل أسرتى الصغيرة بشرف . فلا أحتاج الى أن امد يدي الى الآخرين ، أقارب مقربين كانوا أو أقارب غير مقربين أو غرباء . ان دعوات أمى كانت كلها أو بعضها تتضمن "الستر" لى والستر لها والستر لزوجى والستر للصغير أحمد ومن سيأتى من بعده من أبناء فى مستقبل الأيام . والستر هنا يعنى أول مايعنى أن أعمل لأكسب قوت أعضاء أسرتى بشرف ، فلا أحتاج الى أحد . وقد سترنا الله جل وعلا حتى الآن . وحصولى على شهادة البكالوريا يعنى فى نظر أمى الحصول على الوظيفة التى تليق بى . ولم تكن أمى تعلم أن تحقيق هذا الهدف ليس أمرا سهلا ، وبخاصة فى عام ١٩٢٥ عام حصولى على شهادة البكالوريا . أى العام الذى أصبحت أجاوز فيها الثانية والعشرين من عمرى . وكنت فيه متزوجا منذ ثلاث سنوات أو أكثر وأنجبت ابنا يعيش فى كنفى وتحت رعايتى . لم تكن تعلم أمى أو زوجى وربما كل أعضاء العائلة الذين يعيشون فى "بيت عويس" الذى مازلت أسكن فيه حتى الآن . أو عائلة "بيت صبح" . أو عائلة زوجتى ، لم يكن يعلم كل هؤلاء وغيرهم من أهل الحنة شيئا كثيرا عن أحوال عام ١٩٢٥ . وحتى إذا كانوا يعلمون فإن "الجري وراء لقمة العيش" كان شغلهم الشاغل ، وهمهم الأوحد . لم يكن يعلمون مثلا أن الأمة المصرية قد تمسكت فى ذلك الحين بعودة دستور عام ١٩٢٢ . إذ هو الذى ارتضته فى حينه وأقسم نوابها وشيوخها اليمين فى مختلف البرلمانات الصحيحة

على احترامه ، ومن ثم عمت فى البلاد حركة إجماعية للمطالبة بعودته كاملا غير منقوص ورات الوزارة (وزارة نسيم باشا التى تالفت فى يوم ١٥ من شهر نوفمبر عام ١٩٢٤ ، وكان محمد توفيق عبد الله باشا وزيرا للحربية والبحرية فيها) مجاراة للرأى العام أن تساهم فى هذه الحركة . وقد اضطر الملك فؤاد فى يوم ٢٠ من شهر ابريل عام ١٩٢٥ الى اعادة دستور عام ١٩٢٢ ، ولكن الحكومة البريطانية عارضت فى عودة دستور عام ١٩٢٢ ، لم يكن يعلم الكثير من أهل حثتنا هذه التفاصيل فقد كان " الجرى وراء لقمة العيش " . كما ذكرت ، شغلهم الشاغل ، وهمهم الاوحد . ولم يكونوا يعلمون أيضا شيئا عن تصريح "هور" (السير صمويل هور وزير الخارجية البريطانية فى ذلك الحين) الذى ذكره فى خطبة القاها فى قاعة " الجلد هول " بلندن تناول فيها الحديث عن الدستور المصرى ، وصرح فيها بأنه عندما استشيرت الحكومة البريطانية فى شأنه نصحت بأن لايعاد دستور عام ١٩٢٢ ولا دستور عام ١٩٢٠ (الذى أعلنه اسماعيل صدقى فى يوم ٢٢ من شهر أكتوبر عام ١٩٢٠ بعد إلغاء دستور عام ١٩٢٢) . كان الناس فى حى الخليفة وفى الأحياء الأخرى من مدينة القاهرة وفى انحاء محافظات مصر ومديرياتها يهتفون بسقوط هور "ابن الطور" ، ولكن الكثيرين وبخاصة بنات وأبناء حى الخليفة " حثتنا " كانوا لايعلمون عما دعا الى هذا الهتاف شيئا دقيقا . وكانت أمى وزوجتى ومعظم أعضاء أسرتى ومن على شاكلتهم على نفس المستوى من العلم أو عدم العلم .

لم يكن يعلمون على التحقيق ماكان لتصريح هور من أثر على النفوس . كان الأثر شديدا مافى ذلك من شك إذ كان اعترافا صريحا بالتدخل البريطانى فى شأن الدستور وتمسك الحكومة البريطانية بهذا التدخل . فآثار احتجاج الامة على اختلاف هياتها وطبقاتها ، كما آثار السخط على الوزارة القائمة إذ تبين من التصريح انها استشارت الحكومة البريطانية فى شأن الدستور .

فخولتها ذلك تدخلا غير مشروع فى شئون مصر الداخلية الهامة .

وعندما قامت المظاهرات فى نواحي القاهرة وبعض المدن احتجاجا على هذا التصريح فى يوم ١٢ من شهر نوفمبر لمناسبة الاحتفال "بعيد الجهاد" ، علم أهل الحنة بها ولكنهم لم يعلموا بتفاصيلها . لم يعلموا أن البوليس (رجال الشرطة) قد قابل هذه المظاهرات باطلاق النار . ولم يعلموا بسقوط أول شهيد فى هذه الحوادث وهو "اسماعيل محمد الخالع" فى يوم ١٢ من شهر نوفمبر عام ١٩٣٥ بالسراشق الذى أقامه الوفد احتفالا بهذا العيد . إذ اصابته رصاصة أودت بحياته بعد انتهاء الاحتفال وتدفق الجماهير تحت ضغط البوليس ، وكان هذا الشهيد عاملا يعمل بالسراشق . ولم يعلم الكثير جدا ومنهم أمى وزوجتى شيئا عن الشهداء "محمد عبد المجيد مرسى" و "محمد عبد الحكيم الجراحى" و "على طه عفيفى" و "عبد الحليم عبد المقصود شبكة" ، وكان الشهيد الأول طالبا بكلية الزراعة ، والشهيد الثانى طالبا بكلية الآداب ، والشهيد الثالث طالبا بدار العلوم ، والشهيد الرابع طالبا بالمعهد الدينى بطنطا . كانتا فى شغلها الشاغل فى البيت ، تعانيان من العجين والغسيل وطهو الطعام والنظافة أقصد تنظيف الحجرات والمرافق فضلا عن رعاية ولدى أحمد ورعايتى . وكانت أمى بالاضافة الى كل ذلك مشغولة بزيارة الأقارب والجارات والصديقات أو شببيها الصديقات . كانت لاتبقى فى البيت الا اذا كان اليوم يوم الغسيل أو كان اليوم يوم العجين ، واستمرت تخرج فى الأيام الأخرى للزيارة حتى ماتت بعد عشرين عاما من وفاة أبى . وقد اعفيت من يوم العجين عندما ازداد الطلب على "الدقيق" الذى نملكه من أعضاء أسرة عمى محمود شقيق أبى أو من الجيران الذين كثيرا ما يطلبون "شوية" دقيق يردونها عندما يتوفر الدقيق لديهم . ولا يرد احد ما يأخذ سواء كانوا من الأقرباء أو الجيران . وانتهى الأمر الى اقتراح شراء الخبز من المخبز المجاور ، ومن ثم توفر عناء أمى وأصبح يوم العجين فى خبر كان ،

أى أصبح من أيام الخروج للزيارة . كانت أمى لاتطبق المكوث فى البيت على الرغم من المناخ الثقافى الحانى الذى كان يملؤه فى ذلك الحين . ولعل ذلك أن يرجع الى حالتها النفسية التى صارت اليها فى ضوء القيود التى كبلتها منذ أن كانت فتاة صغيرة لاتعدو الثامنة عندما ضمها بيت الزوجية تحت سيادة "ستى حمدة" ثم "جدى لابى" ثم سيادة أبى وذكور العائلة كبارهم وصغارهم على السواء . وكان الهدف الأول الذى تريده أمى أن يتحقق فى ذلك الحين هو أن أعمل لكى أكسب وأعول أسرتى الصغيرة وأنا كريم النفس . وكان نفس هذا الهدف هدف زوجتى ، وكان قبل أيهما هدفى ، ولكنى كنت متوكلا على الله ولم أكن متوكلا . فقد سعت من أجل تحقيق هذا الهدف حتى قبل أن أجلس فى امتحان شهادة البكالوريا فى غصون شهر يونيو عام ١٩٣٥ .

ولم يمنع هذا الهدف الملح أن أكون على وعى بما يدور بالمجتمع المصرى فى ذلك الحين . فانا أذكر الآن أننى فى أوائل عام ١٩٣٥ أى فى شهر يناير أو بالتحديد فى يومى ٩ و ١٠ من شهر يناير عام ١٩٣٥ ، عندما دعا حزب الوفد المصرى فى أواخر عام ١٩٣٤ لجانه وأنصاره الى عقد مؤتمر عام للنظر فى شئون البلاد من شتى نواحيها ، ولم تتضمن هذه النواحي السياسية فحسب ، بل شملت بعض النواحي الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية كذلك - اننى حرصت الحرص كله على حضور هذا المؤتمر الذى عقد بمدينة رمسيس بالزمالك (مدينة الأوقاف الآن) وكان هذا المؤتمر أول مؤتمر عام للوفد المصرى . وقد حضره حوالى خمسة وعشرين ألفا من حملة تذاكر الدعوة ، وجاءوا من جميع نواحي العاصمة (القاهرة) ومن مختلف المدن والثغور والأقاليم . وكان من أعظم المؤتمرات الوطنية شأنًا ونظامًا . وكان له صدى فى طول البلاد وعرضها . وبخاصة فى محيط اعضاء المجتمع المتعلمين ، والشباب منهم على رأس القائمة . وقد وقف الحاضرون ساعات يستمعون للخطب التى ألقيت فى هذا المؤتمر ،

ومنهم من حظى بالجلوس نفس الفترة ولنفس الغرض وقد عالج الخطباء فى المؤتمر مسائل وموضوعات ذات أهمية فى شئون البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية . فضلا عن الموضوعات التى ألقىت عن الموقف السياسى والدستورى وعن الوفد المصرى : نظامه وأغراضه ، وعن القضاء فى مصر والامتيازات الأجنبية ، والمحاماة وحقوقها وانظمتها ، والصحافة وحريتها - فقد تضمنت موضوعات هذا المؤتمر أيضا الازمة الاقتصادية ووسائل علاجها ، ومشروعات الرى والصرف ، وشئون التعليم والجامعة والأزهر ، وعلاقتنا الاجتماعية والاقتصادية بالنزلاء الأجانب ، وشئون الفلاح واصلاح القرية ، والمحاصيل الزراعية ووسائل تحسينها وتصريفها والتعاون فى مصر ووسائل تشجيعه ، والشئون الصحية العامة وأمراض المناطق الحارة ، والصناعة المصرية . تشجيعا وترويجها ، وتنظيم شئون العمال فى مصر ورفع مستواهم ، فضلا عن بعض الموضوعات الأخرى مثل شئون الأوقاف واصلاحها ، واصلاح الادارة والأمن العام ، وعلاقات مصر بأمم الشرق ، والمرأة المصرية ونصيبها فى النهضة القومية .

ولن أنسى ماحييت يومى ١٠،٩ من شهر يناير عام ١٩٣٥ ، فقد استمعت لمشاكل المجتمع المصرى فى ذلك الحين لأول مرة بطريقة منتظمة ومباشرة من بعض زعماء البلاد والمتخصصين . وأذكر أننى خرجت من هذا المؤتمر ، كما فعل الكثيرون غيرى ، وبخاصة الشباب منهم ، والاحساس بالمسئولية الضخمة نحو مصرنا الخالدة ونحو الاسهام فى مواجهة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية فضلا عن السياسة التى كان يعانى منها المجتمع المصرى فى تلك الفترة - يملأ نفوسنا وكياننا .

وقد تأكد لنا جميعا عبء هذه المسئولية وعمقها وبخاصة ماتعلق منها بالمشاكل الثقافية الاجتماعية والاقتصادية . وأحسست ، كما

أحس غبرى ، بأن الطريقة الى الحياة الافضل لابد وأن تكون غير الطريقة الحالية التى يتبعها العديد من زعماء مصر فى ذلك الحين ، وأن الحاجة الى تغيير الطريقة الحالية أصبحت ضرورة .

ولم أتحدث عن هذا المؤتمر مع احد من المحيطين بى فى حثتنا ، ولم أتحدث أيضا عن الحوادث الأخرى التى واجهتها البلاد فى خلال عام ١٩٣٥ وبخاصة ماتعلق منها بعودة دستور عام ١٩٢٣ كاملا غير منقوص وما أعقب ذلك من مظاهرات وسقوط الشهداء الأبرار - مع أحد من المحيطين بى فى حثتنا . ولكن عبد المنعم ابن عمى شقيق أبى لم يتركنى وحدى أعيش افكارى التى انبثقت عن هذه الامور الحاسمة . كان يتحدث معى وكان يتناقش معى فى كل ماحدث أو مايتوقع ان يحدث . فاهتمامه بالسياسة على الرغم من تراكم السنين منذ عام ١٩١٩ ، عام الثورة التى شارك فيها ، لم يفتر . ومع ذلك فأننى أود أن أذكرها هنا أن الناس ، أهل الحنة وغيرهم ومنهم أمى وزوجتى ، وأن كانوا لايعلمون تفاصيل ما يحدث من أمور فى المجتمع المصرى ، فان الاحساس بهذا الأمور عندهم كان موجودا . ان المناخ الثقافى الاجتماعى فى ذلك الحين كان مشحونا بكل ما يحدث من حوادث تمت الى القضية المصرية بصلة . لقد انتهى الأمر عند المصريين كافة الى أن الانجليز المستعمرين هم الاعداء اللداء . واستقرت فى النفوس هذه الحقيقة المرة على الرغم من صروف الدهر المواتية التى كانوا يواجهونها فى ذلك الحين ، أو بسبب هذه الصروف غير المواتية وكنت فى خلال هذه الفترة مازلت أهتم اهتماما بالغا بالأمور الدينية . بل لعل اهتمامى هذا فى ضوء ظروفى الاجتماعية الاقتصادية قد ازداد عمقا . فانا الآن فى شغف شديد لكى أتم تعليمى العالى ، وانا الآن فى مسيس الحاجة الى العمل الشريف لاكسب قوتى وقوت من أعول . وأنا الآن عضو من أعضاء جيل مابعد ثورة ١٩١٩ ، الجيل الذى كان يواجه الاحباطات التى نتجت عن فشل هذه الثورة فى تحقيق اهدافها . ان هذا الفشل فى حد

ذاته ، كما بدا لنا بوعى أو من غير وعى ، قد قتل بدوره الطموح الذى كنا نتوقعه من نجاح هذه الثورة أو كاد . ولن أتحدث عن جيلى هذا الا بقدر . فانا أذكر جيدا أن نجاحى فى شهادة البكالوريا حفزنى الى مواصلة التعليم ، واننى قدمت فعلا اوراقى الى الجامعة لكى أدرس فى كلية الحقوق . وقد قام عبد المنعم ابن عمى شقيق أبى بدور " ولى الأمر " وطلبت للكشف الطبى ، وكشف على طبيا فعلا ، ومر الكشف الطبى بسلام ، وكنت على بعد خطوة واحدة فيتحقق حلمى بل حلم أبى فأصبح طالبا فى الجامعة . ولكن لم يكن الالتحاق بالجامعة فى عام ١٩٣٥ لأدرس فى كلية الحقوق (أسوة بالزعيم مصطفى كامل) من حظى . ذلك لانى فى شهر نوفمبر عام ١٩٣٥ (عام شهداء دستور عام ١٩٢٣) عينت فى مصلحة الحدود التابعة لوزارة الحربية والبحرية موظفا على الدرجة الثامنة الكتابية . ولم يكن هذا التعيين مفاجأة لى مائة فى المائة ، لان اللواء محمد توفيق عبد الله باشا قبل أن يجلس على كرسى وزارة الحربية والبحرية فى يوم ١٥ من شهر نوفمبر عام ١٩٣٤ (كأحد أعضاء وزارة نسيم باشا) كان مديرا لمصلحة السجون . وكنت قد ذهبت اليه وهو فى هذا المركز ليجد لى عملا فى هذه المصلحة كشخص حامل لشهادة "الكفاءة" . واذكر انه قابلنى ولم يكن يعلم اننى استعد للجلوس فى امتحان شهادة البكالوريا ، ونصحنى بأن أحصل على شهادة البكالوريا أولا ووعده انه بعد حصولى على هذه الشهادة سيجد لى عملا . وأنا لم أذهب الى هذا اللواء الا لأن أبى كان صديق صباه . فهو ابن الحاج عبد الله تاجر البقالة فى حى السيدة عائشة . أى أن أبى وهو كانا من أبناء حنة واحدة ، وكانا فى صباهما يرتعان ويلعبان سويا ، ثم فرقت بينهما الظروف والاحوال وذهب كل واحد منهما الى ما خلق له . ويبدو ان الرجل عندما طلبت مقابلته عندما كان مديرا لمصلحة السجون قد عاش بعض لحظات ماضى صباه ، ويبدو ان حنينه الى هذا الماضى قد تحرك فجأة فشرح صدره وأمر بمن يأتى بى إليه

تم أبدي لى نصيحته بالحصول على شهادة البكالوريا أولا . ومأن حصلت على هذه الشهادة حتى أرسلت الى "معالي الوزير" الذى تأكد لديه استحقاقى للوظيفة المرموقة فقد استمعت لنصيحته ، ومادمت قد فعلت ذلك فانه كان عند وعده وأتاح لى وهو فى مركزه الأرفع التعيين فى وظيفة كاتب على الدرجة الثامنة الكتابية فى مصلحة الحدود . ولما كان التعيين فى وظيفة حكومية فى ذلك الحين يعنى بعض الضمان الاجتماعى لأسرتى ، وأن ترك فرصة هذا التعيين لايمكن أن يكون فى ضوء ظروفى الاجتماعية والاقتصادية الا إهدارا لبعض حقوق هذه الأسرة فضلا عما كان قد يسبب من آلام وخيبة لأمل أمى وزوجتى - فقد قبلت التعيين وأجلت الالتحاق بالجامعة .

ومهما يكن من الأمر فان قبولى تأجيل الالتحاق بالجامعة كان فى ضوء رغبتى الشديدة فى طلب العلم ، بالضرورة ، قرارا موقوتا . وقد حاولت بعد ذلك الالتحاق بمدرسة الحقوق الفرنسية الليلية ، كما حاولت الالتحاق بقسم الصحافة بالجامعة الامريكية ، ولكنى لم أوفق فى المحاولتين لضيق ذات اليد . واننى أذكر اننى حاولت الاقتراض لادفع مصاريف مدرسة الحقوق الفرنسية الليلية ، فلم أجد سوى زوج خالتي عزيزة أخت أمى غير الشقيقة لأنه كان فى تصوورى الشخص الوحيد فى عائلتى الذى يقدر ظروفى فهو رجل مستتير ويعمل بالتدريس ، ولكنه رفض ان يقرضنى دانقا ولم يبدو لذلك سببا وجيها أو غير وجيه .

وجعلنى الفشل فى المحاولتين السابقتين شخصا ضائعا ، فاغرقت نفسى فى التدين الشديد . ولعل ظروف وفاة أبى ، ومواجهتى للحياة غضا بريئا ، وزواجى المبكر ، والعقبات التى واجهتنى فى سبيل تعليمى ، فضلا عن ظروف تنشئتى الاجتماعية وظروفى الاقتصادية ، جميعا ، أن دفعتنى الى مواجهة هذا الضياع بالهروب منه الى هذا التدين الشديد . وقد عزلنى هذا التدين

الشديد عن الحياة التى يعيشها عادة من كانوا فى مثل سننى . ولكنه فى الوقت نفسه أتاح لى الفرصة لكى أقرأ ولكى أكتب . ولم تكن قراءاتى . أو كتاباتى على الرغم من ضغوط جماعتى المرجعية (أعضاء الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالسنة المحمدية) التى كنت انتسب إليها فى ذلك الحين ، كلها ، دينية . فقد كنت أقرأ الكتب الدينية وغيرها من الكتب السياسية والادبية والفلسفية والتاريخية . وكنت أطلع المجالات العديدة سواء كانت دينية أو غير دينية ، على الرغم مما قد يوجد على صفحات بعضها من صور يعتبرها أعضاء جماعتى المرجعية عادة صورا خليعة .

وزادت قراءاتى وكتاباتى العديدة ، على الرغم من عدم انتظامها ، فى حبنى لطلب العلم وشغفى به . ولم أملك فى كل الأحوال فى ذلك الوقت الا أن أهتف من أعماقى صامتا ، أو أن أرفع صوتى فى دعواتى فى السجود أو بعد الصلاة صانحا مزمجرا أو مترنما بهذا الحب الذى كان يزداد على مر الأيام . كان يزداد الى درجة أننى كنت استقطع كل ماأحصل عليه من نقود شخصية لشراء الكتب والمجلات أو لاستئجار قراءتها . وبذلك كنت أضن على نفسى بالركوب انتقالا الى محل عملى وأذهب اليه على الرغم من بعد الشقة سائرا على الأقدام . وقد لاحظت فى ذلك الحين أن حبنى لطلب العلم وشغفى به يشاركنى فيه كثيرون من الزملاء والأصحاب . وكنا نجتمع لكى نخطط لطلب إباحة الانتساب للجامعة . نكتب عن ذلك فى الجرائد أحيانا ، أو نذهب أحيانا جماعات الى وزارة المعارف العمومية فى ذلك الحين طالبين مقابلة الوزير ونحن نصيح من أعماق الاعماق "نريد ان نتعلم" ! واذكر اننا نجحنا فى مقابلة أحد الوزراء فى إحدى المرات ، وتفاعلنا خيرا بهذه المقابلة ، ففى خلالها سمعت أذاننا لأول مرة من مسئول الوعد باباحة الانتساب للجامعة . ولكنه كان مجرد كلام فى كلام ، فلم يف أحد بإنجازه الا بعد أن شاب شعر رأسى .

وكننت قد بدأت الانتساب الى الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالسنة المحمدية وأنا مازلت فى الوكالة ، اى أننى لم أكن قد تركتها بعد لكى أتفرغ للدراسة ، اى عندما كان الأمام الجليل "محمود محمد خطاب السبكي" مازال على رأسها ، وكان يدعو دعوته منذ أن تأسست هذه الجمعية فى غرة المحرم مفتتح عام ١٢٣١ هـ (الموافق ١٢ من شهر ديسمبر عام ١٩١٢) حتى توفى فى الرابع عشر من ربيع الأول عام ١٢٥٢ هـ (الموافق يوم ٧ من شهر يوليو عام ١٩٣٣) . وكانت تتألف الجمعية من "أفراد جعلوا التعاون مبدأهم والعمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم دينهم" ، والاغراض التى كانوا يهدفون الى تحقيقها تتضمن نشر التعليم الصحيح لتتقطع حجة من ترك العمل بدينه بدعوى انه جاهل ، والتناصح والتواصل والحث على العمل وموالاة الوعظ من رجال يعرفون كيف يعظون حتى يموت التساهل والكسل عن العمل بهذا الدين الحنيف ، وإعانة من لايتمكن من العمل بحرفته التى يقات منها اذا كان ذلك بسبب عمله بالدين على ما جاء به السيد الامين صلى الله عليه وسلم لينقطع عذره فى عدم التمسك بما فيه سعادته دنيا وأخرى ، ثم تضامن كل من ينتسب الى الجمعية فى التعامل بحيث ينحصر تعاملهم فيما بينهم على حسب الامكان ليأمنوا من غش الأجانب وتطمئن قلوبهم للتعامل .

وقد كان من حظى السعيد آن عاصرت الأمام الشيخ محمود خطاب ، وأن أنهل من علمه الفياض ، وأستمع الى درسه فيما بين صلاة العصر وصلاة المغرب ، وبعد صلاة يوم الجمعة ، وفيما بين صلاة المغرب وصلاة العشاء من يوم الجمعة مرارا وتكرارا . ولن أنسى يوم الجمعة يوم ٧ من شهر يوليو ١٩٣٣ ، فقد كنا نصلى الجمعة فى مسجد الجمعية (عطفة الجوخدار بالمغربلين) ، وكان المسجد مزدحما كالعادة ، ولم أجد مكانا فى صحن المسجد أوفى طرقات البيت الذى يقع فى أحد أجزاء المسجد أو الحارة التى بجوار المسجد ، ولكنى وجدت مكانا فى المكان الذى يعلو صحن

المسجد . وصلى الحشد الهائل من الحاضرين صلاة الجمعة وكان
الامام كالعادة " الشيخ عبد الله العفيفى " . خطب الجمعة
كالمعتاد ، ثم صلى الجمعة كما هى عادته ، ذلك أن الامام الشيخ
محمود لم يكن يؤم المصلين ، وكان يصلى من وراء الشيخ عبد الله
فى الصف الأول مع غيره من المصلين . ولم يلاحظ أحد شيئا الا
عندما لم ير المصلون الكرسي الذى يتربع الامام الشيخ محمود
عليه فى صحن المسجد بعد الصلاة موجودا فى مكانه ، والا عندما
قام من بين المصلين الذين كنت معهم الامام الشيخ محمود أمرا
الشيخ عبد الله العفيفى بأن يلقى الدرس بدلا منه . وتوجس الناس
خيفة ولكن الحديث جرى بين الصفوف عن مرض الامام الشيخ
محمود ، ومن ثم فانه لم يتح للمصلين الفرصة لكى يسروا أو
تنشرح صدورهم حينما يرونه متربعا على كرسيه فى تلك الرقعة
البسيطة من الارض يحتف به حزب الله ! وجنود الله ! كأنما على
رءوسهم الطير . والامام الشيخ ينثر بينهم الدرر والجواهر من
عظاته البالغة ، ونصائحه الحكيمة بأسلوب واضح جلى تصل آثاره
الى النفوس قبل الرءوس ، فيهديها ويحييها ، وفى المجلس الحاشد
العالم وغيره فيأخذ كل بغيته وفوق مايتمنى . واننى أذكر أن الشيخ
عبد الله ألقى درسه وختمه بالدعاء بشفاء الامام الشيخ مما ألم به ،
وكان صوت المصلين بالدعاء من بعده يهز الأرض وما فوقها هذا
عنيفا . وخرج الناس الى بيتهم يسعون ، وخرجت معهم أسعى الى
بيتى . وفى منتصف الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم (يوم
الجمعة ١٤ من شهر ربيع الأول ١٣٥٢هـ الموافق يوم ٧ من شهر
يوليو عام ١٩٣٢م) ، لفظ الامام الشيخ آخر نفس من أنفاسه ،
وجاد بروحه الوثابة المتفانية فى نصرة الدين والسنة المطهرة ،
لايبتغى شهرة ولا أثره . وكنت فى بيتى عندما جاءنى صديق صباى
" محمد بدر " وأبلغنى هذا الخبر المشئوم . وقد علمت أن نبأ وفاة
الامام الشيخ عند مرديه كان مروعا ، وكانت المفاجعة اليمة ،
والكارثة عظمت ، والخسارة غير هينة . وقد وقع خبر وفاة الامام

الشيخ على وقع الصاعقة وكنت أتناول طعام الغداء مع أمي وزوجتي ولم أجد بدا الا أن أترك "الطبلية" التي كنت أجلس امامها ، والا أن أدخل حجرتي ، والا أن أبقى وحدي مفكرا متأملا . وتذكرت ماحدث لى قبل ذلك عندما مرضت ، وكنت نائما على السرير أتألم ، وعندما علم أعضاء جماعتي المرجعية جاءوا لزيارتي ، فحق المسلم ست منها " اذا مرض فعده " . وكان عدد من جاء منهم يملأ الحجرة ، وربما كانوا عشرة أشخاص ، وربما كانوا أقل من ذلك . وكنت فى ذلك الحين فى حاجة الى الطبيب ولكنى كنت عاجزا عن احضار الطبيب لضيق ذات يدى . ولم يفكر أحدهم فى أن يحضر لى طبيبا أو حتى يسأل ان كان الطبيب عادنى أو لم يفعل . ولكنهم رفعوا أيديهم الى سقف الحجرة ودعوا لى وكان دعاؤهم صاخبا ، وقالوا وكانهم شخص واحد .

" نسال الله الكريم رب العرش العظيم أن يشفيك "

قالوا هذا الدعاء ثلاث مرات ، ثم انصرفوا ، وكل واحد منهم عن نفسه راض . وتركونى وحدى نائما على السرير أتألم . تذكرت هذه الواقعة عندما تداعت أفكارى وأنا فى الحجرة وحدى ، وجاءت صورة الشيخ عبد الله العفيفى وهو يدعو للامام الشيخ بالشفاء وكان صوت المصلين بالدعاء من بعده يهز الأرض وما فوقها هذا عنيفا . ولكن الامام الشيخ على الرغم من ذلك بعد مرور ساعة من الزمان لفظ آخر نفس من أنفاسه .

وبعد تعيينى فى الوظيفة " الحكومية " ازداد اغراقى فى التدين ازديادا كبيرا . لقد كان فضل الله على عظيما . ألم ييسر لى موردا شريفا لرزقى ورزق عيالى ؟ وكما ازداد اغراقى فى التدين ازدادت أوجه نشاطاتى فى الجمعية " الكبيرة " وفى قرعها بحى السيدة عائشة النبوية . الذى اشتركت فى تأسيسه فى عام ١٩٢٤ وأنا طالب بمدرسة الثانوية الليلية لأزال . وتأكد هذا الاغراق فى التدين عندما عازمت على أن أحف شاربى وأعفى لحيتى أسوة بالنبى محمد عليه الصلاة والسلام . وقد نفذت هذا العزم فعلا .

ولم أبه لأحد فى العائلة أو فى الحنة أو حتى فى مصلحة الحدود
التي أعمل فيها منذ شهر نوفمبر ١٩٢٥ .

ولا يمكن أن أنسى يوم أن ذهبت الى هذه المصلحة لأعمل بها
فهو اليوم الذى أصبحت فيه أمام الجميع بصفة رسمية " أفنديا "
أو أصبحت فيه كما كان يقول أهل الحنة " موظف فى الميرى "
أو " موظف فى الرزمانة " أى أننى أصبحت أعمل فى الحكومة
ومن ثم فأننا الحكومة أو جزء من الحكومة . أصبح لى منذ ذلك اليوم
دور اجتماعى جديد ومكانة اجتماعية جديدة . وقد ظن بعضهم ،
وكان هذا الظن بعيدا جدا عن الحقيقة ، أننى ماتركت الوكالة الا
لكى أكون موظفا . ولم يدر بخلد هؤلاء أن هدفى كان غير ذلك ، وأن
هذا الهدف هو أن أحقق حلم أبى فى مواصلة التعليم الذى أصبح
فى ضوء ممارسة الحياة حلمى أنا أيضا . ذهبت الى الديوان العام
وكان يقع فى نفس مبنى وزارة الحربية بجوار مبنى " ضريح سعد
زغلول " ، وقابلنى المختصون وأمرنى أحدهم وكان يسمى " فؤاد
بك " أن أذهب مع أحد الأفندية ، الذى ناداه تليفونيا ليحضر
لمقابلته ، الى حيث أعمل . كان هذا الأفندى رئيسى " محمود
بهنسى " ، وكان المحل الذى اختير لى لأعمل فيه " قلم أرشيف
المصلحة " . ولم أكن أعرف ماهو عمل هذا الأرشيف ، ولم أكن
أعرف أحدا فى المكان الذى ذهبت اليه ، ولا أحدا فى المصلحة
كلها . واتخذت مقعدا قبل لى إنه مقعدى ، وكان بجوار " زكى
أفندى " ، ولم يكن معنا محمود بهنسى وزكى أفندى أحد سوى
" الفولى أفندى " و " سليمان أفندى " الذى وجدته عندما دخلت
المكان منهمكا فى ترتيب ملفات مرصوفة على احدى
" الترابيزات " . وكان استقبال الحاضرين لى فاترا ، ولم أكرت
كثيرا ولا قليلا لهذا الاستقبال الفاتر . ولكنى أحسست كأننى حيوان
وضعت فى قفص من قضبان من حديد لأراها ولكنى أحسها .
وبدا محمود بهنسى أوامره يمينا وشمالا ، وتركنى فترة من الوقت
ولم يبد لى أى اكتراث . ثم حاول أن يضعنى تحت الاختبار فسالنى

باللغة الانجليزية عن شهادتى التى حصلت عليها وعما إذا كنت اتقن اللغة الانجليزية ، فالمصلحة مصلحة الانجليز ، وردت عليه بنفس اللغة ، وكنت خجلان وأنا أرد ، ولكنى أحسست بالمرارة عندما قال لى أمام السادة الحاضرين أن المصلحة هى مصلحة الانجليز . ولم أكن أعلم ذلك ، ولكنى عندما علمت أصبت بالغثيان ، وتذكرت أننى سأعيش مع الانجليز تحت سقف واحد ، وكنت فى حثتنا أراهم من بعيد وهم يذهبون الى القلعة . حيث يوجدون ويعيشون فيها ، وهم يبرحونها الى حيث يذهبون لقضاء أوقات فراغهم أو لاداء مهمة من المهمات التى يؤمرون بتنفيذها وعندما يعودون اليها . كان الانجليز الذين أراهم فى حثتنا من العساكر فى أغلب الأحيان . أما انجليز مصلحة الحدود فقد بدا لى من لهجة رئيسى محمود بهنسى أنهم أعلى من ذلك رتبة ، وقد عرفت منهم بعد ذلك " هاتون بك " و " جرين بك " وكان الواحد منهما له صلاحيات عديدة . وكان الأمر الذى يصدره يسرى على جميع من فى المصلحة ومنهم المدير نفسه . بل كانت رغبة الواحد منهما فى حقيقة الأمر أمرا واجب التنفيذ . وقد سمعت عن " باركر " الامبراطور غير المتوج لمحافظة سيناء ، كما سمعت عن " همرسلى " ملك الصحراء الغربية غير المتوج . ولكنى لم أر أيهما . سمعت عنهما الروايات العديدة التى أكدت لى أن مصر فى الواقع كانت وكأنها تحكم من مصلحة الحدود . وسمعت من محمود بهنسى عن حفل وداع باركر عندما قام الأول فى الحاضرين خطيبا وختم حديثه بقوله " ان باركر هو سيناء وأن سيناء هى باركر " . كانت خطبته باللغة الانجليزية . وكان هذا الرجل وغيره يفاخر باتقانه الحديث بهذه اللغة . وكان اتقان هذه اللغة فى مصلحة الحدود فى ضوء ظروف ادارتها يعتبر جوازا للترقيات ونوال الحظوة عند السادة الانجليز أمثال هاتون وجرين وباركر وهمرسلى وغيرهم ممن لا أعرفهم ولم أعرفهم .

ولم يكن الانجليز وحدهم هم عمد مصلحة الحدود عندما عينت

بها فى غضون شهر نوفمبر عام ١٩٣٥ ، فقد كان تحت إمرة هؤلاء العدد الأكبر من موظفى المصلحة من المصريين "الاقباط" والمتصرين من "الشوام" . ولم يكن بينى وبين هؤلاء الا علاقات العمل ، لم يصادقنى أحد ولم أصادق احدا . ولكنى كنت اكن لبعضهم الاحترام الانسانى ، وكان بعضهم لايتصور وجودى بينهم . وذلك لانهم عرفوا اننى شخص متدين . وكنت عندما اعمل فانا مجد فى عملى ، وعملى فى الارشيف كان قليلا . وعندما كنت لا اعمل فاننى اتمتع فى سرى بذكر بعض آيات من القرآن الكريم أو بأحد أسماء الله الحسنى . فيرانى من حولى ومن يأتون الى الارشيف فى طلب ملفات أو لقضاء عمل رسمى معين ، فمنهم من يحترم عزلتى وهجرتى الى الله ، ومنهم من لا يابى بى ، ومنهم من كان يسخر . وكان أول الساخرين عادة هو محمود بهنسى رئيسى . اننى فى مصلحة الحدود عرفت لأول مرة فى حياتى كيف يكون شعور عضو الأقلية المستضعفة . فقد كانت المصلحة فى الأعياد المسيحية خاوية على عروشها الا من سعاة المصلحة ومن حفنة من الموظفين يعدون على أصابع اليد الواحدة . ولأول مرة عرفت أن هذه الأعياد لم تكن فقط أعياد "غطاس" و "شم النسيم" و "سبت النور" التى كنت أمارسها كمصرى ، ولكن كانت هناك أعياد أخرى مثل "أحد السعف" و "خميس العهد" و "عيد القيامة" و "عيد الميلاد المجيد" وغيرها وغيرها . وكان صباح كل يوم أحد شاهدا على وجود أعضاء الأقلية المسلمة ، وفى هذا اليوم يحضر الموظفون غير هؤلاء الأعضاء بعد الموعد المحدد بفترة طويلة يقترض فيها أنهم كانوا يصلون فى كنائسهم . والملاحظ أن أعضاء الأقلية فى المصلحة كانوا كذلك فى داخلها ، وهم من أعضاء الأغلبية فى خارجها . أى أنه كان يوجد نوع من الازدواجية . على عكس الاقليات العادية أو الأغليات العادية . ومع ذلك فالأقلية ليس من الضرورى أن تكون مستضعفة . فالأقلية فى جنوب افريقيا مثلا هى المتسلطة والأغلبية من المواطنين الأفريقيين هم المستضعفين . ومن ثم فاننى لم أصطدم كثيرا بما رأيت وبمن

رأيت ، وتعايشت سلميا مع الجميع . واستمر الحال على هذا المنوال حتى عرف بعضهم أننى متزوج . فكنت الأعجوبة عند الجميع . فانا ما زلت فى نظرهم فى عمر الزهور فكيف أتزوج والواحد منهم لم يكن ليتزوج حتى يبلغ الثلاثين أو أكثر من الثلاثين الى الأربعين من عمره . ومنهم من لم يتزوج عن عمد لأنه رأى أن ينتظر حتى تتزوج اخواته البنات أولا ، فاذا تم ذلك فقد يفكر فى الزواج اذا كانت حالته العمرية وحالته الصحية وحالته النفسية تسمح بهذا الزواج . ولهذا كنت أعجوبة الجميع . ولم يكن يعرف أحد منهم أن زواجى كان قد تم قبل التحاقى بالمصلحة بثلاث سنوات . ولست أدري ما الذى كان يدور بخلدكم أو ماذا قد يكون تصرفهم معى لو أنهم عرفوا ذلك أو عرفوا اننى أنجبت ابنا ؟

وعشت فى مصلحة الحدود وأنا عضو فى جماعة الأقلية فى داخلها فترة بلغت سنوات ، أى حتى يوم ٢٠ من شهر مايو عام ١٩٣٩ ، عندما استقلت لأعمل "بمؤسسة الزفاف الملكى" . وسارت الحياة فى المصلحة على وتيرة واحدة تقريبا حتى حدثت بعض الأمور ، منها انتقالى من الأرشيف الى "قسم التوريدات" ، والتحاقى بمدرسة الخدمة الاجتماعية ثم استقالتى من المصلحة بعد ذلك .

وعوامل انتقالى الى قسم التوريدات عديدة ، منها ازدياد سخريه محمود بهنسى لى وبخاصة عندما قررت فى عام ١٩٣٦ أن "أحف شاربى وأن أعفى لحيتى" امتثالا لما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم . لقد زادت عزلتى عندما حدث ذلك ، ولم أبه لذلك أبدا بل على العكس وجدت الوقت الكافى وأنا أعمل لكى أكون مع ربى ومع أفكارى وأعيش أحلم بأمالى ، وأحاول أن أنظر الى امام ، فالمستقبل كما كنت أعتقد سيكون بالضرورة زاهرا . ولكن هذه العزلة لم ترق لمحمود بهنسى . فهو يرى كرئيس انه اذا اطلق احدى نكاته مثلا لابد ان يضحك الجميع ، وكانوا يضحكون الا

أنا . وهو يرى انه اذا ماتحدث بسبب أو من غير سبب عن مغامراته النسائية أو عن ليايله الحمراء لابد أن ينصت الجميع الى حديثه ، وكانوا يفعلون ذلك الا أنا . لم أكن أعامل هذا الرجل الا بالجد فى عملى ، وكنت ارى انه يجب أن لايتوقع منى الا أداء هذا العمل . ان مجون هذا الرجل لم يكن محببا الى نفسى ، ولى عذرى . وكانت تصرفاته تنقصها الحكمة والروية ولاتدل على ذكاء كبير . انه يتقن الحديث باللغة الانجليزية هذا صحيح ولكن هذا الاتقان وحده لايمكن فى نظرى فى ذلك الحين وحتى كتابة هذه السطور أن يصنع شخصية تستحق الاحترام والتقدير . انه كان كرئيس يطلب "بالامر" هذا الاحترام من رؤوسية وانا منهم . وأنى له ذلك وانا كنت من أنا وهو كان من كان . لايعلم هذا الرجل ولم يكن يعلم أننى وانا فى الوكالة كنت سيد نفسى ، وأن أدوارى الاجتماعية كانت عديدة وكانت تستحق تقدير من حولى . ومهما يكن فان علمه بذلك كان لايعيننى وربما كان لايعنيه أيضا لأنه كان لايعير من موقفى منه أو من موقفه منى شيئا . ومهما يكن من الأمر فى صبيحة يوم ١٩ من شهر مايو عام ١٩٣٧ ، وأنا أكتب الآن من مذكراتى ، ذهبت الى المصلحة كالمعتاد . وعندما حاولت الدخول فى قلم الارشيف فاجأنى محمود بهنسى رئيس القلم باتهامى بعدم اهتمامى باستكمال عمل أعطاه لى بالأمس ، وكان جافا جدا وهو يقذف بهذا الاتهام فى وجهى قبل أن أجلس على مقعدى ، بل قبل أن ألقى تحية الصباح على الحاضرين . والحق انه لم يعطينى عملا ، ومن ثم فانا لم أهمل فى عمل . ولم أرد عليه . ولكنه استمر يتحدث وبدأ صوته يعلو . وزادت حدته ، ثم بدأ يسخر منى ، فأنا فى نظره شخص أعيش فى ضباب الاوراد وأتمم بآيات الذكر الحكيم وأنا كالتائه ولا أبه بعملى . وفجأة وجدت نفسى أترك المكان خارجا من قلم الارشيف بل من المصلحة كلها خرجت لالوى على شىء . ومشيت ومشيت حتى وجدتني أمام كوبرى قصر النيل . وسعدت بالهواء المنعش فى هذا المكان ، فقد انعشنى وهدأ من روعى ،

ويسر لى أن أفكر فيما حدث وفيما سيحدث . ولكنى كنت على الله جل وسما متوكلا . ولم أخش شيئا ولا أحدا . فلى الله ولأمى وزوجى ولأبنى أحمد وابنتى أمال ، التى لم تكن تبلغ السنة الاولى من عمرها . انه جل شأنه لن يضيعنا . فالرزق أولا وأخيرا عليه ولا يمكن أن يكون على محمود بهنسى أو على مصلحة الحدود . وكان شعارى الذى كنت أتخذه فى ذلك الحين ، وكنت أترنم به بصوت مرتفع أحيانا أو أترنم به صامتا أحيانا أخرى "ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين" . وانتظرت فى مكانى حتى حان الوقت المعتاد لانصراف موظفى الحكومة الى منازلهم ، ثم عدت الى المنزل مستريح البال ونفسى راضية فقد أعددت خطتى للفرار من بيئة الوظيفة الحكومية الملوثة .

وعندما عدت الى المنزل فوجئت بأن أمى قد علمت بما حدث . ذلك لأن محمود بهنسى أرسل بعد خروجى من المصلحة أحد فراشى المصلحة ليعرف مصيرى . وجاء الفراش الى المنزل ، وذكر لأمى وكانت معها أم على زينب زوجة عمى محمود شقيق أبى ، كل ماحدث بينى وبين محمود بهنسى . وبدا لى عندما رأتنى أمى عائدا أن نفسها قد استقرت بعد ان كانت غير مستقرة . أن اهم ما كان يشغل أمى ليس ماحدث بينى وبين محمود بهنسى بل ماحدث لى . كان همها الأكبر أن تعرف أين ذهبت ؟ وكانت تقول وكأنها تولول "ياترى رحت فىن ياسيد ؟" أو كانت تقول "ربنا معاك ياابنى" . وقد عرفت ذلك من زوجتى فيما بعد . عرفت الحال التى صارت اليها أمى . ولم أكن أتوقع ذلك ابدا . ولكن ما أن رأتنى أمامها حتى عاد اليها استقرارها النفسى وحل هذا الاستقرار محل البلبلة التى كانت تنهش أحشاءها . وتركت وحيدا فترة من الوقت حتى تناولت طعام الغداء ، ثم استوتحت فترة من الوقت . وبعد صلاة المغرب رأيت زوجة عمى شقيق أبى أم على زينب أمامى . جاءت تتحدث معى فيما حدث . وكان حديثا طويلا . وانتهى الحديث بوعده منى بأن أعود الى المصلحة صباح اليوم التالى وكأن ماحدث

لم يحدث . وقد قبلت أن أعطى هذا الوعد من أجل أمى التى ما فتئت تذكرنى بما كان من أمرنا قبل الالتحاق بالوظيفة الحكومية ، وبالعلم الذى أردت ومازلت أريد تحقيقه ، حلم أبى الذى صار حلمى ، والذى كما يبدو صار حلمها أيضا ، وهو أن أستكمل تعليمى العالى ، وإذا اتاحت لى الفرصة للسفر الى الخارج فانى سأفعل . وكانت دعواتها لى الى الله أن "يهدى نفسى" وأن "يحقق آمالى" وأن ... وأن ... تترى من فيها وكأنها السيل المتدفق . وإذا أنظر الى قسما ت وجهها الذى فعل بها الزمن بغير آوان مافعل ، وهى تقول ما قالت ، وتدعو لى مادعت ، كان فؤادى جزعا أو يكاد . وهان على كل شىء . وحتى كرامتى التى أعيش من أجلها لكى أرفعها . فوق الهامات ، أمام مافعلته أمى ، تخليت عنها ولو الى حين . وقبلت أن أعطى الوعد بعودتى الى المصلحة صباح اليوم التالى وكأن ما حدث لم يحدث .

وجاء صباح اليوم التالى ، واستيقظت كالمعتاد ، واننى أذكر اننى عندما خرجت من باب المنزل فى طريقى الى مصلحة الحدود أحسست بأن جبال الدنيا حطت فوق رأسى وأن رمال صحراوات الدنيا عثت فى أكياس مربوطة فى قدمى . كنت أخطونحو الطريق الى المصلحة خطوة وأعود راجعا خطوات ، وسرت فى طريقى محملا بالاثقال المعنوية فى رأسى وفى قدمى حتى وصلت ، ووجدت موظفى المصلحة واقفين أمامى ومن حولى وكأنهم ينتظروننى . وألقيت تحية الصباح عليهم جميعا ، على من أعرف ومن لأعرف . وسمعت همهمات وهمسات ، وذهبت حيث يقع قلم الأرشيف ووجدت أمامى "حسن" الفراش الذى ذهب الى بيتى بالأمس ، وفى اقتضاب ذكرلى وقائع مافعل . وكان وهويتحدث لى بىدى الأسف على ما حدث . كان عطوفا ولم يكن عاطفيا . وعندما جلست على مقعدى لم يلتفت لى أحد ، ولاحظت غياب رئيس القلم . لم تمر دقائق معدودات على وجودى حتى جاءنى صول المصلحة "حافظ أفندى اسماعيل" يطلب منى الذهاب الى

"سيادة" مدير الادارة "فؤاد بك" الذى كان يوما من الأيام "ادوارد بك" وغير الأسم الى "أحمد فؤاد" تينما باسم "صاحب الجلالة الملك أحمد فؤاد" عندما اضطر الى اعتناق الدين الاسلامى لزوجاه من سيدة مسلمة . وذهبت الى فؤاد بك ، وكان معه "حماية بك" وكيل الادارة . وكان لكل واحد منهما مكتب فى نفس الغرفة . وعندما رآنى فؤاد بك بادرنى بشراسة سائلا عما حدث بالامس ، فذكرت له بكل صدق ماحدث ولم يعقب على ماقلته . ثم مالبت أن أصدر "فرمان" بأن أترك "قلم الأرشيف" وأذهب "قلم التوريدات" وطلب منى أن أذهب مع أحد الأشخاص الذين كان واقفا فى الحجرة ليرينى موقع عملى الجديد . وعرفت فيما بعد أن هذا الشخص هو "دانيال افندى برسوم" رئيس القلم الجديد . وتنفست الصعداء للتغيير الجديد . ووجدت أن قلم التوريدات يقع فى مبنى خاص ويعمل به دانيال افندى وكان فى نفس الدرجة الكتابية التى كنت أشغلها ويعاونه جرجس وفؤاد وعلى من العمال . ومرت الأيام .. ثمانية أيام ، وظننت ان الأمر انتهى الى هذا الحد ، وان ماحدث بينى وبين بهنسى أفندى كأنه لم يحدث . وكنت فى هذا الظن ساذجا غاية فى السذاجة . ففى اليوم الثامن أى فى يوم ٢٧ من شهر مايو عام ١٩٣٧ ، الموافق يوم ١٧ من شهر ربيع الأول عام ١٣٥٦هـ ، تسلمت خطابا مرسلا الى من السيد اللواء المدير العام "عبد المجيد فؤاد" ، وأرسلت صورة منه لصاحب العزة مدير الادارة أى فؤاد بك أو ادوارد بك (سابقا) . وكان نص هذا الخطاب كما يلى :

وزارة الحربية
مصلحة الحدود

مضمون هذه المكاتبة

قلم المستخدمين مجازاة سيد أفندى عويس

بثلاثة أيام قطع مهية

القاهرة فى ٢٧ مايو سنة ١٩٢٧

حضرة سيد افندى عويس محمد

المستخدم من الدرجة الثامنة موقت بقلم الأرشيف

بقسم الادارة بمركز رياسة المصلحة بالقاهرة

نظرا لخروجكم من المكتب الرسمى يوم ١٩/٥/١٩٢٧ بدون

اذن وعدم اطاعة أوامر رئيسكم المباشر - كذلك لاتهامكم

رئيسكم باطلا بأنه سبكم علنا قد قررنا مجازاتكم بخصم

ثلاثة أيام من ماهيتكم .

وهذا لمعلوماتكم . ،،،

لواء

عبدالمجيد فؤاد

(المدير العام)

أرسلت صورة لصاحب العزة مدير الادارة للمعلومية .

ولم يشغلنى هذا الخطاب كثيرا . وقد أكد لى أن بيئة الوظيفة
التي أشغلها بيئة ملوثة بالكذب والملق والنفاق . أى أنها هى
الجانى الحقيقى فى هذه المأساة . ولم يعزىنى ما علمت بعد ذلك
بأن حماية بك الذى كان يرى وجوب التحقيق فيما حدث قبل أن
يوقع العقاب علىّ ، تمثل ب "بيلاطس" النبطى الوالى عندما حرض
رؤساء الكهنة والشيوخ الجموع على أن يطلبوا منه اطلاق سراح
"باراباس" و صلب السيد المسيح ، قائلا " اننى أغسل يدي من دم
هذا الشاب " ، ثم تتم سيادته قائلا :

" فلما رأى بيلاطس انه لاينفع شيئا بل بالحرى يحدث شغب
أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلا أنى برىء من دم هذا
البار . ابصروا أنتم" . (مت ٢٧ : ٢٤)

ولعل ماحدث حتى الآن أمر كان يجب أن أتوقعه ، فقد جعلنى أقف لحظات أمام نفسى لا لأحاسبها بل لأتحدث معها وأتركها تتحدث معى . اننى منذ أن توفى الامام الشيخ محمود خطاب فى شهر يوليو عام ١٩٣٢ ، بل قبل ذلك وأنا أعيش حياة العزلة النسبية عن المجتمع المصرى وماكان يدور فيه من أحداث جسام . كنت فى العشرين من عمري . وقد وجدت الكثيرين غيرى فى ضوء الظروف الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى كنا نعيشها جميعا ، يهتمون معى اهتماما بالغا بالأمور الدينية أكثر من اهتمامنا بالأمور العامة أو بالأمور الشخصية . ولعل ذلك كان يرجع أول مايرجع الى الاحباطات التى كان يواجهها أعضاء جيلنا . ولعل أهم عوامل وجود هذا الاحباطات مابدا لنا ، بوعى أو من غير وعى ، من فشل ثورة عام ١٩١٩ الذى قتل بدوره فينا الميل الى تحقيق الأهداف الايجابية الذى كنا نتوقعه من نجاح تلك الثورة . ومن ثم كنا نتعلم ونمارس مانتعلمه بهدف تحقيق النجاة فى الحياة الآخرة ، حيث نستظل بظل العرش يوم لاظل الا ظله كشباب نشأنا فى طاعة الله جل وعلا . أى أنه على الرغم من سن الشباب التى كنا نجتازها ، فقد كانت الدنيا عندنا لاقيمة لها فهى عند الله الكريم المتعال لاتساوى جناح بعوضة . وعلى الرغم مما كانت تعانى منه مصرنا الخالدة من ألوان الظلم والعنف والطغيان والاستغلال المشين التى تصدر عن المستعمر أو تصدر عن بعض ابنائها ، فضلا عما كانت تعانيه ، بسبب ذلك من المشاكل الثقافية والاجتماعية والاقتصادية الرهيبة التى كانت تنهش كيانهنا نهشا وتوهن هذا الكيان وتهده هدا - كنا لانأبه قليلا أو كثيرا بمحاولة تغيير هذا الواقع الأليم الى الأفضل . وكانت حجتنا على ذلك ان الملايين من المصريين فى ذلك الحين قد استحقوا ماهم فيه لأنهم قد فسدوا وأفسدوا وحادوا عن السبيل السوية . وقد بدت هذه الحجة مقنعة لنا على الرغم من الضياع الذى كان يعيشه هؤلاء الملايين سواء كانوا أطفالا أو أحداثا أو شبابا أو نساء أو رجالا . لم يدر بخلدنا فى ذلك الحين أنه اذا صلح المجتمع صلح أعضاؤه

، وان الحياة الفاضلة هي نتاج المجتمع الفاضل ، المجتمع الذى لا يوجد فيه ظلم واستغلال والذى لا يوجد فيه فقر وجهل ومرض . لم يدر بخلدنا فى ذلك الحين أن العدالة كانت مفهوما قد صاغه المصريون لأول مرة منذ آلاف السنين وعاشوا به ومن أجله منذ أقدم العصور . وان العدالة كمفهوم قد صدرتها مصرنا الخالدة الى العالم بأسره منذ بدأ ضمير هذا العالم فى التكوين . وان الفضل هو فضل "من يتخذ العدالة نبراسا له فينهج نهجا" (بتاج حتب ٢٧ق م) وان العدالة "خالدة الذكرى فهي تنزل مع من يقيمها القبر ولكن اسمه لايمحى من الأرض" (الفلاح الفصيح ١٠ ق م) ، وانه " هكذا قال الرب ، احفظوا الحق وأجروا العدل . قريب مجيء خلاصى واستعلان برى " (أش ٥٦ . ١) ، وان الرب ' يقضى بالعدل للمساكين ويحكم بالانصاف لبائسى الأرض ، ويضرب الأرض بقضيب فمه ويميت المنافق بنفخة شفثيه " (أش ١١ : ٤) ، وانه " واذا حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نِعِمًا يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا " (٤م النساء : ٥٨) و " ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون " (١٦ك النحل : ٩٠)

لم يدر بخلدنا كل ذلك . ولم يدر بخلدنا كذلك اننا جزء من الحياة الفاسدة التى كان يواجهها المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، وانها فاسدة لأننا نحن لانعمل على اصلاحها بما فى وسعنا من جهد ، وان صلاح اعضاء المجتمع لايكفى وحده لاصلاح المجتمع بل ان صلاح المجتمع ضرورى كذلك لاصلاح اعضاء المجتمع . وكنت أنا ومن نحا نحوى من شباب الجمعية الشرعية معذورين ، كنا ونحن الذين صنعت وجدانهم ثورة عام ١٩١٩ مكتوفى الأيدي مكبلى العقول . وبدا لنا نحن الذين كنا نهتف بسقوط الانجليز ونهتف بحياة مصر ونسمع الهتافات التى تؤكد ضرورة الخلاص من المستعمر الغاشم فى طفولتنا وفى فترة الصبى وفى فترة

الشباب التي نعيشها أنه قد كتب علينا أن نمحو كل ذلك من الذاكرة . فالجمعية الشرعية كانت ترى وهي تؤهل وعاظها وتقدمهم الى المجتمع دعاة لها أن يكون الواحد منهم " من المكانة الأخلاقية والعلمية مايؤهله لأن يجوب فدافد الأرض شرقا وغربا وجنوبا وشمالا يعظ المسلمين ، ويرشد الحائرين ، ويذب عن دين الله شبه الضالين والمارقين " . وهي إذ تسند هذا المنصب السامى اليه مع علمها بخطورته ووعورة مسالكه ترجو منه أن يتقى الله فيها وفي نفسه وفي المسلمين . فقد أصبح أمينا على دين الله ، مالكا زمام من يرشدهم ويقودهم الى حيث يريد . فجننتهم ونارهم بين لحييه . فيجب اذا أن يجعل مركزه فوق مركز الطبيب الحاذق الذى يعطى من الأدوية لكل مريض مايناسبه بمقادير خاصة لاينقص ولايزيد عليها شيئا . وان الجمعية إذ تبيح له أن يغدو ويروح فى تعليمه ، واضعا نصب عينيه إفادة المسلمين ، فعليه أن يبتدىء بغرس العقائد فى نفوس من يباشر تعليمهم ، مراعىا مذهب أهل السنة والجماعة ، بعيدا عن المشاغبات الكلامية والبراهين المنطقية لصعوبتها على أفكار العامة من الناس . ثم يقوم بعد ذلك بتعليم مالايد منه من أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج ، ثم يتبع هذا نهيههم عما هو فاش فى البلاد من المنكرات كترك أركان الاسلام وكالربا والزنا وشرب الخمر والقتل وتعاطى كل مسكر من الأنبذة والحشيش والمنازيل ، كما ينهاهم أيضا عن السرقة والغش والايمان الفاجرة والنميمة والغيبة وسم البهائم وشق بطونها وحرق المزروعات وتقليعها ، والحسد والحقد والكبر والعجب والمرء ... وعلى واعظ الجمعية أن يعلم الناس لباس النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم وأكله وشربه وغير ذلك من كل خلق نبوى يتعلق بعبادة أو عبادة . على أن يمنحهم منه مايطيقون ، ثم ينحدر الى ما يخالف ذلك من البدع فينبه عليه حاثا على اجتنابهم إياها ، اقتداء بنبيهم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، وحبا فى آداب نبينهم وبغضا لما سواه بعبارة يفهمها العام والخاص يصحبها

التأني فان في الناس الغبي والذكي .

كل ذلك وواعظ الجمعية يجب أن يكون رحب الصدر ، حلو اللسان ، طلق الوجه ، أزهد الناس وأبعدهم عن الفحش في القول ، يسع السفية والجاهل والمتعنت جاعلا محوره الذى يدور حوله الكلام ، قوله تعالى على لسان سيدنا لقمان عليه السلام إذ يقول لابنه " وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك ان ذلك من عزم الأمور " (٣١ ك لقمان : ١٧) ، وقوله تعالى " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن " (١٦ ك لقمان : ١٧) ، ثم تحذر الجمعية واعظها قائلة . " اياك ثم اياك أن يخطر ببالك أن تتكلم فى موضوع سياسى ، فان ذلك ليس من شأنك . وحسبنا فى ذلك حكومتنا السنية (حفظها الله وقواها) . ومعلوم أن الدين دين الله ، والهداية لدينه بيده لايملكها سواه . وليس علينا سوى أن نعرف والحمل على الأمور والتعب لتنفيذها خارج عن الواجب علينا . فلانتعرض له فمن سمع وعمل فالخير أراد لنفسه . ومن أعرض عنا وتركنا ومانأمر به فالخير أردنا ، وماعلينا الا البلاغ اتباعا لسيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ، ووقوفا على ماخده الله إذ يقول : " ان عليك الا البلاغ " (٤٢ ك الشورى : ٤٨) .

وبالاضافة الى ذلك فانه كان من تعاليم الجمعية الشرعية أن يتعاهد معها المنتسب اليها عهدا وثيقا يسلك عن طريقه أحسن طريق الى الهداية الرشيدة . ومن ذلك فانه لابد له فى كل أربع وعشرين ساعة من مجلس مخصوص فى الليل أو النهار ، والليل أولى ، بعد فراغه من الشواغل ، وذلك بأن يتوضأ إن أمكن ويصلى من النفل مايشاء واذا كانت عليه فوائت فانه يصلى منها بدلا عن النفل لأن فعل الفرض مقدم على فعل النفل . ثم عليه أن يستقبل القبلة إن أمكن ويقرأ ماتيسر من القرآن كالفاتحة وسورة تبارك الملك ان كان حافظا لها وسورة الكافرون ، ثم يستغفر الله بأى

صيغة مائة مرة أو أكثر ، ثم يجدد التوبة ويندم على ما فعل من المخالفات ويحاسب نفسه على ذلك محاسبة حقيقية شديدة كأنها طفل بين يديه يريد تربيته وزجره بكل ما يقدر عليه ، بمعنى أنه يذكر لها كل ما وقع منها طول النهار من المخالفات والتفريط والكسل وغير ذلك ، ويذكر له العذاب الذى جعله الله تعالى للعاصين والثواب الذى أعدّه تعالى للطائعين ، ومن ثم يحكم عليها أن تقبل على العبادة فى تلك الليلة بقدر ما ارتكب من المعاصى أو أزيد إذ الحسنات تكفر السيئات . والمحاسبة المذكورة من أهم الأمور المطلوبة . ثم صلى المنتسب الى الجمعية وسلم على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأى صيغة مائة مرة فأزيد ويتبغى الاكثار ليلة الجمعة . ثم عليه أن يتجرد من الشواغل الدنيوية كلها إن أمكن أو بقدر ما يمكن لأنه يريد الدخول فى حضرة الرب التى هى كناية عن الاقبال التام على الله عز وجل والاعراض عن كل ماسواه حتى عن نفسه ، ويكون جالسا فى مكان طاهر مظلم مطيب بالروائح الزكية كأنه يجلس للصلاة واضعا يديه على فخذه مغمضا عينيه عما يشغل لأنه بتغميض العينين تنسد طرق الحواس الظاهرة ، وسدها يكون سببا لفتح حواس القلب . ويكون لابسا لثياب بيض حلال مطيبات الروائح البهية والفم والبدن مبعدا الروائح الكريهة لأن الروحانيين لا يقبلون الروائح الكريهة وانقطاعهم عن مجلس الذكر علامة على انقطاع الخير . ثم يذكر فى الاسم الذى أذن الشيخ له فيه (ويكون هذا الشيخ الامام نفسه أو احد وعاظ الجمعية المقربين الى الشيخ الامام) بهمة تامة مستحضرا معنى ذلك الاسم فى قلبه حتى كأن قلبه هو الذاكر وهو يسمعه ، متباعدة عن تحريف الاسماء كما هو الواقع من أغبياء جهلة متصوفة الزمان حيث يخرجون فيما يسمونه ذكرا عن صريح كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ويحرفون تحريفا يؤدى الى الكفر والعياذ بالله تعالى ان لم يكن كفرا صريحا ، ولا يقبلون النصيحة ممن ينصحهم لاستحواذ الشيطان عليهم ... ولا يهتم

الذاكر حتى يحصل له نوع من الاستغراق بأن يحس من نفسه بحلاوة الذكر ويحصل له شوق وهيمان . ثم اذا ختم سكن واستحضر الذكر باجرائه على قلبه مترقبا لوارد الذكر فلعله يرد على القلب وارد ينشأ فى اللحظة من الثمرة مالم ينشأ عن مجاهدة نحو ثلاثين سنة . وهذه الوارد إما وارد زهد أو روع أو تحمل أذى أو محبة أو نحو ذلك ، تاركا للواردات الدينوية حابسا نفسه اذ ذاك ثلاث مرات أو خمسا أو سبعا هكذا بالافراد ، فلهذا السكينة ثلاثة آداب : مراقبة الله تعالى كأن الذاكر بين يديه ، وجمع حواسه بحيث لا تتحرك منه شعرة كحال الهر عند اصطياد الفأر ، وحبس نفسه مرارا حتى يدور وارد الذكر فى جميع عوالمه ويجرى على قلبه معنى الله . وعلى الذاكر أن يكف عن شرب الماء فى أثناء الذكر وبعد الفراغ منه ، لان للذكر حرارة تجلب الانوار والتجليات والواردات الجلية وشرب الماء ربما أضعف تلك الحرارة . وأقل ذلك أن يصبر الذاكر نصف ساعة فلكية ، وكلما كثر كان احسن . بل ان الذاكر الصادق لا يكاد يشرب الا عن ضرورة قوية لكون ترك شرب الماء من الآداب المؤكدة والحرص على هذا دلالة على الصدق . وهذه الآداب تطلب عند الامكان فلا يترك الذكر لفقدائها .

وعلى الرغم من كل ذلك وغيره ، فقد تمردت كما ذكرت وزهبت الى مؤتمر الوفد فى يناير عام ١٩٣٥ ، ولم أوقف اطلاعى على الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية ، أو شرائى للكتب غير الدينية . ولا يمكن أن أنسى ثمار الاطلاع على هذه المجلات والكتب وآثارها على تفكيرى واتجاهاتى . ومنها مجلات الرسالة والرواية والثقافة والمصور ، ومن الصحف كنت أحرص على قراءة السياسة الاسبوعية والبلاغ الاسبوعى ، وكان لى نصيب من كتب المنفلوطى وشوقى ومصطفى صادق الرافعى والمازنى وطه حسين ومحمد حسين هيكل والعقاد وتوفيق الحكيم وسلامة موسى وأحمد امين وفكرى ابازة وغيرها . وقد كونت مكتبة حوت العديد من الكتب والمجلات ، اضطررت فيما بعد الى بيعها بثمن بخس دراهم

معدودات . ولكن المكتبة تجددت مرة ومرة حتى أصبحت مكتبتى - وأنا اكتب هذه السطور - تستحق الاشادة بها لما حوت من كتب عربية وأجنبية فضلا عن كتبى التى استطعت عبر الايام أن أولفها وأنشرها .

أصبحت فى ضوء ظروفى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وفى ضوء الظروف السياسية فى شهر مايو عام ١٩٣٧ (شهر الغاء الامتيازات الأجنبية فى مصرنا الخالدة) ، فى حيرة من أمرى . وكدت أن أصبح شخصا هامشيا . فانا كنت فى تلك الفترة فعلا وحقا شابا متدينا . وكنت أرى فى ضوء خبراتى المنتظمة وغير المنتظمة ، خبرات الحياة التى كنت أعيشها ، وخبراتى التى كنت أستقيها من الكتب والمجلات والمحاضرات ، ان الدين لايمكن أن يغمض عينيه عن الفساد الذى يستشرى فى المجتمع المصرى فى ذلك الحين . وأن أعضاء المجتمع العاديين وهم الملايين ، فى ضوء ظروفهم الثقافية والاقتصادية ، لايمكن ان يكونوا وحدهم هم المسئولين عن هذا الفساد . واننا باسم الدين يجب ان نعمل عملا إيجابيا فى سبيل التغيير الى الأفضل ، وان هذا العمل الإيجابى لايمكن أن يكون المواعظ والذكر فحسب ، ولكن بالعمل فى محيط الناس ، بهم ومن أجلهم ، حتى يتحقق هذا التغيير . فالدين المعاملة كما هو معلوم ، معاملة الناس المعاملة الرشيدة من أجل أن يعيشوا حياة طيبة . أى أننا يجب أن نشتغل بالامور الدنيوية والسياسية منها على رأسها ، أى يجب ان نهتم بالامور العامة من أجل مواجهة المشاكل الثقافية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية جميعا . واحسست فى ذلك الحين اننى مقيد معنويا وماديا معا . وعزمت على أن أصنع خطة جديدة لمستقبلى تتضمن بعض الأمور التى لا بد لى من أن أحققها . ومادام هدفى أو مادامت أهدافى هى رفعة الدين ، فان تحقيق هذه الأهداف بالضرورة أمر مشروع . وفكرت انتهازا لما حدث لى فى غضون شهر مايو عام ١٩٣٧ أن أقدم على اعادة وجهى الى صورته الأولى . واعتقد أن رصيد

اعمالى بالجمعية الشرعية وأعمالى بفرعها بحى السيدة عائشة يشفع لى إزاء ماقت به بل يؤكد أيضا حسن نيتى . فانا منذ آن حضرت مبايعة الشيخ أمين خطاب خليفة الامام الشيخ محمود خطاب ، وأنا أعمل أعمالا متواصلة فى سبيل تقدم الجمعية وتثبيت أركانها ونشر دعوتها . ولم أكن قد فعلت المعجزات التى لا يستطيع غيرى أن يقوم بأعظم منها ، ولكنى فى حدود قدراتى وامكانياتى أديت واجبى كعضو من أعضاء الجمعية بأمانة وشرف . واننى أذكر أننى وأنا أعمل سكرتيرا عاما لجمعية حى السيدة عائشة كنت أول من اقترح دعوة الشيخ أمين خطاب للخروج الى الشارع المصرى لعقد محاضرات دينية عامة خارج المسجد . وكانت المحاضرة الأولى فى حى الخليفة ، ثم بدأت أحياء مدينة القاهرة تفعل مثل ما فعل حى الخليفة . ولم يمر أسبوع بعد صلاة الجمعة الا وتجدنى فى حضرة الشيخ أمين أمام الحاضرين بالمسجد أهب واقفا بينهم فألقى قصيدة شعرية تدعو الى تثبيت اركان الجمعية ونشر دعوتها . وكتب فى الصحف المقالات وفى المجلات ، اذكر منها صحيفة "كوكب الشرق" ومجلة "الفضيلة" ، وأؤكد هذه الدعوة وأرد على من كانوا يحقدون على الجمعية أو يحاولون النيل من رسالتها . وانتقلت المحاضرات خارج القاهرة فكنت أذهب اليها ألقى القصيدة تلو القصيدة تقربا الى الله تعالى . وكانت قصائدى على الرغم من "ركاكتها" وتكرار معانيها وصورها تنشر على صفحات المجلات الدينية التى توازر الجمعية ، بل كان بعضها يطبع . ومن هذا البعض قصيدة "يوم شبين" ألقيتها بين يدى الشيخ أمين فى جمع حاشد فى مدينة شبين الكوم فى شهر صفر عام ١٣٥٤ - (الموافق شهر مايو عام ١٩٣٥) . أى فى خلال عام شهداء دستور عام ١٩٢٣ . وفيه كان حصولى على شهادة البكالوريا وحصولى على وظيفة حكومية أيضا . ولعل تسجيل هذه القصيدة هنا أن يكون له دلالة صدق على ما أقوله ، ويكون شهادة على ما كنت أعتقد فى ذلك الحين .

بنور الحق أسمى وينطق كلمى
والحق يرفع قدر الناس والقلم
قم ناد فى العالمين مرددا
حكم الحقيقة فى بهتان منهزم
واسمع لقلب قال مخاطبا
رجالا فى سما العلياء كالنجم
والقلب مرآه ، والصدق تعكسه
فان أظلم بيت الشر واللؤم
والخير فى قول الحق ينصره
والبر فى ترديد المرء ذا النعم
رفع الامام الراحل العلما
من غيره يحمى حوزة العلم ؟
خاض المعارك صابرا ومظفرا
جاهد الأغراز ثابت القدم
سعى لنشر الغراء طاقته
نور النبى خير الخلق كلهم
كم عانى من عنت بنى الدنيا
كثيرا ، ولم يأبه ولم يصطدم
قد حقق الرحمن اليوم غايته
فى ظل بطل فى الحق كالسهم
أمين قد رعى للامانة حقها
نعم الخليفة رمز النبيل والكرم
لله يسعى والحلم رائده
إن قال درا كالعقد منتظم
نسج على منوال الحق مجتهدا
أحيا لنا زمنا كان فى القدم
آل خطاب بقيتم لنا ذخرا
كم أديتمو للاسلام من خدم

انتم شمسوس الحق قد سطعت
أضيائها بين الخلق والامم

x x x x x x

ان المعالى اليوم قالت مرتلة
اليوم عيد لأهل الفضل والحكم
سعى الينا النصر مبتسما
لما بدا ، بدا كل ثغر مبتسم
اليوم يوم شبين الذى
ضاهى يوم الفتح فى العظم
اليوم لنصر الشرع يفتخر
ومن البغاة له الخير منتقم
نصر الجليل فينا قد تجلى
والنصرأت لامحالة بالحزم
رجال الهدى هذا اليوم يومكمو
وشذاه يمحو سابق الحزن والألم
تبادلوا الفخر أنتم الالى
سعدوا وسادوا الناس بالهمم
ابيتم الحكم على النفس والهوى
ومن يرضى بحكم الذل والضيم ؟
كذا صفحة المجد بالنص قائمة
إن التقى سراج المجد والشمم
تجمعوا فى الحق أبدا وتكاتفوا
فالاعتصام قذى فى عين من ظلم
تذكروا الامام وصحبه الاخيارا
من جاهدوا الشر بالعفو والكظم
شادوا لمصر بنور العلم مفخرة
وهمم للعلم أبدا أول الخدم
فالعلم نبت وراوى الدين يرويه

طبعاً ، بُالرى يحيا من العدم
جادت بهم أيام بالشح قد عرفت
بعثوا الحياة بروح الشرع فى الرمم
أصل السمو وكل له فرع
والحق يشهد والتاريخ للقلم

x x x x x x

من لى بفئة الظلم الآن أرقبها
ويل لفئة السوء من غضب ومن نقم
باءوا بخزى الظلم وانصرموا
وكل باغ على الحق لم يدم

ولعل قارئ هذه القصيدة أن يرى مدى السذاجة والتناقض فيها ، وأن يرى أيضا مدى التكرار فى المعانى والصور التى توجد فيها ، فضلا عن الخلل الواضح فى وزن أبياتها ، والافق الضيق الذى كانت تحوم حوله . ولعل القارئ أيضا أن يجد النية الحسنة لكاتبها وأن يلاحظ حماسه الزائد على الحد لمؤازرة الجمعية الشرعية والعاملين فيها وعلى رأسهم رئيسها الشيخ أمين خليفة الامام الراحل الشيخ محمود خطاب . وما أردت بتسجيلها هنا ، كما ذكرت آنفا ، الا أن أضرب مثلا لما كنت عليه وأنا فى سن الثانية والعشرين ، أو بعض ماكنت أفكر فيه ولجانب لما كنت أهدف اليه فى ذلك الحين . وأن أؤكد مدى ماواجهت من حيرة فكرية لم يخرجنى منها الا أن أصنع لنفسى خطة اسميتها لسذاجتى " خطة الغزو " فعند استلامى خطاب مصلحة الحدود الذى يتضمن مجازاتى بثلاثة أيام قطع ماهية للأسباب التى وردت فيه ، وكان ذلك فى يوم ٢٧ من شهر مايو عام ١٩٣٧ ، بادرت بوضع بنود هذه الخطة . قلت فيها :

"وقد عزمت - متوكلا على الله - على ماياتى :

أولا : أبقى بالمصلحة الى آخر سبتمبر عام ١٩٣٧ فقط . ثم أقدم أستقالتى من المصلحة ، احتجاجا على هذا الحكم غير

العادل . وفرارا من بيئة الوظيفة الملوثة .
ثانيا : اقتصد ماأستطيع فى كل انواع المصروفات فى خلال هذه
المدة يونيو عام ١٩٣٧ - سبتمبر عام ١٩٣٧ .
ثالثا : أسعى جهدى لبيع نصف المنزل الذى أملكه ، وانى ارجو
الله ان ييسر هذا البيع قريبا .
رابعا : التحاقى بكلية الصحافة بالجامعة الأمريكية فى موعد بدء
الدراسة ، أو انتسب الى كلية الحقوق بالجامعة المصرية ان
تيسر ذلك ، أو الى كلية الحقوق الفرنسية أن تعذر على
الالتحاق بكلية الصحافة .
خامسا : اشترى ورقة يانصيب اذا ربحت ارسد هذا الربح
لتعليمى فحسب ، على أن أنفق قيمته عند التيسير فى وجوه
الخير .
وأنى أرجو الله مخلصا أن يبلغنى الآمال فى حدود الطرق
الشرعية .

أمين
القاهرة فى ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٥٦ الموافق ٢٧ مايو سنة
١٩٣٧ .

والقارئ لهذه الخطة ، خطة الغزو ! يلاحظ التعلق الشديد
بمواصلة تعليمى تعليما عاليا . وقد يدهش وأنا الشخص المتدين إذ
يجد فى هذه الخطة "شراء ورقة يانصيب" يخصص ربحها
لتعليمى ، ويجد التناقض حتما فى طلب بلوغ الآمال فى حدود
الطرق المشروعة على الرغم من التحفظ الوارد فى هذا البند من
الخطة ويتعلق بانفاق قيمة ربح ورقة اليانصيب عند التيسير فى
وجوه الخير . قد يدهش القارئ أو قد لا يدهش ، ولكنى عندما
وضعت الخطة كنت وخط التفكير الذى كنت أتبناه فى ذلك الحين
على وفاق ، ذلك لأن حظ الشخص المتدين فى العادة مرهونا بمدى
إيمانه بالقدر حلوه ومره وخيره وشره . والعبرة بالنيات . وكانت
نيتى كلها كما كنت أراها فى ذلك الحين مشروعة وإيمانى بالقدر
فوق ذلك كان عظيما . وقد تأكد لى مدى صحة هذا الوفاق فى

التفكير عندما أشرفت على دراسة عن الأشخاص الذين يواظبون على قراءة موضوع "بختك اليوم" أو "حظك اليوم" فى الصحف اليومية . فقد اتضح ان هؤلاء يؤدون فريضة الصلاة وفريضة الصوم ، كما يزورون أضرحة الأولياء والقديسين ويؤدون لهم النذور ويوفون بها ، ونسبة كبيرة منهم يؤمنون بالاشباح ويمارسون عمليات البخور فى المناسبات وقراءة الفنجان والكف وحمل التمامم وفتح المنديل .

ومن الصدف العجيبة ان بنود خطة الغزو المشار اليها قد نفذت جميعها فيما عدا بند "شراء ورقة اليانصيب" فلم أشتريها ومن ثم لم أربح أو أخسر شيئا ، ولكن توقيت التنفيذ لم يكن بالدقة التى تضمنتها الخطة . وكذلك فانه بدلا من التحاقى بكلية الصحافة الامريكية أو انتسابى لكلية الحقوق بالجامعة المصرية أو التحاقى بكلية الحقوق الفرنسية فى موعد بدء الدراسة ، التحقت بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فى يوم ١٦ من شهر اكتوبر عام ١٩٣٧ . وكانت أستقالتى من مصلحة الحدود فى يوم ٢٠ من شهر مايو عام ١٩٣٩ ، أما ببيع نصف المنزل الذى كنت أملكه فقد تم بيعه فى يوم ٦ من شهر نوفمبر عام ١٩٣٨ . ولامتلكى لهذا العقار قصة . فالوكالة كانت جزءا من هذا المنزل وهو أحد البيوت التى كان يملكها جدى لأبى ، فلما ورثه عمى شقيق أبى ضمن ماورث ، أراد ان يؤجر الجزء الذى يضم الوكالة لى ولكنى عرضت عليه ان أشتريه فأبى الا أن أشتري البيت كله وسامته وسامنى وأنهى الأمر بموافقة على شرائى لنصفه ولاأدفع لاحد ايجارا . وتم الشراء وأصبحت من ذوى الاملاك ولكن الى حين ، أى حتى تركت الوكالة لى أنقرغ للدراسة وذلك فى يوم ٢٢ من شهر يناير عام ١٩٣٥ ، نفس اليوم الذى ذهب اليها فيه تاركا مدرسة الخديوية الثانوية مضطرا منذ خمس سنوات .

وعندما أعدت وجهى الى صورته الأولى (أى قبل أن أحف شاربى وأن أعفى لحيتى) ، وكان ذلك بعد ان تسلمت خطاب

المصلحة مباشرة ، كان لما فعلته ردود فعل عديدة فى نفسى وفى الأسرة وفى المصلحة وفى الجمعية الشرعية جميعا . واننى أذكر جيدا أننى قبل أن أذهب الى " الحلاق " ذهبت الى " مصوراتى " لاحتفظ بصورتى ذات اللحية تذكارا ، ووجدتنى قد تغيرت سمات وجهى وأصبحت إنسانا آخر بعد أن تمت الحلاقة . فبعد ان كنت أشعر وكأننى شخص فى سن الستين من عمره رجعت شابا فى سن الرابعة والعشرين من عمرى ، وهو سنى الحقيقى . ومع هذا الشعور كان الأحساس بحرية الحركة يملأ على كيانى . فانا الآن أستطيع أن أعيش حياتى فى المجتمع . أستطيع أن أذهب الى أى مكان وأن أقابل دون ماحرج أى انسان . ولن يكون مصدر ثقافتى بعد اليوم قراءة الكتب والجرائد والمجلات فقط ، بل ستكون أمامى مصادر أخرى لاتقل أهمية عن هذا المصدر . ستكون أمامى المسارح والمتاحف ودور العرض السينمائى ، وسأنصت الى الموسيقى واستمتع للآغاني ماشاء لى المورد والوقت ، وفضلا عن ذلك بل وقبل كل ذلك سأعيش بين أعضاء المجتمع ومعهم حرا طليقا ليعصمنى من الزلل سوى ضميرى ومبادئى ومثلى العليا .

وكان فرح أمى بما حدث عظيما . لم أرها فى هذه الحالة منذ زمن بعيد بعيد . ارتد اليها شبابها كما بدا لى ، وكانت ابتسامتها عريضة صافية تعكس الغبطة والحبور . وزوجتى كانت مثل أمى كما بدت لى فى حركاتها وقسمات وجهها . وقالت لى زوجتى بعد سنين أنها لم تكن لتفر منى عندما كانت لى لحية ، ولكنها كانت تقول لنفسها كما كان يقول لها من حولها " إن أصغر من فى العائلة سنا أقدم على شئ لم يفعله اكبر من فى العائلة سنا " .

وفى المصلحة كنت وكأننى فى قفص حديقة الحيوانات ، يأتى الى الموظفون أفرادا وجماعات ليروا ماذا أصبحت بعد ان كنت . وكان دنيال أفندى ومعهم جرجس وفؤاد وعلى من المتحمسين لما فعلت . أما الآخرين فقد كانوا يجيئون ويروحون وينظرون ولايقول أحد منهم شيئا . كنت حديث الجميع . وكان ماحدث من تغيير كانوا

فى حاجة اليه ليتخذوا ذريعة الخروج من رتابة العمل وصرامة المناخ الثقافى والاجتماعى الذى يملأ المصلحة العسكرية التى مازال يعيش تحت سقفها الانجليز على الرغم من عقد معاهدة عام ١٩٣٦ . وقد أصبحوا فى ضوء بعض بنود هذه المعاهدة خبراء فى الجيش المصرى . وهاتون بك لم يصبح هاتون بك وجرين بك لم يصبح جرين بك ، ولكنهما ومعهما غيرهما من ضباط الانجليز كانوا يعيشون بيننا بلحمهم وشحمهم ، ومازالت هيبتهم هى هى لم تتغير عند موظفى المصلحة أو أغلبيتهم عبيد احساناتهم وأكلى فئات موأندهم .

ولعل من أهم ما انتجت عنه معاهدة عام ١٩٣٦ الاهتمام بتكوين جيش مصرى قوى ، والحاجة الى ضباط مصريين من الشبان من الحاصلين على شهادة البكالوريا . وكان "محمد" بن حافظ اسماعيل افندى صول المصلحة قد حصل على الشهادة ، وقد عين بالمصلحة منذ فترة قصيرة جدا قبل اعلان الحاجة الى ضباط مصريين من الشبان ، فكان أول من تقدموا لكى يلتحق بالجيش المصرى ليكون أحد هؤلاء الضباط . وسعى والده السعى المتواصل لدى المسؤولين فى وزارة الحربية والبحرية فى ذلك الحين ونجح مسعاه والتحق محمد حافظ اسماعيل بالجيش تاركا الوظيفة بالمصلحة ، التى لم يشغلها سوى وقت قصير ، غير أسف . كنت فى سن الثالثة والعشرين عندما أعلن عن طلب شبان من الحاصلين على شهادة البكالوريا . أى أننى كنت قد تجاوزت السن المطلوبة ، وحتى إن لم أكن قد تجاوزتها فإننى فى ضوء وصايا أبى عن الفرار من الالتحاق بالجيش لخبرته بما كان يحدث بين جنباة ، فضلا عن خبراتى الذاتية وأنا أعيش مع ضباط مصريين تحت سقف واحد بالمصلحة - فاننى لم أكن أتصور أن أقدم طلبا كما فعل الكثيرون . إن هدفى أن اتعلم التعليم العالى الذى يؤهلنى لكى أعمل عملا صالحا . وكان هذا العمل الصالح عندى فى ذلك الحين أن أخدم أبناء الوطن ، أبناء مصرنا الخالدة

لكى يتغيروا الى الأفضل والى الأعظم . ولم أكن أعرف جازما كيف السبيل الى تحقيق هذا الهدف ، وإذا كنت اعرف فلم أكن متأكدا إذا كنت أستطيع . ولكن كان بيدولى أن عدم معرفتى السبيل كان أولى بالجهد والمثابرة حتى أعرف ، فإذا عرفت فإن الله جل وعلا قادر على أن يعيننى على تحقيق آمالى فى خدمة الوطن الغالى . ألم أغير اسم "ثريا" الذى اخترته اسما لابنتى الأولى عندما ولدت فى يوم ٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٣٦ ، واستبدلت به "آمال" وكنت أدعو الله الكريم المتعال مرددا كلما حملتها وهى رضيعة " اللهم بحبك لآمالى بلغنى آمالى " ! وكانت آمالى فى ذلك الحين أن أتعلم لكى أعمل عملا صالحا يرضى الله ويرضى الوطن العزيز .

وكننت على هذا الحال عندما أعدت وجهى الى صورته الأولى . وكننت اتوقع سوء فهم أعضاء الجمعية الشرعية لما أقدمت عليه . فلم يكن منهم واحد ، وكان هذا تصورى ، يمكن أن يبرر ما فعلت تبريرا إنسانيا . ومن ثم فقد انسحبت من حضور مجلس ادارة الجمعية الشرعية . حيث كنت أشغل عمل سكرتير مجلس ادارتها . وقد دعيت الى شغل هذا العمل وكان لدتي وغيرهم يغبطوننى على هذا الاختيار ، فهأنذا سأجلس مع **الصفوة** من رجالات الجمعية الشرعية وعلى رأسها الشيخ أمين **خطايب** ومعه الشيخ على حلوة والشيخ درويش الجعبرى والشيخ ابراهيم عثمان وغير هؤلاء لا اذكركم الآن . وقد سعدت بهذه الدعوة واعتبرتها تكريما لشخصى الضعيف . ولم أدع لهذا العمل الا بعد ان خففت شاربى وأعفيت لحيتى . والآن وقد اعدت وجهى الى صورته الأولى فأننى رأيت أن لا اتيح لواحد منهم أن يرى وجهى . ولم أرد لفريط حساسيتى أن أضع نفسى فى الحرج أو أن أضع غيرى فى الحرج . ووجودى بين هؤلاء الشيوخ وهم بعيدون عن الهالة التى تحيط بهم وهم بين الجماهير زاد من خبراتى عن النفس البشرية الشىء الكثير . وجدتهم مثل الآخرين ، فيهم نقاط قوة وفيهم نقاط الضعف كبشر . وكان يحز فى نفسى كثيرا عندما يهل علينا الشيخ امين

ليرأس الجلسة وأجد الشيخ على حلوة ماسكا " الفروة الصوف " بيديه ليهيأها لكي يجلس عليها الشيخ أمين . وكان بيدولي في كل مرة ان الشيخ أمين ينتظر مايقوم به هذا الرجل الكريم ويتوقعه . ولكنى لم أكن راضيا أبدا عن العلاقة بين الشيخين . إننى متأكد ان الشيخ على حلوة كان يفعل ماكان ~~يطلبه~~ غير مرغى بل هو راض وسعيد . ولكن موقف الشيخ أمين وتوقعه أن يفعل هو أو غيره ماكان يفعله لم اكن استسغيه . ولكنى كنت أكتم ذلك ولاأصرح به لاحد . ولايمكن أن انسى أبدا عندما توفى أحد أعضاء الجمعية وكان رجلا ثريا وأوصى قبل وفاته بأثاث بيته تبرعا للجمعية . وفى احدى الجلسات أثير هذا الموضوع ، وتقرر أن يباع الاثاث على أن بورد ثمنه الى خزينة الجمعية . ولم تشكل لجنة للبيع ، ولم يقرر شىء عما اذا كان بيع الاثاث سيكون علنيا أو غير علنى . وفوجئت بأن طلب الشيخ أمين حجز " السرير " لاهل بيته على أن يدفع مبلغا ذكره . وتمت الصفقة ولم يعترض أحد من الاعضاء على طلب الشيخ لانه كما قيل لى بعد ذلك إن طلب الشيخ يعتبر أمرا . ولم يكن من حقى أن أقول شيئا فأنا لست عضوا إنما أنا سكرتير جلسة فحسب . وأشياء أخرى وأمور أخرى كانت تحدث فى جلسات مجلس ادارة الجمعية الشرعية عندما كنت أحضر هذه الجلسات ، الكثير منها كنت راضيا عنه كل الرضا ، والبعض كان قليلا كنت لأتوقعه أن يحدث . ولعل اعتراضى على القليل من الاشياء أو الامور التى كانت تحدث كان يرجع الى مثالىتى التى كان هؤلاء الصقوة من رجالات الجمعية يدعون اليها ويحاولون أن يغرسوها فى نفوس المريدين والاتباع . وقد بقيت هذه المثالية وأنا أواجه حياتى المستقبلية على الرغم من انسحابى من حضور مجلس ادارة الجمعية الشرعية وعدم ذهابى الى مقر الجمعية بعطفة الجوخدار بالمغربلين حتى كتابة هذه السطور .

وعلى الرغم من هذا الانسحاب وعدم ذهابى الى مقر الجمعية الشرعية ، فلم يكن فى نيتى أن أسلك نفس السلوك مع جمعية حى

السيدة عائشة التي اشتركت في تأسيسها في عام ١٩٣٤ .
والجمعية الأخيرة تعتبر فرعاً من فروع الجمعية الأولى . ومع ذلك
فقد أثرت أن انسحب أيضاً وكتبت الى مجلس الادارة كتاب
الاستقالة ونصه كما يلي :

بِسْمِ الله الرحمن الرحيم

حضرات الزملاء المحترمين رئيس وأعضاء الجمعية التعاونية
الشرعية (حى السيدة عائشة)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - اما بعد -
فأقدم استقالتي من الجمعية .

أما من جهة وجودكم بالمنزل رقم ٦ شارع الزرايب قسم الخليفة
- فهو على العين والرأس حتى أبيع نصيبى فيه .

أما من جهة : أوراق الجمعية فانى مستعد لتسليمها قريباً .
أما من جهة : ما على من دين شخصى فأرجو موافاتي بكشف
الحساب حتى يمكننى تنظيم سداذه .

أما من جهتكم : فانى لا أستطيع ، ولن أستطيع وصف ما يكنه
فؤادى - المريض - نحوكم من حب ووفاء دائمين مادامت الحياة .
أما من جهتى : فانسونى أو فاذكرونى - ولا ازيد - ورجائى اذا
ذكرتمونى أن تذكرونى بخير . وأذكرونى بالدعاء المتواصل ،
اذكرونى ولا تنسونى فذكركم اياى هو عزائى عن فقدكم الحسى لا
الروحى ، وسلوتى فى وحدتى .

أما كلمتى الاخيرة لكم : فهى اعملوا ، اعملوا ، اعملوا
متكاتفين ، والله معكم والله يتولاكم .

يوم السبت : ٥ / ٦ / ١٩٣٧

سيد عويس

وجاءنى الرد على كتاب استقالتي الذى امضاه رئيس مجلس
ادارة الجمعية ونصه كما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الهادي البشير
النذير سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله ومن عمل
بشرعه الى يوم الدين .
من رجال مجلس ادارة الجمعية التعاونية الشرعية بحى السيدة
عائشة النبوية الى حضرة الاخ المحترم سيد افندى عويس لازال
فى رعاية الله وتوفيقه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - اما بعد -
فقد تصفحنا استقالتكم التى عرضت علينا بجلسة ٢٧ ربيع
الاول ١٣٥٦ وقد اسفنا أشد الاسف على السبب الذى من اجله قد
سطرت تلك الاستقالة . ولكن هذا الحادث - الداعى لذلك - ليس
الاول من نوعه بل قد حدث لكثير ولكن العاقبة كانت والحمد لله
مرضية بالمواظبة على الجهاد . نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقك لما
كنت عليه حتى تعود المياه الى مجاريها ونأمل ان يكون ذلك قريبا
ان شاء الله تعالى .

وقد منعنا من مقابلتكم شفقتنا عليكم ورحمتنا بكم وانتظارا
للخير الذى ينشده لكم الجميع وانا ننصح لكم بالمواظبة على
حضور مجالس العلم والعلماء العاملين حتى تتبدل الحال غير
الحال .

ان استقالتكم قد رفض قبولها بالاغلبية المطلقة واننا لمنتظرون تلك
الفرصة السعيدة التى يلحظكم فيها الله برعايته فتعودون الى
حصنه المتين فترجع الينا فرحا مسرورا جزلا صبوراً فتهلل
الوجوه البشر والسرور فتهلل ونكبر على توفيقه اياكم ورجوعكم الى
حزبه المنصور .

وفقنا الله جميعا للصواب وهدانا الله واياكم طريقا مستقيما

٢ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦

رئيس مجلس ادارة الجمعية

” زاد الدين نور الدين ”

وكان وقع مضمون هذا الخطاب على نفسى اليمى . وبخاصة عندما قرأت بعض السطور التى تتضمن الشفقة على والرحمة بى . واحسست بأن مرسله وكأنهم اقتنصوا الفرصة لكى يتخلصوا من وجودى . ولم اكن احمل لاحد منهم الا الحب والاحترام ولم اكن احمل لأيهام غلا ولا حقدا . صحيح كانت الجلسات التى نعقدھا لاتخلو من المناقشات التى تبرز حدة المنافسة بين المتنافسين وكنت احدهم ، ولكننا كنا ، كما كنت اعتقد ، نخرج من الجلسة أصدقاء أصفاء لا تشوب نفوسنا شائبة ومع ذلك فلم استرح أو تهدأ نفسى الا بعد أن أعددت ردا على الخطاب المرسل الى من مجلس ادارة جمعية السيدة عائشة وكان نصه كما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، سيدنا محمد وآله .

حضرات الزملاء المحترمين رئيس وأعضاء الجمعية التعاونية الشرعية

بحى السيدة عائشة النبوية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - أما بعد :

- فقد وصلنى كتابكم الكريم المؤرخ فى ٣ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ ، يوم الخميس الموافق ٨ منه . اشكركم على ثقكم بى أن رفضتم استقالتي من الجمعية بالاغلبية المطلقة . واعلن - مضطرا وأسفا - أننى مازلت حيث كنت فى كتابى السابق . ووضعنا للأمور فى نصابها أقول مصححا بعض ما جاء فى كتابكم ، إن الاستقالة التى قدمتها فى كتابى المشار اليه كانت غير مسيبة . اما سببها الحقيقى وأرجو ان توقنوا بأن لاسبب غيره ، هو عين السبب الذى من اجله استقلت من الجمعية الشرعية ، وهو انى عازم بمشيئة الله الكريم على أن التحق باحدى جامعات القاهرة لاتمام دراستى العالية بها . ولايمكننى - والحال هذه - القيام بالواجبين معا على وجه يكفل النجاح والاتقان جميعا .

والله يعلم انى ما أقدمت على ذلك الابد ان تأكدت ووثقت تماما بمقدرتك على الاضطلاع بمهام الجمعية وإدارة شئونها ، كما لو كنت فيكم واكمل . فكلكم بحمد الله تعالى سيد عويس ، وكلكم خير جندى يعرف الواجب عليه ، ويعرف كيف يؤدي .

أما السبب الذى أشترتم اليه بطرف خفى فى كتابكم فانى أسمى بكم وبالصلة الروحية المقدسة التى توطدت بيننا على أمتن أساس واكملة ، أن تتخلوه أو تتوهموه سببا لبتراها ، بترا حسيا كان أو معنويا .

ألا ان الصلة التى بيننا هى صلة الايمان المحمدى الراسخ ، هى صلة الروح الذى يسمو . فهل تقطعها شعيرات قطعت ؟ ألا ان الايمان الحقيقى ليس بيتا من الشعر ، وإن أوهى البيوت لبيت من الشعر ، ألا انه هو حصن الله المتين ، اذا دخله العبد كان أمنا .

ألا ان المبادئ السامية التى نعتنقها هى مبادئ الخير بمعانيه الخيرة تجمعنا - فى سبيل تحقيقها - تحت لواء الشرف والتضحية . وفى ميدان الشرف والتضحية متسع للجميع .

ألا اننى وان تركت الميدان الذى تعملون فيه اليوم ، فقد سبقتكم الى غيره من معدنه أمهد لكم السبيل اليه ، لتلحقوا بى غدا .

ألا ان شجرة الايمان التى وضع إمامنا الاكبر الشيخ محمود خطاب - رضى الله عنه - بيده الكريمة بذرتها فى قلبى ، والتى يسبقها دعاؤكم العذب الصافى ، والتى يرعاها الله تعالى بمحض فضله .. ستثمر حتما .. ولن تموت ..

والسلام

يوم الخميس : ٨ ربيع الثانى سنة ١٩٥٦

١٧ يونيو ١٩٣٧

سيد عويس

ولعل القارئ أن يلاحظ السخرية التي تبرز بين بعض سطور هذا الخطاب وقد تعمدت ذلك فقد شعرت بأن الرد على استقالتى كما سبق أن أوضحت قد ألمنى . ويبدو أن قولى فى الخطاب الاخير ، أقصد خطاب الاستقالة عبارة .. ولن استطيع وصف ما يكنه فؤادى - المريض - نحوكم من حب ووفاء .. إلخ ، قد كان عاملا من عوامل القسوة فى الرد الذى دبجه يراع رئيس مجلس ادارة الجمعية . فقولى فؤادى المريض لم يكن فى حقيقة الامر الا وسيلة لكى أدعه وأعضاء مجلس الادارة يشعرون بالذنب ، وربما كان هذا القول يعبر ايضا عن شعورى بالذنب . وان كنت فى ضوء ما عازمت عليه فعلا أرجح التفسير الأول . فقد كان عزمى على مواصلة التعليم العالى عزما اكيدا مافى ذلك من شك .

وعشت حياتى بعد ذلك بين أعضاء اسرتى وفى مكتبتى أنهل من كتبها العديدة المتنوعة شهد المعرفة وعذبها ، وفى مصلحة الحدود فى قلم التوريدات مع دانيال أفندى برسوم وجرجس وفؤاد وعلى وأحسست بالحرية تملأ على كيانى وتغذى روحى ووجدانى . وعدت شخصا عاديا أواجه الامور دون ما تكلف أو تعسف أو ادعاء . أى كبشر لا يدعى الكمال ، فالكمال لله وحده ، وقد يتعمد الخطأ أو قد يهفو عفوا ، لكى يبتهل الى الله سائلا التوبة منه عما أخطأ أو عما هفا ، فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ووضح عندى المعنى الذى كان يقصده احمد شوقى من عبارته " وانبع مافى الحياة الألم " وكنا فى قلم التوريدات فى عزلة عن باقى موظفى المصلحة وكانت سياسة دانيال أفندى لا يدع انسانا يتدخل فى أى شأن من شئون القلم حتى لا يفهم أحد اسرار العمل وكان من رأيه أن أجلس الى مكتبى أقرأ الجريدة وأشرب " القهوة " وأن أترك له العمل ومواجهة موظفى المصلحة بعامه ورؤساء الأقسام ومدير الادارة بخاصة . وكنت سعيدا بهذا الوضع الاجتماعى الجديد . وكانت سعادتى أكثر لأننى وجدت الوقت لكى أقرأ وألتهم ما أقرأ ، فكنت أحضر معى ما يطلو لى من الكتب . وقد وجدت فى قلم

التوريدات كنزا من الكتب فى ركن من أركان القلم لايأبه بها أحد . وقد احضرتها المصلحة لكى توزع على أقلام الديوان العام أو على ادارات المصلحة فى طول الحدود وعرضها فى الصحراء الغربية وفى الواحات وفى الغردقة وفى سيناء والبحر الأحمر ، ولكن لم يهتم بتوزيعها أحد وبقيت قابضة فى ركن من الأركان فى إحدى حجرات قلم التوريدات . وجدت كنزا . وجدت كتب "قبض الريح" و " حصاد الهشيم " و "فى المرأة" و "حياة محمد" و "آلام فيترتر" للمازنى وعبد العزيز البشرى ومحمد حسين هيكل وأحمد حسن الزيات ، ووجدت أخرى لغير هؤلاء . وقد قرأت هذه الكتب جميعها وأعدت قراءة بعضها . فالوقت لدى متسع . لأننى لأعمل شيئاً حتى لأعرف أسرار العمل ولكى أثبت للملا أننى لأطمع فى رئاسة القلم أو أنافس دانيال أفندى فى مقابلة الحكام أقصد حكام مصلحة الحدود فى ذلك الحين .

ومرت الأيام الباقية من شهر مايو عام ١٩٣٧ ثم مر شهر يونيو ، وجاء شهر يوليو وفى غضونه طالعتنا الصحف اليومية المصرية والأجنبية بأخبار تأسيس الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية وانشاء "مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة" ، ودعوة المصريين والمصريين الذين يستوفون شروط الالتحاق بالمدرسة الى ملء استمارات معدة لهذا الغرض فى أقرب فرصة ممكنة ، حيث إن افتتاح المدرسة قد تحدد فى يوم ١٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٣٧ .

وفى هذه الفترة قرأت كما قرأ غيرى عن هذه الجمعية ، وعن هذه المدرسة . وكان معظم ماقراته أمراً جديداً ، أمراً ملفتاً للأنظار وللأذهان جميعاً . وأعدت ماقراته مرارا . فقد قرأت مثلاً " أن الفقر ليس مجرد ظاهرة اجتماعية يمكن ان نواجهها بالاحسان فحسب ، ولكن الفقر هو عارض لظروف اجتماعية أكثر عمقا تحتاج الى الدراسة ثم الى العلاج " . و " أنه منذ سنين قليلة والحديث لاينقطع عن الحاجة الماسة الى الاصلاح الاجتماعى فى مصر ، ولكن الجهود نحو هذا الاصلاح الاجتماعى لايمكن ان تؤتى ثمارها

الا اذا أسست على دراسات متعمقة ودقيقة للظروف الاجتماعية كما هي موجودة فى المجتمع المصرى فضلا عن المشاكل والمساوىء التى يجب أن نواجهها . وليس كافيا أن نقرا الاحصاءات والمقالات عن ازدياد الجريمة فى المجتمع ، أو عن انتشار الفقر والامية فى محيط الملايين ، أو عن حالة الصحة العامة المنحطة على الرغم من الجهود الحكومية ، أو عن الأطفال الذين يهيمون عابثين بالأمن فى الشوارع ، أو عن مشكلة الطلاق الخ ، وذلك أن هذه الظواهر جميعا مجرد أعراض . انه من الضرورى أن نتعمق أكثر حتى نكتشف العوامل الكامنة لوجود هذه الظواهر" . و "ان الخطوة الأولى نحو الاصلاح الاجتماعى هى الدراسة الدقيقة للظروف الاجتماعية التى يقوم بها أشخاص قد تدربوا خصيصا لهذا الغرض ، وأن يكون حماسهم للعمل لايقبل أى شك" . و "ان دراسة احدى النظريات الاجتماعية مهما كانت ذا فائدة فانها غير كافية فى حد ذاتها . فليس يكفى أبدا أن يدرس الطالب فى كليته أو فى بيته ان عوامل مشكلة الفقر هى كذا وكذا . فان العوامل الحقيقية لمشكلة الفقر فى مصر مثلا قد تكون مختلفة تماما عن العوامل التى يقرأها هذا الطالب ، لأنها قد تكون فى الغالب عوامل تتصل بظروف اجتماعية معينة فى البلاد الأمريكية أو فى بلاد الأوروبية . "ان الواجب الأول الذى يواجهه الذين يهتمون بالاصلاح الاجتماعى فى مصر هو أن يتخذوا الخطوات الضرورية نحو انشاء مدرسة لتخريج اخصائيين اجتماعيين أكفاء لدراسة المسائل الاجتماعية من مصادرها الأصلية عن طريق الاتصال بالآباء والامهات فى بيوتهم ، أو بالعمل فى المستشفيات وفى الملاجىء وفى المحلات الاجتماعية وفى الاصلاحيات وفى أندية العمال ، وعن طريق دراسة المشاكل الريفية فى القرى وفى بيوت الفلاحين وبالعمل فى هذه الميادين للحصول على الخبرات المباشرة " . و "انه يوجد فى مصر فى الوقت الحاضر العديد من

الهيئات التى تعمل من أجل الاصلاح الاجتماعى . ولكن الملاحظ أن انجازات هذه الهيئات أقل مما يهدف العاملون فيها الى تحقيقه ، لأنهم فى ضوء ظروفهم لم يعدوا للقيام بمهنة الخدمة الاجتماعية الاعداد الضرورى " . و "على ذلك فانه من المستبعد أن نتجه نحو الاصلاح الاجتماعى الا اذا انشئت مدرسة تقوم بتدريب الاختصاصيين الاجتماعيين المهنيين . وانشاء هذه المدرسة لن يكلف مبالغ باهظة . وليس صعب المنال . ولن نحتاج من أجل ذلك الى دعوة أساتذة أجنبى من الخارج ، أو الى بناء مبنى جديد " .

وقد بهرتنى هذه الأفكار كما بهرت غيرى . فهى أفكار تدعو الى اتخاذ العلم منهجا فى مواجهة مشاكل مصرنا الخالدة وأدائها . وهى دعوة رائدة الى قيام المصريات والمصريين المؤهلين بإجراء البحوث والدراسات الميدانية العلمية فى واقع المجتمع الحى ، جاءت فى ضوء ظروف هذا المجتمع فى أوانها . ولم تكن هذه الدعوة الى اجراء البحوث والدراسات الميدانية العلمية قاصرة على ذلك ، بل جاءت للتعرف على ماهو كائن موضوعيا ، من أجل الاصلاح الاجتماعى الواعى ، أى من أجل التغيير الواعى الى الأفضل .

وقد اشترطت المدرسة لقبول الطلبة الجدد بعض الشروط أهمها أن يكون الطالب حاصلا على شهادة البكالوريا المصرية أو مايعادلها . وقد توفرت فى هذه الشروط جميعا . ومن ثم كنت أول من ذهب الى مقر المدرسة الجديدة ، وملأت استمارة الالتحاق بها آملا فى أن أكون ضمن طلابها . وقد تحقق هذا الأمل لأن الدراسة كانت مسائية ، ولأن مصاريف الدراسة قد تيسر لى فى ضوء ماأحصل عليه من مرتب أن أدفعها ، ولأننى اجتزت امتحانا شفويا بنجاح .

٧ - بداية الانفتاح على آفاق جديدة من المعرفة الانسانية

وفى يوم ١٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٣٧ افتتحت الدراسة بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة . وكنت واحدا من ٦٥ طالبة وطالبا حضروا أول محاضرة أقيمت فى الفترة الدراسية الأولى . وكان يوما مشهودا . أذكره على الدوام . ولايمكن أن أنساه . ويذكره زميلاتى وزملائى على الدوام . ولايمكن أن ينسوه . كنا من جيل كان يملؤ قلوب أبنائه حب مصرنا الخالدة كما كانت تملأ قلوب أبنائه الرغبة فى النهوض بها . وها قد جاءت الفرصة النادرة . كنا من جيل أعضاؤه كانوا يرددون هتاف "نريد أن نتعلم" . يرددونه وهم صامتون أحيانا ، ويرددونه بأعلى أصواتهم أحيانا أخرى . وجاء العلم إلينا يتهادى واستمتعنا ، واستمعنا لأساتذة مصريين ، أذكر منهم الآن الأستاذ اسماعيل القباني ، والدكتور بن بهمان ، والدكتور حلمى السعيد ، والسيدة زاهية مرزوق ، والدكتور عبد الحميد جوهر ، والدكتور عبد العزيز القوصى ، والدكتور عبد الواحد الوكيل ، والدكتور على حسن ، والأستاذ فتح الله المرصفى ، والأستاذ كمال الدين فهمى ، والدكتور محمد خليل عبد الخالق ، والدكتور محمد عبد المنعم رياض ، والدكتور محمد عوض محمد ، والأستاذ محمد كامل النحاس ، والدكتور محمود أباطة ، والدكتور محمود عزمى القطان ، والدكتور منصور شوقى ، والأستاذ يعقوب فام .

وجاء العلم إلينا يتهادى واستمتعنا ، واستمعنا لأساتذة أجنبى أذكر منهم الآن السيدة إلزا ثابت ، والسيدة برتا فهمى ، والأنسة مارى ديفو نشير ، والدكتور ويندل كليلاند .

وفى يوم ٢٣ من شهر ديسمبر عام ١٩٣٧ احتفل بافتتاح المدرسة رسميا . وأقيم لذلك سرادق كبير أمه عدد من المهتمين بالشئون الاجتماعية من كبار رجال التعليم والزراعة والاقتصاد

وأستاذة الجامعة المصرية وأعضاء مجمع اللغة العربية ولقيف كبير من السيدات والآنسات ، المصريات والأجنبيات . وقد افتتح الحفلة الدكتور محمود ماهر وكيل مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ورئيسها بالنيابة . وقد مثل فى هذا الاحتفال وزارة المعارف الأستاذ محمد حسن العشماوى وكيل الوزارة وألقى فيه كلمة بالنيابة عن وزارة المعارف كما ألقى السيدة حرم الدكتور منصور فهمى كلمة الجمعية . وألقى طالبة وطالب كلمتين بالنيابة عن طالبات المدرسة وطلبتها .

وأنا أذكر الآن هذه المناسبة كان اليوم يوم الخميس . وكنت وغيرى من الطالبات والطلبة أسرة تحتفل بأفراحها . وكان الاحتفال جادا ورائعا وعاما . ولكنه كان أيضا احتفالا لما نصبوا اليه من آمال ومناعد العزم عليه من أعمال وخدمات نؤديها من أجل مصرنا الخالدة . كانت الآمال آمالا شريفة نقية . وكان العزم عزما أكيدا . لقد تذوقنا بعض قطرات من محيط المعرفة الزاخر وعشنا كل معانيها ، وأحسنا بأن القيود التى تكبلنا تتفكك ، وأن عقولنا الفتية تتفتح . وكان يوما عظيما ترك آثاره الطيبة ولايزال فى النفوس وفى العقول . قد بدأت فيه الخطوة الأولى للاعتراف بتعقيل العمل الاجتماعى فى سبيل التغيير الى الافضل ، تغيير مجتمعنا المصرى فى ذلك الحين الى الافضل .

وقد تضمنت كلمة الأستاذ محمد حسن العشماوى فى هذه المناسبة الجليلة مايلى : " لعل الكثيرين يتساءلون عن ماهية الخدمة الاجتماعية وأفضل تعريف اطلعت عليه هو تعريف وضعه مؤتمر دولى عقد فى السنوات الأخيرة لبحث وجود هذه الخدمة ففسرها بأنها هى مجموع الجهود التى يقصد بها المعونة فى النواحي الآتية :

- تخفيف الآلام التى تنشأ عن البؤس وهذه الناحية يمكن أن يطلق عليها ناحية " الخدمة المطلقة " .
- وضع الأشخاص والأسر فى ظروف تلائمهم : وهذه

الناحية هي ناحية " الخدمة الشاقة " .
- منع وقوع الولايات الاجتماعية : وهذه هي ناحية " الخدمة
الوقائية " .
- تحسين حال المجتمع ورفع مستوى المعيشة : وهذه هي
ناحية " الخدمة الانشائية " .

و" انى لأرجو أن تقوم المدرسة التى نحضر اليوم افتتاحها
الرسمى بما يؤمله فيها من تخريج اخصائيات واهصائين فى
الشئون الاجتماعية يسدون النقص الكبير الذى نشعر به الآن فى
الميدان الاجتماعى " .

و" يسرنى ان أعلن اليوم أن الوزارة لم تقتصر على الترحيب
الأدبى بل شفعته بتشجيع مادى إذ قررت منح الجمعية مبلغ ٢٠٠
جنيه لاعانتها على القيام بسد بعض نفقاتها وشراء ما تحتاج اليه
من كتب فى الشئون الاجتماعية . كما قررت أن تدرج لها فى
الميزانية مبلغا ثابتا يمنح لها سنويا . وستنظر الوزارة فى تقدير
الدبلوم الذى تمنحه المدرسة . كما ستنظر فى وضع نظام لتفضيل
الطلاب الذين يتمون الدراسة بهذه المدرسة وتتوافر لهم المؤهلات
المطلوبة فى شغل وظائف الاشراف على النواحي الاجتماعية فى
المعاهد والملاجىء وفى تلقين الطلبة بعض الموضوعات المتصلة
بالدراسات الاجتماعية . وكذلك وافقت الوزارة على تمكين طالبات
وطلبة معهدى التربية للبنات والبنين وبعض المدرسات والمدرسين
المشتغلين بالنواحي الاجتماعية من حضور مقررات المدرسة كلها
أو بعضها مقابل رسم تدفعه الوزارة عنهم لهذه المدرسة " .

وطالما تمنيت أن أقف مثل هذه الموقف بعيدا عن دائرة
عملى الحكومى فى ميدان حر أرحب بمشروع حر كهذا
المشروع الذى نحتفل به اليوم " .
و" بمثل هذه الجهود المثمرة يهيا الشعب للاشتراك
الفعلى فى الميادين الاجتماعية " .

أما السيدة حرم الدكتور منصور فهمى ، فقد تضمنت كلمتها
فى هذه المناسبة الجليلة مايلى

" أن النهضة المصرية العامة تناولت فى هذا العصر الحديث
عدة نواح فى الإصلاح بفضل جهود الموفقين من ولاة الامور
وبفضل الغيورين من أبناء مصر على مصلحة البلاد . لكن مهما
بلغت بلادنا من الرقى فى النواحى الاقتصادية والصناعية وغيرها
فان بعض النواحى الاجتماعية عندنا لايزال فى طور نشأته الأولى ،
وفى مقدمتها رعاية الطفولة والأمومة ، ورفع مستوى الأسرة وتوطيد
أركانها وتقوية روابطها ، والعناية بذوى العاهات ، والنظر فى أدوار
المراهقة ومشاكلها ، وحماية الفتيات والفتيان من المفسد
والمغريات ، وتنظيم أوقات الفراغ ، ومشاكل ذلك من وجوه
الإصلاح مما يحتاج الى العاملين الصادقين " .

"و ذكرت لكم نبذة قصيرة عن أول معهد للخدمة الاجتماعية
نشأ فى القاهرة ، ويسرنى أنه أول معهد من نوعه فى البلاد
العربية ، وأن فى بوادر إنشائه مايبشر بنجاحه ، ولربما يباح لنا أن
نتطلع الى أمل مشروع ، ذلك أن تهىء الحكومة إدارة قوية منظمة
لرعاية الخدمة الاجتماعية أسوة بالحكومات التى اضطرتها شئون
الحياة العصرية الى تنظيم الجهود لتتبع مشاكلها " .

وعشنا فترات الدراسة فى السنة الأولى عام ١٩٣٧/١٩٣٨ ،
التي تضمنت علم الصحة الشخصية والإسعاف الأولى وعلم النفس
العام وعلم الصحة العقلية . وعلم الصحة العامة وعلم الاجتماع
وعلم الاقتصاد والمشاكل الريفية . ثم أستاذت الدراسة بالمدرسة
فى أكتوبر عام ١٩٣٨ . ونقل الى السنة الثانية طلبة السنة الأولى
الماضية البالغ عددهم ٦٥ طالبة وطالبا . وقد درسنا فى خلال
السنة الثانية موضوعات شتى ، أذكر منها طرق الخدمة
الاجتماعية ، ونظم الهيئات المشغلة بالخدمة الاجتماعية ،
ومشاكل العمال والتشريع الاجتماعى ، وأعمال الاندية والملاعب ،

القيادة ، ودراسات فى المسائل الريفية وفى الاجتماع والاقتصاد و فى مشاكل الاطفال المهملين والمتشردين وذوى العاهات ومن فى حكمهم . وقد اعد لدراسة هذه الموضوعات ٢٤٠ محاضرة .

وبالاضافة الى المحاضرات المدرسية اهتمت المدرسة بالدراسات العملية المتصلة بالامور النظرية . وكانت هذه الدراسات العملية عبارة عن زيارات وتقارير ومناقشات . ولتحقيق هذا الغرض كنا نقوم بزيارات الى المصانع والمستشفيات والمؤسسات الاجتماعية ودور الصحة العامة والملاجىء . وقد اشركتنا المدرسة مع السادة الأساتذة المحاضرين فى النشاط الاجتماعى حتى تقوى العلاقات الشخصية بيننا وبينهم من ناحية وبيننا وبين إدارة المدرسة وموظفيها من ناحية أخرى .

وفى صيف عام ١٩٣٨ اشتركت فى أول بحث علمى اجتماعى عن "مشكلة الفقر فى مصر فى عام ١٩٣٨" . وكنت ضمن ٥٦ طالبا أتموا الدراسة فى السنة الأولى بنجاح . وكانت المهمة التى قمنا بها مهمة العمل الميدانى لهذا البحث فى خلال شهر يوليو وأغسطس وسبتمبر . وكان عدد الاستثمارات التى ملأها كل طالب خمسين استمارة على الأقل ، تضم كل واحدة منها ٨٠ بنداً . وقد صيغت استمارة البحث فى ضوء بعض الحقائق التى جمعت عن المجتمع المصرى فى عام ١٩٣٨ . وكانت هذه الحقائق تدور كلها حول عوامل الفقر فى مصر سواء كانت عوامل اقتصادية أو صحية أو ثقافية أو أخلاقية .

وقبل أن نبدأ عملنا الميدانى . فأئنى أذكر أننا تدريبنا تدريبا خاصا للقيام بهذه المهمة . وفى يوم ٩ من شهر يونيو عام ١٩٣٨ قام الدكتور "ويندل كليلاند" (استاذ علم الاجتماع بالجامعة الامريكية بالقاهرة) بالقاء محاضرة عن موضوع "الفقر فى مصر" وقد تضمنت هذه المحاضرة شرحا لمفهوم الفقر والنظريات التى تحاول تفسير الفقر فى المجتمعات الانسانية ، ثم ذكر بعض مايراه

من عوامل مشكلة الفقر فى مصر سواء كانت اقتصادية أو صحية أو ثقافية أو أخلاقية . واذكر جيدا عندما تحدث عن العوامل الاقتصادية أنه ذكر أن الاجور فى الريف تتراوح ما بين قرشين ونصف وأربعة قروش فى اليوم ، وأن أجور العمال غير المهرة فى المدن تتراوح ما بين سبعة قروش وعشرة قروش يوميا . ولن أنسى مذكره عندما تحدث عن الدخل القومى فى عام ١٩٣٨ ، فقد بلغ حوالى مائتى مليون جنيه مصرى فقط ، أى حوالى ١٢ جنيها مصرى للشخص الواحد فى السنة . وأكد الدكتور كليلاند فى محاضراته عندما تحدث عن العوامل الصحية أن نسبة الوفيات فى مصر فى عام ١٩٣٨ كانت ٣١ فى الالف ، وأن حوالى ١٤ مليونا ونصف من السكان (عدد السكان فى نفس العام حوالى ١٦٣ مليون نسمة) كانوا مصابين بالتراكوما ، وأن حوالى ١٢٠ الف من السكان كانوا من المكفوفين ، وأن حوالى ١٠ ملايين من السكان كانوا مصابين بالبلهارسيا والانكلستوما . كما أكد سيادته أن نسبة الذكور الاميين الذين بلغت أعمارهم خمس سنوات فما فوق كانت نحو ٧٧٪ ، أما نسبة الاناث الاميات فى نفس فترة العمر فقد كانت نحو ٩٥٪ .

وقد اشتركت فى خريف نفس العام فى بحث بعض حالات الاحداث الجانحين الذين يحاكمون أمام محكمة الاحداث بالقاهرة .

وكانت تجربتى فى المجالين السابقين (البحث العلمى الاجتماعى وبحث حالات الاحداث الجانحين) التجربة الواقعية الأولى . ولن أنسى ما حييت الخبرات الثمينة التى اكتسبتها فى خلال هذه التجربة . كنت فى خلال جمع الحقائق اتصل اتصالا مباشرا بالواقع الحى للمجتمع . وكنت على الرغم من نشأتى فى أحد أحياء القاهرة المتخلفة ، أرى عجا ، وأعيش عن كثب حياة بعض المطحونات والمطحونين من بنات المجتمع المصرى فى ذلك الحين وأبنائه . وبالحال من حياة ! كانت حياة لآدمية ولا إنسانية ، فهى حياة الدرك الاسفل . ولن أنسى ما حييت ما حدث لى فى زيارة

لمسكن أحد الأحداث الجانحين وقد مكثت فيه نحو ساعة . وعندما عدت الى منزلى وجدت حشرات "البق" تجرى فى ملابسى وتمرح ، وأحسست بلذعتها فى جسدى وأطرافى . وكنت أدخل فى الصباح الى أحد المساكن والشمس فى الخارج ساطعة ولاأجد فيه الا الظلام الدامس ، وقد اجد نور مصباح الكيروسين مشتتلا أو لاأجد ذلك . وكنت أبحث عن عنوان المسكن فأجده بعد لآى ونصب "حوش قرافة" ولا أثاث فيه سوى الحصير . وأنا أذكر الآن نظرات الرجال والسيدات غير البريئة ، عندما كنت أدخل أحد المنازل سعيا وراء أهل الحدث الذى أقوم ببحث حالته . كنا الرواد فى هذا المجال . وكان الناس فى ضوء ظروفهم الثقافية الاجتماعية والاقتصادية يملأ الشك نفوسهم لأنهم لم يكونوا يتوقعون فى ذلك الحين خيرا من أحد .

وأنتنى أذكر أن الحدث الجانح الذى لم أجد عنوان مسكنه الا بعد لآى ونصب ، كان أول حدث قمت بدراسة حالته . كان ذلك الحدث أحد أبناء قسم الخليفة الذى ولدت فيه وعشت بين جنباته حتى بلغت سن السابعة والعشرين من عمرى . وكان قسم الخليفة فى ذلك الحين المكان الوحيد الذى أعرف كل شوارعه وحاراته وأزقته ، بل كل شبر فيه . فقد كان المكان الذى مارست فيه تجارى ، الخطوة منها والمرة على السواء ، طوال هذه الفترة من حياتى . وأنتنى أذكر ان الحالات التى كان على طلاب مدرسة الخدمة الاجتماعية أن يقوموا بدراستها كانت موجودة فى ملفات وكان كل ملف يحمل اسما لحدث وعنوانا لمحل إقامة أسرة هذا الحدث . وكنا ، الطلاب وأنا ، نذهب الى "ملجأ السيوفية" لنختار أسماء الاحداث وعناوينهم الذين نكلف ببحث حالاتهم . وقد اخترت أسماء الاحداث الذين يقيمون فى دائرة قسم الخليفة تيسيراً لى وللآخرين الذين لايعرفون عن قسم الخليفة شيئاً . وأنتنى أذكر أيضاً أنتنى عندما أخذت الأسماء والعناوين كنت على ثقة من أنتنى سأقوم بواجب بحث حالات الأحداث على الوجه الاكمل . فقد درست على المستوى النظرى مبادئ "طريقة خدمة الفرد" التى

تتضمن ضمن ماتتضمن تقبل العميل (أى الحدث) والبدء معه حيث يكون واحترامه واتاحة الفرصة له لكى يقرر مصيره أو أن يبدى تصويره على الأقل عن هذا المصير ثم الاحتفاظ بسرية البيانات التى تجمع عن العميل . وكنت على وعى بان تطبيق هذه المبادئ تختلف دقته باختلاف الأشخاص الباحثين . أى باختلاف مدى تدريبهم ومستوى خبراتهم الموضوعية .

وذهبت حاملا هذه المبادئ وهذا الوعى الى عنوان اول حدث أقوم بدراسة حالته فى حياتى . وكان العنوان فى جهة مامن "الخارطة الجديدة" حيث يقع مقام "سيدى التونسى" . وأذكر انى ذهبت فى أحد الايام حيث أجد هذا العنوان فى الساعة العاشرة صباحا ، وعدت الى منزلى فى الساعة الثالثة بعد ظهر . وكان يوما مشهودا فقد مكثت أبحث عن العنوان ساعات وساعات ، ولم أشأ أن أعود وأنا ابن قسم الخليفة بخفى حنين . وأننى أذكر أيضا أننى ذهبت من شارع الى حارة الى زقاق ولم أجد للعنوان أثرا . ولكن لم يفت ذلك فى عضدى . كنت أواجه التحدى الأول فى العمل التطبيقي فى ميدان مهنة الخدمة الاجتماعية أو بالأحرى فى مجال تطبيق طريقة خدمة الفرد . ولم أتوان فى السير على الاقدام فى كل مكان فى الخارطة الجديدة . ولم أتوان فى سؤال كل شخص فى المكان . وعندما عثرت على المكان حيث تقيم أسرة الحدث وجدته "حوش قرافة" . وكانت مفاجأة . أسرة بأعضائها وأثاثها تعيش مع الأموات ! لم يكن يدور بخلدى أن ذلك كان يحدث فى ذلك الحين . كنت فى ضوء خبراتى أعلم أن تعيش أم أرمل فى حوش قرافة "ابنها الوحيد" الذى مات وهو فى عنفوان شبابه . تعيش معه تؤنس وحدته أو تؤنس وحدتها تاركة الدنيا من وراء ظهرها وتعيش على أمل واحد هو أن تموت وتدفن معه فى يوم من الأيام . ولكن أن تعيش أسرة (زوج وزوجة وأطفال) فى حوش قرافة تتخذه مسكنا لها فى خريف عام ١٩٣٨ لم يكن فى الحسبان . وبقدر

ما فوجئت فأننى فجعت . فهأنذا آواجه الحياة التى يعيشها بعض أبناء وطنى وجهها لوجه . وعلى قدر ما كان فى جعبة خبراتى من حالات فقر مدقع واجهتها من قبل فأننى لم اجد مستوى من الفقر أقل مما وجدت عندما كنت أقوم بدراسة حالة أول حدث جانح متهم فى احدى الجرائم أمام محكمة الاحداث بالقاهرة . كان الاثاث وكأنه شبح " أثاث " لم اتبين من محتوياته الا الحصر الذى ينام عليه أعضاء الأسرة . وكانت الوجوه هى ايضا أشباح وجوه ووجوه " لقال لاتبين ملامحها فالقذارة تملأ كل محتوياتها ، والذباب ، فتحاتها وكانت سذاجتى تدعونى الى طرد الذباب من على . ه بىدى ، وكررت ذلك مرارا ولكنه كان يعود ! وتركت إقامة . الحدث الذى قمت بدراسة حالته بعد أن أدت واجبى والغصة تعتصر وتملك على حواسى . واننى أذكر أن المرارة فى فمى لم تبرحه الا بعد أيام . كانت تجربة ويا لها من تجربة عاشت معى أذكرها على الدوام ، وذلك لاننى عندما خرجت من حوش القرافة ، حيث تسكن فيه أسرة الحدث وتعيش حياة الاشباح بين الاموات ، الى شوارع الخارطة الجديدة ومنها الى شوارع الامامين (الامام الشافعى والامام الليثى) الى الشوارع التى تؤدى الى بيتى مروا بحى السيدة عائشة وبعض الحوارى والأزقة ، كنت شخصا آخر أحسست بأن عيني قد استبدلت بهما عينان أخريان . وأحسست بأننى لأرى أشياء أو أناسا وانما أرى ظواهر ومواقف وعلاقات اجتماعية . وكان شعورى بالضالة أمام ما أرى جارفا . ومنذ ذلك الحين أيقنت بأن المجتمع المصرى هو معمل اجتماعى ضخم أو هو موسوعة اجتماعية لا أول لها ولا آخر . وعلى الرغم من الشعور بالضالة الذى جرفنى فى ذلك الحين فقد ولد فى نفسى الحب الجارف لكى أرصد بأسلوب جديد يختلف عن الأسلوب الذى كنت أرصد به فى الماضى ، عشوائيا ، تجارىبى الاجتماعية ، وأصبحت أرصد عن وعى ، فى ضوء التغيير الذى حدث لى ، بعض ظواهر هذا المجتمع أو بعض المواقف الاجتماعية

التي بدأت أن أراها أو بعض العلاقات الاجتماعية التي لم أكن أجدها أمامي على الدوام . ومنذ تلك اللحظة أيقنت أن طموحي لن يقف عند هذا الحد بل سيتجاوز به الى محاولة قراءة بعض سطور من موسوعة المجتمع المصرى والى محاولة تفسير بعض ما اقرا .

وأنا أترك للقارىء أن يتصور حالتى الفكرية فى ضوء الخبرات السابقة وغيرها عندما اشتركت مع طالبات المدرسة وطلبتها فى الزيارات الى قرية " بهناى " لنعرف على الطبيعة كيف تعمل جمعية تعاونية ناجحة ، وعندما زرنا ملجأ الايتام غير الشرعيين بشارع " منصور " بالقرب من باب اللوق ، وعندما زرنا مصنع الزجاج الذى أنشأه العصامى " محمد السيد يسن " وعندما زرنا محلة الرواد بالطيبى ، وعندما تمت زيارة " مؤسسة الزفاف الملكى " التى كانت تقع أمام إدارة المرور بالعباسية . كانت الخبرات الجديدة فى ضوء الخبرات السابقة على التحاقى بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة خبرات واقعية واضحة لاضباب فيها يطمس معالمها . وكانت خبرات تهز العقل هذا فهو أمامها يعقلها ويحاول أن يحللها ليعرف عوامل وجود القبيح منها لكى يغيره الى ما هو جميل .. الى ما هو رشيد .. الى ما هو خير من أجل الانسان المصرى رجلا كان أو امرأة أو شابا أو صبيا أو صبية أو طفلا أو طفلة لكى يكون جميلا رشيدا خيرا . لقد كانت الصدمات الفكرية التى انبعثت من هذه الخبرات صدمات يسرت لى أن أفيق على الواقع الحى بالمصرى . آراه كما هو ، بحلوه ومره ، وكان على بالضرورة أن أغير منهج تفكيرى . بالفهم الموضوعى وبالعمل فى ضوء هذا الفهم . وانتهيت الى بعض الحقائق منها أن خير ما فى الانسان هو البذل فى سبيل الآخرين على أن يكون هذا البذل على أساس موضوعى . والبذل أو العطاء الانسانى الموضوعى لن يثمر الا اذا حرصنا على كرامة الانسان المتلقى ويسرنا له أن يسهم فى ضوء قدراته فى كسر القيود التى تكبله وتمنع هذا الاسهام سواء أكانت قيودا ثقافية اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية . أنظر إلينا

نحن الشباب الذين يزورون قرية بهناى لنرى ماغرسه الفلاحون من
ابنائها بالتعاون مع غيرهم من المتخصصين من بذور غير بذور
الارض التى تعودوا أجيالا متعاقبة على أن يغرسوها ، بذور تؤكد
التضافر والتأزر وتثمر الثمرات المعنوية المادية جميعا . تلك
الثمرات التى يسرت لهم الافتخار بذواتهم التى بالفهم الموضوعى
والعمل فى ضوء هذا الفهم وجدوها بعد أن ظلوا يبحثون عنها
أجيالا بعد أجيال .

وعندما زرنا ملجأ شارع منصور كان الوقع أليما حقا ، وكان
الواقع يبشر بالخير مع ذلك . كان الدكتور "على فؤاد" المسئول
عن رعاية الطفولة فى مصر فى ذلك الحين ، يصحبنا ليرشدنا .
ودخلنا نحن طلاب المدرسة باب الملجأ فماذا وجدنا ؟ وجدنا
الأطفال واقفين صفين ، ولم يزد سن الواحد منهم على سنتين أو
ربما زاد على ذلك قليلا . كان من بيننا الطلاب الذكور وكانت من
بيننا الطالبات الاناث . ومشينا بين الصفين . واذا بكل طفل يتعلق
برجلى كل واحد منا صائحا "بابا .. بابا" ، وكان يختار الطفل
أرجل الطلبة ويترك أرجل الطالبات . فالاطفال فى هذا الملجأ كانوا
لايرون الا الممرضات والحكيماط والطبيبة اللاتى كن يشرفن على
رعايتهم . لم يكن يرون الذكور فما أن رأوهم حتى تعلقوا بأرجلهم
صائحين "بابا .. بابا" . وأنا أذكر ما فعلت فى أثناء هذه الزيارة
وبعد هذه الزيارة . بكى قلبى وأنا بين أطفال ملجأ شارع منصور ،
وعندما ذهبت الى منزلى بكت عينائى مع قلبى ماشاء لهما أن تبكيا .
وكننت أقارن بين ماكان يفعله ، ومازالوا يفعلونه ، زملائى السابقون
من أعضاء الجمعية الشرعية أو جمعية السيدة عائشة ، من
الاعمال الصالحة كما يفهمونها وبين مايفعله المسئولون على أطفال
ملجأ شارع منصور من الأعمال الصالحة كما يفهمونها . ورأيت
الفرق بين هذه الأعمال الصالحة وتلك ، وكان الفرق شاسعا . لقد
أصبحت بقلبى وعقلى مع الاخيرين . وتأكد لى أن الدين لايرى الا
أن يعمل العاملون المخلصون من أهله من أجل تكوين المواطن

الصالح أولا وأخرا . أى أن الاهتمام بهؤلاء الأطفال اهتماما عاقلا رشيدا لكي يكونوا فى مستقبل حياتهم أعضاء نافعين يؤدون أدوارهم الاجتماعية كما يتوقعها منهم المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون خير من أن يقوم رجل طيب ، مثلا ، بجمع الأوراق من شوارع القاهرة وحاراتها وأزقتها لكي يحرقها بعد ذلك لان المكتوب فيها مكتوب باللغة العربية التى هى لغة القرآن الكريم .

وسأذكر على الدوام ذلك الرجل العصامى "محمد السيد يسن" لقد نظمت المدرسة الزيارة الى مصنعه المعروف فى يوم محدد وفى ساعة محددة . وذهبنا فى الموعد المحدد وكانت تصحبنا السيدة "برتا فهمى" عميدة المدرسة . فاذا بالرجل يسمح للطالبات والطلبة بالدخول ويرفض السماح للعميدة . فهى أجنبية . ويبرر مافعل بقوله أنه ساح فى الأرض فى البلاد الاوربية حيث يشتهر بعضها بصناعة الزجاج ، فرفضت ادارات المصانع السماح له بزيارة مصانعها عندما رغب فى ذلك . وهامى ذى الفرصة قد وافته ليرد الصاع صاعين ، وليرغم العميدة الأجنبية أن تنتظر فى مكتبه حتى تنتهى زيارتنا للمصنع . أصر الرجل على ذلك ، وصدعت العميدة بما أمرت . وشاهدنا ماحدث وسمعنا مادار من مناقشات وأكبرنا الرجل الذى وأن أكد لنا عصاميته فانه لم يؤكد لنا مع الاسف معنى واحدا من معانى الوطنية الرشيدة .

وعندما زرنا "محلة الرواد بالطيبى" التى توجد بجوار "السلكانه" ، وكانت الزيارة فى خلال نفس العام أى فى خلال عام ١٩٣٨ ، وجدنا أنها أنشئت فى خلال عام ١٩٣٠ (أى فى العام الذى توفى فيه والدى واضطرت من أجل ذلك الى ترك مدرسة الخديوية الثانوية اضطرارا) . وانها ثمرة جهود جماعة مصرية أطلقت على نفسها "جماعة الرواد" . وكنت لمست جهود هذه الجماعة لأول مرة فى عام ١٩٣٥ . وكان زيارتى فى ذلك الحين عابرة . ولكنها تركت فى نفسى بعض الآثار الطيبة . وعندما زرنا "المحلة" فى عام ١٩٣٨ علمنا ، الطلاب وأنا ، ان جماعة الرواد

قد تألفت على يد نخبة من الشباب المصرى المثقف من الذين عادوا من بعثاتهم فى الخارج وقد أصبحوا بعد عودتهم من قادة المجتمع المصرى الثقافيين . وعندما أحسوا بالمشاكل التى كان يعانى منها المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، استقر رأيهم على أن هدف الأهداف هو تكوين المواطن الصالح الذى يؤمن بالمثل العليا الروحية والفكرية والخلقية ، ويعمل على تحقيقها ، ويشعر بواجبه نحو المجتمع ، ويبذل الجهد فى سبيل خدمته - وفى ضوء شعار اتخذه نبراسا لهم وهاديا هو "قوة الوطن فى قوة الفرد" . ولتحقيق هذا الهدف رأت جماعة الرواد إقامة "محلات" فى بعض الأحياء المحلية فى مدينة القاهرة باعتبارها مراكز اجتماعية فى هذه الأحياء تعمل على خدمة أهل الحى وتوجيههم ليكونوا مواطنين صالحين . وذلك عن طريق الاتصال المباشر بالمواطنين الأقل حظا فى المجتمع للتعرف على ظروفهم ومشاكلهم الاجتماعية وإزالة العوائق التى تقف فى سبيل تنميتهم وتقديمهم . ولم تكتف جماعة الرواد بذلك بل وجهت نشاطها نحو الشباب الجامعى ومن فى مستواه بقصد تحقيق نفس الهدف أى ليكون أعضاؤه مواطنين صالحين .^٨

وعلى الرغم من الآثار التى تركتها هذه الزيارة فى نفوسنا ، وكانت أثارا عميقة عميقة . فقد كان احساس زميلاتى وزملائى أن كل الخدمات التى كانت تؤدى فى المحلة خدمات جاءت من متطوعين . فكنت ترى أستاذ الجامعة وهو يلعب ابنا من أبناء حى الطيبى "لعبة تنس الطاولة" ، وقد ينتصر عليه هذا الابن الفقير وقد لا ينتصر ولكن الروح الرياضية كانت هى السائدة فى كل الاحوال . وكنت ترى المهندس المرموق وهو يشترك فى "لعبة كرة السلة" أو يقوم بدور "الحكم" والسعادة بأداء الواجب تشع من عينيه وتبدو ساطعة فى كل ملمح من ملامح وجهه . ومع ذلك ، وعلى الرغم من اعجابنا ، فقد كنا نرى أن الاختصاصى الاجتماعى "المحترف" كان الاولى بأن يشترك مع جماعة أعضاء المحلة و يقودهم . اننا كنا نرى ، الطلاب الزائرون وأنا ، ان التطوع وان

كان فى ضوء ظروف المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، والى أن يحين الحين ، ضروريا ، فاننا كنا ومازلنا نحبذ التطوع غير المشرف . ولكن التطوع فى محلة الرواد كان هو التطوع المشرف

وبحكم كونى أحد طلاب مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فقد علمت بإنشاء "مؤسسة الزفاف الملكى" عند حدوثه فى خلال شهر ديسمبر عام ١٩٢٨ . وقد أقيمت هذه المؤسسة بالمال الذى تم جمعه بواسطة لجنة الاحتفال بذكرى الزفاف الأولى "للملك فاروق" الذى وافق يوم ٢٠ من شهر يناير عام ١٩٢٨ . وكان الملك فاروق قد اعتلى عرش مصر عقب وفاة والده "الملك فؤاد" الذى مات فى يوم ٢٨ من شهر ابريل عام ١٩٢٦ أى قبل امضاء معاهدة عام ١٩٢٦ (التي أمضيت فعلا فى لندن يوم ٢٦ من شهر اغسطس عام ١٩٣٦) . واننى اذكر أنه ماأن أمضيت هذه المعاهدة حتى ارتفعت الاصوات بالمطالبة بنصيب الفلاح من حماية القانون ، وباصلاح القضاء ، وبتنفيذ القرية النموذجية ، وبالحاجة الى سياسة قومية ثابتة تتناول جميع وجوه الاصلاح ، وتنظيم البيت بعد ابرام المعاهدة . ودعا "طه حسين" الى ثورة عقلية فى كلية الآداب فى يوم ١٧ من شهر اكتوبر عام ١٩٣٦ . وعقد مؤتمر الطفولة فى شهر نوفمبر عام ١٩٣٦ . ثم تكونت فى كلية الحقوق فى يوم ٢١ من شهر نوفمبر عام ١٩٣٦ "لجنة اسبوع المعاهدة" لكى تنظم سلسلة من المحاضرات . وقد حضرت هذه المحاضرات جميعا . ولايمكن أن أنسى ماتركته هذه المحاضرات فى نفسى من آثار . فاننا أذكر حتى الآن بعض ماقله طه حسين : "يسألوننى عن واجبنا الادبى بعد المعاهدة . وأقول لكم : واجبنا الأول والثانى والثالث والأخير هو أن نكون أحرارا" و"إذا كنا فى عصر جديد قوامه النهضة والنشاط والحرية فلا أقل من أن يعلن المظلومون ماتجيش نفوسهم من الخواطر والآلام" .

ولم يتيسر لى زيارة "مؤسسة الزفاف الملكى" فى خلال الفترة من شهر ديسمبر عام ١٩٢٨ (شهر افتتاحها) حتى يوم ٢٠

من شهر مايو عام ١٩٣٩ (يوم استقالتي من مصلحة الحدود لأعمل بها كأخصائى اجتماعى محترف) سوى مرة واحدة وكنت وحدى واحسست فى أثناء هذه الزيارة ، وكأن هذا الاحساس الهام . بأن بعض مصيرى قد ارتبط بهذه المؤسسة والملاحظ ان انشاء « الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية » فى شهر مايو عام ١٩٣٧ قد سد فراغا كانت تشعر به مصرنا الخالدة . ومما يدل على ذلك ان كثيرين قد التجأوا اليها يطلبون النصح والارشاد فى كثير من الشئون الاجتماعية الهامة . وفى خلال عام ١٩٣٧ اهتم مجلس ادارة الجمعية بدراسة « مشكلة الأطفال المشردين فى مدينة القاهرة » بناء على طلب جمعية انشئت لانقاذهم تسمى « جماعة انقاذ الطفولة المشردة » برئاسة « الدكتور على ابراهيم » ، إذ وضعت هذه الجماعة اقتراحا بانشاء مؤسسة لايواء الأطفال المشردين وقدمته الى محافظ القاهرة فى ذلك الحين (عبدالسلام الشاذلى باشا) الذى وعد بالعمل على تنفيذه . فدرس مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية هذا الاقتراح دراسة عميقة ، ووضع بشأنه تقريراً وافياً ، كما وضع الميزانية التى يراها صالحة لتنفيذ هذا المشروع المفيد .

وعندما قدم الدكتور « ويندل كلياند » تقريره عن البحث العلمى الاجتماعى لدراسة « مشكلة الفقر فى مصر عام ١٩٣٨ » الى اجتماع الجمعية العمومية للجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية المنعقد فى يوم ٢٩ من شهر ابريل عام ١٩٣٨ ، ذكر محافظ القاهرة وكان حاضرا ، ان هذا البحث متصل اتصالا وثيقا باحد المشروعات التى يهتم بها وهو مشروع « جمع اولاد الشوارع المشردين فى محافظة القاهرة » ثم ارسالهم الى المزارع التى قد تنشأ خصيصا لهذا الغرض حيث يدربون فيها على الاعمال الزراعية وبعض المهن الأخرى المتعلقة بفلاحة الارض التى تكفل لهم اكتساب رزقهم من طرق شريفة وتحميهم من التشرد . وقد بلغ اهتمام المحافظ بمشروع هذا البحث الى الدرجة التى دفعته الى التبرع فى اجتماع الجمعية العمومية المشار اليه فى الحال بمبلغ

خمسين جنيتها مصرياً تشجيعاً للقيام به .

ومن الملاحظ ان الاهتمام بمشكلة « أولاد الشوارع المشردين فى محافظة القاهرة » كان احد الاهتمامات الرئيسية « لاتحاد المشتغلين بالخدمة الاجتماعية بالقاهرة » (شهر يناير عام ١٩٢٧ - شهر فبراير ١٩٢٨) قبل ان يصبح شهر فبراير عام ١٩٢٨ جزءاً من الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، وجعل قسماً خاصاً سمي « قسم الاخصائيين الاجتماعيين » . فقد قام هذا الاتحاد فى خلال شهر يونيو عام ١٩٢٧ بمساعدة رجال الشرطة ، بدراسة ٥٠ طفلاً كانوا ينامون فى شوارع محافظة القاهرة فيما بين الساعة الثانية عشرة (منتصف الليل) حتى الساعة الثالثة صباحاً . وكان يجمع هؤلاء الأطفال فى كل ليلة ثم يودعون فى قسم الشرطة حتى الصباح حين يتناول طعام الإفطار ، ثم يقوم المشرفون على هذه الدراسة بمقابلة كل طفل على حدة للتعرف على مشاكله وعنوان أسرته التوجيهية او على عنوان اقاربه او جيرانه للتأكد من البيانات التى يدلى بها . وقد تبين ان كل هؤلاء الأطفال يتامى ماعدا طفلاً واحداً ، كما تبين ان بعض هؤلاء الأطفال قد ارسلهم ذوهم الذين يعيشون فى مدن محافظات الوجه القبلى وقراها ليكونوا تحت رعاية بعض الأقارب الذين يعيشون فى محافظة القاهرة ، اما باقى الأطفال وهم الأغلبية فقد جاءوا من أسر تعيش فى محافظة القاهرة . وقد لاحظت هذه الدراسة ان العوامل التى دفعت هؤلاء الأطفال الى الحياة فى الشوارع ، سواء كانت مباشرة او غير مباشرة ، عديدة . ومن اهم هذه العوامل كما رأت الدراسة مايلي :

- الطلاق المتكرر فى الأسر التوجيهية ، وتكرار زواج الابوين او احدهما . فقد تبين ان هذا العامل موجود فى محيط ثلث الأطفال الذين تمت دراستهم .

- عجز الآباء او الأقارب عن القيام بتربيتهم . فقد تبين ان هذا العامل موجود فى محيط ثلث آخر من الأطفال الذين تمت دراستهم . وكان اهم عوامل هذا العجز وفاة الوالدين او احدهما ،

وسوء سلوك احد الابوين ، وتشغيل الطفل فى سن مبكرة وتحت ظروف عمل صعبة ، فضلا عن الجهل بالقيام بتنشئة الطفل .

وفى صيف عام ١٩٢٨ حقق عبدالسلام الشاذلى محافظ القاهرة مشروع « جمع اولاد الشوارع: المشردين فى محافظة القاهرة ، فجمع هؤلاء الاولاد ولم يكن من وراء جمعهم مآرب الا ان يرسلهم . كما سبق ان اوضحت ، الى المزارع التى انشأها لهذا الغرض كمزرعة « السرو » ومزرعة « كفرسعد » و « معسكر كوم امبو » ، حيث يدربون فيها على الاعمال الزراعية وبعض المهن الأخرى المتعلقة بفلاحة الأرض والتى تكفل لهم اكتساب رزقهم من طرق شريفة وتحميهم من التشرد ، وقد تكدست جموع الأطفال المجموعين ، وكثرت اعدادهم ، واختلط حابلهم بنابلهم ، واجتمع البريء مع غير البريء ، والمريض مع السليم ، والعاطل مع العامل ، ورافق الشرير البار ، والطيب الخبيث ، وزامل الصالح الطالح ، وعاش ضعيف العقل مع الذكى ، كما عاش الصغير مع الكبير ، واصبح الأطفال فى مجموعهم تشكيلة من كل صنف ، تشكيلة آدمية عجيبه وضعت فى اماكن لاتقل عنها غرابه ولا شذوذا . فوضع عدد لا يستهان به من هؤلاء الاولاد المجموعين ، عدا من ارسل منهم الى المزارع ، فى ملاجىء العجز والعجزة فى محافظة القاهرة .

ولايمكن ان انسى مارأيت عندما قام طالبات مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة وطلبتها ، وكنت معهم ، بزيارة هذه الملاجىء ومنها « ملجأ السيوفية » و « ملجأ درب الحجر » و « ملجأ الهياثم » وكلها ملاجىء قد خصصت للعجز والعجزة من النساء والرجال ، رأينا البنات والاولاد المجموعين من شوارع القاهرة وقد عاشوا بينهم جنبا الى جنب فترة طويلة من الزمان . رأيناهم إذ يحيون هذه الحياة وكأنهم قد صبوا فى قالب آخر وحولوا الى عقول أخرى . فقد خرجت بهم هذه الحياة من عالم ودخلت بهم فى عالم آخر . وبدا لنا ان الفترة التى عاشوها بين جدران هذه الملاجىء .

قد ايقظت فى نفوسهم البريئة معانى غير بريئة ، معانى الاستهتار
والشره ، ومعانى الرذيلة بأنماطها ، ومعانى الفجور والعادات
المستقبة ، ومعانى المعاملة الشاذة القاسية . كانت فترة من
الزمان زادت فى امراضهم الجسمية كما ضاعفت امراضهم
النفسية ، وجعلت مافى داخلهم من معالم حسنة خرابا وبيابا .

ومما يعزز هذا الوصف وينفى عنه المغالاة والتهويل ماكانت
تنشره الصحف السيارة فى تلك الفترة ، من حين الى حين ، عن
الحوادث التى كانت تحدث فى هذه الملاجىء ، وأذكر فى هذا
الصدد مانشرته جريدة الاهرام فى يوم ٢٠ من شهر اكتوبر عام
١٩٣٩ تحت عنوان « لاجىء يصنع المخدرات ويتجر بها فى
الملاجىء » :

تلقى بوليس السيدة زينب امس بلاغا من ملجأ الهياتم بأن
المرض ... وجد بحالة ذهول ولا يستطيع النطق ، ورجحت
إدارة الملجأ انه تعاطى مادة مخدرة يوزعها لاجىء يدعى
.... فانتقل ضابط المباحث الى الملجأ ، ونقل المصاب الى
المستشفى ، ولما فتش اللاجىء ، عثر معه على مادة
مخدرة ، قال اللاجىء إنها مكونة من جوزة الطيب وبعض
مواد العطارة . وتبين ان بعض الممرضين يجلبون هذه
المواد للاجىء فيعدها للتناول ويتجر فيها بداخل الملجأ .

ووضع هؤلاء الاولاد : اولاد الشوارع المشردين فى محافظة
القاهرة ، فى هذه الاماكن الموسومة لان المزارع لم تكفهم وقد
اراد صاحب المشروع زيادة عدد هذه المزارع ولكنه اصطدم
بعقبة تدبير المال اللازم للتوسع فى هذا المشروع بحيث يشمل
فائدته اكبر عدد ممكن من الاولاد المجموعين . وقد اسقط فى يده .
فهو قد بدأ عملا دون ان يخطط له التخطيط العلمى السليم . لقد
تصور هذا الرجل انه بمجرد جمع الاولاد من الشوارع ، فان
المشكلة قد حلت . لم يدرس مثلا حجم هؤلاء الاولاد حتى يتأكد
من انشاء مايكفيهم من مزارع . اولم يتصور ابدا ان الحدث ذا

العشرة السنوات ، او اكثر ، من العمر الذى عاش فى المدينة وولد فيها وترعرع ، وعرف الشوارع الفسيحة ودور اللهو وبخاصة دور السينما لا يمكن ان يتوقع ان يستأنف العمل فى مزرعة من المزارع بعد مرور هذا الزمن وهو يعيش فى ظل مناخ ثقافى اجتماعى يختلف اختلافا كبيرا عن المناخ الثقافى الاجتماعى فى القرية او القرى حيث توجد (او تنشأ) هذه المزارع . لقد فعل المحافظ فى ذلك الحين ماكان يفعله العديد من ذوى السلطان والسلطة من قبله ، ويبدو ان ما فعله استمر فى ضوء هذا الاسلوب من التفكير من بعده . ولكى يواجه المحافظ المآزق الذى وجد نفسه إزاءه أخذ رأى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ، فاقتربت ادارة المدرسة عليه إنشاء مؤسسة تؤدى وظيفة « دار الملاحظة » حيث تدرس فيها حالة الاولاد المجموعين قبل ارسالهم الى المزارع ، حتى اذا وجد منهم من يمكن الحاقه بمعهد تربوى صالح ألحق به ، او من يمكن اعادته الى اهله او الى مدرسته او الى عمله اعيد بعد ان يعالج صحيا ونفسيا ، ولم يتردد صاحب المشروع فى الاخذ بهذا الاقتراح . اقام هذه المؤسسة بالمال الذى كان قد جمعه بوساطة لجنة الاحتفال بذكرى الزفاف الأولى للملك فاروق . واطلق على هذه المؤسسة « مؤسسة الزفاف الملكى » ، على ان يدبر المال اللازم للصرف على المؤسسة من التبرعات التى كانت تجمع لارسال ابناء الفقراء الى المصايف (وتم افتتاح المؤسسة) ، كما ذكرت من قبل ، فى غضون شهر ديسمبر ١٩٣٨ . وعهد الى « السيدة الزا ثابت » بالاشراف عليها وادارتها ، وهى اخصائية اجتماعية تخرجت من مدرسة الخدمة الاجتماعية بسويسرا ، وجاءت الى مصر فى اواخر عام ١٩٣٤ . ومنذ أن وطئت قدمها ارض مصر وهى تعمل فى ميادين مهنة الخدمة الاجتماعية وفى مجالاتها حتى كتابة هذه السطور . وقد جاءت السيدة الزا الى مصرنا الخالدة فى ذلك التاريخ لكى تنشئ « دار الحضانة الدولية بالقاهرة » للعناية باطفال الامهات العاملات ، واستمرت تعمل فى هذا المجال حتى

آخر شهر مارس عام ١٩٣٥ . وفى شهر نوفمبر عام ١٩٣٥ عملت السيدة الزا فى « مكتب العمل بالقاهرة » التابع لجمعية الشابات المسيحيات بالقاهرة . واستمرت فى عملها هذا حتى يوم ٣١ من شهر ديسمبر عام ١٩٣٦ . وفى أثناء عمل السيدة الزا بجمعية الشابات المسيحيات بالقاهرة ، اتصلت بالسيدة « برتا فهمى » حرم الاستاذ كمال الدين فهمى (عميدة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فيما بعد) وهى اميريكية الجنسية ودرست مهنة الخدمة الاجتماعية فى الولايات المتحدة الامريكية ، واقرحت عليها فكرة انشاء مدرسة للخدمة الاجتماعية لتدريب المصريين انفسهم ، بنات البلاد وابنائها ، ليصبحوا اخصائيين اجتماعيين مهنيين . وتكون « اتحاد المشتغلين بالخدمة الاجتماعية بالقاهرة » فى اول يناير عام ١٩٣٧ لدراسة ايسر الطرق لتحقيق هذه الفكرة . وعهد الى السيدة الزا بسكرتارية هذا الاتحاد . وكان اهم الاعضاء الذين يضمهم الاتحاد السيدة الزا ثابت والسيدة برتا فهمى والانسة مارى ديفونشير (انجليزية ومولدة بحكم المهنة وعضو الاتحاد الدولى لرعاية المرأة والطفل بالقاهرة) والدكتور ويندل كليلاند ، وكلهم اشخاص مهنيون ، وكانوا بدورهم اعضاء فى مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية الاول الذى انشأ « مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة » التى تحدد موعد افتتاحها فى يوم ١٦ من شهر اكتوبر عام ١٩٣٧ .

وقبل ان تنشأ مؤسسة الزفاف الملكى تحددت أغراضها . وكان أهم الأغراض التى أنشئت من أجلها فى ذلك الحين مايلى - تهيئة بيئة صالحة لجمع شتات الاطفال (الذكور) الذين يقبض عليهم رجال البوليس من الشوارع والحارات بمدينة القاهرة .

- بحث حالة كل ولد من هؤلاء الاولاد بحثا اجتماعيا .
- علاج المرضى من الاولاد علاجا طبيا
- كتابة تقرير عن كل ولد ، فى ضوء المعلومات التى تجمع ،

يقترح فيه التوجيه الصالح له وكان هذا التوجيه لايعدوا
إرسال الولد الى المزارع أو إلحاقه بمعهد تربوى أو بأحد
المصانع أو بتسليمه لذويه .
- اتباع الاساليب التربوية الحديثة فى معاملة الاولاد .

وقد كان لانشاء هذه المؤسسة صدى بعيد الأثر . فقد جاء
تصريفا لعدد كبير من الاولاد المودعين بملجأى درب الحجر
والهياتم ، وهما المعدان للعجز والعجزة من الرجال ، كما جاء انقاذاً
لهم من بيئة هم أولى المخلوقين بالبعد عنها .

وقد أبلغنا نحن طالبات وطلبة مدرسة الخدمة الاجتماعية
بالقاهرة أنه من أجل أن تتمكن المدرسة من رفع مستوى التدريب
وتوفير الوقت الكافى له مدة فصل الشتاء ، جعلت مدة الدراسة
عامين وسبعة أشهر بدلاً من عامين فقط . وجعلت المدة الأخيرة
للتفريغ للنواحى العملية وتحضير "رسالة" عن مشكلة من
المشاكل الاجتماعية فى مصر . وجاء العام الثالث فى حياة
المدرسة . وكان عاما على جانب عظيم من الأهمية والخطر
لابلنسبة الى المدرسة وحدها بل بالنسبة الى مهنة الخدمة
الاجتماعية فى مصرنا الخالدة . ففى ١٨ من شهر اغسطس عام
١٩٣٩ قام "على ماهر باشا" (رئيس الجمعية المصرية للدراسات
الاجتماعية فى ذلك الحين) بتأليف وزارة جديدة . ولأول مرة
أنشئت وزارة للشئون الاجتماعية فى مصرنا الخالدة . وكان يعنى
إنشاء هذه الوزارة ببرنامجها الواسع الشامل للإصلاح
الاجتماعى ، واهتمام الجمهور بالمشاكل الاجتماعية ، ان الحاجة
الى اعداد اخصائيين مهنيين أصبحت أشد وأعظم مما كانت عليه
من قبل . وقد ادركت الوزارة الجديدة هذه الحاجة تمام الادراك .
واكد وزيرها "عبد الرحمن عزام باشا" فى محاضرة ألقاها عن
الأغراض التى ترمى اليها وزارة الشئون الاجتماعية فقال :

"نظرا لأن الخدمة الاجتماعية عمل جديد شاق ومعقد فى أن واحد ، فان سياسة الوزارة متجهة الى استخدام الاختصاصيين الاجتماعيين فى جميع المشروعات والمعاهد الاجتماعية حتى نستطيع أن نسدى الى الافراد الذين نريد مساعدتهم أفضل الخدمات وأنفعها . وفى عزم الوزارة أن تشجع تعليم الاختصاصيين وتمرينهم التمرين الكافى لكى تصبح الخدمة الاجتماعية حرفة يتخصص صاحبها لدراستها والتفوق فيها . وكذلك لابد من تشجيع المتطوعين الذين يميلون الى أداء تلك الخدمات " .

وبينما كنت فى حياتى الجديدة فى خلال هذه الفترة الحاسمة من حياتى ، والتي بدأت فى يوم ١٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٢٧ وحتى منتصف العام الدراسى الثانى ، أى فى غضون شهر ديسمبر عام ١٩٢٨ - واجهت موقفا اجتماعيا لم أكن أتوقعه . كنت منذ ان تركت "الجمعية الشرعية" (الأم) ومنذ ان استقلت من مجلس ادارة "جمعية حى السيدة عائشة" (الفرع) ، أقابل أعضاء جماعتي المرجعية القديمة أو بعضهم مرة فى كل أسبوع . وكانت تجمعنا صلاة يوم الجمعة عادة . وكنت أؤدى هذه الصلاة فى "الزاوية" التى أسهمت فى إنشائها . وذات يوم بعد صلاة الجمعة خرجنا كجماعة من الزاوية الى بيوتنا ، ودعانا أحدهم الى بيته وكان قريبا من بيتى . ولم تمر لحظات حتى وجدت نفسى بين عشرة من الشبان اوريا اكثر من ذلك عددا . كنا بعد الصلاة وكان على كل واحد منا ان يذهب الى حال سبيله ، ولكنى وجدت نفسى وهؤلاء من حولى نجلس فى احدى الغرف فى الدور الأرضى من البيت الذى يملكه ابو الداعى . وبدأ أحدهم يوجه الكلام الى . بدأ معانبا ثم اشتدت لهجته وصار مؤنبا ، ثم صاح صيحة نكراء يندد بى ، وبدأ الآخرون واحدا بعد الآخر يفعلون ما فعله الأول ، يعاتبون ويؤنبون وينددون . وكنت صامتا . لم استطع ان اقول شيئا . ولم اعط الفرصة لكى ارد على احد . وكانت المعاتبة وكان التأنيب وكان

التنديد ، كما قالوا ، لأننى خرجت على الجماعة . لم يدر احد منهم ماكان يدور فى خلدى ، ولم يحاولوا ان يعرفوا ماذا كانت اهدافى ؟
إنهم كانوا يعيشون ولا يرون شيئاً حتى مابين اقدامهم او باهو على مرأى منهم . إن حياتهم الفكرية كانت ضيقة ضيق افقهم ، او ان ضيق افقهم كان ينبثق من ضيق حياتهم الفكرية ، ولكنى لم استطع ان اقول لهم ذلك . كنت كالفار الذى وجد نفسه فى « مصيدة » لقد نصبوا هم هذه المصيدة لى دون ماسابق اعلان او انذار . اننى لم اودى منهم احدا . ان مافعلته كان امرا يحكم عليه إله الاسلام وحده ، ولكنهم كان قد نصبوا انفسهم حكاما . ووضعونى فى قفص الاتهام لاننى اعدت وجهى الى حالته الاولى . ولم يروا انماط سلوكى التى بقيت كما كانت وان تغير شكل وجهى . كانوا أشخاصا ظالمين . ومن اجل ذلك انتزعت نفسى من بينهم والبكاء يخنقنى ، وسرت فى الشارع الى بيتى وانا لا أرى شيئاً . كنت وكأننى اعيش كابوسا مروعا . كانوا هم هذا الكابوس ، او بالاحرى كانت كلماتهم وعباراتهم التى قذفوها فى وجهى ، ولم يروا أن من حقى أن يسمعوا ما اذاع به عن نفسى من كلمات أو عبارات ، عوامل هذا الكابوس ، وذهبت الى البيت ، ورأتنى أمى ، كما رأتنى زوجتى ، ولكنى تحولت الى كتف أمى وأنا أجأ بالشكوى باكيا . وعندما قلت لأمى ماحدث ، دقت باحدى يديها على صدرها الحنون وقالت لى محذرة « لاتراهم ياسيد بعد اليوم » ثم أردفت معقبة « إنها الغيرة التى تأكل صدورهم المظلمة بالحدق » وبسذاجة الحكيم لخصت الموقف قائلة « لو كان عندهم ايمان مافعلوا ذلك » ثم رفعت يديها الى السماء داعية « روح ياسيد يا ابن بطنى يجعل جسمى وشعر بدنى راضى عليك » . وشاركتها زوجتى الافكار كلها . ورأيت نفسى وقد هدا روعى أن أصر على أن لأرى عضوا من هذه الجماعة بعد اليوم .

ولم تمر أيام قليلة حتى جاء صديقى « محمد بدر » يستأذن لأحد مشايخ الجمعية ليحضر الى منزلى ليقابلنى . ولم أشأ أن

أرفض ذلك . فهو شيخ جليل أولا ثم هو سيكون ضيفا عندى ثانيا . وعندما جاء هذا الشيخ أستنكر كل ما فعله هؤلاء وندد بتصرفاتهم وأبلغنى بأن مندوبين عنهم سيحضرون ليعتذروا عما بدر منهم . وقال ضمن ماقال « انما الاعمال بالنيات ولكل أمرئ أمرئ ما نوى » و « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » . ثم استطرد وهو يقول « عن الحسن عن ابى الحسن عن جد الحسن أن أحسن الحسن الخلق الحسن » . وقال كلاما كثيرا وكان كلاما كريما . وجاء الاخوان وعادت المياه الى مجاريها . وافسحت لهم صدرى وذكرت لهم بعض أرائى وما يجب نحن الشبان ان نقوم به . كانت خبراتى الجديدة المتجددة التى اكتسبتها من مدرسة الخدمة الاجتماعية ومن الزيارات الميدانية فى الريف وفى الحضر ومن قيامى باجراء البحوث والدراسات عن الواقع الحى للمجتمع المصرى . كلها وغيرها . وهى التى املت ما ذكرته لهم . لقد قلت ما قلت ان العمل الصالح هو ان نسهم فى تكوين المواطنين الصالحين ، وان تكوين المواطنين الصالحين لا يمكن ان يقوم به جهاز واحد من اجهزة التنشئة الاجتماعية التى يعدها المجتمع لهذا الهدف العظيم . فهذه الاجهزة عديدة منها الاسرة ومنها الجيرة ومنها المدرسة ومنها المنظمة الدينية ومنها منظمة شغل الفراغ ومنها جهاز الثقافة (الصحافة والمجلات والكتب فضلا عن المسرح والسينما) . وانه لكى نفيد من هذه الاجهزة او من بعضها لابد لنا من دراسة المجتمع المصرى المعاصر اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وسياسيا . وانه لكى نفعل كل ذلك فلنبدأ فى تكوين جمعية تتحدد اغراضها من اجل تحقيق هذا الهدف العظيم .. هدف تكوين المواطنين الصالحين . وكانت مهمتى صعبة للغاية . ولكننى لم اياأس . وتحدثت مع بعض الأعضاء ، وكانوا من الصفوة بينهم ، طويلا حتى اقتنعوا . وقد اصررت على ضرورة العثور على مقر لائق للجمعية أولا . ووجد المقر بالحلمية الجديدة . ولم يبق الا الأثاث . فتبرع العديد منا بالنقود من اجل ذلك . وكان تبرعى عبارة عن اثاث

حجرة المائدة المكون من « ترابيزة » وستة كراسى من المصنوعة من الجلد ليكون اثاث حجرة الاجتماعات ، فضلا عن مكتب من الخشب الزان وكرسى خاص به ، وكان اثاث حجرة المائدة ضمن اثاث زوجتى المسجل فى قائمة وقعت عليها عند زواجنا بالاستلام ، أما المكتب فقد كان من مخلفات الوكالة ، وتكون مجلس ادارة الجمعية الجديدة وعينت « سكرتيرا » له ، ثم وضع برنامج لافتتاح الجمعية وافق عليه مجلس ادارة الجمعية الشرعية (الأم) . وتحدد يوم الافتتاح فى غصون شهر مارس عام ١٩٢٩ . وكان يوم الافتتاح يوما مشهودا حضره اعضاء الجمعية الشرعية وفروعها من كل مكان . وقد ضاق مقر الجمعية الجديدة على اتساعه او كاد . وكنت ترى الحاضرين وهم فى ملابسهم الزاهية وجوههم مستبشرة وبيادلون بعضهم بعضا المحبة والحنان والسلام . ولم يدخل واحد منهم الا وقد دفع تبرعا . وكنت ترى النقود الفضية تملأ الاوعية والأوانى التى يحملها المسئولون عن جمعها . وعندما ملئت الأوانى جعل هؤلاء المسئولون من أنيال جلابيهم اوعية واوانى فتراها وقد امتلأت وهى تلمع عاكسة انوار الثريات الكهربائية التى تبرع بالاشراف على تركيبها بعض الاعضاء الحرفيين . كان يوما وكأنه يوم فرح للجماعة بل فرح لكل عضو فيها . استبشروا بالجمعية الجديدة خيرا . رأوا ان يخرجوا الى المجتمع واعضائه لكي يتعرفوا عليه عن كتب ويتعرفوا عليهم عن قرب . أن الهدف من الجمعية الجديدة هو الهدف الكبير هدف تكوين المواطنين الصالحين فى ضوء الخبرة المنتظمة الشاملة لا المحدودة ، خبرة الواقع الحى فى ظل هداية الدين الاسلامى السليم ، الدين الخالص (كما كان يردد ذلك الامام الشيخ محمود خطاب رحمه الله) وفى ظل هدى هذا الدين . كان الحاضرون على الرغم من الزحام الشديد يجلسون او يقفون دون ان يحدث مايعكر الصفو ، كانوا ، وكأنهم يعزفون سمفونية ، منظمين منسقين ينظرون الى امام الى المستقبل المشرق .

وحضر الامام « الشيخ امين الخطاب » ومعه صاحبه ومن بينهم كما أذكر الآن جيداً « الشيخ درويش الجعبري » وجلسوا على مقاعد مخصصة لهم . وصمتت الافواه . وماتت الهمهمات ، وكان الحاضرين على رؤوسهم الطير . وبدأ البرنامج ، وقد كلفت من مجلس ادارة الجمعية الجديدة كسكرتير له ان القى كلمة الافتتاح الاولى . وهى كلمة ترحيب تؤكد الولاء ، كما تؤكد الامل . الولاء للائمة القدامى والامل فى الشباب الجديد المتجدد . وكنت قد أعددت هذه الكلمة وقرأتها على اعضاء مجلس الادارة الذين اقروها . وكانت كلمة قصيرة موجزة . وما ان بدأت ، وماكدت ان أفتح فمى لأقول :

« سيدى الامام ، سادتى اصحاب الفضيلة .. باسم اخوانى ... »

ماكدت ان أفعل ذلك حتى انبرى الشيخ درويش الجعبري صائحا غاضبا ساخطا وموجها الخطاب الى : « ابداً ببسم الله الرحمن الرحيم . ان كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر أو هو أقطع أو هو أجذم » .

وكانت لحظة رهيبة وبالهة من لحظة . ارتج الكلام فى فمى وذهبت نفسى شعاعاً . وخفق قلبى حتى كدت ان أختنق . ولكنى واصلت قراءة ماكنت كاتبه أو بعض ماكنت كاتبه . ثم أنزويت فى أحد الاركان . وتمنيت لو أننى كنت قد اعتذرت عن إلقاء الكلمة . فاذا كنت أنا المفكر من وراء الستار ، فانه كان ينبغى على أن أبقي وراء الستار . أن مهمة المفكر أن يصلح المصلح ، ولا يمكن أن تكون هذه المهمة أن يكون هو مصلحاً . ومهما كان رأى فى فقه هذا الرجل وما وصل اليه من مستوى علمى ودينى أو ثقافى فقد كان يذكرنى دائماً بمأساة فلسطين . فقد كنا على الرغم من تحريم الدعوة السياسية على الجمعية الشرعية فى ضوء قانونها ، نعيش المأساة الفلسطينية . وانا اذكر كعضو فى الجمعية الشرعية أننى كنت أصلى مع المصلين ، وكان الامام يدعو قبل السجود أى ونحن

فى الصلاة دون أن يخرج منها دعوات ضد « اليهود » وكنا نحن من ورائه نردد كلمة « آمين » . كان يقول مثلاً : « اللهم عليك باليهود » و « اللهم شنت شملهم » و « اللهم فرق جمعهم » وكنا بعد كل دعوة نردد نحن المصلين بصوت مدوى يخرج من أعماق الاعماق « آمين » ولم نكتف بالدعوات هذه فى كل صلاة . ولكن أعضاء مجلس ادارة الجمعية كانوا يدعون أيضا الى التبرع من أجل الفلسطينيين المطحونين . وكنا لانزال فى الثلاثينات (قبل نشوب الحرب العالمية الثانية) عندما كان القرش صاغ الواحد يكفل للرجل إفطاره أو غذاءه أو عشاءه وزيادة . وكان الاعضاء يتبرعون بدافع من الضمير ودون مأربا . وأذكر من هؤلاء « الشيخ ابراهيم عثمان » وكان يعمل فى المطبعة الاميرية ، عندما قام بعد صلاة الجمعة فى مسجد الجمعية الشرعية بعطفة الجوخدار وتبرع بمبلغ خمسين جنيها . وكان بهذا التبرع حديث الناس اياما وشهورا . قال وهو يمد يده بورقة ذات الخمسين جنيها مصريا ان هذا المبلغ هو كل ما استطاع ان يوفره واذا كان لديه اكثر منه لدفع هذا الاكثر .

وبقيت منزويا وحدى فى احد الاركان . ولم اعرف الكثير مما حدث فى تلك الليلة . لعل الشيخ امين قال حديثا دينيا ، ولعل صحبه الذين جاءوا معه قالوا احاديث دينية ايضا . لم ادر شيئا من ذلك . ولكنى فوجئت بوجود « الشيخ حسن البنا » ، وجدته يقوم بين يدي الشيخ امين ليقول كلمة . اننا لم ندع الشيخ حسن البنا الى الحضور . ان الجمعية الجديدة هى جمعيتنا . وان الفرع بافتتاحها هو فرحنا نحن . ونحن نعلم رأى الشيخ حسن البنا فى جماعته . كنا على خلاف . كانوا يدعون الى امور كنا نراها تأتى بعد الدعوة الى تصحيح العقيدة ومحاربة البدع . وكانوا يصرون على موقفهم . وكنا نصر على موقفنا . ونحن فى هذه الجمعية الجديدة نرى ان الاولى ان يكون الهدف العظيم هدف الاسهام فى تكوين المواطنين الصالحين فى ضوء الخبرة المنتظمة ، الخبرة الشاملة لا المحدودة ، خبرة الواقع الحى فى ظل هداية الدين

الاسلامى الخالص وفى ظل هدى هذا الدين . وكانوا يسعون الى السلطان فبالسلطان يحققون الاهداف ، كنا نرى ان فى التأتى السلامة وتحقيق المأرب . وكانوا لا يجدون فى التأتى السلامة وان الحق معهم اذا ركبوا الامواج لكى يصلوا الى تحقيق اهدافهم . كانوا يرون ان اهدافنا حائلة (بل طوباوية) ، وهى ايضا اهداف اصلاحية معتدلة ، اما اهدافهم فقد كانت فى رأيهم ثورية وليست اصلاحية (وقد شغلنى حضور هذا الرجل ، وشغلنى اكثر مضمون الكلمة التى ألقاها . انها تتضمن المديح والثناء للشيخ امين الذى نعتة بأنه « شيخنا وابن شيخنا » . ولم ينس ان يذكر اسمى فى كلمته ، ولم ينس ان يثنى على جهودى . وكان لبقا حقا . ذكيا حقا . وتحققت بما قال الاهداف التى اقحم نفسه وجاء الى حفلة الافتتاح بلا دعوة من أجلها . لقد كسب الجولة من الاسد وهو فى عرينه ، ونال الخطوة عند مجموع الحاضرين .

وخرجت من الدار الجديدة وحدى وعزمت على أن لأعود اليها أبدا . وبررت بعزى . وكان درسا لا يمكن أن ينسى ، وظللت أذكره على الدوام كلما واجهت بعض المواقف المشابهة لما واجهت فى ذلك الحين . ولكنى كنت أذكر أن الاسهام فى تكوين المواطنين الصالحين هدف يستحق الرعاية والعناية منى ، كما يستحق البذل والعطاء . كنت مع رأى " الشيخ محمد عبده " الذى كان يرى أنه فى انشاء " مدرسة الزعماء " الخلاص كل الخلاص . ولم أكن مع رأى " السيد جمال الدين الافغانى " الذى قال للشيخ محمد عبده عندما أبدى هذا رأى " إنما أنت مثبّط " .

ولم يمر يومان على حفلة افتتاح المقر للجمعية الجديدة حتى حضر الى منزلى الشيخ امين خطاب . ولكنى لم أقبله وأرسلت من أبلغه اننى غير موجود فى المنزل " وشغلنى فى نشاطاتى العديدة ، فى مصلحة الحدود صباحا وفى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة مساء . وقد منعتنى هذه النشاطات من أن أشعر بالاحباط أو أن أركن الى اليأس أو التشاؤم من الحياة . كنت فى دنيا الواقع

أعيشها بكل كياني ولا يشغلني عنها الا أن أنظر الى أمام ، الى المستقبل الذى أراه فى ذلك الحين أنه سيكون بفضل الله مرموقا . وعندما علمت أن مقر " جماعة الاخوان المسلمين " قد نقل بعد بدء اندلاع الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر عام ١٩٣٩ من ميدان العتبة الخضراء الى ميدان الحلمية الجديدة ، لم استغرب كثيرا . ولعل موقع دار جمعيتنا الجديدة فى الحلمية الجديدة قد صادف هوى لدى الشيخ حسن البنا ، ولعل ذلك لم يكن صحيحا . الله وحده يعلم فانه جل وعلا يعلم السر وأخفى . كنت على كل مشغولا بما رأيت أنه اجدى وانفع . وكنت فى ضوء الحياة التى عشتها فى مصلحة الحدود بالمقارنة بالحياة التى كنت أعيشها فى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة فضلا عما وصلت اليه من خبرات أكاديمية وغير أكاديمية ثمرة على استعداد كبير للتغيير . اننى تغيرت فعلا ورأيت انه قد أن الأوان لكى أغير . رأيت اننى إذ تأثرت بالخبرات التى اكتسبتها من حياتى المزدوجة والواقع الحى للمجتمع المصرى فى ذلك الحين فانه لا بد وأن أؤثر أنا أيضا . ومادمت قد وصلت الى هدف فمن حق هذا الهدف على أن أحققه . وإذ أفعل ذلك فانى أفعله فى سبيل رفعة الدين الاسلامى عن طريق الاسهام فى تكوين المواطنين الصالحين فى ظل هداية هذا الدين وفى ظل هديه . وانا أذكر انه فى أواخر شهر ابريل عام ١٩٣٩ فاتحتنى السيدة إلزا ثابت فى موضوع العمل فى " مؤسسة الزفاف الملكى " ولم أتردد أبدا . وقبلت هذا الشرف فالتو والساعة . وقابلتنى السيدة برتا فهمى (عميدة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة) وتحدثت معى فى نفس الموضوع . وأذكر أنها طالبتنى بالاستقالة من عملى الحكومى الذى التحقت به فى شهر نوفمبر عام ١٩٣٥ ، فلم اتردد كذلك . كنت مؤمنا بمصرنا الخالدة وضرورة تغييرها الى الافضل ، وكنت مؤمنا بأن عملى فى المؤسسة لن يكون فقط واجبا وطنيا بل هو أيضا واجب دينى . وهامى ذى فرصتى لكى أحقق فى حدود قدراتى فى محيط بعض

أبناء مصر المحرومين هذا الواجب الوطنى وهذا الواجب الدينى . وافقت على ترك الوظيفة الدائمة مغامرا لكى أؤدى عملا صالحا يرضى الله الكريم المتعال ، كما يرضى الوطن العزيز الخالد . لم يصرفنى عن ذلك شىء أبدا حتى عندما ظنت السيدة عميدة المدرسة خطأ أننى من عائلة تملك الاطيان والعمارات ! ولم يقعدنى عن الموافقة على الوظيفة غير الدائمة لهجة المحافظ السخيفة عندما قابلته مع السيدة إلزاثابت قبل استلام عملى الجديد فى المؤسسة . كانت لهجته فى أثناء المقابلة أمره دون مامبر ، وفيها استعلاء ممقوت ويشوبها الكبرياء الكاذب . فهو لم ير أبدا مدى التضحية التى تقدمت بها بكل تواضع عن رغبة وطواغيه . وظن متعجرفا ، أو لعله لم يظن ذلك بل كان على يقين من ذلك ، أنه يمد يده الى بلقمة العيش وكأئننى أمامه شخص يتسول ! كان أمامى هدف شريف أسعى بكل الشرف الى تحقيقه ، وأحاول بكل الشرف أن يتحقق . كنت بكل الحب العظيم أسعى جاهدا لكى أؤدى عملا صالحا يرضى الله الكريم المتعال ، كما يرضى الوطن العزيز الخالد .

وكنت على وعى تام بأن " المؤسسة " فى ضوء أهدافها غير " مدرسة الزعماء " الذى كان يدعو الشيخ محمد عبده إلى إنشائها ، وأن العمل فيها لن يرقى الى العمل فى هذه المدرسة . ولكنى كنت مؤمنا بأننى كمصرى متدين على أن أؤدى واجبى فى محيط أبناء المؤسسة المحرومين . وأنه اذا كان لدى علم نافع فإن من واجبى أن أعلمهم فن علم يجب أن يعلم . ولأكن كشخص يحيا بينهم قدوة حسنة لهم . ولعل وجودى بينهم أن يزيد من خبراتى وأن يحل ما أصبح لدى ، فى ضوء ظروف حياتى السابقة ، من عقد نفسية أشعر بها ولا أعرف كيف أواجهها أو أوجهها . وكنت واثقا من أننى إذ أعطيتهم فائزى سأخذ أيضا منهم . وكنت على يقين من حب أبناء المؤسسة لى لانهم ، بالضرورة ، كبشر ، سيبادلونى حبا بحب . والحب فى قلبى بما أفاضت على به أمى كان ومازال يكفينى وزيادة . أى أنهم إذا كانوا فى حاجة الى الحب الانسانى فعندى

ما يحتاجون اليه من هذا الحب ، وفى جعبتى لهم أيضا الكثير من الاحترام . ألم يقل نبي الاسلام ﷺ لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه " يوم خير " ... فوالله لأن يهدى الله بك رجلا خيرا لك من حمر النعم ؟

وحديثى عن " الشيخ حسن البنا " لا يجب الاعتراف بفضله أبدا . فقد عرفنى وعرفته قبل ذلك . وكان لى معه حديث طويل . كنت أذهب الى مقر " الاخوان " ، حبا فى الاستطلاع ، فى ميدان العتبة الخضراء أحيانا . وعندما استمعت اليه لأول مرة أعجبت بحديثه وبهرنى فيض علمه وغازاته ، فضلا عن أسلوب إلقاءه العذب وشخصيته الجذابة . وعندما ذكرت له عجبى من أن دعوته توجه الى طلبة الجامعة (العلمانية) ولاتوجه الى طلبة الجامعة (الازهرية) وهم أحق بحمل الراية من الاولين وأولى ، لم ير فى كلامى ما يستسيغه . كان رده مهذبا نعم ولكنه لم يقنعنى . كان يرى أن طلبة الازهر ليسوا فى حاجة الى الدعوة على عكس طلبة الجامعة العلمانية . فالآخرون بعيدون عن الدين الا من رحم ربك . أما الاولون فهم يأكلون ديناً ويشربون ديناً . وكان هذا الرد على عكس ما كان يدعو اليه الامام الشيخ محمود خطاب وخليفته الشيخ أمين . وكنت أميل فى ضوء مستوى نضج خبراتى فى ذلك الحين الى رأى مؤسس الجمعية الشرعية وخليفته . ولم أكن أميل الى رأى الشيخ حسن البنا ، ومن ثم كان عجبى من اهتمامه الشديد بطلبة الجامعة العلمانية وكان عدم اقتناعى برده . وكانت هناك أحاديث أخرى لى مع الشيخ حسن البنا ومع العديد من مريديه ومنهم صديق الطفولة والصبى " محمد بدر " ولكن الزمان لم يترك لها أثارا اذكرها . ولعلها أن ترسبت فى أعماق نفسى فلا أستطيع الغوص اليها .

ولم يمر أسبوعان على حديثى مع عميدة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة الخاص بعملى بالمؤسسة حتى وجدتني أخطو

الى مرحلة جديدة من مراحل حياتى . ولم تكن خطواتى وثيدة ولم تكن أيضا مغامرة . وهانذا أستقبل هذه المرحلة وأمالى المشرقة فى المستقبل تداعب خيالى . وكان القرار الخاص بالعمل بالمؤسسة قرارى وحدى . لم أشرك معى فيه أحدا . وإذا كنت قد بلغت سن السادسة والعشرين من عمرى ، فقد كان القرار الخاص بترك الوكالة ، وكان قرارا خطيرا ، قرارى وحدى أيضا ، ولم أكن قد بلغت بعد سن الثانية والعشرين من عمرى . لم أتحدث فى موضوع العمل بالمؤسسة مع أمى أو مع زوجتى . وحتى إذا كنت قد فعلت ذلك مع أيهما فلم أكن أتوقع أن تقف واحدة منهما فى سبيلى . إن ثقتهما فى سلامة تفكيرى لم تكن تشوبها شائبة . ولم أتحدث فى هذا القرار مع شخص آخر سواء كان قريبا من الأقرباء المقربين أو من غير المقربين أو كان من الغرباء . لم يكن لى صديق صدوق أركن اليه فى ذلك الحين . عزلنى أعضاء جماعتى المرجعية ولم أجد من أثق فيه لاتحدث معه فى هذا القرار . ولم أحزن كثيرا لذلك . فانا كنت فى ذلك الحين أنظر الى أمام ولم أكن أرى شيئا الا أن أتفاعل على الرغم من أننى كنت أعى القرار كان خطيرا مثله مثل قرارى الخاص بترك الوكالة والتفرغ للدراسة . وإذا كان الله جل وعلا قد أخذ بيدي فى المرة الأولى فهو جل وعلا قادر على أن يأخذ بيدي فى الثانية .

٨ - بداية العمل من أجل تكوين المواطن الصالح أنشأة مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر

وما أن جاء يوم السبت ٢٠ من شهر مايو عام ١٩٣٩ الا وأنا أخطو خطواتى الاولى فى ربوع المؤسسة . واصارح القارئ بأن بصمات هذا اليوم قد تركت ، ومازالت ، آثارها فى نفسى . اننى الآن أعمل فى محيط مائتين من الاحداث من أبناء المجتمع المصرى . منهم من أبناء محافظة القاهرة وهم الاغلبية ، ومنهم من

جاءوا الى محافظة القاهرة ومازالوا يحملون ثقافة أهل الريف وهم أقلية . وأحسست فى اليوم الأول من وجودى بين هؤلاء الاحداث أن المجتمع المصرى قد جاء الى واصبح أقرب الى عن ذى قبل . فهؤلاء الاحداث وذووهم وان لم يمثلوا عينة ممثلة لابناء المجتمع المصرى وبناته فى ذلك الحين فهم يمثلون عينة أحد قطاعات سكان هذا المجتمع . القطاع المستضعف الذى لاحول له ولاقوة . القطاع الذى يتضمن الذين لايعملون الاعمال الشريفة واذا كانوا يعملون اعمالا شريفة فقد كانت اعمالهم هذه الاعمال الدنيا فى المجتمع .

ذهبت الى المؤسسة فى الصباح . ذهبت وقلبى مفتوح وعقلى أيضا مفتوح . ذهبت لكى أعطى قبل أن آخذ . وتأكدت منذ الوهلة الأولى أننى لن أعطى الا اذا أخذت ولن آخذ الا اذا اعطيت . كان أبناء المؤسسة كلما تقربت اليهم ابتعدوا . فانا كشخص حديث العهد بهم مازلت عندهم تحت الاختبار . حاولت ان اعرف الأسماء فلم أوفق فى التعرف على الكثير . فلم يكن فى سجلات المؤسسة أسماء : الارجوز والوزير وبلوطة والعورى وحسن العجوز ووزة والمقرقز وعطية أبو دقة والاكس وغيرها . إنها أسماء لايعرفها الا الابناء وبعض موظفى المؤسسة . ومن الآخرين أم شحاتة الغسالة والست عطيات الممرضة وعم جوده الطباخ والامباشى على والامباشى احمد نجم . لقد عرفوا بالطبع اسمى "سيد افندى" وصار عندهم بعد فترة لم تكن طويلة "أبو عويس" ولكنى لم أتعرف على أسمائهم الا بعد مرور فترة لم تكن بالقصيرة . فترة لم تحسب بالزمن ، ولكنهم حسبوها بالتاكيد من حبى لهم وثقتى فيهم فبادلونى حبا بحب وثقة بثقة . ولم يكن لدى خيار . فهم أبناء وطنى ، وكنت أرى فيهم بعض أقاربى ، وكنت أرى فيهم أيضا بعض من كنت ألعب معهم فى الحارة فى حثتنا بحى الخليفة سواء كان ذلك فى المنطقة التى كان يقع فيها بيت أسرتى أو فى المنطقة التى كانت تقع فيها "وكالة أبى" التى أصبحت بعد وفاته فى يناير

عام ١٩٣٠ وكالتى . لم أكن أملك الا الحب والاحترام لهؤلاء الابناء فضلا عن خبراتى الاكاديمية والعملية التى اكتسبتها على مر الأيام حتى بلغت السن التى بلغتها عندما ذهبت الى المؤسسة فى يوم السبت ٢٠ من شهر مايو عام ١٩٣٩ .

وأود أن أؤكد للقارىء اننى اذ أقول أن المجتمع المصرى أو أحد قطاعاته قد جاء الى وأصبح أقرب الى عن ذى قبل ، فان ذلك لايعنى ، ولايمكن أن يعنى ، اننى كنت بعيدا عن هذا المجتمع . فانا كنت ، ومازلت ، أعيش فيه وأعمل من أجله فى ضوء محاولتى فهمه فهما موضوعيا عن طريق البحث والدراسة . ولكن مجرد وجودى بين أبناء المؤسسة كجماعة ، واحتكاكى بهم عضوا عضوا ونظرتى الى سماتهم التكوينية ومحاولتى التعرف على محددات شخصياتهم الثقافية والاجتماعية فضلا عن النفسية والعقلية . كل ذلك جلب الى النفس الاحساس بالقرب . فها هم امامى يمرحون ويلعبون ، وها هم امامى يتعاركون ويسبون بعضهم بعضا ، وها هى ذى "أم" قد جاءت بقصد زيارة ابنها فتقابل من ابنها بالترحاب وقد تجيء أم أخرى لنفس الغرض فتقابل من ابنها بالسباب . وأنا ارى كل ذلك فتزداد خبراتى وتتغير نظراتى نحو الحياة ونحو علاقات الناس بالناس . وعندما كنت أرى ماكنت أرى كانت الخبرات الجديدة تضاف الى الخبرات القديمة وكنت أحس اننى فى كل يوم أصبح شخصا آخر . وسعدت بهذه النتيجة سعادة كبيرة على الرغم من الثمن الذى كنت أدفعه من حين الى حين . فانا اذكر مثلا التحذير الملح من موظفى المؤسسة من مخالطتى بأبناء المؤسسة حتى لاأصاب بمرض معد القراع أو الجرب ، فلم أبال بهذا التحذير حتى بعد أن أصبت بمرض الجرب فعلا فى يدي بين أصابعى وفى أجزاء من زراعى يدي . كنت أعيش فى دنيا المؤسسة ، البيئة الجديدة ، دنيا أبنائها المائتين ، ولم أبال شيئا آخر . دنيا الاطفال من بعض أبناء مصرنا الخالدة غير المحظوظين كنت أسمع ضحكاتهم فيفرح قلبى ، وكنت أسمع انين بعضهم

فأحزن كثيرا . وكان الانين يبدو فاقعا فى آغانبيهم العديدة ولاول مرة سمعت قصيدة " ادهم الشرقاوى " يغنيها أحدهم . ومواويل الريف جاءت الى أذننى تسعى وكانت تهز كيانى هذا ، كانت تنم عن الاسى والحزن والشجن ولعلها كانت قنوات للتنفس عما فى صدور هؤلاء الابناء من أسى وحزن وشجن . فهم جميعا قد قبض عليهم رجال الشرطة وهم يسعون فى سبيل رزقهم الحلال أو غير الحلال . وهم جميعهم مودعون فى المؤسسة تحت حراسة رجال الشرطة . وحتى اذا ماخرجوا الى المستشفى لمرض ألم ببعضهم فقد كانوا تحت الحراسة أيضا . وكثيرا ما ألم المرض ببعضهم وكثيرا ما ادعى بعضهم المرض وبخاصة مرض " الغدة النكفية " . لقد علم ابناء المؤسسة ان " مجرد " الاشتباه فى اصابة أحدهم بهذا المرض فانه يرسل الى المستشفى للتو والساعة . وبالممارسة عرفوا أعراض هذا المرض . ارتفاع درجة حرارة الجسم وانتفاخ يبدو ظاهرا تحت الاذنين . وعرفوا أن قطعة من " حلالة الطحينة " ممزوجة بالشطة " اذا ماأكلها أحدهم فان حرارة جسمه ترتفع أليا ، واسلوب انتفاخ ماتحت الاذنين جاء بالتجربة وذلك بأن ينفخ مدعى المرض بكل مافى وسعه وهو يضم شفتيه ويكرر النفخ مع ضم الشفتين فيبدوا الانتفاخ ظاهرا تحت أذنيه . ومن ثم يذهب الى " الست " الممرضة فلا تنتظر حتى يراه الطبيب فتأمر بإرساله إلى المستشفى فهو مصاب " بالغدة النكفية " وحتى اذا تصادف وجود طبيب المؤسسة ورآه على هذه الحال فلا يتردد فى الامر بإرساله الى المستشفى . ويذهب عضو المؤسسة وحده أو معه آخرون من أبنائنا ممن فعلوا فعلته تحت حراسة الشرطة ، ويمكث الجميع أياما فى المستشفى تحت الحراسة التى كانت تتبع لهم أن يمرحوا ويروحوأويجيئوا فى داخل المستشفى أو فى خارجه كيفما شاءوا . يتسول من يتسول منهم من المارة الذين يصادفونهم فى الشوارع المجاورة للمستشفى . ويجمع أعقاب السجاير من يحلوه ذلك ، ثم يرجعون الى المؤسسة تحت الحراسة وهم

محملون بما لذو طاب وبأعقاب السجائر التى قد يبيعون بعضها أو يلعبون بالبعض الآخر لعبة القمار فى داخل المؤسسة .

وكنت أعرف كل ذلك واقف فى سبيل انتشاره ما استطعت الى ذلك سبيلا ، ولكنى كنت منشغلا بمعرفة عوامل وجود هذه الانماط من السلوك البشرى . ولم يطل انشغالى فقد كان الامر واضحا . فاعضاء المؤسسة على اختلاف شخصياتهم مقيدون ومضغوطون عليهم الى درجة القهر . والسبيل الوحيد الى رفع هذه الضغوط هى خلق الحاجة عندهم الى الشعور بالانتماء الى المؤسسة . ومن ثم تصبح المؤسسة بيتا لهم ومدرسة لهم وهم اعضاؤها التى يفخرون بها . ولم يكن تحقيق هذا الهدف - فى ضوء الظروف التى بدأت حياتى بالمؤسسة فيها - سهلا أبدا .

كان يوم السبت ٢٠ من شهر مايو عام ١٩٢٩ ، اليوم الأول الذى ذهبت فيه الى المؤسسة لكى أعمل فيها لأول مرة ، يوما حاسما فى حياتى مافى ذلك من شك ، فقد أصبحت من أوائل الذين احترفوا مهنة الخدمة الاجتماعية من المصريات والمصريين . وكانت هذه المهنة فى المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، أحد الأدوار الاجتماعية الجديدة فيه . وكانت هذه المهنة ، كدور اجتماعى جديد ، تواجه ادوارا اجتماعية قديمة راسخة . وكان عليها ان تسارع هذه الادوار كى تصرعها . وفى هذه المرحلة من حياتى ارتبطت بالسيدة إلزا ثابت . بدأ هذا الارتباط بالعمل بالمؤسسة واستمر حتى كتابة هذه السطور ، أى بعد أكثر من أربعين عاما . وعملى بالمؤسسة اتاح لى أن أكون أول مصرى محترف يعمل فى محيط الاحداث الجانحين . كنت بالمؤسسة وبعدها بمعسكر "كوم امبو" ثم "بمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة" اعمل عملا طبقيًا . كنت مع زميلاتى وزملائى أساهم فى علاج هؤلاء الاحداث . وعندما أتحت الفرصة لى لكى أعمل "بالمعهد القومى للبحوث الجنائية" الذى أصبح بعد ذلك "المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية" مارست العمل فى محيط الاحداث

الجانحين على المستوى النظرى الميدانى مستوى البحوث والدراسات .

واذا كنت بدأت عملى بالمؤسسة رائدا لأبنائها المائتين ، فان أعباء العمل كانت عديدة . فضلا عن ذلك فقد كان لى النصيب فى العمل الادارى . وتبلور عملى مع مرور الوقت الى محاولة دراسة شخصية كل ولد من أولاد المؤسسة . ومع ذلك فلم أتمكن من القيام بهذا النشاط الهام مع ضرورته لاستكمال البحث الاجتماعى عن كل ولد الذى كان يقوم به الزميل المغفور له الاستاذ ابراهيم المنوفى بمعاونة بعض المتطوعين من طالبات مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة وطلبتها .

وكان بالمؤسسة غير من ذكرت من قبل مدرسو المدرسة (وكانوا تابعين لوزارة المعارف العمومية فى ذلك الحين) فضلا عن الحراس من رجال الشرطة (الذين كانوا يتغيرون فيما عدا الاومباشى على والاومباشى احمد نجم) .

وكان العمل بالمؤسسة تحت اشراف السيدة الزا . فهى المديرية . وكانت للسيدة الزا عند موظفى المؤسسة مكانتها وعملها وروحها وشخصيتها وتجاربها مما يهون على ممثلى مهنة الخدمة (الزميل ابراهيم المنوفى وانا) كل صعب ، ويعود على الاولاد بالخير والصلاح . كانت هى رأس المؤسسة والمحور الذى كانت تدور حوله الفكرة التربوية الايجابية فى توجيه الاولاد . وكنت تراها تعمل ليلا ونهارا فى سبيل تحقيق هذه الفكرة ما استطاعت الى ذلك سبيلا . ومع كل ذلك فقد كانت تدير المؤسسة وكأنها بيتها . كانت تعلم عن أحدث الافكار التربوية فضلا عن النظريات الشىء الكثير . ولكن علمها كان نظريا . فهى لم تمارس ماكانت تعلمه نظريا من قبل . لم تمارسه فى سويسرا بلدها أو فى باريس عندما كانت تعمل فى مجال " طريقة خدمة الفرد " فى ميدان الاحداث الجانحين . وكانت معرفتها بالمجتمع المصرى : تاريخه وثقافته ومصادرها ولغة أعضائه ضئيلة . فهى لم تكن قد مكثت فى هذا المجتمع اكثر

من أربع سنوات . ولكنها كانت مبهورة بالمجتمع المصرى وبأعضائه : تقاليدهم وعاداتهم وأساليب معاملتهم . أحببت الشعب المصرى حبا ملك عليها روحها ونفسها واعتبرت مصر بلدها الثانى أو بلدها الاول وعاشت فيه منذ عام ١٩٣٤ فى الوقت الذى تركوه من بدأوا معها العمل الاجتماعى فى مصر (ويندل كلياند وبرتا فهمى ومس ديفونشير وغيرهم مصريون واجانب على السواء) وكان كل من فى المؤسسة يحترم هذه السيدة ، ويعنى الاحترام هنا أنهم كانوا يكونون لها المحبة والخشية معا . كانت قدوة صالحة ، تعمل ولا تكل من العمل . تعمل فى كل شئ . كانت أما لابناء المؤسسة ، وكانت مديرة لموظفيها وكانت صديقة مخلصة محبة لمصرنا الخالدة . كان عملها الاساسى ممارسة طريقة خدمة الفرد ولم يكن ممارسة طريقة خدمة الجماعة . إن نياتها نحو رفعة المؤسسة كانت فوق الشبهات . ولكن النيات وحدها فى العمل الاجتماعى التربوى فى بلد أجنبى لم تكن كافية . كانت السيدة إلزا وكنا ، نحن ممثلى الفكرة التربوية الايجابية ، معها نواجه الشياطين الذين يقفون عادة فى سبيل تحقيق الاعمال الصالحة فى ذلك الحين ممثلين فى رجال الشرطة الذين يحرسون أبناء المؤسسة . ويعدون على كل موظف حركاته وسكناته بل وأنفاسه . ومن وراء هؤلاء المدعو " الصاغ " احمد حسان احد ضباط محافظة القاهرة ، رئيسهم فى ذلك الحين . كانوا يعيشون الافكار القديمة التى لا يمكن ان ينهض بها مجتمع كمجتمعنا ، وكنا بدورنا نمثل الافكار الحديثة التى تجعل التغيير الى الافضل لها هدفا . وكان الصراع محتوما وكنا واثقين من النصر . ولكننا كنا ومعنا السيدة إلزا نعيش فى سراب . كانت الافكار القديمة لها جذور فى أرض الواقع لاتزال . ولكننا كنا مؤمنين بالنصر على كل من يقف فى سبيل عقيدتنا . ان ابناء المؤسسة هم أبناء مصر . من حقهم علينا أن نعيد تربيتهم لكى يكونوا مواطنين صالحين . لقد خذلهم المجتمع فأصبحوا كما كانوا أو كما كان يقول عنهم ضابط المحافظة المذكور " زبالة مصر " إن زبالة مصر هؤلاء قد صنعها

المجتمع بإشراف قاداته فى ذلك الحين . وضابط المحافظة ماكان
الا احد عبيد هؤلاء القادة . لم يجد هؤلاء شيئا فينا يحط من
كرامتنا . فنحن نعمل ونحن نشع المحبة والاخاء . ونحن نهدف الى
تحقيق التعاليم الدينية التى يتعطر بها المناخ الثقافى الاجتماعى
المصرى . ولم نأخذ شيئا من المؤسسة لانستحقه بل على العكس
كانت التضحية بكل انواعها ديننا . وكانت السيدة إلزا القدوة
الصالحة والمثل الاعلى . ولم نخذلها أبدا وهى لم نخذلنا أبدا . ولم
تكن علاقتنا بها الا علاقة المحبة والاحترام . كانت سيدة أجنبية
نعم ، وكانت الاحكام العرفية مسلطة على العباد بعد اعلان الحرب
العالمية الثانية فى سبتمبر عام ١٩٣٩ وكان من حق محافظ القاهرة
وبخاصة بعد أن أصبح وزيراً لاول وزارة للشئون الاجتماعية فى
وزارة على ماهر فى يوم ١٨ من شهر اغسطس عام ١٩٣٩ فى ضوء
سلطاته ان يأمر بطرد أو أن يأمر باعتقال أى أجنبى ولايعقب عليه
أحد . وكان هذا الحق سيفاً مسلطاً لا على رقبه السيدة إلزا فحسب
بل على رقابنا أيضاً . ومع ذلك فلم يثن السيدة إلزا أو احد منا ،
عما نحن بصده ، سلطان المحافظ ولاسلطات الوزير التى كان
يتشدد بها "ضباط محافظة القاهرة" ومن كانوا يخفون تحت
عباءته مثل الاومباشى على والاومباشى احمد نجم . ولكن السيدة
إلزا لم تكن أجنبية فحسب بل لم تكن أيضاً مسلمة . كانت مسيحية
تعمل فى محيط المسلمين . وقد تغلبت على كل عقبة تقف فى
سبيلها من أجل ذلك بسلوكها الذى لم ينم الا على التسامح
والايمان بان "الله محبة" ولم يكن غريباً أبدا أن أؤازر هذه السيدة
"وأنا المسلم التقى" !! الذى ماجئت لاعمل بالمؤسسة فى محيط
أبنائها الا بدافع تعاليم دينى القويمة دين الاسلام دين الاخاء
والعدالة والعمل الصالح . كانت رئيستى وتقبلت ذلك عن طوعية
فقد كانت المثل الذى يحق للعامل الناضج فضلاً عن المؤمن
الصادق والوطنى الخيوز أن يتبعه . إنها أول مرة فى حياتى أعمل
تحت إمرة "امراة" وأنا اذكر عندما توجهت الى مدرسة الخدمة

الاجتماعية بالقاهرة فى أول يوم فى الدراسة فى يوم ١٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٣٧ لاحضر أول محاضرة ان وجدت بين الحاضرين بعض الطالبات . وكانت تجربة أمارسها لأول مرة فى حياتى ، تجربة وجودى مع غريبات تحت سقف واحد . صحيح كان بين الحضور شبان أكثر عددا ، وكان معظم المدرسين من الذكور ، وكنت متزوجة ولى من زوجتى طفلان " أحمد وأمال " ومع ذلك فلم أشعر بالراحة ، وكنت مضطربا وحريصا على ان لا أنظر الى وجه طالبة . كن انا كريمة . لا تشوب الواحدة منهن أية شائبة . ولكننا كنا جميعاً من المصريين الذين لا تفتقر السنة الذكور منا القول والتقول على كل بادرة تبدر من احداهن . وبمرور الزمن تعودت وتعود زملائى الذكور على وجود الطالبات فى محيطنا . وتعودن هن أيضا على وجودهن بيننا . وفى عام ١٩٤٠ عندما تخرجت الدفعة الاولى من الإخصائيين الاجتماعيين المصريين المحترفين (٢٠ إخصائيا اجتماعيا) كان من بينهم ثلاث خريجات اصبحن للذكور زميلات مهنة واحدة . وانا اذكر اسماءهن واحدة واحدة على الرغم من مرور السنين الطوال : تيودورا رمزى ومحاسن يوسف ونبيلة عبدالحميد . ولكننا ونحن فى المؤسسة مازلنا جميعا من المصريين الذين لا تفتقر السنة الذكور منا عن القول والتقول على كل بادرة تبدر من أم شحاته الغسالة والست عطيات الممرضة والسيدة إلزا المديرية والحديث عن المرأة (مصرية كانت أو غير مصرية) بالحق وبالباطل يطيب عند الذكور المصريين . ان هذا الحديث كان ولا يزال له حساسية ما فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى . وعلى الرغم من أخطاء الذكور المهينة المتكررة التى يتشدد بها المخطئون علانية ، فان أية اشاعة خطأ ضد أنتى يصدقها الآخرون ويشيرون حولها الغبار وهذا أمر متوقع فى ضوء قيم مجتمعنا المصرى وبخاصة قيمة "العرض" وقيمة "الشرف" . ان قيمة العرض وقيمة احترام "الام" وقيمة احترام "الدين" وقيمة احترام "الموتى" قيم عزيزة

ندافع عنها نحن المصريين بالنفس والنفيس . ومن ثم فهي أقرب الى الايذاء اذا مادنست وأهينت بالحق أو بالباطل على السواء . وكما لم تسلم تيودورا ومحاسن ونبيلة وغيرهن من الطالبات من الخوض فى أعراضهن منذ أكثر من اربعين عاما لاتسلم زميلاتهن فى الوقت الحاضر من ذلك وكما لم تسلم تيودورا ومحاسن ونبيلة من اللزم والتقول على كل بادرة تبدر من احداهن فى عام ١٩٢٧ لم تسلم أم شحاته الغسالة والست عطيات الممرضة والسيدة إلزا المديرية فى نفس الفترة الزمنية تقريبا (ديسمبر عام ١٩٢٨ - نوفمبر عام ١٩٢٩) من اللزم والتقول على كل بادرة تبدر من احداهن .

وعشنا فى المؤسسة نعمل من أجل التغيير الى الافضل . وكان مفهوم "التغيير" عندنا واضحا وكان مفهوم "الافضل" عندنا واضحا أيضا . وبدأنا من حيث يجب أن نعمل . وكنت أول من بادر بالرأى وشجعتى الزميل ابراهيم المنوفى وأيدنى ورحبت السيدة إلزا بالرأى وأيدته . ورأينا أن يكون اهتمامنا الاول هو التعرف على "المشكلة" والمشكلة الملحة كانت فى ذلك الحين التعرف موضوعيا على أبناء المؤسسة عن طريق إجراء البحوث الاجتماعية لهم . وجمعت البيانات عن هؤلاء الابناء وكانت مصادرها عديدة . الابناء أنفسهم وأسرهم ومدارسهم ان وجدت واصحاب العمل ان كان منهم عاملون قبل القبض عليهم وقد أسهم طبيب المؤسسة فى تزويدنا بالبيانات الصحية عنهم . وفى ضوء البيانات التى تضممتها البحوث الاجتماعية المشار اليها وجدنا أن أعمارهم كانت تتراوح ما بين السادسة والثامنة عشرة سنة . وكانت نسبة الذين بلغت أعمارهم اثنتى عشرة سنة أو أقل نحو ٦٦٪ ونسبة الذين بلغت أعمارهم أكثر من اثنتى عشرة سنة نحو ٣٤٪ . وكانت نسبة المسلمين منهم نحو ٩٦٪ ونسبة المسيحيين نحو ٣٪ وكان أكثر من نصف الاولاد من محافظة القاهرة بنسبة نحو ٥٦٪ ، أما الباقي فقد كانوا من محافظات جرجا والجيزة والقليوبية والمنوفية

وآسيوط والشرقية والغربية وبنى سويف والفيوم والبحيرة والاسكندرية والمنيا وقنا والدقهلية واسوان ثم السويس على التوالي . وفى ضوء الفحص الطبى كانت نسبة الاصحاء من الاولاد نحو ٨٥٪ فقط ، وكانت نسبة المرضى نحو ٩١٪ وكان المرضى مصابين بأمراض شتى . وكانت عدد الاصابات التى يعانى منها مائتان من الاولاد ٤٤٥ اصابة منها البلهارسيا والقراع والجرب وتضخم اللوز وأمراض الاسنان وأمراض العيون والنزلة الشعبية والانكلستوما والاسكارس واللغظ والانيميا وامراض الحلق والبلاجرا والزهرى ! وأمراض الاذن والكبد ونقص الغدد والانيميا . وهى امراض تنم على المستوى الاقتصادى الاجتماعى المنخفض الذى كان يعيش اولاد المؤسسة بين جنباته ويؤكد ذلك أن نسبة الاميين من الاولاد كانت نحو ٨٤٪ ، ومن كان يعرف منهم القراءة والكتابة كانت نسبتهم نحو ١٦٪ وكانت نسبة الذين كانوا من المتعطلين من الاولاد نحو ١٧٪ ومن كانوا يعملون نحو ٨٣٪ ، وكان معظم أعمال الذين كانوا يعملون اعمال خدمات ، وكان من هؤلاء من يعمل فى بيوت الدعارة التى كان ينظمها القانون فى ذلك الحين وقد وجد من بين الاولاد تلميذان قبض على احدهما وهو ذاهب لى يكمل امتحان الشهادة الابتدائية . ومن الذين كانوا يعملون تبين أن نحو ٣٥٪ منهم كانوا يعملون بلا أجر . وكان متوسط الاجور الشهرية للاولاد الذين يعملون بأجر حوالى ٢١٣ مليما . وقد تبين ان متوسط عدد أعضاء الاسرة الواحدة بما فيها الولد خمسة أعضاء وان متوسط دخلها الشهرى بالقروش حوالى ٢٠١ من القروش فقط . وفى ضوء نتائج البحوث الاجتماعية التى أجريت وجد أن نحو ١٠٪ من الاولاد لهم سوابق فى قضايا حالية أو سابقة ، وان الباقي ونسبته نحو ٩٠٪ من الاولاد المقبوض عليهم والذين كانوا مودعين بالمؤسسة تحت حراسة الشرطة لم تكن لهم سوابق . اى انه قبض عليهم ظلما وعدوانا . أى أن القبض عليهم لم يكن له سند من القانون . وقد بدأ هذا الظلم وهذا العدوان

واضحاً فى تصرفات أبناء المؤسسة وكانوا كما ذكرت من قبل يجدون فى الغناء الحزين ملاذاً أحياناً ، وكانوا يجدون فى العراك الذى ينشب بينهم بسبب معقول أو بلا سبب معقول متنفساً . والسباب والشتائم كانت تملأ المناخ الثقافى الاجتماعى للمؤسسة . كانوا يسبون ويشتمون بعضهم بعضاً ، وكانوا يسبون ويشتمون المسؤولين على المؤسسة وبخاصة من كان واجبهم أن يحرسوهم ، ومع الحزن الدفين الذى كان يبدو فى الغناء ومع العراك واسبابه الواهية وغير الواهية ومع الشتائم والسباب التى كانت تملأ المناخ الثقافى الاجتماعى للمؤسسة ، كنت تجد بعض أنماط السلوك الداعر . فقد كانت القوة الغاشمة هى القانون السائد فى المؤسسة فى بعض الاحيان . وقد لعبت "العزوة" دوراً كبيراً فى تأكيد هذه القوة فأولاد حى بولاق يتضافرون ويحمى بعضهم بعضاً ، واهل محافظة المنوفية يفعلون ذلك أيضاً . وهكذا .. كل يسعى الى الجماعة التى يحتفى فيها ويشعر بين أعضائها بالامن والامان . و "النفاق" فى ضوء بناء المؤسسة الاجتماعى والثقافة بقيمها التى كانت تسود فيه قد لعب دوراً بارزاً . فالضعيف لكى يعيش ينافق الاقوى أو من يعتقد أنه الاقوى . وكان حظ رجال الشرطة الحراس ورؤسائهم من النفاق حظاً كبيراً . وكان حظ عم جوده الطباخ من هذا النفاق الحظ الأوفر . فهو الشخص الذى يستطيع بطريقة أو بأخرى أن يملأ البطون من اللحوم وغير اللحوم . ومن ثم كانت لعم جودة الطباخ ولرجال الشرطة "الحكام المستبدين" فى أحيان كثيرة ، عند اولاد المؤسسة الحظوة ، وكانت لهم الطاعة العمياء التى لايمكن أن تهدف الى الصالح العام . والامثلة على ذلك كثيرة كثيرة . اذكر منها ماأذكر ونسيت منها مانسيت واذا كانت المؤسسة قد بنيت حديثاً (افتتحت فى شهر ديسمبر عام ١٩٢٨) فان معاول الهدم بدأت فيها منذ اليوم الاول . كانت معاول الهدم الاولى آيادى أبناء المؤسسة التى كانت مع صغرها تحطم ماتستطيع أن تحطم من أبواب وشبابيك وزجاج

وحفريات مياه وغيرها وكانت عوامل التعرية المعاول الاخرى مما كان يؤكد لنا عدم امانة المقاول الذى بناها والمهندسين والمشرفين الذين أشرفوا على هذا البناء .

ولعلى أن أذكر الآن أننى وكل من كان يدخل من "بوابة" المؤسسة كنا نصطدم بحجرة الحرس الشرطى . وكان مؤلفا من أومباشى وأحد العساكر نهارا ومثلهما ليلا . وقد وجد هذا الحرس كما ذكرت من قبل لحراسة المؤسسة خشية أن يهرب احد من الاولاد ، وحرصا على آثاتها ، وأنواعه شتى ، وحفاظا على كل ما كان يؤكل أو يقدم كشراب لاولاد المؤسسة وموظفيها . وعلى الرغم من أن هذه الوظائف كانت من الممكن أن يقوم بها أناس ليسوا من رجال الشرطة ، فإن هذه الوظائف لم تكن تؤدى بأمانة على الرغم من دفاتر الاحوال التى كان يسجل فيها ما يمكن أن يقال عنه "حركة الحياة فى المؤسسة" وقد واجهت وأعضاء أسرة المؤسسة من العاملين على التغيير الى الأفضل ، منذ اللحظات الاولى ، مشكلة التعامل مع رجال شرطة المؤسسة . كنا ومعنا السيدة إلزا مديرة المؤسسة نقوم بأدوار اجتماعية جديدة تهدف الى فهم أبناء المؤسسة فهما موضوعيا حتى يتقرر مستقبلهم المشرق فالمؤسسة كانت كما سبق أن ذكرت مجرد "دار للملاحظة" ولم تكن فى ذلك الحين "مؤسسة ايداع" وكانت الاغلبية الساحقة من الابناء يقبض عليهم جزافا كما ذكرت سابقا بلا سند من القانون بقصد تطهير شوارع محافظة القاهرة منهم ، وكانوا يودعون بالمؤسسة حتى يتم بحث حالة كل واحد منهم اجتماعيا ليتحدد مصيره ولم يدر بخلد المسؤولين عن عملية القبض على الاولاد من الشوارع أن هناك مصانع اجتماعية "تعمل ليل نهارا فى سبيل" "انتاج" غيرهم ، وأنه مادامت هذه المصانع قائمة فى المجتمع فالشوارع لن تخلوا من اولاد ومن بنات هم فى ميسيس الحاجة الى الرعاية والعناية والحماية . وهذا ما كان يحدث فعلا . كان رجال الشرطة يمرون فى شوارع القاهرة وحاراتها

وأزقتها ويجمعون من الاولاد ومن البنات من يجمعون وتخلو الشوارع يوما أو اسبوعا من الاولاد ومن البنات وسرعان ما تمتلئ الشوارع بأخرين غير من قبض عليهم قبل ذلك . ان مصانع أبناء مصرنا الخالدة فى ذلك الحين كانت لا تغلق أبوابها وكانت تعمل ليلا ونهارا فى سبيل انتاج اولاد وبنات يكون من حظهم العاثر أن يعثر عليهم رجال الشرطة فيقبضون عليهم دون ماسند من القانون ثم يودعون تحت الحراسة فى المؤسسة ومنها الى المعسكرات - "السرو" و "كفر سعد" و "كوم امبو" حيث يعيشون حياة الريفين التبعساء لا يرون لهم مستقبلا مشرقا أو غير مشرق ، ولم يكونوا فى ضوء ظروف تنشئتهم الاجتماعية فى المدينة يستسيغون حاضرمهم ، ويا ويلهم عندما تغرب الشمس فتغرب فى نفوسهم آمالهم فى الحياة الآدمية . أى الحياة التى عاشوها ومارسوها فى المدينة ، حياة الانوار الساطعة التى تملأ الشوارع من أقصى المدينة الى أقصاها ان غروب الشمس عندهم وبخاصة فى فصل الشتاء كان يعنى الحياة فى القبور . وكان رجال الشرطة "الحراس" فى المؤسسة أو فى المعسكرات يمثلون أيضا أدوار اجتماعية أخرى ، وكانت هذه الادوار الاجتماعية كما ذكرت من قبل أدوارا قديمة راسخة . كنت تراهم فى هذا الضوء أنهم المهيمنون على المؤسسة والمعسكرات وكنت ألاحظ وأنا أعمل فى المؤسسة أنهم المرجع الاول والاخير فى أمور عديدة لا يمكن أن تكون من اختصاصهم . وقد بدا لى ولزملائى أن بعض ولاية الامور فى محافظة القاهرة وكان على رأسهم ذلك الضابط الذى أشرت اليه سابقا ، لاسباب مجهولة (أصبحت فيما بعد معلومة) ، كانوا يشجعون هؤلاء الحراس على الاسترسال فى غيهم ولو أنهم كانوا يقومون بواجبهم الحقيقى دون ما تدخل فى حياة المؤسسة لهان الامر وإن كان مرا . ولكنهم بتدخلهم هذا كانوا يعملون كعماول هادمة لا تفتأ أن تنهال على كل أساس سليم يؤخذ بمقتضاه أولاد المؤسسة لتبنى عليه شخصياتهم بناء سويا . وقد أبى هؤلاء

الحراس على الرغم من المحاولات العديدة أن يتعاونوا على البر والتقوى ولكنهم تماردوا فى غيهم فكان تعاونهم على الاثم والعدوان ، الاثم فيما يفعلون والعدوان على الابناء التعساء ، أقصد أبناء المؤسسة . كانوا يعمدون دوما على معاكسة زملائى وأنا وعلى رأسنا السيدة إلزا ، وكانوا يحاولون وينجحون أحيانا فى تنفير الاولاد منا بالزور والبهتان . بأساليب دنيئة منها إغراؤهم بالنقود أو بأعقاب السجائر . وكانوا يحاولون الافتراء علينا وكادوا أن ينجحوا فى ذلك لولا فضل الله ورحمته ورضوانه . وما أيسر أن يفعلوا ذلك كما ذكرت فقد كنا أصحاب أفكار حديثة ، وقد كنا نذكرنا وأناثا ، وكان منا المسلم التقى ، وكان منا المسيحى الذى يعمل أو يحاول أن يعمل فى محيط أبناء الوطن الواحد عملا صالحا ، وكانت السيدة إلزا مديرة الجمعية سيدة شابة أجنبية (كان عمرها عندما جاءت الى مصر فى عام ١٩٢٤ تسعة وعشرين عاما) . ولها زوج أجنبى ولها ابن أجنبى . فما أيسر أن يفترى المفترون وأمامهم كل هذه السمات التى قد تبدو متباينة وان كانت الاهداف إصالحية تجمع أشخاصهم . ولكننا كنا فى محيط الافتراء نحن ومن كان على شاكلتنا بالضرورة ضحايا سهلة فى ظل المناخ الثقافى الاجتماعى الذى كان يسود المجتمع المصرى وخاصة ومصرنا الخالدة كانت تعاني فى ذلك الحين ولايات وولايات . ومنها ولايات المستعمر (الاجنبى) وأذنا به من المصريين والمتمصرين ، ومنها ولايات الحرب العالمية الثانية التى بدأت ولم تكن مصر على استعداد لها ، فقد كانت حربا لا ناقة لمصر فيها ولا جمل . ومنها ولايات المستوى الثقافى الاجتماعى والاقتصادى الذى وصلت اليه مصر فى ذلك الحين . ولايات وولايات وولايات . وكان هؤلاء الحراس ممن بلغوا سن الكبر ، وعاشوا فى ضوء تربيتهم فضلا عن اثار بصمات مهنتهم التى كان يكرها كل مصرى أصيل يعتقد بحق أنه اذا كان « أصبغ عسكرى أقطعه » - لا يقوى أحدهم على التذرع بالصبر على أعمال الاولاد ولا يتسع صدره لتحمل ماقد يصدر عنهم ولو

كان بريئاً .

وبقدر ما أحببت أولاد المؤسسة أحبوني وزيادة . وقد فتحوا لى صدورهم فعرفت الكثير عن كل واحد منهم . وكانت حصيلة نتائج البحوث الاجتماعية التى أجريت لكل واحد منهم ضوءا كشافا لأعرف مالم اكن اعرف عن أعضاء أسرتهم : امهاتهم وأبائهم وبديلات الامهات وبدائل الآباء واخوتهم واخواتهم . كان يسر لى الواحد منهم أسراره التى لا يجرؤ أن يذيعها أو يقولها لاحد . وكنت أودى دورى كآب وكأخ وكصديق فضلا عن دورى كراند تربوى . عرفت نقاط الضعف فى شخصية أبناء المؤسسة كما عرفت نقاط القوة . ولم أكتف بالمعرفة بل حاولت أن أعرف العوامل . وما أصعب ذلك لشاب قد بدأ حياته العملية التربوية فى محيط الأحداث الجانحين . كنت قد بلغت سن السادسة والعشرين . وكانت تجاربى فى هذا الميدان ضئيلة . ومع ذلك فقد كنت أشعر بأننى قد تجاوزت هذه السن . وكان من يرانى يشعر نفس الشعور . عرفت من كان من الاولاد "طفلا غير شرعى" لا يعرف أما حقيقية له ولا أبا حقيقيا وان توهم ان السيدة "الحاضنة" التى كانت تأويه عندما كان رضيعا واستمرت بعد تسليمه الى المسئولين بعد بلوغه سن السنتين متصلة به وهو متصل بها - أنها أمه الحقيقية . وأن أباه قد توفى أو لا يعرف أحد عنه شيئا . وعرفت من الاولاد من كانت امه تمارس الدعارة وكان يعلم ذلك ولكنه كان يخفيه فى أعماق نفسه ، وعرفت "عبد الملاك" المسيحى الذى عاش مع الاولاد باسم "حسن على" وأخفى هوية عقيدته خشية ، كما كان يتصور ، بأسهم وعدوانهم عليه . الامر الذى لم يحدث قط عندما علم أولاد المؤسسة هذه الحقيقة . وكان درسا لى تعلمته منهم كان درسا عن "التسامح" الذى يعطر المناخ الثقافى الاجتماعى للمجتمع المصرى على مر الايام والسنين . وعرفت "عبد الله محمود" (الاخرس) الذى مارس "دور الاخرس" مع الاولاد وأمام موظفى المؤسسة شهورا ، ولم يكشف عن خبيثته سوى الاولاد عندما

جاءنى جمع منهم ليقولوا لى "الواد الاخرس اتكلم" وعندما سألته
 لماذا مثل هذا الدور كان جوابه انه فعل ما فعل ليستدر عطف من
 كان حوله من الابناء الكبار والصغار فضلا عن موظفى المؤسسة .
 وكان أسلوب اكتشاف الاولاد لهذا الاخرس المزيف اسلوبا طريفا .
 فقد جاءت أم لزيارة ابنها واعطته قطعة نقود فضية قيمتها عشرون
 قرشا . وكان صاحب النقود إذ يظهر سروره أمام الملائم يقذف بقطعة
 النقود على "بلاط" غير النوم مستعذبا سماع رنينها . وتصادف
 عبد الله محمود الاخرس المزيف ان كان حاضرا وفوجئ برنين
 قطعة النقود فالتفت نحو مصدره ولفت اليه انظار الحاضرين
 فتأكدوا أنه يسمع وأخذوا يضربونه حتى "نطق" وحضروا الى
 لايلاغى بالخبر أما "عبد الله الفلاح" الذى انقطعت أخباره عن
 أهله عشر سنوات فقد نجحنا عند بحث حالته الاجتماعية فى الجمع
 بينه وبينهم وإلتأم الشمل بعد أن كان مقطوعا . تجارب جديدة كنت
 أخوضها فى كل يوم وأنا فى المؤسسة فى ذلك الحين ، بل فى كل
 ساعة كنت أعرف جديدا . وكان مناخ المؤسسة عاملا كبيرا فى
 علاج ماكان عندى من عقد نفسية تراكمت فى نفسى على مر الايام
 فى ضوء ظروفى الثقافية الاجتماعية والاقتصادية منذ أن ولدت
 حتى أصبحت شابا . وكنت أذهب الى البيت متعبا ولكن ما أن
 أصبح إلا وأنا استمتع بنشاط متجدد . لم أكن أرى ولدى احمد
 وآمال عندما أذهب الى المؤسسة فقد كانا فى العادة نائمين ، وعند
 العودة كنت أجدهما نائمين كذلك . واستمر حالى على هذا المنوال
 عندما شرفنا بالحضور أبنائى "سمير" ثم "تيسير" ثم "مسعد"
 كنت لا أراهم الا نائمين ، وكنت أمتع نظرى بل عقلى ووجدانى
 عندما أقف وأنا أنظر اليهم وكأنهم ملائكة ينعمون بالاحلام الوردية
 ويشعون الاحلام الوردية فى النفوس . كان أبنائى فى حضن أمى
 الذى كان حضنا يضمنى وأنا طفل . كانوا فى امان الحب الانسانى
 المنقطع النظير حب أمى الذى كان ومازال حيا . وكانوا أيضا فى
 رعاية زوجتى أهمهم وكانت شابة فى الثلاثين من عمرها عندما

وضعت آخرهم تستطيع أن تقوم بأعباء لا تستطيع أمى أن تقوم بها . وكانت المؤسسة وبيتى دنياى التى أعيش لهما . والحق أن المؤسسة قد ملكت على كل أو معظم مشاعرى . وعلى الرغم من سحابات الحزن التى كانت تجىء ثم تذهب لحرمانى من مواصلة التعليم العالى لان الوقت المناسب لم يكن له وجود فى حياتى فى ذلك الحين ، فقد كنت سعيدا بأن أعبد الله جل وعلا فى شخص رعاية أبناء المؤسسة ، كما كنت مقتنعا بأن ما أفعله كان يمثل أنبل مشاعرى الوطنية . فالوطن ، مصرنا الغالية ، كان ولا يزال فى سبيس الحاجة الى الرجال الذين يصنعون الرجال .

ومع ذلك فقد اضطررت الى ترك المؤسسة فى غضون شهر نوفمبر عام ١٩٣٩ أى بعد ستة شهور من إلتحاقى بها . وقد تركت المؤسسة مرغما . اننى لم اتركها وحدى . فالسيدة إلزا قد انتدبت للعمل بمدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة مشرفة على ميدان التدريب العملى لطالبات المدرسة وطلبتها . والزميل المغفور له الاستاذ ابراهيم المنوفى بدأ فى شهر اكتوبر عام ١٩٣٩ عمله فى قرية "شطانوف" ليقوم مع المغفور له الزميل الدكتور محمد محمد شلبى الذى عهد اليه بالعمل فى قرية المنایل بأول تجربة علمية لاصلاح الريف المصرى . أما مصيرى فقد طلب منى تقديم استقالتي من المؤسسة لكى أعمل مديرا (ناظرا) لمعسكر كوم أمبو . واننى أذكر اننى قد صدمت بالامر فالعمل سيكون هو العمل وان ثقلت المسئولية . وبعدت البيئة التى كنت سأعمل فيها "كوم أمبو" وإننى أذكر أيضا اننى عندما سئلت عن مكان هذا البلد أننى استعنت بخريطة القطر المصرى لأعرف المكان . وعندما عرفت اننى سأكون بالقرب من مدينة أسوان على بعد عشرين دقيقة اذا ركبت قطار الاكسبريس خفق قلبي ولكنى لم أجفل . ويقدر ما أدمى ذلك قلبي فان قلبي تجلد أيضا . وأصبح همى الاول وكنت قد بدأت الدراسة فى العام الثالث من حياة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ، أن اكمل موضوع الرسالة التى بدأت جمع مادتها وكان

موضوعها "بيوت الملاحظة للاولاد المحرومين" وكنا فى شهر رمضان . وتفرغت لهذا العمل تفرغا كاملا . ونجحت فى اكمل الرسالة مكتوبة بالحبر وتعهدت ادارة المدرسة ، بعد الموافقة على تسلمها منى كما هى ، بنسخها على الآلة الكاتبة . فقد كان على أن استلم عملى الجديد قبل بدء شهر ديسمبر عام ١٩٣٩ . وأنا لم أكن قد اخترت هذا العمل الجديد . لقد اختارته لى عميدة المدرسة السيدة برتا فهمى واننى أذكر أننى ذهبت معها الى ادارة شركة كوم امبو بالقاهرة التى أقامت المعسكر الذى عينت له مديرا . ذهبت مع السيدة العميدة وقابلت معها "رينيه قطاوى بك" (وهو ابن يوسف قطاوى باشا الذى كان وزيرا للمالية فى عام ١٩٢٤) مدير الشركة الذى وافق توا على التعيين بمرتب شهرى قدره ١٢ جنيها مصريا (كنت أحصل وأنا بالمؤسسة على مرتب شهرى قدره ستة جنيهات مصرية . أى اقل مما كنت أحصل عليه من مصلحة الحدود الحكومية بنصف جنيه مصرى) لم أكن أعلم شيئا عن شركة كوم امبو ولم أعلم شيئا عن المعسكر الا اسمه . وحدد موعد السفر وسافرت الى كوم امبو تاركا أمى وزوجى وأبنائى احمد وأمال وسمير الذى كان قد ولد فى يوم ١٩ من شهر يونيه عام ١٩٣٩ .

وهكذا على الرغم من ثقنا ، نحن الاخصائيين الاجتماعيين اصحاب الافكار الحديثة التى تجعل التغيير الى الافضل لها هدفا ، بالنصر ، فقد كنا كما ذكرت نعيش فى سراب . كانت الافكار القديمة لها جذور فى الواقع لاتزال . ونجح الافتراء ولكن الى حين . فقد كان هذا النجاح جولة وكم فى الحياة من جولات . ولكن بكل الصدق أقول إنه بقدر ما أدمى قلبى تجلد أيضا . وكأنا لى قلبان أو كان لى قلب مزدوج يواجه الحلو كما يواجه المر وينظر دائما الى أمام .

واذا كنت قد ذكرت ان المغفور له الامام الشيخ محمود خطاب كان استاذى الأول فى دراساتى شبه المنتظمة ، فان السيدة إلزا

أصبحت فى ضوء الرابطة التى تربطنى بها منذ دراستى فى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة وفى المؤسسة ومابعد ذلك ، كما سيعلم القارئ ، استأذنى الاولى فى دراساتى المنتظمة . كنت عندما عرفتھا فى دنيا غير الدنيا التى كانت تعيشھا . كانت نظراتھا نحو الحياة واتجاهاتها نحو الامور متباينة عن نظراتى وعن اتجاهاتى . ولكن لم يزد هذا التباين بينى وبينھا إلا قربا . كنت أرى أنماط سلوكھا وكنت اتعلم . وكنت أقارن شخصيتها بشخصيات من كنت أعلم من النساء المصريات وأقربهن الىّ كانت أمى وزوجتى وزوجة عم أبى أم حسين سكرينة وزوجة شقيق أبى أم على زينب ثم غيرهن وغيرهن . وعلى الرغم من الاطار المرجعى النظرى الدينى الذى كان يحيط بتصرفاتى فانى كنت اعتقد أن شخصيتها هى الارجح وأن مصرنا الغالية فى مسيس الحاجة الى أمثال السيدة إلزا . وكنت وأنا أقارن هذه المقارنة أتذكر حديث السيدة برتا فهمى عميدة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة عن السيدة إلزا . كانت العميدة تقول إنه لو وجدت ثلاث نساء مثل السيدة إلزا فى مصر لتغير المجتمع المصرى فى ذلك الحين الى الأفضل والى الاقوى والى الاعظم . وأنا لأحاول أن أمدح السيدة إلزا فأعمالھا منذ ان وطئت قدمھا أرض مصر فى أواخر عام ١٩٣٤ وحتى كتابة هذه السطور شاهدة على ما أقول . ان تاريخ مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر يكتب للسيدة إلزا سطورا من النور . ولعل من الادلة الساطعة على هذه الحقيقة انها لاتزال تعمل فى الميدان على الرغم من حالتھا الصحية وكبر سنھا وان كل من أقام عقبة فى سبيل أداء واجباتھا أصبح جزءا من زبالة التاريخ الاجتماعى المصرى . اين عبد السلام الشاذلى الذى كان يملك الحول والسلطان ؟ اين الصاغ "احمد حسان" تابع هذا المحافظ وأحمد عبيده الذى ارتقى بعد ذلك الى رتبة حكمدار العاصمة ؟ اين أتباع هذا العبد من عبيده الشرطيين أمثال الامباشى على والامباشى احمد نجم ؟ اين غيرهم من صغار موظفى وزارة الشئون الاجتماعية ومن كبار هؤلاء

الموظفين ؟ لقد ذهبوا جميعا وذهبت اعمالهم الدنيئة أدراج الرياح . واننى التمس العذر من القارئ وقد ذكرت بعض الاسماء لان أصحابها فى حقيقة الامر لا يستحقون الا الاهمال ، فقد كانوا لعوامل لإنسانية يقفون فى سبيل إزدهار الاعمال الانسانية ، وانا أذكر أسماءهم فان الذكرى تنفع العاملين الخيرين وتحط من شأن المعوقين الأثمين . وانا الآن أتذكر ما ارتجله أحد أبناء المؤسسة واسمه "سيد سلامه" عندما أقيمت الحفلة الاسبوعية بالمؤسسة ، حيث كان يسمر الأبناء ومن يكون حاضرا من موظفى المؤسسة . فاجانا سيد سلامة وارتجل مترنما وهو فى حضرة السيدة إلزا موالا يقول فيه :

يافايت على باب المؤسسة ياأبو صباح نادى ،
سلم لى على الست إلزا وقبل لى الايادى ،
دى نجمة فى السما العالية يحرسها الكريم الهادى ،
واذ أكتب ماأكتب الآن يرن فى أذنى صدى غناء سيد سلامة
وتكراره لفقرة "دى نجمة فى السما عالية" كان يقولها من القلب
لأنها دخلت فى كل قلب . ولعل هذا ان يكون دليلا على بعض آثار
غرس السيدة إلزا ومن كانوا يحتذون بأفكارها التربوية الايجابية
ويعتقون القيم الانسانية التى كانت تحاول أن تغرسها فى نفوس
الجميع . وليغفر لى القارئ ماسطرته من قبل عندما ذكرت أننا ،
السيدة إلزا ومن كانوا يحتذون بأفكارها التربوية الايجابية التى
تجعل التغيير الى الأفضل لها هدفا ، كنا نعيش فى سراب ومع ذلك
فإن النتيجة كانت ماخطر ببالنا فى ذلك الحين لأول وهلة قبل أن
تعلمنا الحياة ان البقاء حتما للأصلح وانه لايصح الا الصحيح ،
وانه "ماعلى التبر من عار فى النار حين يقلب .. "

واستقبلنى على محطة "كوم امبو" الاخ حسين عرقى الذى كان
يمارس مهنة الخدمة الاجتماعية فى محيط فلاحى وعمال وموظفى
شركة كوم امبو . لم يتخرج حسين عرقى فى مدرسة أوفى معهد أو
كلية للخدمة الاجتماعية ، ولكنه ذهب فى بعثة الى الهند تدرب فى

أثنائها على العمل فى محيط الفلاحين فى بعض ولايات الهند . ومن ثم فإنك تجده يتقن الانجليزية وبعض الفرنسية ولكن خبراته عن مهنة الخدمة الاجتماعية لم تكن خبرات منتظمة . ولعل أهم مؤهلات هذا الرجل كان ولاؤه للمسئولين عن الشركة وعلى رأسهم المفتش "مزارحى" . ولأول مرة عرفت ان شركة كوم امبو شركة يديرها يهود متمصرون وان السيدة برتا فهمى عميدة مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة هى يهودية أمريكية . واذا كنت قد تعاملت مع المصريين المسيحيين فى مصلحة الحدود معاملة مباشرة فهأنذا أبدأ المعاملة المباشرة مع اليهود المتمصرين فى مدينة كوم امبو . تجربة جديدة واجهتها فى ذلك الحين . وكان قلبى مفتوحا وكان عقلى أيضا مفتوحا . وكانت اسلحتى أن أجعل التسامح رائدى وان تكون معاملتى مع الجميع معاملة حسنى . وكان حسين عرقى الشاب غير المتزوج فى ذلك الحين (آخر شهر نوفمبر عام ١٩٣٩ بعد قيام الحرب العالمية الثانية) شخصا ملء السمع والبصر . فهو مصرى غير متزوج ورشيق وتجربى فى عروقه الدماء التركية ومن ثم كان وسيما . تراه فى مقر عمله وكان النادى الرياضى الاجتماعى لموظفى الشركة محط أنظار النساء من زوجات العاملين بالشركة وفتياتهن . وكن من اليهوديات المتمصرات يعرفن العربية ولكنهن يتحدثن باللغة الفرنسية أو باللغة الانجليزية . وبقي حسين عرقى ملء السمع والبصر وسط هذا الجمع من النسوة صغيرات السن وكبيرات السن . وكن بسبب حالة الطقس لايلبسن الا ماخف من الثياب . ولابد ان منظرى وأنا أراهن أو أرى الواحدة منهن كان منظرًا مضحكا . فقد كنت إذ أفتح عينى أفتح فاهى فى نفس الوقت . وكنت فى بعض الحالات أغمض عينى خشية الفتنة . واذا خلوت الى نفسى ، وقد اصبحت أعزبا ، أتساءل عما كان يرا بى . وكان يريحنى إن انتهى الى أن الله جل وعلا يمتحننى . وأن نجاحى أو فشلى يتوقف على ماأملك من إرادة إنسانية . ومهما يكن

من الامر فانا قد جئنا لاعمل فى معسكر الاطفال لا لاعمل فى
النادى الرياضى الاجتماعى لموظفى شركة كوم امبو . اى ائنى
سأكون بعيدا عن الفتنة . وعلى كل حال فائنى فى ضوء قدراتى
المالية لايمكن أن أكون محط الانظار . ففتنة بنات اليهود ونساء
اليهود غالية الثمن . وكان الجميع يعلم مقدار ماأحصل عليه من
المرتب الشهري الذى كان لايكفى رهان يحصل عليه من يغلب فى
"ماتش" لعبة التنس السائدة هناك . وكان من يغلب فى هذه
المتشات عادة الاناث ، وكان المغلوب دائما من المصريين
المسلمين من أصحاب الدخل العالية وكانوا فى العادة من
المهندسين الذين بلغوا سن المعاش أو كادوا . وبدا لى أن ما
تدفعه الشركة من اجور أو مرتبات تحصل عليه بطريقة أو بأخرى .
فهى تملك مدينة كوم امبو وقراها تملك البيوت والحوانيت والشوارع
وتملك الفندق الوحيد الذى يوجد فيها ، وهى اى الشركة تدفع
أجورااضافية للمأمور ولمفتشى التعليم ولامام المسجد ومن كان
فى حكمهم من موظفى الحكومة السنية . وكنت ترى مزراحى اذا
سار فى الشارع ، ويندر مايحدث هذا ، يسير وحوله الحراس
العمالقة وهم يحملون بنادقهم خشية أن يرديه أحدهم قتيلا كما
حدث لغيره من مفتشى الشركة من قبل . كانت الشركة حكومة
داخل حكومة . وكانت حكومة الشركة هى الأقوى فالارض أرضها
والفلاحون لايملكون الا أجورهم التى لاياخذون منها آخر الشهر
بعد أن يدفعوا ديونهم التى لاتنقطع الا القليل القليل . ويكفى أن
يعلم القارئ عن "قصر الباشا" شيئا . ائنى لم أدخل هذا القصر
لائنى لم أستطع ذلك فهو أرض محرمة ، لايدخلها الا اسماعيل
صدقى اذا كان خارج الوزارة . واذا شرف دولته تهافتت عليه
النساء اليهوديات المتمصرات زوجات المسئولين عن الشركة وعلى
رأسهن زوجة مزراحى ، ان الهدف الاول اذا ماحضر "الباشا" أن
يكون "مبسوطا" وأنا لأغالى فيما أذكر فان مالم أذكر كان أعظم .
كان همى الأول أن أذهب الى المعسكر . وكان حسين عرفتى

يؤخر زهابى يوما بعد يوم . لعله كان يريد أن يعلم الآخرين أو يعلمنا جميعا أنني أعمل تحت سلطانه . أو لعله كما كان يقول لى "ياراجل انت مستعجل على أية هي الدنيا طارت" إنه فعلا كان يصدق هذا القول . ومهما كان الامر فالكتاب قد استوعبت عنوانه . ولكن ذلك لم يفت فى عضدى أبدا فقد نذرت نفسى للاطفال لأعمل معهم وأكون قدوة صالحة بينهم . ولن يضيرنى شئ آخر . ان المبادئ التى اعتنقها ثابتة لا تتغير ، وهى حتى الآن لم تتغير . وكل ماأراه أو أسمعه إن هو الا تجربة جديدة . وقد يرجع كل ما هو جديد من تجارب منذ أن عملت فى ميدان الخدمة الاجتماعية حتى ذلك الحين . اننا نحن الطالبات والطلبة ، وأنا ، كنا نسمع فى المحاضرات فى معظم الاحيان مايجب أن يكون لا ما هو كائن . والفرق فى ضوء تجاربى بين ما هو كائن أى ماأراه فى واقع المجتمع وبين مايجب أن يكون أى ماكنت أسمعه فى المحاضرة وأدونه فى مذكراتى وامتحن فيه فرق شاسع . ولعل ذلك فى ضوء المناهج التعليمية فى ذلك الحين وحتى الآن ، كما يبدو هو مايسود . ولعل تغيير هذه المناهج التعليمية أن يحدث سريعا حتى يمكن القضاء على ظاهرة الازدواجية التى نواجهها فى أمور عديدة فى محيط الثقافة السائدة فى المجتمع المصرى .

وذهبت الى معسكر كوم امبو بعد اسبوع من مجيئ الى كوم امبو . وكنت فى أثناء هذا الاسبوع فى الفندق أعيش وأتناول وجبات الطعام ، ولم أكن أمكث فى الفندق كل الوقت بالطبع ، ولكنى فى خلال ساعات النهار وبعض ساعات المساء كنت مع حسين عرفى أمكث معه فى النادى الرياضى الاجتماعى حيث يعمل . وكنت أصحبه أحيانا حيث يعمل موظفو الشركة وكان الحديث يدور بينه وبينهم لا باللغة العربية بل باللغة الانجليزية أحيانا أو باللغة الفرنسية أحيانا أخرى . وتأكد لى إتقانه للغة الانجليزية وضعفه فى اللغة الفرنسية . كان شابا ولعله كان يكبرنى ببضع سنوات . ومهما يكن فلم يكن قد تعدى الثلاثين من عمره . إننى فى سن

السادسة والعشرين من عمرى فى ذلك الحين . وكان حسين عرفت على الرغم من قصر قامته يجتذب الانظار . وكنت أعيش بالفندق وهو الفندق الوحيد كما ذكرت الذى يوجد فى كوم امبو وكان ملكا للشركة . كنت أعيش وأدفع المبلغ الذى تحدده الشركة سواء كان هذا أجرا للمبيت أو كان ثمنا للوجبات التى أتناولها . وكنت لأدفع دانقا . فالحساب يدفع آخر الشهر فيخصم ماعلى من مرتبى الذى أتقاضاه . وكان من المميزات التى تخصص لموظفى الشركة وكنت واحداً منهم أن كانت لى عربة يجرها حصان ولها "عربجى" خاص أركبها فى المواعيد التى أحددناها ولا يمكن أن يركبها غيرى دون أن أذن له . أى أن العربة والحصان والعربجى جميعا كانوا تحت تصرفى فى المكان الذى أشاء وفى الوقت الذى أشاء . ميزة جديدة علىّ وهى أن رفعت من معنوياتى فانها لم تزدنى شرفا أو رفعة أو منعة .

وركبت عربتى فى الموعد المحدد أى الموعد الذى حددته أنا ، وكان عندما خرجت من الفندق بعد تناول طعام الافطار . ولم أكن أعرف أين كان المعسكر فلم أدرك الزمن الذى تستغرقه العربة لى تصل اليه إلا بعد أن وصلت اليه . وقد علم موظفو المعسكر سلفا بحضورى فاستعدوا لذلك . ولاحظت قبل أن أنزل درجات العربة أن ثلة من رجال الشرطة واقفون امامهم شرطى برتبة الاومباشى يقودهم وينادى بأعلى صوته تحية لمقدمى . ولبى رجال الشرطة النداء ووقفوا كحرس شرف احتراماً واجلالاً . وفى سرعة مذهلة خطر ببالى أن أفعل أمراً . تقدمت الى الاومباشى وسلمت عليه بيدي ثم الى رجال الشرطة المصطفين أسلم على كل واحد منهم بترتيب وقوفهم من اليمين الى الشمال . ولم يتوقع أحد أن أفعل ذلك ولكننى فعلته لى أقضى على هذه التمثيلية قضاء مبرماً . وقد حدث ذلك فعلاً فلم يقف رجال الشرطة ولارئيسهم لى عند حضورى الى المعسكر أو عند خروجى من المعسكر لتحتيتى بعد اليوم . لقد قبلت العربة والحصان والعربجى للضرورة فالمسافة من الفندق

الى المعسكر مسافة طويلة فلا داعى لان أقطعها مرتجلا . أما
حرس الشرف فأنا منه براء لان وجود رجال الشرطة لحراسة أبناء
المعسكر كفكرة كانت فى ضوء ثقافتى الاكاديمية المنتظمة
مرفوضة رفضا نهائيا . إن معظم أبناء المعسكر كانوا من مدينة
القاهرة . وأين مدينة القاهرة من مدينة كوم امبو والمسافة يقطعها
قطار الاكسبريس فى ذلك الحين فى أربع عشرة ساعة . والحراسة
فى شخص رجال الشرطة تعنى القهر . والقهر لايمكن أن ينشئ
التنشئة السوية . وأنا فى المعسكر قد جنّت لى أربى وأسهم فى
هذه التنشئة السوية . ان علاقتى برجال الشرطة فى معسكر كوم
امبو فى ضوء خبراتى بالمؤسسة كانت منذ اللحظة الاولى علاقة
عداء . ولكن لم أجاهر بهذا العداء فقد جنّت لى أؤدى عملا
انسانيا ينتظره الجميع لى يحكموا له أو عليه . ولم يكن هدفى
الصراع بينى وبين غيرى ومنهم رجال الشرطة . ان الصراع كان
آخر ماكنت افكر فيه وبخاصة عندما أبلغنى حسين عرفتى بأن
المدير السابق كان ضابطا وأحيل الى الاستيداع وهو من أهل
مدينة كوم امبو . أى أن له من أعضاء مجتمعها أقارب ومعارف
يشاهدون ماأفعل عن كثب أحيانا أو عن بعد أحيانا أخرى . لم أبال
لذلك كثيرا وان كنت قد وضعته فى حساب تفكيرى . ذلك لان
المدير السابق لم يكن له اقارب ومعارف فحسب بل كان من بين
أولاد المعسكر من يكون له الولاء . وهذا أمر واقع . ذلك لاننى وأنا
المدير الجديد لم أفعل لأولاد المعسكر حتى الآن شيئا طيبا أو
شيئا سيئا . وأنا فى نظرهم مازلت غريبا وشخصا تحت الاختبار .
وكنت أعرف ذلك كله بل كنت أتوقعه كذلك . وكان عدد الاولاد
لايزيد على ١٢٠ ولدا ، وكان يوجد بالطبع طباط ومساعد للطباخ
فضلا عن أحد السعاة كلهم من اهالى كوم امبو وكان يوجد ايضا
”معلم“ الموسيقى الذى لم يحضر عندما ذهبت لاول مرة الى
المعسكر وعندما سألته بعد ذلك ذكر انه لاعمل له وذلك لان
المعسكر لا توجد به آلات موسيقية ، وقد طلب هذه الآلات منذ ان

حضر أى منذ أكثر من ستة شهور ولم تلبى الشركة طلبه حتى الآن . وقد أكدت عليه ضرورة حضوره الى المعسكر سواء كانت آلات الموسيقى موجودة فى المعسكر أو غير موجودة . وذلك لان كل اهتمامنا ، هو وأنا ، أن نعمل فى محيط الاولاد كل فيما يخصه ويختص فهو يستطيع أن يعمل مع الاولاد فى أوقات فراغهم بإقامة حفلات سمر يغنى فيها من يستطيع منهم الغناء فرديا أو يغنى الاولاد جميعا غناء جماعيا . وما أكثر الاغاني فى مجتمعنا المصرية الفردية منها والجماعية . ومن الغريب أن "ابراهيم افندى" وهذا اسم معلم الموسيقى لم يرضخ لاوامرى . لقد كان اكبر منى سنا ربما كان فى سن الاربعين فضلا عن أنه كان دائما يقول ويكرر أنه ليس موظفا فى الشركة بل هو موظف فى محافظة القاهرة . وكان يرى بقوله هذا انه يمتاز عن موظفى الشركة ولم يكن مايقوله فى حقيقة الامر أمرا واقعا . فاصحاب الامتياز كما ذكرت من قبل كانوا موظفى الشركة لالحكومة . وبمرور الوقت رضخ ابراهيم افندى ذو السن الاربعين لامرى انا الشاب ذو السن السادسة والعشرين .

وعندما دخلت المعسكر رأيت أولاده . وكان منظرهم عجيبا . كانوا حفاة الاقدام وملابسهم "مهلهلة" ، اقصد ملابس اغليبتهم . وكان من بينهم من كانوا أطول منى قامه وربما من كانوا أكبر سنا . ونظرت اليهم بحب واحترام ، وكانت نظراتهم الى "نظرات فاحصة" تحاول أن ترى عوامل حضورى واستبدال بالمدبر السابق . كان عدد الكبار من الاولاد عشرين ولدا ، فقد أسرعت بعدهم عند أول وهلة . عددت من كان أطول منى قامه بالطبع . والباقي وكان عددهم مائة ولد فقد كان فيهم الصغار حتى سن الثانية تقريبا وغيرهم كانوا أكبر من ذلك سنا . كان العشرون الكبار موضوع تفكيرى . هل يبقون لكى أفعل معهم شيئا مفيدا أو اطلب عودتهم الى القاهرة فقد فات الاوان لمحاولة الاسهام فى اعادة تنشئتهم التنشئة الاجتماعية الصحيحة . كنت فى حيرة . وتركت هذا الموضوع الى حين . وكانت فجيعتى كبيرة عندما سألت واحدا

من الاولاد عن اسمه فذكر ان اسمه "محمد عبد الله خمسة" وسألت آخر فذكر ان اسمه "محمد عبد الله واحد" وهكذا وجدت ان هناك عددا من اسماء "محمد عبدالله" اتخذوا أرقاما . كان عددهم خمسة عشر ولدا . منهم الكبير ومنهم الصغير . وخمنت وكان تخميني صحيحا ان هؤلاء من "الاطفال غير الشرعيين" وكنا نحن المهتمين بالخدمة الاجتماعية فى مصر فى ذلك الحين ، منذ اللحظة الاولى ، ندعو الى تغيير شهادات ميلاد هؤلاء الاطفال وجعلها مثل شهادات ميلاد الاطفال العاديين يذكر فيها اسم الام كما يذكر فيها اسم الاب ، وان تكون اسمائهم فى هذه الشهادات من الاسماء المتداولة ، اى اننا كنا ندعو الى أنه لاداعى لان يكون امام المولود "محمد عبد الله" دائما وان يكتب امام اسم الام واسم الاب أن الطفل "لقيط" وبخاصة اذا كانت المولودة أنثى وحتى اذا كان المولود ذكرا فانه لا يستحق ان يكون موضوع ازدراء عند دخول المدرسة أو عند الطلب فى الجيش أو عند استخراج رخصة للعمل ، والانثى الطفلة غير الشرعية كانت تعاني من شهادة ميلادها عندما تتزوج عناء غير انساني ، ومثلها مثل الولد عندما كان يقدر لها ان تدخل المدرسة او عندما كان يقدر لها ان تعمل . ولم يكن حب الاستطلاع يملأ نفوس أولاد المعسكر وحدهم ، بل كان يملأ أيضا نفوس موظفى المعسكر فضلا عن رجال الشرطة الحراس . لم ابه كثيرا ولا قليلا لذلك . وكان همى الاول والاخير أن أعرف موقعى ومن أين أبدا . بدأت التجول فى المعسكر ، دخلت أول مادخلت "دورة المياه" وكانت قدرة ورائحتها لاتطاق ! ثم ذهبت الى المطبخ وراح الطباخ يمارس حركاته التقليدية ويربني ماكان يطبخ ورائحة بخار الاكل الذى نضج وحتى الذى لم ينضج بدأت تملأ المكان فاشمها ويسيل لعابى وأنا مضطرب ولكن سرعان ماكنت أتمالك زمام نفسى . ورأيت الذباب يحوم ولقت نظر "الاسطى" فاشتكى بأن الحر فى حجرة المطبخ لايطاق وأنه يضطر الى فتح الشبابيك والباب فيدخل الذباب . وسرعان مادونت

فى مذكرتى ان يستبدل بخشب الشبابيك السلك الذى يمنع الذباب ويجدد الهواء فى نفس الوقت . ونفذ هذا المشروع بعد يومين . فالشركة صاحبة المعسكر لديها من النجارين والأدوات المتعلقة بالبناء وغيرها مايزيد على الحاجة . اما تنظيف دورة المياه فقد دخل فى النظام الذى وضعته حيث يقوم الاولاد بعمليات التنظيف والخدمة فى المطبخ والخدمة فى المطعم دوريا . وعندما ذهبت الى حجرات النوم (العنابر) وجدت عجبا . كان الاولاد الصغار ينامون على بلاط العنبر . أما سرايرهم ، وكل ولد كان مخصصا له سرير ، فقد استولى عليها اكبر الاعضاء سنا أو أقواهم أو أكثرهم عزوة . ووضعها سريرا فوق سرير حتى وصل الى سقف العنبر حيث ينام على السرير الأخير ، السرير الأعلى . ووجدت أحدهم يربط "فتلة" من الدوابة فى السرير الاخير ويتركها تنزل على الارض حيث يشعل الطرف الملقى على الارض ليستعمله فى اشعال "سيجارة" أو اشعال "عقب سيجار" كلما اشتهى ذلك . ويبقى الطرف مشتعلا طالما كانت للدوابة المدلاة بقية . ورأيت أن تغيير هذا الوضع فى التو والساعة ضروريا وبمساعدة الاولاد صار لكل ولد فى عنابر المعسكر سرير . أى ان أغلبية الاولاد ارتفعت قاماتهم عن الارض والاقلية المتحكمة نزلت قاماتهم من فوق . وتساوى الجميع . كان التذمر باديا على أعضاء الاقلية المتحكمة ولم أبال . لانهم كانوا يعلمون فى قرارة نفوسهم أنهم كانوا مخطئين . ووقعت الصاعقة على رؤوس اولاد المعسكر وموظفيه عندما أعلنت أمام الجميع أنني سأتناول طعام الغذاء مع الاولاد . وحاول البعض أن يثنينى عن ذلك فانا أتناول طعاما أضع ثمنه من مرتبى فى فندق الشركة الذى أسكن فيه وأتناول طعامى كل صباح وبعد الظهر وكل مساء فى مواعيد محددة ، ولكنى أصررت على الاكل مع الاولاد ، وأكدت على الطباخ ان أكلى يكون نفس الاكل بكميات تتفق وسنى . ولما جاء العربجى لأركب معه راجعا الى الفندق أبلغته ان يأتى بعد ساعتين . وعندما حان موعد تناول طعام الغذاء ، ذهبت الى

المطعم . ورأيت الاولاد جالسين على الموائد . وكان على رأس كل مائدة واحد أو أكثر من أعضاء الاقلية المتحكمة لم يدعى احد الى الجلوس . فجلست بين الاولاد الصغار على احدى الموائد . وكانت عيناى ترى كل من فى القاعة ترى الاكل الذى يغرف فى الصحون كما ترى من يأكلون . ولاول مرة منذ شهوذاق الاولاد الصغار طعم اللحم وطعم الفاكهة وأنا بينهم . كان يستحوذ على قطع اللحوم والفاكهة أيا كان نوعها الاولاد الكبار . ولم يكن ليجرؤ واحد من الصغار على الاحتجاج . لأنه لم يكن هناك رقيب ولاتنظيم وكانت الفوضى شائعة . وكان موظفو المؤسسة يناقون الاولاد الكبار ويخشون بأسهم ، ويقاسمونهم الغنائم والوان العيث . فقد كانت العربات تسير من أمام المعسكر محملة بأعواد القصب من نوع "الخد الجميل" ذوات الطول الفارع والتي تحتوى على قصب السكر الذى تكون حلاوته مثل حلاوة السكر أو أحلى منها ويبدأ الاولاد فى نزع الاعواد من العربات عودا عودا حتى يقنعوا بما اغتصبوا . ثم يمسون من الاعواد مايصون ويعصرون مايعصرون فى أوان يأخذونها من أوانى المطبخ . وكان ييسر العصير السكين وأيديهم الفتية . وكلما امتلات أنية صبوا محتوياتها من العصير فى زجاجة فارغة من زجاجات المياة الغازية . ثم توضع لقمة من الخبز فى كل زجاجة مملوءة بالعصير وتدفن فى مكان أمين معروف لدى أصحابها من الاولاد وموظفى المؤسسة وعلى رأسهم "رجال الشرطة الحراس" ليوم أو يومين فيصبح العصير بعد مرور هذا الوقت خمرا يعاقره الجميع خلصة غير عابئين بخلق قويم أو سلوك شريف . وقد تكون الضحايا صغار الاولاد بالمؤسسة أو بعض الامهات الزائرات أو بعض النساء المعروفات من أهل كوم امبو . والملاحظ ان مدينة كوم امبو فى ذلك الحين لم يكن لها أهلا . كان مجتمعا مؤلفا من العديد من الناس الذين يسعون للقامة العيش أو الذين كانوا يحاولون الاختفاء من غريم أو من اقتصاص العدالة . كان أهل كوم امبو كلهم غرباء يكونون مجتمعا مصطنعا . وكانت

تحكم الجميع شركة كوم امبو التى بلغت سطوتها فى الكثير من الاحيان نفى أى شخص بالقوة ليعود "بالبوط" boat الى حيث جاء فالاراضى أراضيه والببوت ببوتها والحوانيت حوانيتها والمياه مياهها وتيار الكهرباء تيارها وكل شىء كما ذكرت كان ملكا للشركة حتى إرادة مأمور الشرطة وشيخ المسجد ومدير التعليم وأى موظف حكومى يعمل فى قطاعها أو يجىء لكى يزور الادارات الحكومية التى تشرف عليها بقصد التفيتش عليها . وكما علم موظفو المعسكر خبر مجيئ الى المعسكر لأول مرة فان الشركة تعلم سلفا اى موظف حكومى ذى مقام رفيع أو غير رفيع قبل أن يحضر الى كوم امبو . فاذا كان الموظفون الحكوميون من ذوى المقامات الرفيعة فالفندق كفيل بتكريمهم امتثالا للمثل الشعبى المصرى القائل "اطعم الفم تستحي العين" . فالمشروبات توزع عليهم بكل أنواعها ، ووجبات الطعام الشهى تنتظرهم فى أية لحظة يشاؤون ، والترفيه اذا رغبوا فيه فى متناول شهواتهم . ويعيشون فى هذه الاحلام الواقعية ومعهم موظفو الشركة ونسأؤهم وفتياتهم حتى ينصرفوا والكل راض . الشركة راضية وأصحاب المقامات الرفيعة راضون .

ولن انسى ابدا ماحدث عندما قيل لى ذات يوم بعد تناول العشاء فى الفندق ان "مدير اسوان" سيحضر غدا الى كوم امبو . وطلب حسين عرفت منى الحضور وكان معنا أحد الموظفين المرموقين . فذهبنا الى المدرسة اللبئية وكانت مغلقة منذ شهور وفتحت وجاء المبيضون والمبطلون والنجارون واصلحوا ماافسده غلقها . ثم ذهبنا الى المعسكر وكان الاولاد فى حاجة الى ملابس وأحذية ، ففتحت الحوانيت المختصة وتسلمت مايكفى وزيادة من "البديل الجاهزة" على اختلاف مقاساتها ومثلها من الاحذية . وذهبنا الى المعسكر . وكانت ليلة بيضاء على اولاد المؤسسة استحم فيها كل واحد منهم الصغار قبل الكبار . ثم لبس الجميع ملابسهم واحذيتهم التى وضعوها تحت اسرتهم للبسها عند تشريف "المدير" عندما

يحضر فى الصباح . وانتهينا من عملياتنا الاخرى "نادى العمال"
و"نادى الموظفين" عندما كادت ان تقترب الساعة من الثالثة
صباحا . واذا كنت قد قلت من قبل "فالكتاب قد استوعب عنوانه"
فاننى اقول الآن اننى قد قرأت الكتاب ووجدت ان مضمونه قبيح
قبيح يعكس النفاق ويظلم الحقيقة ويتغاضى عن كل ماهو جميل
وعندما جاء مدير اسوان الى المعسكر وجد الاولاد فى ملابسهم
وأحذيتهم الجديدة وكانت وجوههم لامعة ويقفون مصطفين يقودهم
اومباشى المعسكر (فقد كان تحت امرة عبید هذا المدير) .
وقدمنى مزراحى الى المدير . وقال كلاما لم أتبين معناه لانه كان
كلاما كاذبا فلم انبث ببنت شفة . لم اجب عن أسئلة مزراحى ولا عن
اسئلة المدير . واصبحت امامهما اصم ابكم . ومع ذلك فلم أنم
ليلتى . كان بوى أن أقول بأعلا صوتى إننى أسمع نفاقا واعيش
فى نفاق ويراد بى أن اكون منافقا . ولكن ماذا كان يجدى كل ذلك .
وقد دارت الكؤوس على السيد المدير وصحبه وتناول الجميع
المشهيات ثم الوجبات التى تتضمن مالد وماطاب أسفت لنفسى
أسفا شديدا . وتأكد لى مايقال بأن الساكت عن الحق هو شيطان
أخرس . فهل أصبحت شيطانا أخرس ؟ ومع ذلك فحسين عرفى
كان فى قمة السعادة لان كل شيء مر على مايرام ، وبخاصة بأن
زيارة مدير اسوان جاءت بعد أن تأهل واصبح متزوجا من احدى
قربياته . ولم يتقدم بهذه المناسبة أحد للتهنئة بعد أن أحضرها الى
كوم امبو سواى . انفضت من حوله الزرافات من النساء العاملات
أو زوجات العاملين فى الشركة . كما انفضت فتياتهن الفارعات
الجميلات اللاتى كن لايلبسن وهن حوله الا الخفيف من الثياب
وصار حسين عرفى وزوجته لايزاران . وكان يشكولى هذه القطيعة
مر الشكوى لكنه كان عند اولى الامر فى الشركة مازال شخصا
نافعا فولأوه لهم مازال هو هو ، وهو مازال عندهم موضع الثقة . اى
ان مصلحتهم فى وجوده معهم ومصلحته أيضا فى أن يوافق من
أجلهم . ولعنة الله على مهنة الخدمة الاجتماعية ومبادئها . فالحياة
أقوى من الموت . والحياة حركة مثلها مثل النفاق فهو أيضا حركة .

ولابأس أبدا من أن يكون كما يقول المثل العامي الشائع شابا
”حركا“ بكسر الحاء !!

ولكن قلبي كان يدمى لما كنت أرى من أنماط السلوك البشرى ،
وبمرور الوقت ازداد جلدى وأمنت بضرورة التغيير . كان هذا
التغيير أملا ولكنه فى ضوء تجلد قلبي لابد وأن يتحقق وبخاصة
وقد لاحظت ان اختيار منطقة كوم امبو لتستثمرها الشركة كان
تجربة زراعية صناعية لكى تقتدى فى مكان ما . وكنت اسمع اسم
هذا المكان أو صداه أحيانا عندما يذكر امامى عن غير ان قطاوى
بك قد سافر الى فلسطين ، وقد سبقه الى هناك بيومين المفتش
مزراحى .

وبدأت خطة عمل جديدة لى . كنت أذهب الى المعسكر فى
الصباح ولأعود منه الا فى المساء . وكنت أبيت ليلتين وربما أكثر
مع الاولاد . كان ينصب لى سريرا فى حجرة مكتبى لأنام عليه بعد
أن أطمئن على نوم الاولاد جميعا كل فى عنبره وكل على سريريه .
ورسمت خطة عمل جديدة أخرى للمعسكر . منذ الصباح المبكر
حتى موعد ذهابهم الى الفراش . لم يكن اولاد المعسكر يذهبون
الى الحقول . فقد تأكد للشركة أن وجودهم فى المعسكر بلا عمل
أريح للشركة من أن يذهبوا الى العمل فى الحقول . حيث يكون
تدميرهم أفدح والخسارة اكبر . ومن ثم فقد كانت الخطة الجديدة
الخاصة بالمعسكر تتضمن نشاطات تستوعب طاقات الاولاد . منها
النشاطات الرياضية ومنها النشاطات الترفيهية ومنها النشاطات
الثقافية . ولم يكن يعاوننى أحد سوى ابراهيم افندى قنديل الذى
بدأ عمله كمعلم موسيقى عندما تفضلت الشركة وأحضرت الآلات
الموسيقية المطلوبة . وكان ابراهيم افندى خريج احد ملاجئ
”مدينة المحلة“ ويتقن عمله فهو يكتب النوتة ويعلم الاولاد الذين
اخترأهم للفرقة الموسيقية العزف على أساس قراءة النوتة . وبدأنا
نستمع الى موسيقى ”محمد عبد الوهاب“ مثل قطعة ”حبى“
و”فى المعادى“ وغيرهما وبدأ اولاد المعسكر وقبلهم موظفو

المعسكر يحترمون مواعيد البرامج الموضوعة . كنت دائما فى المعسكر وكنت أبيت فيه . وكانت الرقابة مستمرة وبدا لى أن الجميع قد استراح وأراح ، وإن الشكاوى قد قل عددها . وتقلص طموحى الذى كان فأصبح همى الاول هو أن أكون للجميع مثالا طيبا يحتذى فاذا صليت لأدعو احد لكى يصلى ومن أراد أن يصلى معى فانه يلقى الترحيب منى . واذا حضرت الى المعسكر فأننى أحضر فى موعدى ، واذا لم أكن موجودا فى موعد الغداء فلا أتناول وجبة الغداء . ان من حقى ان افعل ذلك اذا كنت موجودا فى المعسكر سواء كانت الوجبة الافطار أو وجبة الغداء أو وجبة العشاء . وكنت اذا دعوت الاولاد الى الاجتماع فانهم يلبون . وكنت ألقى عليهم بعض مايجب أن يفعلوه وكنت أحذرهم مما كان يجب أن يتجنبوه . واذا أردت أن أجعل من الاجتماع فصلا دراسيا عن موضوعات تتناول بعض قيم المجتمع مثل الولاء والتعاون والصبر وغيرها فعلت ذلك . ومن حق من لايرغب فى حضور هذا الاجتماع ان لا يحضر . وكان عدد كبير من الاولاد يتركون الاجتماع إذا تناول موضوعات كهذه . وبدلا من اجتماعات المواعظ بدأت أقيم اجتماعات ”الحكاوى“ أى أننى كنت أستبدل بالموضوعات التى كان يراها بعض الاعضاء موضوعات جادة قصصا . فكان حضور الاولاد كاملا . وكنت إذ أسرد عليهم حكاية من تأليفى أو حكاية اقتبسها من احد الافلام أرى عيونهم العطشانة تشع بالبريق السعيد الذى كان يسعدنى . كنت تراهم وكأن على رؤوسهم الطير ولا تسمع أنفاسهم . وكنت استعمل كل هذه الوسائل لكى يتقربوا الى ولكى أكون فى قلوبهم وعقولهم . فلعل بعض ما أقول أو أفعل أن يرسخ فى أذهانهم وينتج عملا طيبا . كانوا جماعة من الادميين يعيشون فى القهر ويخافون المجهول ، وكان هذا قدرى الى حد كبير . ولكنى كنت فى ضوء ايمانى بالله جل وعلا فى ضوء خبراتى اكثر نضوجا . كانوا فى ضوء ظروف حياتهم فى مسيس الحاجة الى الحب يتبادلونه مع بعضهم ومع غيرهم ، وكان هذا قدرى فى

ذلك الحين الى حد كبير . كان الحب يملأ على كيانى ولكن رغبتى العارمة كانت فى تبادل هذا الشعور النبيل مع غيرى . ولم أجد أمامى الا أولاد المعسكر وقد بادلتى الاولاد أو معظمهم مشاعرى . فقد أمنت بأنه فى محيط العمل مع الجماعات لابد من وجود " حزب الاقلية " أى لابد من وجود عدد قليل أو كثير الى حد ما يلعب دور المعارضة . وقد وجد هذا العدد بين الاولاد فى شخص الاولاد الكبار العشرين الذين كان من بينهم من هم أطول قامة منى وربما من كانوا أكبر سنا .

وبرز خطر هذه الجماعة عندما وقعت الواقعة . وأقصد بذلك ما حدث عندما حلت ليلة مييتى بالمعسكر وعزمت على أن يستحم الاولاد ، وبعد أن تم ذلك على اكمل وجه تحت إشرافى المباشر ، حضر مندوبون عن المستشفى المحلى لكى يطعموا الاولاد ضد مرض " التيفود " وفعل المندوبون ذلك . طعموا الاولاد كما طعموا الموظفين ورجال الشرطة، وذهبوا الى حال سبيلهم . وعندما اقترح احدهم أن تملأ الصهاريج بالمياه حتى تكون فى الصباح جاهزة لاستعمال مياهها فى الاعمال المختلفة فى المعسكر ، وافقت فى الحال . وتم ملء الصهاريج وكانوا ثلاثة . وعندما بدأ الاولاد وبخاصة صغارهم يتثاءبون بعد ان تناولوا وجبة العشاء ألغيت الاجتماع العام . فالاولاد قد استحموا وقد تناولوا عشاءهم وقبل ذلك طعمهم المسئولون ضد مرض التيفود . وذهب الاولاد الى عنابرهم كل فى عنبره وكل على سريره . وسرعان ما علت أصوات " شخيرهم " . نام الصغار من الاولاد وبدأ لى أن الكبار منهم أيضا ناموا . ذهبت الى حجرة مكتبى حيث نصبت سريرى لكى أنام أنا أيضا . ومالبثت لحظات أو دقائق أو أكثر من ذلك الا واسمع " غفير المؤسسة " « عم حمدان » يصيح قائلاً " يابيه يابيه ... حريجة فى المخزن .. يابيه .. يابيه .. " وقمت من سريرى مهولاً وعندما رأيت النار ذهبت الى التليفون لكى أطلب المظافى ظانا أننى فى مدينة القاهرة فقد كان النوم مازال فى عينى لايحاول أن يتركنى . وعندما

أيقنت باننى فى كوم امبو ولسـت فى القاهرة تركـت التليفون لكى
أذهب لاساعد فى إطفاء الحريق الذى زاد لمعانا ووهجا . استيقظ
بعض رجال الشرطة وبعض الاولاد الصغار ومعنا خفير المؤسسة
وقضينا على الحريق فى وقت قصير . كانت المياه فى الصهاريج
ولله الحمد والمـنة . وكانت سواعد الرجال حاضرة . أما المخزن فقد
كان مخزن " الكراكيب " حيث وضعت فيه المخدات السليمة
(المحشوة بالقش) وبعض المخدات غير السليمة ، والمراتب
السليمة (المحشوة بالقش أيضا) وبعض المراتب غير السليمة
وغيرها من بقايا الكراسى و " الزكايب " الفارغة . كراكيب ليس الا
ولكن الخطر كان يكمن فى سلوك الكهرباء . فالمعسكر لم يكن فيه
مياه جارية فى الوقت الذى كان فيه تيار كهربائى . وذلك لأن موقعه
كان فى قلب الحقول حيث توجد اعمدة الكهرباء . وكانت المياه مياه
الرى ترفع بالطملمبات . - وانتهت الواقعة او الموقعة بانتصار
الانسان ، وذهبنا لكى ننام بعد يوم طويل طويل .

ولاأذكر اننى نمت فى تلك الليلة . لقد تأكد لى باحجام الاولاد
الكبار عن المساعدة فى إطفاء الحريق أو تقاعسهم انهم هم أو
بعضهم قد ارتكبوا هذا السلوك الاجرامى . فماذا أفعل معهم ؟ إن
عددهم عشرون ولدا فليذهبوا الى القاهرة بعيدا عن باقى الاولاد .
ولم تكن عودتهم الى القاهرة عقابا لهم أبدا فهذا هو أملهم الذى
يسعون اليه بل الذى يسعى اليه كل أولاد المعسكر الصغار منهم
والكبار . ولكن أن يـمكثوا فى المعسكر بعد ماحدث فانها الفكرة غير
الصائبة . ولم أنم الا بعد أن قررت أن أطلب عودتهم الى القاهرة .
وليذهبوا حيث يذهبون وليكن مايكون . وفى الوقت نفسه انتهيت
الى ان ماحدث فى المعسكر هو ماحدث ولن ابلغ عنه رسميا .
ولتعلم الشركة ماتعلم فانا مستعد للإجابة عن أى استفسار إذا لزم
الاستفسار . وكان الفجر قد هل بنوره المعنوى والمادى وقمت
توضأت وصليت ودعوت ودعوت وكانت من دعواتى التى لازلت
أدعوا بها حتى الآن .. أى حتى كتابة هذه السطور "يابركة دعاء
الوالدين"

وكان قد مرت أربعة شهور منذ حضوري الى كوم امبو . وإذ كنت أنا أضيق بما أرى وأسمع بل وربما أتوقع فان الشركة كانت تضيق أضعاف ماكنت أضيق به . إن وجود الاولاد فى المعسكر يعنى استثمار غير مجدى . هذا ماتراه الشركة . ومن ثم فان هذا الوجود كما ذكرت كان خسارة ليست بالضرورة خسارة فادحة ولكنها خسارة . ومفهوم الخسارة عند الشركات الاستغلالية مثل شركة كوم امبو مفهوم مقلق لايمكن أن يسر الخاطر خاطر المفتش مزراحى ورعساته وحتى رؤوسيه . وكنت ارسل السيدة إلزا وتراسلنى منذ حضوري الى كوم امبو ، وكان فى سطور ماتكتبه الى أنه سيحدث تغيير ما فى "فكرة" معسكرات الاطفال ، فقد ثبت لدى الجميع فشلها وعدم جدواها . وتأكد ذلك فيما يتعلق بمعسكر كوم امبو أن الدكتور عبد الواحد الوكيل والدكتور عبد المنعم رياض والدكتور احمد حسين قد أتوا الى كوم امبو ليروا الاعمال الاجتماعية التى تقدمها شركة كوم امبو أو التى يقدمها حسين عرفى الى الريفيين ، وزاروا ضمن مازاروا معسكر كوم امبو ، ونجح المفتش مزراحى فى اقناع الزائرين بأن وظيفة المعسكر كما كانت مكتوبة على الورق لم تتحقق فى الواقع . وأن خيرا للاولاد أن يعودوا الى القاهرة حيث يعيش من يعيش فى مؤسسات ابداع (تربوية) أو أن يذهب من يذهب ليعيش مع ذويه . ورأى الجميع أن العمل الريفى يحتاج الى أشخاص نشئوا فى الريف ولقنوه وهم لايزالون فى نعومة أظافرهم . إنه عمل شاق يحتاج الى ان يمارسه العاملون رويدا رويدا ولايمكن أن يقوم به أشخاص يعرفون دور السينما والمسارح والاضواء التى يشع نورها مطلا على شوارع فسحة تجرى فيها عربات الترام . ونفذ طلبى الخاص بعودة الاولاد الكبار فرحين مستبشرين على عكس من بقى من الاولاد الذين كانوا يتلهفون الى العودة من حيث أتوا وليكن المصير مايكون . ولكنى لعبت دورا فى التهدة أقصد تهدة نفوسهم ، ولما

لم أكن أعلم ماذا سيكون مصير الاولاد العائدين فكنت ارجح للاولاد الصغار أن هذا المصير سيكون بالضرورة قائماً . ومن العجيب ، وهذه ظاهرة اجتماعية ، إنه سرعان ماظهر قادة جدد بعد أن ذهب القدامى . لم ادر كيف ظهروا . لقد كانوا هناك بين الاولاد فى المعسكر لم يدر أحد أين كانوا ولكنهم ظهروا ورضى بهم الاولاد ولم أر بأساً بالموافقة على قيادتهم . كانوا موجودين وغير موجودين فى آن واحد . وماأن اتاحت لهم الفرصة باختفاء من عادوا الى القاهرة حتى صاروا وجودهم واضحاً . ودهشت مما حدث . فقد كانت أمامى تجربة انسانية تتشكل وتتلور . كنت أقول لنفسى ، ومازلت افعل ذلك ، كيف حدث هذا ، إنه ظاهرة تشبه ما يحدث صناعياً عندما يموت الملك فيقول ” مات الملك عاش الملك ” ولكن موضوع الملك هذا موضوع يسير على نظام اصططنعه بعض أصحاب المصلحة سواء كانوا من المستعمرين الاجانب أو المستعمرين أبناء الوطن من الداخل من مراكز القوى . أما ماحدث فى معسكر كوم امبو فقد حدث دون ماسابق ترتيب أو تنظيم . فلم يكن هناك نظام اصططنعه أحد الا أن دينامية الجماعة كظاهرة اجتماعية اقتضت حدوثه . وعقب سفر الاولاد الكبار بقليل علمت ان الدكتور احمد حسين قد عرض على حسين عرفت وظيفة ” مرموقة ” فى إدارة الفلاح التابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية والتي كان قد أنشأها التعاونى المعروف ”دكتور ابراهيم رشاد” الذى كان يعلم علم اليقين ان التعاون بأنواعه لابد ان يأتى من تحت أى من رغبة الجماهير بعدغرس الحاجة الى هذه الرغبة فى نفوسهم . ولكن ابراهيم رشاد تغاضى مضطراً (كما يبدو) عن هذا المبدأ وجعل التعاون من فوق اى الحكومة التى تحاول أن تفرضه على الجماهير فرضاً عن طريق الاقتناع أحياناً أو عن طريق تحقيق المظهرية التى نباهى بها نحن المصريين أحياناً أخرى . وقبل حسين عرفت المنصب الجديد فهو لايمك مؤهلات علمية مرموقة وان كان يملك بعض الخبرات . وكان حسين عرفت وزوجته فى قمة السعادة فقد

ان الاوان ليعيشا فى القاهرة عيشة اكثر هناة ولعل المستقبل ان يهيىء الفرص الاعظم كما هيأ القدر الفرصة الحالية . واذا كان حسين عرفى قد قبل المنصب الجديد بحبور فان أولى الامر بشركة كوم امبو قد قبلوا تعيين موظفهم وموضع ثقتهم بحبور أعظم . فالآن لخدمة اجتماعية للفلاحين فى مزارع الشركة أو فى محيط عمالها ، ومعسكر الاطفال فى سبيله الى الالغاء ومن ثم فالمأمول ان يستبدل بالاولاد بضائع الشركة وأدواتها ، ويصبح المعسكر مخزنا . وهذا أجدى وأنفع للشركة مافى ذلك من شك . وترك حسين عرفى شركة كوم امبو الى ادارة الفلاح ومنها الى " الشركة الشرقية للدخان " وبمرور الزمن وفى غفلته أيضا رأيناه يصبح رئيسا لمجلس ادارة الشركة الشرقية للدخان يرفل كما يفعل كل من على شاكلته عادة فى جنباتها وكركشه يسبقه أمامه حينما يسير وعندما يجلس على كرسيه .

عندما تأكدت عندى الأخبار السابقة تذكرت توا الدور الذى كان يؤديه يهود فلسطين الذين كانوا يلبسون ملابس الضباط الانجليز أو الصف ضباط الانجليز ويقودون العمال المصريين (عمال السلطة) فى أثناء الحرب العالمية الاولى . تذكرت المعاملة القاسية غير الانسانية التى كانوا يعاملون بها هؤلاء العمال . والتى كان من مظاهرها أن يحكم على العامل المصرى اذا ما أخطأ خطأ يسيرا بالجلد مائة جلدة وينفذ الحكم علنا امام الجميع . وتداعت الافكار وتذكرت ان كوم امبو منطقة يهودية وأن كل من يخطئ من الاهالى المصريين يكون الحكم عليه بالنفى بالقوة ليعود " بالبط " الى حيث جاء . وكانت الاحكام التى تصدر من الاومياشى اليهودى أو الضابط اليهودى على عمال السلطة فى أثناء الحرب العالمية الاولى او الاحكام التى تصدر من موظفى شركة كوم امبو لامعقب عليها ولانقض لها ولا ابرام . وماتذكرته وغيره خفف من حيرتى التى كنت أواجهها من حين الى حين وأنا فى كوم امبو . كنت أجد امامى

المتاجرة بمبادئ الخدمة الاجتماعية فى سبيل تحقيق المصالح الذاتية ، وكنت أجد النفاق باسم الدين أحيانا وبأسم الاخلاق أحيانا أخرى ، وكنت أجد اهدار الكرامة الانسانية التى يدفع ثمنه مئات الالوف من المطحونين باسم الاصلاح الزراعى واعطاء فرصة العمالة لهم . وكنت أجد ألوان القهر ومحاولة تبريرها فى المسجد وفى المدرسة وفى النادى الرياضى الاجتماعى . واخيرا هأنذا أواجه "بيع الجمل بما حمل" فلا خدمة اجتماعية بعد اليوم ، ويوافق أولوا الامر على ذلك . ويفرح من يفرح ولايرى مئات الالوف والملايين من البشر الا الضباب الفكرى .

وفى خلال شهر مايو عام ١٩٤٠ أى بعد مرور ستة شهور من وجودى فى كوم أمبو تأكد خبر العودة الى القاهرة . ونظرت الى الامام . وكنت أعلم أننى سأواجه المجهول ولكنى كنت أعلم أيضا أن امامى "امتحان دبلوم الخدمة الاجتماعية" الذى سيعقد فى مدينة القاهرة فى غضون شهر يونيه عام ١٩٤٠ ، وكنت اتحرق شوقا لمواجهة هذا الامتحان وأن أنجح فيه بتفوق ويكون تفوقى مرموقا . وعشت أيامى الباقية فى كوم أمبو من أجل هذا الهدف . وكان من حقى عند العودة الى القاهرة فى قطار العودة أن أكون فى أحد كراسى الدرجة الثانية ولكن أولى الامر قد أصروا على أن يكون أولاد المعسكر العائدين تحت الحراسة ، وأن تفرد لهم إحدى عربات القطار . فأصررت بدورى على أن أكون معهم . ورافقتى ابراهيم افندى قنديل وكانت زوجته وأبناؤه قد سافروا الى مدينة المحلة محل إقامتهم قبل ذلك بأيام . فجلست أنا وهو مع الاولاد وابتنا مع الاولاد فى القطار . وكنت أشعر اننى أبيت فى دورة مياه قدرة . فأبخرة عرق الاولاد وغيرها كانت تملأ المكان . والاولاد إذ تراهم نائمين ترى البسمات تملأ وجوههم . هم يتوقعون ملاقة القاهرة بما فيها من مغريات وأحلام ، وابراهيم افندى يتوقع العودة الى وظيفته فهو موظف فى المحافظة التى تشرف على المشروع . أما أنا فقد كنت أتوقع أن أجد مكانى فى الشارع لاحول لى

ولاقوة . ولكن إيماني بالله لم يتزعزع وثقتي في دعاء أمي لم تشوبها شائبة . وكنت أقول في سرى " إذا كان الله معنا فمن علينا " ؟ كنت شابا وكان الامل في الحياة الشريفة يملأ على كياني . وكنت أرى الدنيا على الرغم مما لقيت وشاهدت وواجهت فيها الخير اذ كان فيها الشر . والخير أبقي . وفي محطة القاهرة كان ينتظر الاولاد "لوريات" تحملهم الى حيث يذهبون ، وعرفت انهم ذاهبون الى المؤسسة ، وصحبهم ابراهيم افندى قنديل . أما أنا فقد أخذت طريقى الى البيت فى شارع البقلى قسم الخليفة . ولم يكن أحد من أهلى يعلم بموعد مجيئى . فلم أشأ أن أزعج احدا . ودخلت البيت . وكان أطفال الاسرة يمرحون ويرتعون وكانت آمال ابنتى وكانت فى سن الثالثة والنصف من عمرها بينهم فما أن رأتنى مدت اليّ ذراعيها الغضين لكى أحملها . وحملتها بين ذراعى الشابين فأحسست بأننى أحمل الدنيا وما فيها من نفائس ، وسمعتنى اغغم " اللهم بحبك آمالى بلغنى آمالى " وكانت مفاجأة سارة لى أن أرى الجميع أمى وزوجتى واحمد وسمير وأهل الأسرة على مايرام . إننى الآن بلا عمل وان كان معى من النقود مايكفينى ويكفى أسرتى الصغيرة شهرين أو ثلاثة شهور . ولكنى أعلنت بأننى تركت كوم امبو لأننى أنفذ نقلى الى القاهرة . كذبة بيضاء لم تضر أحدا فى التو والساعة وان صارت لها آثار أرغمتنى بعد ذلك على ترك بيت العائلة بعد فترة قصيرة . وبدأت فى التو والساعة فى الاستذكار لامتحان الدبلوم ، وكنت قد زرت عميدة المدرسة والسيدة إلزا وكانتا تعلمان ماحدث . وقد عرضت على العميدة نقودا وشكرت لها فأنا فى ذلك الحين لم أكن فى حاجة الى نقود . وفى أثناء حديثى مع السيدة العميدة حاولت أن توحى اليّ بأن كل شىء بعد الانتهاء من الامتحان سيكون على مايرام .

واود هنا أن أذكر اننى كنت قد كتبت فى مذكراتى فى خلال شهر يونيو عام ١٩٤٠ مايلى :

"..... واذا كنت قد تركت المؤسسة فإننى لم أترك ميدان

العمل فى محيط الاولاد المحرومين . لقد عينت للعمل مديرا ل "معسكر الاطفال بكوم امبو" من شهر نوفمبر عام ١٩٣٩ حتى شهر يونيو عام ١٩٤٠ حين وانتنتى الظروف لاعدود الى المؤسسة مرة اخرى تحت القيادة العلمية لاستاذى المغفور له الاستاذ يعقوب فام فى ضوء وظيفة جديدة للمؤسسة ومنهج للعمل جديد وقواعد للعمل جديدة" ..

والاستاذ يعقوب فام ، كما يجب أن يعلم القارىء ، عاش حياته من أجل أن يربى النشء . فقد كانت التربية هدفه الاول . ر . لم يكن عالة عليها بل قبل أن تبدأ تأهل من أجل تحقيق الر . الكبير . فدرس فى مدارس مصرنا الغالية ومعاهدها ، وأكد ، دراسته العالية فى "جامعة بيل" بالولايات المتحدة الامريكية . وتدرّب التدريب الكافى فى محيط الصبيان والشبان فى مصر وفى خارج مصر . وعندما وجد انه أهل للقيام بالمهمة الجليلة كرس حياته ليصنع جيلا من المصريين ، أبناءه الآن رجال يصنعون الرجال . كان رحمه الله يعمل لهم وبهم وهم أمامه فى الجد وفى اللعب الجاد مصريون قبل كل شىء ، على الرغم من انهم يمثلون عقائد الديانات السماوية التى تتعاقب على أرض مصر . وفى ضوء المبادئ التى استلهمها مارس مهمته النبيلة . وكلها مبادئ تحترم الانسان وتقدر كرامة الانسان وتعمل من أجل الانسان . كان لا يعيش فى فراغ . فقد كان ابن طينة مصرنا الخالدة . عاش فيها ، فى أرض الواقع الحى ، ومن أجلها . كنت تراه وعن يمينه طالب الجامعة ويسير معه جنبا الى جنب أحد العمال الكادحين . لا يفرق بين هذا وذاك . فهما وامثالهما معهما أبناء لمصرنا الخالدة .

ومنذ أن كان شابا وحتى مات فى أواخر الخمسينات من هذا القرن . وهو يعمل من أجل مصر دون ما دعاية طويلة عريضة . تجده فى الصباح وحتى المساء يعمل مع الصبيان والشبان فى "مؤسسة الزفاف الملكى" وفى نادى "كوبرى الليمون" وفى

"قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية" وعندما مات مات فى صمت . لم ينل اهتماما من أحد سوى تلاميذه ومريديه الذين مازال يعيش فى شخصياتهم وهم بدورهم ينقلون الاهتمام به وبمبادئه الى غيرهم . وغيرهم سيفعلون ذلك حتما الى ابد الابد .

كان يقول لنا عندما أشرف على المؤسسة فى شهر يونيو عام ١٩٤٠ : ان هذا البلد (يقصد مصرنا الغالية) لا يحتاج الى أناس سيكون وينوحون على فساد الحياة عندنا ، فالبكاء والنواح لا يعودان على أحد بفائدة . وكان يقول لنا أيضا : إننا جزء من هذه الحياة الفاسدة ، وإنها فاسدة لأننا نحن لا نعمل على اصلاحها بما فى وسعنا من جهد ، وان الحياة تصلح فى مجموعها اذا صلحت جزئياتها . وان الفرد مهما صغر شأنه يجب أن يعمل ما فى وسعه ، وأنه يستطيع أن يفعل الشئ الكثير ، إن النظرة السطحية العامة الى الحياة لا تفيد ولا تجدى ، وإن مايفيد ومايجدى فى الواقع هو النظر الى التفاصيل والعمل على تقويم هذه التفاصيل ، وان هذه امورا لا تستلزم حكومة أو سلطانا أو مالا ، وانما تستلزم جهودا متواضعة يقوم بها الافراد ، ثم ألسنا نحن افرادا ؟ أليس من العار علينا أن نقعد منتظرين مجيئ الاصلاح على أيد غير أيدينا ويعمل أناس غيرنا ؟ ثم ماذا يستطيعه الغير ونعجز عنه نحن ؟ ماذا يستطيع الفرد العادى المثقف أن يفعل ؟ ثم ماذا يمنعنا أن نفعل مثلما يفعل ونبذل من الجهد والمال مثلما يبذل ؟

كان الاستاذ يعقوب يقول لنا ذلك واكثر من ذلك . كان يقوله فى المقابلات الفردية وكان يقوله فى المقابلات الجماعية . وكنا نناقشه فى كل مايقول . وكان يسمح بصدر رحب لكى نناقش كل مايقول . كنا نتفق معه احيانا . وكنا نختلف معه أحيانا أخرى . وفى ضوء خبرته الطويلة العميقة تيسر له أن يحول هذه الأقوال والأحاديث الفردية والجماعية الى أنماط من السلوك لقد اكتشف رحمه الله الاساليب التى يسرت هذا التحول فى شخصيات المئات بل الآلاف

من شباب مصرنا الخالدة . وكانت هذه الاساليب نابغة من قيم مجتمعنا ومبادئه ومثله العليا . فقد ألى على نفسه منذ عودته من بعثته فى أوائل الثلاثينات ، أن يدرس هذه الاساليب وينقب ويتتبعها مادام يعمل فى الميدان . وكان من أجل تحقيق ذلك يعقد المؤتمرات الدورية والشهرية والاسبوعية . ومازال يفعل ذلك على مدى الايام حتى أعجزه المرض فى أواخر حياته . ومات فى صمت ، ولكن قلوب تلاميذه ومريديه ومن جاءوا بعدهم تخفق بذكره العطرة التى لن تموت . فهى تعيش فى كيان الاولين وتعيش أيضا فى كيان الآخرين وسوف تعيش حتما فى كيان من سيجيئون .

وإننى أدين للاستاذ يعقوب فام بالكثير الكثير . كانت محاضراته فى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة لا تجد عائقا فتدخل فى كيانى وتشغل دماغى . وتجعلنى أعيش معها وبها فترة من الزمان فاذا بى تغيرت وأصبحت نظراتى نحو الحياة غيرها قبل أن أنصت الى ماكان يقول . كان ثريا بأفكاره لبقا فى ردوده بليغا فى حديثه وجادا فى كل أحواله . وعندما أشرف على المؤسسة كانت الفترة التى قربت منه وقرب منى فترة لا تزيد على الثلاث سنوات والنصف . لقد فعل بشخصيتى هذا المربى ماجعلنى أحس بأن تنشأتى الاجتماعية قد أعيدت . فلم أصبح انا الذى كان ولكننى أصبحت أنا الذى سأكون . لقد أعاد تكوين شخصيتى كما فعل مع غيرى من الشبان . جعلنى أحب "العلم" وجرضىنى على تحديد المفاهيم التى أحدث بها أو عنها ويسرلى السبيل القويم لمناقشة الآراء وأكد على احترام الرأى الآخر وغرس فى نفسى الحاجة الى حب الولاء والى العمل الجماعى والاعتزاز بالكرامة وتقدير انسانية الانسان . لم يكن الاستاذ يعقوب فام يفعل ذلك واعطا ، بل كان القدوة . وكان ماهرا فى خلق المواقف التى تيسر فى سهولة وفى يسر التحلى بهذه السمات . كان رحمه الله ذا ملاحظة نفاذة . كنت أسير معه فى الشارع الذى بجوار المؤسسة فرأى احد رجال

الشرطة من الذين يحافظون على الامن ، وكان فى يده عود من القصب وهو مستغرق فى امتصاص رحيقه ولفت نظرى الى ذلك . فحفر مارأيت فى ذاكرتى ووعيت الدرس توا . لم يقل شيئا ولم يعظنى بشىء ولم يعظ رجل الشرطة أو غيره من المارة . ولكنه وأنا أحد تلاميذه اكتفى بالإشارة الى رأى وكل لبيب بالإشارة يفهم . لم يكن يكره الوعظ أو الوعاظ ولكنه كان لا يرى جدوى أو نفعاً فى ذلك . كان يصيح بأعلى صوته "نحن مربون" ولسنا "وعاظا" . إن القدوة الصالحة والمناقشة الحرة فى ظل الديمقراطية واحترام الناس الذين يدرّبون وثقة من يدرّبونهم فى أنفسهم : تلك الثقة التى تتولد دعائهما بالعلم - كل ذلك يحقق مانصبوا اليه .

وأصبحت مؤسسة الزفاف الملكى منذ أن أشرف عليها الاستاذ يعقوب فام فى شهر يونيو عام ١٩٤٠ مؤسسة تربوية وليست داراً للملاحظة كما كانت من قبل ، أصبحت مؤسسة تضم حوالى مائة وعشرين ولداً فقط ، كلهم ممن حكمت عليهم محكمة الاحداث بالقاهرة بالإيداع لارتكابهم بعض الجرائم كالتشرد والسرقات والتعدى على الناس ، بقصد إعادة تنشئتهم حتى يصبحوا مواطنين صالحين . وكان أبناء المؤسسة على عكس أبناء نادى كوبرى الليمون وأعضاء قسم الصبيان ، يعيشون فيها حيث يأكلون ويشربون وينامون ويلعبون ويتعلمون فى مدرسة خاصة بهم فى المؤسسة . واصبح باب المؤسسة مفتوحاً يخرج منها الصبى فى أى وقت يشاء إن اراد . لقد كان أول مافعله الاستاذ يعقوب منذ اللحظة الاولى أن سرح رجال الشرطة "الحراس" وطلب إعادتهم الى مواقع عمل أخرى . ثم رأيناه يقوم فى أولاد المؤسسة وكانوا مجتمعين ، خطيباً وتضمنت خطبته ضمن أشياء كثيرة السماح لأى ولد يرغب فى البقاء فى المؤسسة أما من لا يرغب فباب المؤسسة أمامه مفتوح ، ومن حق كل من يخرج اليوم أن يعود بعد ثلاثة أيام ليسجل عضواً بالمؤسسة كما كان . اما بعد هذه الفترة فلن تقبله إدارة المؤسسة اذا جاء . وكنت حاضراً فاذا بالاولاد يطيرون

كالعصافير خارجين من باب المؤسسة ولم يبق منهم الا عدد لا يزيد على عشرين ولدا . اكثر من مائة ولد خرجوا وتركونا . واذا كان قلبى وقلوب من كانوا معنا قد خفقت فقد كان الاستاذ واقفا امامنا يواجه هذا التحدى بصلاية الفولاذ . لم يأبه لخروج الاولاد من المؤسسة على الرغم من أنهم كانوا من المحكوم عليهم بالايذاء . وبدا لنا أن لسان حاله وليس لسان مقاله يؤكد أن من سيعود من الاولاد الذين طاروا كالعصافير سيفوق تصورنا . وقد حدث ذلك فعلا فلم تمر الثلاثة الايام الا وكان قد عاد ثمانون ولدا ، عادوا ليعيشوا فى المؤسسة مع زملائهم العشرين حياة الامن والامان . واصبح من تقاليد المؤسسة منذ ذلك الحين أى منذ اللحظة الاولى ان يكون بابها مفتوحا يخرج منه الصبى فى اى وقت يشاء إن اراد ، ويغادرها اذا لم يرقه المكوث فيها دون أن يمنعه أحد أو يقف فى طريقه احد . وكان ترك المؤسسة مؤقتا للعمل أو للفسحة والزهه خاضع لقواعد موضوعة ولقوانين استنتها الاولاد انفسهم ويحافظون عليها ويعاقبون من يتلاعب بها أو يخالفها .

ومن القوانين التى كانت تنظم عمل أولاد المؤسسة فى المصانع التى تقع خارج أسوارها أذكر قانونا وضع بعد استشارة أبناء المؤسسة وبرأيهم وموافقتهم . وهو أن كل ولد يعمل بالاجر ويزيد أجره على قدر معين من القروش فى الاسبوع يدفع للمؤسسة نصف مايتكسب فى نظير أكله ويستمر على هذا الوضع الى أن يعادل هذا النصف قيمة مايصرف فعلا على اكل العضو ثم لايتعدى مايدفعه هذه القيمة . أما باقى أجره ينقسم الى نصفين أيضا . نصفه يودع باسم الولد فى دفتر توفير حتى اذا خرج من المؤسسة يكون له بعض المال والنصف الباقي يحتفظ به لمصروفه الخاص . وكانت ادارة المؤسسة تحرص على أن لاتتدخل فى شئون العاملين من الاولاد . فكل ولد عامل يقبض أجره من المصنع الذى يعمل فيه بنفسه ، وهو الذى يقدم بيديه نصف أجره لخزينة المؤسسة للاكل والربح للتوفير . كانت ادارة المؤسسة تترك هذا لابنائها عالمة أن

فيه مجالا لتلاعب اى ولد يريد أن يتلاعب ولكنها كانت تعلم أيضا أن هذا التلاعب إذا تم سيكتشف من تلقاء نفسه على الاغلب وعلى كل حال كانت إدارة المؤسسة تحرص على أن لا يتجسس أحد على الولد .. اى ولد .. أو تشعره بعدم الثقة فيه دون داعى الى ذلك . فخير للاخلاق فى المؤسسة أن ينجو واحد يتلاعب بها من أن تفقد ثقة جميع الاولاد بها .

وكان العاملون بالمؤسسة جميعا يعملون فى ضوء قواعد دعا اليها الاستاذ يعقوب فام ، وقد ذكرت بعضها أو الكثير منها من قبل ، ولم يأخذ هذه القواعد من بلد أجنبى أو اقتبسها من كتاب تربوى ، ولكنها كانت حصيلة خبراته الواسعة فى معاملة الصبيان والشبان المصريين سواء كانوا أبناء أسر سوية تحرص عليهم وتهتم بهم أو كانوا من أبناء أسر غير سوية من الذين يعيشون فى الارض فسادا ولا يهتم بهم أحد . كان يرى رحمه الله ان هذه القواعد تصلح لتربية الصبيان والشبان فى كل زمان وفى كل مكان . وذلك لان الطبيعة الانسانية تستجيب بطريقة ثابتة لبعض الدوافع ، والصبيان والشبان يتفقون فى الاساس الذى تنبنى عليه طبائعهم فى جميع بقاع العالم . ومهما كان رأى فيما كان الاستاذ يعقوب فام يدعو اليه ويزاه ، فإننى متأكد انه كان مخلصا فيما وصل اليه من نتائج . لم يكن داعيا وكان لا ينتهى الى رأى الا بعد الفحص الدقيق مستخدما فى ذلك دائما المنهج العلمى الذى كان يدعو اليه ويؤمن بضرورة تطبيقه ويعمل بما يقول . ومن عجيب ما اتفق لى مع الاستاذ يعقوب وهو أننى منذ أن رأيته يتحدث فى المحاضرة احترامته ولا أقول أحبيته . وتأكد هذا الاحترام عندما قابلته لأول مرة فى شأن العمل بالمؤسسة . خرجت من مكتبه وقد زاد احترامى له ولكن حبى له لم يزد قليلا أو كثيرا . كان كما بدا لى فى ذلك الحين جافا ومتحيزا قال لى مثلا ” أنت لا تعرف لعبة كرة السلة ومن ثم كيف تصلح لتكون رائدا ؟ أنت فى حاجة الى أن

تمارس هذه اللعبة وأن تتقنها" وعندما ذكرت له أنني أتقن لعبة "كرة القدم" وأنا كمتخصص يعمل فى محيط الاولاد منذ مايو عام ١٩٣٩ لم يعر لهذه الحقائق أهمية . وعندما أكدت له وكنت قد امتحنت فى "امتحان دبلوم الخدمة الاجتماعية" إننى من الناحية الاكاديمية لدى من الخبرات ماتيسر لى أداء واجبى . اى اننى جمعت بين الخبرات العملية فى القاهرة وفى كوم امبو وبين الخبرات الاكاديمية (النظرية) وانا على وشك الحصول على دبلوم فى الخدمة الاجتماعية - لم يجب عن كل ماقلت شيئاً مقنعا . ثم قال فى صراحة "إننى لا أعرفك وانت لا تعرفنى" وعندما قلت له إننى أعرفه ضحك ساخرا وقال إننى أقصد أننى لم أتعامل معك فى عمل وأنت لم تتعامل معى فى عمل . وانتهى الى رئاسة المؤسسة لابد أن تكون لغيرى وأن يكون عملى مجرد رائد لحدى جماعات المؤسسة . ولم أتردد فى قبول ذلك . فانا فى الشارع لا أزال ولا عمل لى ومن ورائى من ينتظرون الاتفاق عليهم . أمى وزوجتى واحمد وأمال وسمير . وأنا أيضا لأهم لى الا أن أعمل من أجل أطفال مصر المحرومين ، اكون ان استطعت لهم القدوة الحسنة وأعيش خبراتهم (أمالهم وآلامهم) واتعلم منهم وأعلمهم وقد جربت مسئولية الاشراف فى حياتى حتى ذلك الحين مرتين . المرة الاولى فى الوكالة والمرة الثانية فى معسكر كوم امبو . ان حيات حياة السمك ان بعد عن الماء هلك ومادمت مع الاولاد فى جماعه صغيرة أو كبيرة فلن يمس حياتى هلاك ، بل على العكس ستتاح لى الفرصة تلو الفرصة لاتقن ما أعمل وأتعمق لكى أفهم أكثر . وبمرور الوقت زاد حبى للاستاذ يعقوب فام ولم ينقص احترامى له أبدا . وعندما مرض مرضه الأخير ترددت فى الذهاب لكى أراه . ولم أذهب وكانت حجتى اننى لم أشأ تغيير الصورة الذهنية التى تما على كيانى : صورته الذهنية . أحببت ان تبقى معى مادمت حيا وأن تعيش فى ذاكرتى كلما تذكرته . فقد كانت صورة مفكر عملاق صورة وطنى غيور ، صورة رجل احب الانسان وأخلص للانسان

وعاش من أجل الانسان . وكـم ندمت على موقفى هذا ، موقف احجامى عن زيارته وهو مريض المرض الاخير . كنت قد عدت من الولايات المتحدة الامريكية فى غضون شهر مايو عام ١٩٥٦ حاملا تحت إبطى درجة الدكتوراة فى علم الاجتماع . الامر الذى كان سيدخل حتما على قلبه السرور . وفجعت بالخبر عن مرضه وترددت فى هذا الذهاب لزيارته . وكان ندمى من أجل عدم الزيارة وكانت غبطلتى فى الاحتفاظ بصورته الذهنية العملاقة فى ذاكرتى غير مشوبة حتى كتابة هذه السطور .

وفى ذلك الحين كنت وزملائى قد تعاهدنا على مراعاة ماوصل اليه استاذنا يعقوب فام من قواعد نتعامل فى ضوءها مع أولاد المؤسسة ، بدقة مااستطعنا الى ذلك سبيلا . وأنا اذكر الآن بكل فخر من هؤلاء الزملاء المغفور له زكريا عبد العزيز والاستاذ عبد العزيز فتح الباب والاستاذ عبد المنعم ثابت والاستاذ عبده خليل والاستاذ محمد حسنين السوسى . وكان يعاوننا بعض أعضاء قسم الصبيان والشبان الجامعيين . وكان من هؤلاء رشدى سعيد واميل ديمترى وميشيل اسكندر ومحمد عباس ومحمد حسن . كان لنا الشرف أن نوضع موضع المربين مع مافينا من نقائص وعيوب . ومع ذلك فقد حاولنا أن نؤدى واجبنا نحو أبناء المؤسسة . وعشنا فترة من الزمان تحت قيادة الاستاذ يعقوب فام نبذل فى خلالها مافى وسعنا فى سبيل النهوض بالمؤسسة وبسمعتها ونحقق أهدافنا السامية فى شخص أبنائها الاعزاء . وبمرور الوقت أحسنا بالتغيرات فى شخصياتنا . وكانت كلها تغيرات الى الأفضل . أحسنا بان أولاد المؤسسة يكبرون وينضجون ويرتفعون فوق أمواج المشاكل ، كما أحسنا بأننا كذلك نكبر ونتضج ورتفع فوق أمواج المشاكل . واذا كنا قد أعطينا عن طوعية للأولاد العدل والحب والاحترام . فقد أخذنا منهم عن طوعية كذلك الحب والاحترام والولاء .

وعشت فى المؤسسة فى هذا المناخ النفسى السوى ، قبل أن

آعين مشرفا للمؤسسة فى غضون عام ١٩٤١ عندما أشرف على المؤسسة الاستاذ محمد شفيق لاعب كرة السلة المرموق فى فريق جمعية الشبان المسيحية ، وبعد أن عينت مشرفا حتى آخر شهر ديسمبر عام ١٩٤٣ . وكنت كما ذكرت مرارا قد وهبت حياتى كلها فى ذلك الحين من أجل العمل فى المؤسسة حتى أموت . ولكنى فوجئت فى غضون شهر ديسمبر عام ١٩٤٣ بطلب الاستاذ يعقوب فام أن أترك المؤسسة لكى أعمل " مديرا لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الاحداث بالقاهرة " وكانت مفاجأة غير سارة فعلا . وتذكرت أولاد المؤسسة الذين كبروا معى وكبرت معهم . كما تذكرت الذين طلبوا الخروج من المؤسسة ليعيشوا الواقع الحى فى المجتمع بعد أن استردوا الثقة فى أنفسهم واستطاعوا أن يكسبوا عيشهم بشرف وتذكرت اجتماعات الاستاذ يعقوب فام . إنها لم تكن اجتماعات عادية بل كانت حلقات بحث نعب فى خلال المناقشات التى تجرى فيها الخبرات التربوية وغيرها عبا . كان الاستاذ يعقوب فى هذه الاجتماعات أقصد الحلقات استاذنا تعلقوا بهامته فى كل مرة فوق كل الهامات . كان قائدا لايسع الشخص منا الا أن ينصت اليه ، ويقتنع بما يقول من آراء تنبعث عادة من الواقع ومن الخبرة العميقة بالنفوس . ولم يكن ليفرض رأيا على احد . وكان صدره يتسع ويتسع لكل ما يقال .. وقد دأبت فى إحدى فترات حياتى معه على أن اعارضه فى آرائه ولكنه كان يرضينى بحكمته ويقنعنى بصواب رأيه . وكان يفعل مع الجميع ماكنت أفعل وبخاصة من كان حديث العهد به . تذكرت كل ذلك كما تذكرت المناقشات الشريفة التى كانت بين رواد المؤسسة سواء كانت هذه المناقشات فى اللعب أو فى " كشك الموسيقى " حيث تقام حفلات السمر: وكم أحن حتى الآن أى حتى كتابة هذه السطور الى الاستماع الى اغانى اولاد المؤسسة : الشيخ حامد ولولو وعبد الكريم ومرزوق واحمد شحاته وغيرهم . وكم احن وحتى الان أى حتى كتابه هذه السطور الى الاستماع الى الاغانى الجماعية التى كنت أولفها خصيصا لكى يغنيها أولاد المؤسسة غناء جماعيا ومن

هذه :-

يامؤسستنا يامؤسستنا
أنت بيتنا ومدرستنا
اعضاءك كلنا ابطال
مافيناش واحد بطل
جدعان تمام زى الأشبال
يامؤسستنا يامؤسستنا

★★★

وحوى وحوى اياحه
البت الخفة الفلاحة
وخدودها حمر وشفتها
افتحها من غير فتاحة .

★★★

قال شيخهم حذف الاوت
وانا بتفرج على خلقته المقلوبة
والكورة خدها توفيق
ورماها فى الجون
جت طوبة

ياقمر ايه ذنبك
لما الغارات تجى فى ليالك
دنا بدى ادافع عنك
واغيظ ببدالك اعاديك
ياقمر ايه ذنبك

وكم أحن وحتى الآن أى حتى كتابة هذه السطور الى الاستماع
الى الاغانى من صوت الزميل " اميل دمترى " ذى الصوت
الجميل الذى كان يجتذب الأذان ومنها :

الورد مين يشتريه
وللحبيب يهديه

وباليلة العيد أنستينا
وجددت الأمل فينا
باليلة العيد

ومن العجيب أن أغاني المؤسسة الجماعية كان يغنيها أولاد المؤسسة وهم في المؤسسة كما كانوا يغنونها على السجية وهم في خارج المؤسسة . كانت جزءا منهم لم يفرضها عليهم أحد ولكنهم استوعبوها لأنها خرجت من بيئتهم التي يعيشون فيها في أمن وأمان . ومن ثم فهي تنتمي اليهم وهم ينتمون إليها . وإذا كنت قد تركت المؤسسة في أول يناير عام ١٩٤٤ من أجل عملي الجديد فأنني تركتها بناء على طلب استاذي يعقوب قام وهو طلب لم أستطع منه فكاكا . تركتها وترك معها عددا من سنين عمري كانت من أحلى سنين عمري . لقد كانت سنين معطاءة أعطتني الخبرات التي يسرت لي الحياة بعد ذلك . حياتي وأنا في داخل الوطن وحياتي عندما كنت بعيدا عن الوطن أطلب المزيد من العلم والخبرة وبخاصة بعد أن حصلت على دبلوم الخدمة الاجتماعية في شهر يونيو عام ١٩٤٠ (الدفعة الاولى) . كنت ضمن ثلاثين خريجا اول من احترفوا مهنة الخدمة الاجتماعية في الغالبية . وبحصولي على الدبلوم ازداد أملى في تحقيق حلم أبى في استكمال دراساتي العليا في الخارج أسوة بالزعيم الراحل مصطفى كامل . ولعل العمل الجديد الذي أنا على وشك أن أتحمّل مسؤوليته أن يتيح لي فرص التعليم في أحد المعاهد الليلية العليا التي كانت مدينة القاهرة تزخر بها في ذلك الحين . كانت أمنية تداعبني . وكنت أتحرق شوقا لكي تتحقق وذكرت كما كنت أذكر دائما العبارة المفضلة ” يا بركة دعاء الوالدين ” ودعوت ماشاء لي الوقت أن أدعو حتى يصبح حلم أبى حقيقة كنت أدعو في السجود وأنا أصلى ، وكنت أدعو في غير أوقات الصلاة . وكنت أطلب من أمى الدعوات فتجود بها في كل حين وفي كل مكان . ولم أنس أن أدعو دعوتي المفضلة في ذلك الحين ” اللهم بحبك لأمالى بلغنى

أمالى " ومن الغريب أننى فى تلك الفترة من حياتى كنت أجعل من الدعاء وجاء لى عند الملمات وفى غير الملمات . كنت أدعو الدعوات التى تصلح دنياى التى فيها معاشى وكنت أدعو الدعوات التى تنفعنى فى آخرتى التى فيها معادى . وكان الدعاء فى السجود وأنا أقرب الى الله الوقت المفضل . وكنت أدعو أيضا على كل من كان يقف فى سبيل تحقيق آمالى أو كان يحاول أن ينجس على بلا سبب وجيه أو غير وجيه حياتى وفى أثناء إحدى فترات صحبتي للاستاذ يعقوب فام كان الجفاء بينى وبينه قد بلغ أشده ، وكانت هذه الفترة عندما بدأ اتصالى المهنى بسيادته واننى اذكر ان مناسبة هذا الجفاء جاءت عندما دعيت مساء يوم الجمعة ١٣ من شهر ديسمبر عام ١٩٤٠ الى حضور الاحتفال بتسليم الشهادات لخريجى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة : الدفعة الأولى " فابى على الاستاذ يعقوب الذهاب وكان يعلم اننى احد خريجى هذه الدفعة وناقشته فى الاجتماع وكان النقاش حادا وأصر على ابائه وأصررت على ذهابى وتلبية الدعوة . وكانت حجتى اننى مرتبط بعملى ولا يجوز أن أبرحه لاستلام شهادة يمكن أن تصل الى البريد أو أن أقوم باستلامها من ادارة المدرسة فى يوم اجازتى وكان اصراره على هذه الحجة واضحا عندما ذكر ان احد سكرتيرى جمعية الشباب المسيحية ارسلت اليه شهادة الماجستير بالبريد من الولايات المتحدة ولم يحضر هذا السكرتير الحفل الذى اقيم من اجل تسليم الشهادات الكلية التى اكمل دراسته بها فى يوم التخرج وكانت حجتى ان فرصة تلبية الدعوة ربما تكون فرصتى الاخيرة ويوم استلامها بالنسبة لمن يحضرون من اجل ذلك يوم تحفزه ذاكرة كل واحد منهم وان عدم موافقته على ذهابى هو الظلم بعينه فالعمل لن يتوقف اذا لم احضر وان عذرى فى الاعتذار عن العمل من اجل استلام الشهادة عذر وجيه ومقبول وواضح . المهم انه اصرر وانا ايضا تمسكت برأى وانفض الاجتماع وكان قد عقد يوم الخميس مساء دون اتفاق . وخرجت من الاجتماع وقد لامنى بعض

من حضروا لتمسكى واصرارى ولم أبه لواحد منهم وتكملة لهذا الموقف فوجئت بالاستاذ يعقوب فى صباح يوم الجمعة وجها لوجه وكنت فى نادى كوبرى الليمون الذى يقوم بالاشراف عليه أؤدى تدريباً عملياً فرضه على فرضاً لكى يعطى مدير المؤسسة الجديدة التى أعمل بها فرصة ليثبت وجوده وأنا بعيد عنه وفضلاً عن ذلك لكى أفيد عملياً بتطبيق ما وصل اليه الاستاذ يعقوب ومساعدوه من خبرات واقعية فى محيط العمل مع الجماعات وجدته فى صباح يوم الجمعة امامى وأبلغنى انه موافق على ذهابى لتلبية الدعوة الى حضور الاحتفال بتسليم الشهادات لخريجى مدرسة الخدمة الاجتماعية بالقاهرة : الدفعة الاولى ويبدو ان الرجل راجع نفسه ووجدنى محققاً فلم يلبث ان جاء بنفسه ليخبرنى بالموافقة ويبدو ايضا أنه جاء الى النادى ليتأكد من وجودى فقد خشى أن لا أحضر وأن أترك العمل معه الى الابد فلما وجدنى اشفق على نفسه من أن يتأكد اتهامى له بالظلم لم أكن افهم الاستاذ يعقوب فى تلك الفترة . ويبدو لى الآن انه كان رحمه الله يحاول ان يهدم شخصيتى لبنينها من جديد . وكنت أرى ان ما كان يفعله افتتاحاً على حقى فى أن أعيش أنا . ويبدو لى الآن ان هذا التغيير كان يزعجنى . وكان رحمه الله يعلم ذلك حق العلم ، ومن ثم يحاول ان يأخذ فى اعتباره الحالة التى كان عليها وجدانى فى ذلك الحين كان لايرضى عنى لاننى لا ادعوه كما كان يدعونه الآخرون بلقب " أنكل " ، فكان يسألنى لماذا لا افعل ما يفعله الآخرون وادعوه بلقب استاذ بدلا من لقب " أنكل " . وكنت أصارحه بأننى لا أجد مبرراً لان أفعل ذلك فاللقب الاخير كان غريباً على . وكان يرى بحق ان من كان يدعوه بلقب " أنكل " على السليقة ودون افتعال فإنه يكون قد كسب ولأه ومحبته فقد كنت احس ان هذا اللقب كان يسعد الاستاذ يعقوب وكنت مع احترامى لعقله وانبهارى بخبراته التربوية غير زاعغ فى ان يكون فى ذلك الحين سعيداً .

ومرت الايام والشهور والاعوام وعرفت جوهر الرجل كما عرفت
قيمته وقامته الرفيعة ، واستطعت بعد ذلك أن اكفر عن اخطائي
نحوه وان استبدل بالدعاء عليه الدعاء له لكي يبقى لمصرنا الخالدة
ذخرا . وهو وان كان قد فارقنا فانه مازال حيا باقيا رحمه الله .

تمت بحمد الله

كتاب الهلال القادم :

مذكرات السلطان عبد الحميد

اعداد : الدكتور محمد حرب

يصدر ٥ أكتوبر ١٩٨٥

في الأسواق **الكتاب** عدد سبتمبر المجلة الثقافية الاولى في مصر والوطن العربي

٤٩ عاما من عمر الهلال جورجى زيدان والهلال .

مسئولين المثقفين عن مايحدث في مصر .

البطل عبد المنعم عبد الرؤوف بقلم : فتحي رضوان

هل تكشف خفايا الحرب العالمية بعد ٤٠ عاما ؟

كرومر يتجنى على الاسلام	بقلم: محمد سيد كيلاى
هجمة تقودها اسرائيل ضد	بقلم: عبد الرحمن شاكرا
نبي الاسلام	
لماذا يتحول جنرالات اسرائيل	بقلم: عبد الحميد
في القدس الى رجال آثار ؟	الكاتب

د . شكوى عياد

د . مصطفى الرزاز

مصطفى نجيل

محمود عوض عبدالعال

د . محمد رجب البيومي

د . سعيد اسماعيل على

مصطفى درويش

محمد فتحي عبد الفتاح

فؤاد دودة

تناقض الاسماء في حياتنا

الفن انتشكيلى في المغرب

الغرب بعيون شرقية

مياه النار على تماثيل مختار

تولستوى والشيخ محمد عبده

صورة متعددة للمدرس

في روضة الأرض

الفلاح في السينما

بشرى علمية لقصار القامة

انعلم والسياسة في مسرح الحكيم

العمل الاول لكبار الكتاب (قصة عطر في الظلام) سعد مكاوى تقديم

خيرى شلبى .

اعلام معاصرون . عبدالرحمن يونس فاروق خورشيد

دراسة الهلال صندوق النقد الدولي والعالم الثالث د. محمود عبد

الفضيل

مع الابواب الثابتة والشعر والقصة

رئيس التحرير

مصطفى نجيل

رقم الايداع ٤٨٣٦ - ١٩٨٥

الترقيم الدولي ٦٠ - ١٨٦ - ١١٨ - ISBN٩٧٧

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد المال بسيوني زغلول - الكويت -
الصفحة - ص ٠ ب رقم ٢١٨٢٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة - ص - ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S.E. 26 ENGLAND

انجلترا :

Miguel Maccui Cury. R. 25 de Marac. 990
Caixa Postal 7408, Sao Paulo, BRASIL.

البرازيل :

البيع للعدد الممتاز في الخارج فئة ١٠٠ قرش :-

يا ١٠٠٠ ق س ، لبنان ١٠٠٠ ق ل ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٩٠٠
، العراق ١٤٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريال ، السودان ١٥٠ ق سوداني ،
س ٢٠٠٠ ملهم ت ، المغرب ٢٠٠٠ فرنك ، دول الخليج ١٥٠٠ فلس ، غزة
ضفة ١١٠ سنتا ، الصومال ١٥٠ بنى ، امستردام ٧ فلورين ، اليمن الشمالية
بنى ، داكار ١٠٠٠ فرنك ، لاجوس ١٥٠ بنى ، جيبوتي ١٥٠ بنى ، لندن
بنفسا ، اليونان ٢٥٠ دراخمة ، كندا ٦٠٠ سنت ، البرازيل ٥٠٠ سنت ،
بورك ٦٠٠ سنت ، لوس انجلوس ٦٠٠ سنت ، استراليا ٧٠٠ سنت ، عدن
فلس .

هذا الكتاب ليس سيرة ذاتية ، وأخذته دراسة ذمّرج بين
 التجربة الذاتية وبين دقة الملاحظة والبحث العلمي . وهي
 خلاصة تجربة الدكتور سيد عويس ابرز اساتذة علم
 الاجتماع . صاغها في حكاية تسيقة تجمع الجوانب الثقافية
 والاجتماعية والتاريخية للمجتمع المصري بعد أن غاص
 في اعماق التراث والقيم والفنون . . والمجتمع المصري
 كما يقدمه الدكتور عويس مجتمع فريد ليس فقط مجتمعا
 قديما مستمرا . بل إنه أيضا مجتمعا مستقرا .
 ويروى خلال تجربته هموم واحلام جيله . في أسلوب
 سيق يساعد على التعرف الصادق على اتجاهات أعضاء
 المجتمع المصري المعاصر وما وراء هذه الاتجاهات
 نراث ثقافي فديم ومتجدد . وتلمح بين مسطوره الم
 المسرق الذي ينتظر المجتمع إنه التعاؤل القائم
 الاستقرار والبحث العلمي والاجتماعي .

